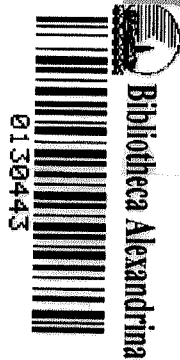


مصر في فجر الإسلام

من الفتح العربي إلى قيام الدولة الطولونية

د. سيدة اسماعيل كاشف



تاريخ المصريين

رئيس التحرير
د. عبد العظيم رمضان

مِصْرٌ فِي عَجْرِ الْأَسْوَاطِ

مِنَ الْقَنْحِ الْعَرَبِيِّ الْقِيَامِ الدَّوْلَةِ الطُّوْلُونِيَّةِ

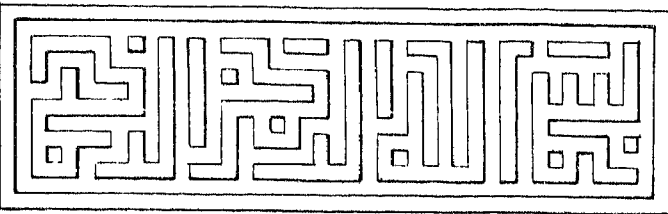
تأليف

سَيِّدَةُ عَمْرٍاءَ كَأَشْفَتْ



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٤



تصدير

إن تاريخ مصر من الفتح العربي إلى قيام الدولة الطولونية (٢٠ - ٨٢٥٤) تاريخ طويل ، يبدو غامضاً في كثير من الأحيان . وقد دعاني إلى الكتابة فيه أن المؤرخين لم يبنوا بدراسته العناية الجديرة به ، على الرغم من أن له في تاريخ مصر أهمية خاصة ، إذ تكونت فيه الأسس التي قامت عليها مصر الإسلامية ، وتحوّلت مصر خلال هذه الفترة إلى دولة إسلامية الدين عربية اللغة بعد أن تخلت عن ماضيها القديم ، وأصبحت منذ ذلك الحين إلى وقتنا الحاضر ذات شأن عظيم جداً في الحضارة الإسلامية .

وقد كان لأستاذي الدكتور حسن إبراهيم حسن رئيس قسم التاريخ في كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول الفضل في توجيهي إلى دراسة التاريخ الإسلامي فله على ذلك وعلى ما أفدته من علمه وافر الشكر .

ولن يفوتني أن أشكر زوجي الدكتور زكي محمد حسن أستاذ الآثار الإسلامية بجامعة فؤاد الأول ، على ما قدّم لي من عون وإرشاد في تأليف هذا الكتاب ثم في الإشراف على طبعه .

سيرة اسماعيل باشف

حمامات القبة بالقاهرة

٦ من شوال سنة ١٣٦٦ هـ

٢٥ من أغسطس سنة ١٩٤٢ م

تقديم

يسرني أن أقدم للقارئ العزيز هذا الكتاب الرائد عن «مصر في فجر الاسلام» الذي كتبه الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف، أستاذة التاريخ الاسلامى والعصور الوسطى بكلية البنات - جامعة عين شمس، وإحدى أعلام التاريخ الإسلامى فى مصر. وقد سبق لهذه السلسلة أن نشرت للأستاذة الدكتورة ثلاثة كتب فى تاريخ مصر الاسلامية، هى مصر فى عصر الولاة، ومصر فى عصر الإخشيديين، ومصر الاسلامية وأهل الذمة.

والكتاب الذى بين يدي القارئ يعالج فى بابه الأول نظم الحكم فى مصر، ويتعرض للنظام المالى، والملكية العقارية، ونظام جباية الضرائب، والنقود الاسلامية. كما يتعرض للنظام الحربى، فيتناول الجيش، والبحرية، وتقاليد المسلمين فى القتال.

أما الباب الثانى فيتناول موقف مصر من الحركات السياسية والدينية التى ظهرت فى الخلافة فيتعرض للنزاع الذى قام حول الخلافة زمن الخلفاء الأمويين، ودعوة ابن الزبير لنفسه بالخلافة وأثرها فى مصر، وأثر النزاع بين الأمين والمأمون فى مصر، ثم موقف مصر من المحنة بخلق القرآن.

ويتناول الكتاب فى الباب الثالث انتشار الاسلام والتعريب فى مصر، ويتعرض للقبائل العربية فى مصر واندماجها بالمصريين. كما يتناول فى الباب الرابع حضارة مصر فى فجر الاسلام، فيتحدث عن الزراعة والصناعة والتجارة، ثم يتعرض للحركة العلمية والدينية.

ويختتم الكتاب بخاتمة استعرضت فيها الأستاذة الدكتورة سيدة كاشف تاريخ وحضارة مصر فى تلك الفترة الهامة استعراضا علميا تحليليا على جانب كبير من الأهمية.

ونظراً لأهمية هذا الكتاب، رأيت إعادة طبعه فى سلسلة «تاريخ المصريين» لإفادة الباحثين والمثقفين والمهتمين بتاريخ مصر الاسلامية. فعسى أن يجد فيه القارئ ما ينشد من متعة وفائدة.

والله الموفق

رئيس التحرير

أ. د. عبد العظيم رمضان

الفهرس

صفحة

- مقرر في الفصح العربي ١
- الباب الأول : نظم الحكم ١٧
- ١ - النظام الإدارى ٢٠
- ٢ - النظام المالى ٣٧
- الجزية والزكاة ٣٧ - الملكية العقارية وضريبة الأرض أو
الحراج ٤١ - ضرائب الصناعة والتجارة ٥٥ - الضرائب
الأخرى ٥٧ - نظام جباية الضرائب ٥٩ - القود الإسلامية
فى مصر ٦٥
- ٣ - النظام الحربى ٧٠
- الجيش ٧٠ - البحرية ٨٧
- ٤ - النظام القضائى ٩٩
- الباب الثانى : موقف مصر من الحركات السياسية والدينية
التي ظهرت فى الخلافة
- ١٠٩
- ١ - الحركات السياسية والدينية زمن الخلفاء الراشدين ... ١٠٩
- أ - موقف مصر من الثورة التي قامت ضد عثمان بن عفان ... ١١٠
- ب - أثر النزاع بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان
فى مصر ١٢٠
- ٢ - النزاع الذى قام حول الخلافة زمن الخلفاء الأمويين ... ١٢٩
- أ - دعوة ابن الزبير لنفسه بالخلافة وأثر ذلك فى مصر ... ١٢٩
- ب - زوال الخلافة الأموية وأثر ذلك فى مصر ... ١٣٥

١٤٨	إلى قيام الدولة الطولونية	١٤٨
١٤٨	١ - موقف الأمويين والعلويين في مصر من الخلافة العباسية	١٥٩
١٧٧	ب - أثر النزاع بين الأمين والمأمون في مصر	١٧٧
١٨٢	ج - مصر والحنة، بثلق القرآن	١٨٢
١٨٢	الباب الثالث : انتشار الاسلام وتعريب مصر	١٨٢
	العرب والقيط. ١٨٢ - الأقطاط والنظام المالي ٢١٥ - القبائل	٢٦٣
	العربية في مصر ٢٥٠	٢٦٣
٢٦٣	الباب الرابع : حضارة مصر في فجر الاسلام	٢٦٣
٢٦٣	١ - الزراعة	٢٧٢
٢٧٢	٢ - الصناعة	٢٩٩
	البناء ٢٧٣ - المنسوجات ٢٧٩ - الورق ٢٩١ -	٣١٤
	الحطب ٢٩٣ - الحرف والزجاج والمعادن ٢٩٥	٣٣٧
٢٩٩	٣ - التجارة	٣٣٧
٣١٤	٤ - الحركة العلمية	٣٣٧
٣٣٧	الخاتمة	٣٣٧
٣٣٧	المراجع	٣٣٧
	جدول بأسماء الخلفاء والولاة وعمال الخراج وأصحاب المسترطة	٣٣٧
	والفضة والبطاركة في عهد الولاة	٣٨٧
٣٨٧	الكشاف	٤٠١
٤٠١	تصويب	٤٠١

مقدمة في الفتح العربي

كانت مصر ولاية رومانية ، ثم بيزنطية منذ انتصار أغسطس قيصر على كليوباترا في موهمة اكتوبر سنة ٣١ ق.م واستيلائه على مصر سنة ٣٠ ق.م وقضائه نهائياً على دولة البطالسة فيها . ولا يهمننا في هذه المرحلة من تاريخها الطويل إلا أنها كانت آخذة في الضعف والانحلال كما أن الإصلاحات التي أدخلت فيها لم تكن لترى إلا إلى غرض واحد : هو تنظيم استقلال البلاد حتى يعم النفع الكثير الأباطورية لا السكان الوطنيين .

ولم يدع الرومان وسيلة إلا ابتكروها لاستغلال موارد البلاد إلى أقصى حد ممكن^(١) . ولم تختلف مصر في هذه الناحية في العهد البيزنطي (٢٨٤ - ٦٤٠ م) عما كانت عليه في العهد الروماني (٣١ ق . م - ٢٨٤ م)^(٢) بل ازدادت الأعباء المالية تمقيداً . ولم يجد أغلب المصريين مخرجاً من هذه الحالة السيئة سوى الفرار إلى المعابد والأديرة وهجر مزارعهم وقراهم ، فانتشرت الفوضى في البلاد وعم الاضطراب جميع المرافق الاقتصادية ولا أدل على ذلك من أن قح مصر الذي كانت روما تعتمد عليه لإطعام أهلها لم يعد يكفي ، وكان لا بد لها من استيراد قح أفريقية مضافاً إلى قح مصر منذ أوائل القرن الثاني وأوائل الثالث الميلادي^(٣) . كذلك كان

Johnson : Roman Egypt. vol. 11. p. 484 (١)

Munier : l'Egypte Byzantine. p. 76 (٢)

Milne : A History of Egypt Under Roman Rule. p. 60 (٣)

الشعب المصري محروما من الاشتراك في حكم بلاده وكان يعامل معاملة المغلوب على أمره .

ونعرف أن الأمبراطور Septimius Severus (١٩٣ — ٢١١ م) . منح الاسكندرية وعواصم المديرية مجالس «اللسناتو» أثناء زيارته لمصر^(١) . ولكن إصلاحه هذا لم يمد على المصريين بالنفع ، فضلا عن أنه لم يكن لهم حق الاشتراك في مثل هذه المجالس ، كان الأمبراطور يرى من وراء هذا إلى تعزيز الوسائل التي تضمن له الحصول على أكثر ما يمكن من الضرائب ؛ وكان عبؤها يقع على كاهل المصريين الوطنيين .

ونعرف أيضاً أن الأمبراطور Caracalla (سنة ٢١١ — ٢١٧ م) بمقتضى دستور انطونيئس Constitutio Antoniniana في سنة ٢١٢ م أكل إصلاحات سفروس بمنحه الحقوق المدنية الرومانية civitas romana التي كانت تكسب أصحابها امتيازات كثيرة مادية وأدبية لجميع رعايا الأمبراطورية ما عدا طبقة dediticii ، وهذه الطبقة في مصر كانت تتمثل في السكان الوطنيين^(٢) .

وفضلاً عن ذلك فإن اللغة الرسمية للحكومة منذ عهد البطالسة حتى الفتح العربي كانت اللغة اليونانية^(٣)

كذلك حرم المصريون من الاشتراك في جيش بلادهم . وقد استسلم المصريون في معظم هذه الفترة ، وثاروا أحياناً أخرى .

وكان من أخطر الثورات تلك التي حدثت في عهد الأمبراطور

Jouguet : l'Egypte Gréco-Romaine. pp. 391—395 (١)

Jouguet : l'Egypte Gréco-Romaine pp. 394—395 (٢)

Munier : l'Egypte Byzantine p. 89 (٣)

ماركوس أوريليوس Marcus Aurelius (١٦١ - ١٨٠ م) وتعرف بحبوب الزراع ، أو الحرب البوكولية نسبة إلى المنطقة التي كانت تعرف باسم Boucolia في شمال الدلتا^(١).

ولكن كان يقضى على هذه الثورات دون هوادة ولم يلبث أن طهر عامل جديد في الأفق حوّل الشعب المصرى من شعب وديع مسالم إلى شعب عنيد مقاوم ، ذلك العامل هو ظهور المسيحية في مصر وانتشارها فيها . فقد كانت مصر في طليعة البلاد التي تسربت إليها المسيحية في القرن الأول الميلادى ، وأخذت في الانتشار تدريجياً في جميع أنحاء مصر منذ القرن الثانى الميلادى ، إلا أن الأباطرة الوثنيين ناصبوا المسيحية العداء^(٢) وكان بدء اضطهاد الحكومة لسيسي مصر اضطهاداً منظماً خلال حكم الأباطرة Septimius Severus (١٩٣ - ٢١١ م)^(٣) وظلت المسيحية في مصر تلقى اضطهاداً كثيراً وتسامحاً قليلاً إلى أن ولى عرش الأباطورية دقلديانوس (٢٨٤ - ٣٠٥ م) فبلغ اضطهاد المسيحيين أقصاه . وقابل المصريون ذلك الاضطهاد من جانبهم بكل ما أوتوا من قوة وعناد . وقد تولدت من تلك المقاومة حركة قومية أخذت في النمو فيما بعد . وليس أدل على ذلك من أن الكنيسة القبطية بدأت تقويمها الذي سمته تقويم الشهداء بالسنة الأولى من حكم دقلديانوس (٢٨٤ م) نتيجة لما ترك هذا الاضطهاد من أثر عظيم في نفوس القبط^(٤)

Jouguet : op. cit. p. 369 (١)

Munier : l'Egypt Byzantine p. 8 (٢)

Munier : op. cit. p. 8, Milne : A History of Egypt (٣)

Under Roman Rule. p. 128

Munier : op. cit. pp. 9-10, Milne: op. cit. p. 218 (٤)

ولم تلبث المسيحية أن أحرزت نصراً ميبناً لاعتراف الأباطور قسطنطين الأول (٣٢٣ - ٣٣٧ م) بها ديناً مسموحاً به ضمن الديانات الأخرى في الدولة الرومانية. ثم أصبحت المسيحية الدين الرسمي الوحيد في جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية وذلك في عهد الأباطور تيودوسيوس الأول (٣٧٩ - ٣٩٥ م) الذي أصدر مرسوماً بذلك في سنة ٣٨٠ م^(١) ولم يلبث أن حرم المبادات الوثنية في مرسومين أصدرهما سنتي ٣٩٢ و٣٩٤ م^(٢) على أن مصر المسيحية لم تنعم بهذا النصر الذي أحرزه الدين المسيحي إذ ثار النزاع والجدل من أيام قسطنطين الأول، بين المسيحيين حول صفات المسيح وطبيعته. وقد تدخل قسطنطين ومن أتى بعده من الأباطرة في هذه المنازعات الدينية البحتة، وعقدوا من أجل ذلك المجمع الدينية. إلا أن أغلب الأباطرة اتخذوا سياسة دينية مناوئة لاعتقادات المسيحيين في مصر فاحتدم النزاع بين الفريقين، وبلغ ذلك النزاع الديني بين كنيسة الإسكندرية والقسطنطينية أقصاه منذ حوالي منتصف القرن الخامس الميلادي حينما اختلفت الكنيسة حول طبيعة المسيح. فذهبت الكنيسة المصرية إلى القول بأن للمسيح طبيعة واحدة Monophysite أما كنيسة القسطنطينية فقالت بأن للمسيح طبيعتين. وقد دعا الأباطور مرقيان Marcian (٤٥٠ - ٤٥٧ م) من أجل ذلك إلى مجمع ديني في خلقدونية بآسيا الصغرى سنة ٤٥١ م^(٣) فأقر ذلك المجمع مذهب الطبيعتين، وقرر أن مذهب الطبيعة الواحدة كفر وخروج على الدين الصحيح، كما قرر حرمان دينسقورس بطرك الإسكندرية من الكنيسة. إلا أن المسألة لم تكن مسألة دينية

(١) Munier : op. cit. pp. 38-39

(٢) Munier : op. cit. p. 37

(٣) Milne : op. cit. p. 221

فحسب ، إذ اتخذ الخلاف الديني في مصر شكلا قومياً^(١) . فلم يقلل
ديسكورس Dioscorus ولا تيسحيو مصر ما أقره مجمع خلقدونية وأطلقوا
على أنفسهم « الأرثوذكسين » (أى أتباع الديانة الصحيحة) ، ولا الرها
بمعرفون بذلك الاسم إلى اليوم ، أما أتباع الكنيسة البيزنطية فقد عرفوا
بعد الفتح العربي باسم الملكانيين (من الكلمة العربية « ملك ») لانباعهم
مذهب الأباطور^(٢) .

ومنذ ذلك العهد تعرف الكنيسة المسيحية في مصر باسم الكنيسة
القبطية الأرثوذكسية ، وتعرف أحياناً بالكنيسة اليمقوبية ، نسبة إلى يعقوب
البرادعي Jacob Baradeus أسقف مدينة الرها المونوفيزيتي في النصف
الثاني من القرن السادس الميلادي - الذي زار مصر ضمن بلاد الشرق التي
زارها لتنظيم الكنائس المونوفيزتية - ولكن يصعب أن نجد اسمه ضمن
الحوليات المصرية لأن الأقباط لم يقبلوا تدخل السوريين في شئونهم الكنسية
مثلاً تدخلت كنيسة القسطنطينية من قبل^(٣) .

ومما يدل على أن المسألة الدينية في مصر تطورت إلى مسألة قومية
أو امتزجت بها ما يذكره ساويرس^(٤) عن رهبان أحد الأديرة بأنهم لم
يحيّدوا عن المذهب الأرثوذكسي ولم يقبلوا الذهب الخلقدوني لأنهم مصريون .
وبعد مجمع خلقدونية وقع المصريون - أبناء الكنيسة الأرثوذكسية
- تحت اضطهاد الأباطرة . وقد كتب أملينو^(٥) Amélineau أن

(١) Munier : op. cit. p. 45, Wiet : Précis de l'hist. (١)

d'Egypte. t. 11 ; p. 116

Munier : op. cit. p. 48 (٢)

Munier : op. cit. p. 61 (٣)

(٤) سير الآباء البطارقة من ٩٨ : (Patr. Orient, t. 1) ;

(٥) Etude sur le Christianisme en Egypte. pp. 1 2 (٥)

حرمان ديسقورس وطرده من الكنيسة في مجمع خلقدونية كان فاجحة لأساة عظيمة مثلت أدوارها في منتصف القرن السابع الميلادي وانتهت بزوال سلطان المسيحية من مصر .

وقد فرح المصريون بثورة هرقل ضد الإمبراطور فوقاس Phocas (٦٠٢ - ٦١٠ م) وساعدوا قائده نيقثاس Nicatas الذي وكل إليه الاستيلاء على مصر لقطع الغلة عن القسطنطينية^(١) .

وفرح الشعب المصري أيضاً عندما تم تتويج هرقل إمبراطوراً في سنة ٦١٠ م ورحبوا بمقدم جنوده^(٢) ، ولعل المصريين كانوا يعتقدون أن حكم هرقل (٦١٠ - ٦٤١ م) سيكون أخف وطأة من حكم من سبقه من الأباطرة وأنه سيكون خاتمة للاضطهادات وسفك الدماء .

وما لبث الفرسان أن غزوا مصر سنة ٦١٦ م في عهد ملكهم كسرى الثاني^(٣) وبقوا سادة البلاد ، إلى أن اضطروا للجلاء عنها عندما حارب هرقل بلاد الفرس نفسها سنة ٦٢٩ م^(٤) .

على أن هرقل بعد أن أنقذ الدولة من الفرس رأى أن ينقذها من الخلاف الديني فأصدر صورة توفيق Mono Thelma تقضى بأن يمنع الناس عن الكلام في طبيعة المسيح وصفته وأن يترفوا جميعاً بأن له إرادة واحدة ولم يفلن هرقل إلى أن مذهبه الذي حاول به التوفيق قد يباه أهل مصر^(٥) كما أنه وقع فبا وقع فيه جستنيان (٥٢٧ - ٥٦٥ م) من إسناد

(١) بتلر : فتح العرب لمصر ص

(٢) Munier : op. cit. p. 65

(٣) بتلر ص ٦٣ .

(٤) Munier : op. cit. p. 68

(٥) بتلر ص ١٥٥

الرئاسة الدينية والسياسية لشخص واحد هو قيرس^(١) الذي يعرف عند مؤرخي العرب باسم المقوقس .

وقد أخذ قيرس المصريين بأحد أمرين إما الدخول في مذهب هرقل الجديد، وإما الاضطهاد . وقبل أن يصل هذا الحاكم الجديد إلى الاسكندرية في سنة ٦٣١ م هرب البطرک القبطي بنيامين توقعاً لما سيحل به وبطائفته من الشدائد من جراء فرض المذهب الجديد^(٢) .

وقد قاسى الأقباط جميع أنواع الشدائد من جراء اضطهاد قيرس ، الذي فاق كل اضطهاد، حتى تحول كثير ممن لم يستطيعوا الهرب إلى المذهب الجديد ومنهم بعض الأساقفة . وصمد كثيرون ضده ومن بينهم الأب مينا أخ البطرک بنيامين رغم التعذيب والاضطهاد الذي ناله من جراء ذلك^(٣) .

ومن ذلك نرى « أن سيف قيرس قطع آخر ما كان يربط المصريين إلى الدولة البيزنطية من أسباب الولاء^(٤) » وتمهد السبيل بذلك لفتح مصر على يد دولة ناشئة قوية ، تلك هي دولة العرب .

فبعد أن أزال العرب تقريباً ملك الأكسرة في فارس عقب انتصارهم في موقعة القادسية (أواخر سنة ١٦ هـ) ، واستيلائهم على عاصمتهم « المدائن » وبعد استيلاء العرب على بلاد الشام وفلسطين كان لا بد من التفكير في غزو مصر .

(١) ساويرس بن المفتح : سير الأبناء البطارقة ص ٢٢٦ . ١ . Patr. Orient .
يقول ساويرس وأنفد (يعنى هرقل واليا إلى أرض مصر يدعى قيرس ليكون بطرکا
ووالبامنا) و Milne : op. cit. p. 115 .
(٢) اطو ساويرس بن المفتح : ص ٢٢٦ .
(٣) ساويرس : ص ٢٢٦ — ٢٢٨ .
(٤) تتر : فتح العرب لمصر ص ١٧٠ .

ففي سنة ١٨ هـ (٦٣٩ م) عندما قدم عمر بن الخطاب إلى الجابية^(١) ، للإشراف على آخر ما وصلت إليه الفتوح في بلاد الشام وفلسطين ، تظهر لأول مرة في المصادر العربية فكرة غزو مصر كأنها فكرة طارئة عنت لمرو بن العاص وحسبها للخليفة عمر بن الخطاب^(٢) . وهذه المراجع تذكر أيضاً أن الفكرة ترجع إلى عمر بن الخطاب نفسه الذي أمر عمرو ابن العاص بالسير إلى مصر^(٣) . ويذكرون أيضاً أن الخليفة عمر بن الخطاب تردد في فتح مصر بدليل أنه قال لمرو إنه مرسل إليه كتاباً إن أدركه قبل دخوله في حدود مصر رجع ثانية وإن كان قد دخل في حدودها استمر في سيره^(٤) ، ويقال أيضاً إن عمرو بن العاص خرج سراً إلى مصر مع جيش صغير بدون استئذان الخليفة عمر بن الخطاب^(٥) .

هذه الروايات وأمثالها ، التي ينسجها مؤرخو العرب ، ربما يقصدون منها أن يضموا هالة من العظمة فوق عظمة الفتوحات ، ولكن لا يعقل أبداً أن فتح مصر كان بهذه السهولة وبهذا الاستخفاف ، ولا يعقل أن يسير عمرو إلى مصر سراً بدون استئذان خليفة كعمر بن الخطاب . نعم لعل

(١) الجابية : قرية من أعمال دمشق . (ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٣) .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها (طبعة المعهد العلمي الفرنسي) ص ٥١ وتاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١٦٨ وخطط المقرئ ج ١ ص ٣٢٨ وأبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٥ .

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٥٢ والبلاذري ص ٢١٢ وابن بطريق ج ٢ ص ١٩ وخطط المقرئ ج ١ ص ٢٨٩ والنجوم الزاهرة لأبي الحسن ج ١ ص ٦ .

(٤) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٥٣ واليعقوبي ص ١٦٨ - ١٦٩ وابن بطريق ج ٢ ص ١٩ والمقرئ ج ١ ص ٢٨٨ وأبو الحسن ج ١ ص ٦

(٥) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢١٢ وكتاب الولاة للسكندی ص ٧ - ٨ والمقرئ ج ١ ص ٢٨٨ - ٢٨٩ .

عمرو بن العاص كان يعمل على الحصول على ميدان جديد يظهر فيه نشاطه ولكن يجب ألا ننسى أن فتح مصر أصبح ضرورة بعد فتح الشام وفلسطين وذلك لتأمين الفتوح الإسلامية بالشام ولتأمين المدينة نفسها مركز الخلافة لأنها قريبة من القلزم^(١)، ولا يبعد أن يرسل الروم حملة من تلك الناحية لتتقم لاحل بامتلاكها في الشام. وغالبا ما خصعت مصر والشام في العصور المختلفة لحكم دولة واحدة لأن كليهما يتم الآخر فلا يمكن اعتبار الحدود بين القطرين حداً منيعاً فاصلاً، كما أن كليهما كان يقع على طريق التجارة العالمية بين الشرق والغرب، فكانت تربطهما مصالح تجارية وحريرية واحدة. وقد كتب الأستاذ ليون كاتاني^(٢) Leone Caetani أن ثورة مصر الطبقية العظيمة حتمت عليها منذ القدم ألا تعيش في عزلة عن بقية العالم ولذا نجد مصير مصر السياسي يرتبط دائماً بمصير الإمبراطوريات والأمم التي تسيطر على البحر الأبيض المتوسط وخاصة على سورية وفلسطين.

والواقع أن العرب لم يجهلوا ثورة مصر حينذاك، خصوصاً وقد جاءها كثير منهم للإتجار في أيام الجاهلية نذكر منهم عمرو بن العاص^(٣) وعثمان ابن عفان^(٤) والمغيرة بن شعبة^(٥)، ولا بد أن كثيراً من الأعراب والتجار العرب كانوا يفتدون إلى الصعيد بطريق البحر الأحمر ووديان الصحراء الشرقية حتى أن المؤرخ والجغرافي سترابون قال عن مدينة Koptos قفط

(١) القلزم بضم القاف وسكون اللام وضم الزاي ومع هو السويس الحالية .

(٢) Anali dell'Islam, vol. IV, p. 65

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر (طبعة تورى) ص ٥٣ والسكندي :

كتاب الولاة ص ٦ - ٧ .

(٤) السيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ٩٢ .

(٥) المرجع نفسه ص ٩٩

في الصنيد أنها مدينة نصف عربية^(١)

وقبل أن نبين باختصار كيف تم فتح العرب لمصر يجدر بنا أن نذكر أن الجيش البيزنطي في مصر لم يزد عن ٣٠٠٠٠ جندي، وكانت تعوزة الوحدة والانسجام كما كانت تنقسمه المنازعات والأحقاد الشخصية. ومع أن الجيش كان تحت رئاسة « سيد جنس الشرق » *Magister militum per Orientem* ومقره في القسطنطينية، لكنه لم يكن له قائد أعلى في مصر بل كان يخضع لمسة قواد كلهم على قدم المساواة. ومما هو جدير بالذكر أن الدولة البيزنطية غيرت سياستها التي اتبعتها في أول الأمر، وهي عدم تجنيد المصريين في الجيش، إذ دلت أوراق البردي على أن معظم الجنود في هذا الجيش قبيل الفتح كانوا من الأقباط وأنهم كانوا يجندون إما بالاقتراع أو بالتطوع أو بالوراثة وكان يسمح لهم بالاشتغال بالزراعة أو التجارة كما كانوا يعملون بالقرب من بلادهم، وكانت مهمة هذا الجيش الرئيسية هي مساعدة الموظفين في أعمالهم والقضاء على قطاع الطرق وإخماد الثورات الدينية والاشتراك في جباية الضرائب^(٢) ولنرى الآن كيف تم فتح العرب لمصر.

سار عمرو بن العاص من قيسارية بفسطين إلى مصر على رأس جيش مكون من أربعة آلاف محارب أو ثلاثة آلاف وخمسة^(٣) في سنة ١٨ هـ

(١) أنظر: *Wiet: Art. Kibt. Enclopaedia of Islam vol. 11. p. 991*

(٢) *Cf. Munier: l'Egypte Byzantine pp. 77 — 78. Wiet: Hist.*

de la Nation Egypt. t. IV, pp. 15—16

(٣) ابن عبد الحكم: فتوح مصر (طبعة المعهد) ص ٥١ والبلاذري: فتوح البلدان ص ٢١٢ وتاريخ يعقوب ج ٢ ص ١٦٨ وخطط القريري ج ١ ص ٢٨٨ وأبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ١ ص ٥ — ٦.

(٦٣٩ م) ، ووصل إلى العريش في أواخر تلك السنة ومنها إلى القرما^(١) فلقى أول مقاومة هناك من الجنود البيزنطية استوقفته شهراً ولكنه تغلب عليها في أوائل سنة ١٩ هـ (٦٤٠ م) ، ثم واصل السير متقلبا على ما يصادفه من مقاومات حتى بلغ أم دين^(٢) حيث نشب قتال شديد بين المسلمين والبيزنطيين الذين تحصنوا في حصن بابلون^(٣) ، ويظهر أن المقاومة البيزنطية في الحصن كانت على أشدها بدليل أن عمرو استنجد بالخليفة عمر ابن الخطاب فأمدّه بأربعة آلاف رجل^(٤) ويقال إنه أمدّه بأثنى عشر ألفا^(٥)

حاصر العرب الحصن بضعة أشهر وأخيراً اختلعت السفراء بين الروم والعرب وقد أضر العرب على ألا يقبل من الروم إلا الدخول في الدين الإسلامي أو دفع الجزية أو القتال . ولكن الروم المحاربين رفضوا تلك الشروط فاستؤنفت الحرب بين الفريقين ، حتى سلم الروم في النهاية صاغرين وقبلوا دفع الجزية^(٦) ويقال إن العرب فتحوا الحصن عنوة دون أن تحدث مفاوضات وذلك بفضل بسالة الزبير بن العوام^(٧) ثم عقد العرب مع المصريين

(١) القرما هي مدينة بلوزيم Pelusium القديمة وكانت على ساحل البحر الأبيض وهي شرقي بورسعيد الحالية .

(٢) في تاريخ حنا النقيوسي ص ٥٥٧ يذكر اسما آخر لها وهو تندونياس Tendounya وهي تقع في شمال حصن بابلون

(٣) هو الحصن الذي بناه الإمبراطور تراجان (٩٨ - ١١٧ م) وكان يسميه العرب قصر الشمع أو الحصن .

(٤) تاريخ حنا النقيوسي ص ٥٥٧ وامن عبد الحكيم : فتوح مصر (طبعة المعهد) ص ٥٦ وخطط المقريري ج ١ ص ٢٨٩ .

(٥) ابن عبد الحكيم ص ٥٤٩ والمقريري ج ١ ص ٢٨٩ والبلادري : فتوح البلدان ص ٢١٣ .

(٦) خطط المقريري ج ١ ص ٢٩٠ - ٢٩٢ .

(٧) البلادري ص ٢١٣ - ٢١٥ والمقريري ج ١ ص ٢٩٠ .

معاودة أجازها الخليفة عمر بن الخطاب^(١)

ولم تسكن بابليون عاصمة مصر ولكنها كانت أهم مركز فيها نظراً لوقعها على رأس الدلتا وكونها على الطريق الموصل إلى الإسكندرية عاصمة البلاد في العصر الإغريقي الروماني .

وبالرغم من هذا الصلح اشترط القوقس أن لا يبيت في أمر الروم نهائياً إلا بعد أن يكتب إلى هرقل بذلك ، فإن قبل الأمبراطور سري هذا الصلح عليهم ، وإن لم يقبل عادت الحالة بين الروم والعرب إلى ما كانت عليه .

ويفهم من هذا أن قبط مصر قد أصبح أمرهم مفروغا منه بمقتضى هذا المهد بعكس الروم^(٢) . ولكن جاء جواب هرقل يلوم القوقس ويوبخه على تخاذله ويطلب منه أن ينهض هو والروم لمحاربة العرب ، تلك الفتنة القليلة ، وألا يرضوا كلقبط بالذلة ودفن الجزية للعرب^(٣) .

وتجمعت حاميات الروم بالإسكندرية لمحاربة المسلمين ، وسار عمرو ابن العاص لمحاصرتها وأخذ في هدم المقاومات التي صادفها في طريقه ، حتى وصل إلى الإسكندرية وألقى عليها الحصار . وقد كان البيزنطيون يدركون أهمية الإسكندرية التجارية والحربية والبحرية ، ويعرفون جيداً أنه إن لم يتم استيلاء العرب على الإسكندرية فلا فائدة من استيلائهم على مصر كلها إذ تظل الإسكندرية شوكة في جانبهم . ويقال إن هرقل استعد للخروج

(١) إبلادزي : فتوح البلدان ص ٢١٣ .

(٢) يطلق مؤرخو العرب لفظ روم على حاميات هرقل كما أنهم يستعملون لفظ

قبط مرادفاً للفظ مصريين (Butler : The Treaty of Misr. p. 29)

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها (طبعة المهد العلمي الفرنسي)

ص ٦٤ — ٦٥ والمقريري : خطط ج ١ ص ٢٩٣ .

لمباشرة حرب الإسكندرية بنفسه^(١) ولكنه مات في ١١ فبراير سنة ٦٤١م (٢٠ هـ)^(٢) قبل أن يفعل شيئاً . ويظهر أن مقاومة البيزنطيين في الإسكندرية كانت عنيدة بدليل استبطاء عمر بن الخطاب للفتح^(٣) ، ولا عجب فقد كان الروم مسيطرين على البحر بأساطيلهم وكان المدد يأتي إليهم عن هذا الطريق . ويضاف إلى ذلك أن حصون الإسكندرية كانت منيعة ، وكان يحميها من جهة البر القياض والبحيرات وترعة الإسكندرية^(٤) ولكن ساءت حالة الجيش البيزنطي لتنازع القواد وانقسام الرأي الإسكندري أثناء حصار العرب للمدينة^(٥) كما اضطرت أمور الدولة البيزنطية نفسها بعد موت هرقل . وقد صدق المؤرخ ابن العميد^(٦) إذ قال . « فوهنت شوكة الروم بموته » إذ ولي الحكم بعد هرقل اناث قسطنطين وهرقل الثاني ونسبت الأمباطورة مارتينة Martine أم ولده هرقل أو هرقلوناس شريكة لها في الحكم^(٧) فعملت هذه الأمباطورة على إنهاء الحرب ، لانشغالها وساسة البيزنطيين بالفتن الداخلية التي قامت من أجل النزاع على العرش ، وصادفت سياستها هوى لدى المصريين وبعض الحكام البيزنطيين المسيطرين على سير الأمور في مصر . ويذكر حنا النقيوسى^(٨) أن قبرس البطرك الخلقدوني لم يكن هو الذي رغب في السلام وحده وإنما رغب فيه السكان

(١) المقرئى ج ١ ص ١٦٤ .

(٢) بتلر : فتح العرب لمصر ص ٢٦١ .

(٣) المقرئى ج ١ ص ١٦٥ .

(٤) بتلر : فتح العرب لمصر ص ٢٩١ .

(٥) حنا النقيوسى : تاريخ ص ٥٧٠ .

(٦) تاريخ المسلمين ص ٢٤ .

(٧) بتلر ص ٢٦٢ .

(٨) Chronique. p. 573

والحكّام ، ودومنتيانوس Domentianus^(١) الذي كان موالياً للأمبراطورة مارتينه ولذا اجتمعوا واتفقوا مع قيرس على إنهاء الحرب بمقد صلح مع المسلمين .

ذهب قيرس إلى بابلون — حيث كان عمرو بن العاص قائد جيش المسلمين — وهناك طلب الصلح فرحب به عمرو وعقد معاهدة بصرح أن نطلق عليها معاهدة بابلون الثانية ، تمييزاً لها عن المعاهدة الأولى ، وأن نسميها معاهدة الإسكندرية لأنها كانت خاصة بأهل الاسكندرية وحميتها . ومن شروط هذه المعاهدة حسب ما أورده حنا النقيوسي^(٢) أن تعقد هدنة بين الطرفين مدتها أحد عشر شهراً تنتهي في أول شهر يابه (يوافق هذا التاريخ ٢٨ سبتمبر سنة ٦٤٢ م وأواخر سنة ٥٢١ هـ) وفي أثناءها يكف الروم والعرب عن القتال كما يتم جلاء حامية الروم عنها حاملين أمتعتهم وأموالهم . واشترط ألا يموذ جيش رومي ثانية إلى الإسكندرية ، وألا يستولى المسلمون على كنائس المسيحيين أو يتدخلوا في أمورهم ، وأن يباح لليهود الإقامة في الإسكندرية . وضممانا لنفاذ هذا العقد يأخذ المسلمون ١٥٠ من الجند و ٥٠ من غير الجند كرهائن .

ونلاحظ من شروط هذا الصلح أنه عقد في نوفمبر سنة ٦٤١ م (٥٢٠هـ) . وعقب سقوط الاسكندرية امتد نفوذ العرب تدريجياً إلى سائر الأقاليم في مصر ويجدر هنا أن نلاحظ قلة ما ذكرته المراجع القديمة عن هذا الامتداد والطريقة التي تم بها . ونلاحظ أيضاً أن السبب الذي حمل العرب على فتح مصر لتأمين فتوحاتهم في الشام ، جعلهم يتجهون إلى برقة لتأمين مراكزهم

(١) دومنتيانوس هو أحد الحكّام البيزنطيين في مصر أثناء فتح العرب لها .

(٢) Chronique p. 575. (٢)

في مصر . ففرض عمرو بن العاص - عقب الانتهاء من فتح مصر مباشرة -
يسير إلى برقة (انطالس) فيفتحها ويفرض عليها الجزية^(١) ، وفي سنة
٢٣ هـ عرا عمرو طرابلس ويقال إنه غزاها سنة ٢٣ هـ^(٢) ، وقد فكر عمرو
بعد فتح طرابلس في عرو بلاد المغرب كلها ، إلا أن عمر بن الخطاب نهاه
عن ذلك^(٣) ، وربما تخوف الخليفة من تفرق المسلمين في بلاد كثيرة ولما
تثبت أقدامهم فيها بعد .

ويمكننا أن نعتبر فتح برقة خاتمة لفتح وادي النيل كله اللهم إلا إذا
تذكرنا تأمين الحدود الجنوبية فإن عمر لم يفعل تأمين هذه الحدود فبعث
عبد الله بن سعد بن أبي سرح على رأس حملة إلى النوبة في سنة ٢٠ هـ ويقال
في سنة ٢١ هـ ، إلا أن تلك الحملة لم تستطع عمل شيء إزاء مقاومة النوبة .
فكتب عمرو إلى ابن سعد يأمره بالرجوع^(٤) وقد عاد عبد الله بن سعد ثانية إلى
غزو النوبة سنة ٣١ هـ أثناء ولايته على مصر من قبل الخليفة عثمان بن عفان .
ووصلت حملته إلى دنقلة واشتدت فيها وطأة القتال من الجانبين وانتهت هذه
الحملة بمقد هدنة بين مصر وبين ملك النوبة عرفت بالبقط^(٥) كانت أشبه

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر (طبعة توري) من ١٧٠ - ١٧١ .

(٢) المرجع نفسه من ١٧١ .

(٣) المرجع نفسه من ١٧٢ - ١٧٣ .

(٤) خطط المغربي ج ١ ص ٢٠٠ .

(٥) يقول المغربي في الخطط ج ١ ص ١٩٩ - ٢٠٠ « البقط ما يقبض من

سبي النوبة في كل عام ويحمل إلى مصر ضريبة عليهم : فإن كانت هذه الكلمة عربية
وهي إما من قولهم في الأرض بقط من بقل وعشب أي نبذ من مرعى فيكون معناه على
هذا نبذة من المال أو يكون من قولهم لمن في بني تميم بقطا من ربيعة أي فرقة أو قطعة
فيكون معناه على هذا فرقة من المال أو قطعة منه ، ومنه بقط الأرض . فرقة منها وبقط
الفسى فرقة ، والبقط أن تعطى الجبه على الثلث أو الربع ، والبقط أيضاً ما سقط من
التمر إذا قطع فأخطأ المخرف فيكون معناه على هذا بعض ما في أيدي النوبة ولكن =

بمعاودة سياسية وتجارية بين مصر ومملكة النوبة المسيحية ، إذ كان أهم ما اشترط فيها ألا يعتدى أحدهما على الآخر ، وأن تؤدي النوبة إلى مصر عدداً معيناً من الرقيق كل سنة ، وأن تؤدي مصر إلى النوبة قدرأ معيناً من القمح والعدس وغيره من منتجات مصر كل سنة أيضاً^(١) .

وينبغي ملاحظة أن فتح مصر النهائي واستخلاصها من أيدي البيزنطيين لم يتم إلا في سنة ٢٥ هـ (٦٤٥ م) إذ عاود الروم الهجوم على الإسكندرية في عهد الإمبراطور قنسطانز الثاني^(٢) (٦٤١ - ٦٦٨ م) (٢١ - ٤٨ هـ) الذي أرسل أسطولاً كبيراً هدفه إجلاء العرب عن مصر لإجلاء تاماً .

وقد تم استيلاء الجيش البيزنطي على الإسكندرية وزحف من بعدها إلى ما يليها من بلاد مصر السفلى ، ومخرج مركز العرب في مصر وكان الوالي إذ ذلك عبد الله بن سعد من قبيل الخليفة عثمان بن عفان ولذا نجد أهل مصر يسألون عثمان أن يرسل عمراً لمحاربة الروم لأن له معرفة وخبرة بمرهم . وقد تم إجلاء الروم عن مصر على يديه وأستولى في هذه المرة على الإسكندرية عنوة ثم صالح أهلها كما قتل قائد جيش الروم^(٣) .

== الأرجح أن كلمة بقط هذه من كلمة Pactum اللاتينية ومعناها عهد أو اتفاق . أنظر C. H. Becker : Islamstudien, I p 150 . وقد قيل إنها مصرية قديمة بمعنى عهد . انظر مادة Bakt في دائرة المعارف الإسلامية .

(١) انظر ابن عبد الحكم (طبعة تورى) ص ١٨٨ - ١٨٩ والسكندی : الولاة والقضاة ص ١٢ - ١٣ والفريزي : خطط ج ١ ص ٢٠٠ .

(٢) يذكر مؤرخو العرب أن هذه الحملة كانت في عهد قسطنطين بن هرقل ولكنها كانت في الواقع في عهد قنسطانز الثاني حفيد هرقل وابن قسطنطين . أما قسطنطين بن هرقل فقد توفي في مايو سنة ٦٤١ م (٥٢٠ هـ) .

(٣) انظر ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها (طبعة تورى) ص ١٧٥ - ١٧٨ والبلاذري : فتوح البلدان ص ٢٢١ وتاريخ يعقوبي ج ٢ ص ١٨٩ والسكندی كتاب الولاة ص ١١ وابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٦٢ والفريزي : خطط ج ١ ص ١٦٧ وأبو المحاسن : السجود الزاهرة ج ١ ص ٦٦

القبائل الأولى

أولاً

تعدد من قبائل بني النضير، وقد ورد في نسخة ياقوت الأول التي قدمت
من استيلاء الساسانيين على بني ياقوت، سنة ٧٠ هـ (٦٤١ م). وقد أورد
الدارمي^(١) ومن قال به من المؤرخين مثل ابن خلدون^(٢) والقاسمي^(٣)
وأبي الجراح^(٤) هذا الصلح، وهالك بسبه :

«بسم الله الرحمن الرحيم . هـ . لما أعطي عمرو بن العاص أهل مصر
دين الأمان، بأن لهم ديارهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم ويحرم^(٥)
لا يبدل عليهم شيء من ذلك، ولا يفتقر، ولا يسأكنهم التور،^(٦) وعلى
أهل مصر أن يسلطوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصلح، وانتهت زيادة شهرهم
تسعين ألف ألف، وعليهم ما جنى لسوتهم^(٧). فإن أبى أحد منهم أن يجيب
رفع عنهم من الجزاء بقدرهم، وذمتنا من أبي بريثة، وإن نقص شهرهم من

(١) تاريخ الأمم والملوك - ج ٤ - ص ٢٢٩

(٢) كتاب العبر وديوان الينبأ والخبر - ج ٢ - ص ١١٥

(٣) مع الأثر - ج ١٣ - ص ٣٧٤

(٤) التاج المأثور - ج ١ - ص ٢٤ - ٢٥

(٥) فصددهم أراضهم الزراعية، وقد كان يجرهم نهر النيل، ويول الماء، ويؤلف

بهم يوم الله، (مادة الماهرة - ج ١ - ص ٢١١) : «... ولينور، وأنها الأناجير، وهي

بئر آبير، من مصر، وكثير ما تجارة به، ولا يزال في كلام الأراجيز، بل في نهر النيل

اسم البحر.

(٦) العرب أهل الوثنية

(٧) الأثوث الاموس

(٨) دهر الأثر - ص (٢)

غايته إذا انتهى رفع عنهم بقدر ذلك ، ومن دخل في صلحهم من الروم والنوب فله مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم ، ومن أوى واختار الذهب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه أو يخرج من سلطاننا . عليهم ما عليهم أثلاثاً ، في كل ثلث جباية ثلث ما عليهم على ما في هذا الكتاب ، عهد الله وذمته وذمة رسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين ودم المؤمنين . وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعينوا بكذا وكذا رأساً وكذا وكذا فرساً على أن لا يُغزوا ولا يئتموا من تجارة صادرة ولا واردة .

شهد الزبير وعبد الله ومحمد ابناه . وكتب وردان^(١) وحضر . فدخل في ذلك أهل مصر كلهم وقبلوا الصلح .

رى من هذا الصلح أن المصريين صاروا أهل ذمة يؤدون الجزية ، وأن قيمة الجزية^(٢) كانت تتوقف على مقدار ارتفاع أو انخفاض ماء النيل في كل عام ، كما أنها كانت تدفع على ثلاثة أقساط في السنة . وفيما يختص بالروم في هذا الصلح عرفنا في المقدمة أن أمرهم كان معلقاً بموافقة الأباطور ، ولذا ترك لهم عمرو الخيار في قبول هذا الصلح . أما أهل النوبة فكانت مسألتهم تختلف عن مسألة الروم إذ كانت النوبة أثناء فتح العرب لمصر مملكة قوية مستقلة ولربما كانت الإشارة هنا إلى من كان يقيم في مصر من النوبيين .

(١) وردان مولى عمرو بن العاص وحامل لوائه (ابن عبد الحكم : فتوح مصر

— طبعة تورى — س ٩٣)

(٢) نفهم من لفظ الجزية الذي ورد في هذا الصلح أنه يعنى الجزية والخراج معا أى جزية الرؤوس والضريبة المقاربة ويلاحظ Van Berchem أن كلمة خراج كانت تعنى أحيانا جزية الرؤوس وأحيانا تعنى ضرائب أخرى تختلف في طبيعتها عن صريبي الرؤوس والمقار . انظر : M. Van Berchem

ويجدر أن نشير هنا إلى ما يراه بتلر من أن صلح بابليون كان يختص بأهل مدينة مصر (بابليون) لا القطر المصرى كله . ويؤيد بتلر وجهة نظره هذه بأنه من عادة العرب عند فتحهم لمدينة مهمة مثل دمشق أو القدس أن يعقدوا صلحا مع أهلها ، كما أنه في الوقت الذي عقد فيه هذا الصلح لم يكن قد تم استيلاء العرب على الصعيد أو الوجه البحرى . أما مقدار الجزية الذى جاء فى الصلح وهو ٥٠ مليون دينار^(١) فهذا ما يجب استيعاده^(٢) . ولكن رأى بتلر يخالف ما ذكرته المصادر القديمة التى أوردت نص هذا الصلح إذ ذكرت هذه المصادر أن أهل مصر كلهم قبلوا هذا الصلح ودخلوا فيه . ونحن نوافق بتلر فى أن مقدار الجزية الذى ذكر فى النص كبير ، بل نستبعد أن يكون قد فرض حتى على مصر كلها ، ولكن هذا الرقم المبالغ فيه ، يرجح أن الصلح والجزية كانا على القطر كله لا على مدينة مصر وقد رأينا أيضاً ما كان لبابليون من الأهمية ، وأنها كانت بمثابة قلب مصر . وعاصمتها الحقيقية ، ولو أن العاصمة الفعلية كانت الإسكندرية . وحوادث التاريخ ترينا أنه إذا سقط قلب الدولة كان ذلك معناه سقوط الدولة كلها ، مثل سقوط روما سنة ٤٧٦ م الذى كان إيداناً بسقوط الدولة الرومانية الغربية فى أيدى البرابرة ، وسقوط باريس فى سنة ١٨٧٠ م الذى كان إيداناً بسقوط فرنسا فى أيدى الألمان .

(١) لم يذكر فى نص الصلح إذا كانت الجزية بالدينار أو الدرهم وإنما ذكر الرقم فقط وهو ٥٠ مليون ولكننا نعلم أن العرب كانوا يجبون الضرائب من مصر بالدينار لا بالدرهم (أنظر القرينى : التقود الإسلامية ص ١١)

Butler : The Treaty of Misr. pp. 25-26, 47-48 (٢)

١ — النظام الإداري

لما فتح العرب مصر وجدوا بها نظماً قامت منذ أقدم الأزمنة ونمت وترعرعت في خلال العصور المختلفة ، فقضت عليهم الحنكة السياسية ألا يمسوا تلك النظم ، بل أبقوا عليها كما فعل الرومان من قبلهم عندما كانوا يحتلون بلاداً راقية في نظمها متقدمة في حضارتها . واكتفى العرب بشغل بعض المناصب الرئيسية ، ليشرفوا على الإدارة بوجه عام .

كان الخليفة يعين في مصر والياً يمثله ، ويقال ولاية عمرو بن العاص مثلاً أو ولاية عبد العزيز بن مروان ، ويقال للوالى أيضاً « أمير مصر » والدار التي يقيم فيها والى مصر « دار الإمارة » . ونجد في أوراق البردي اليونانية اسم آخر للوالى هو سيمبولس $\delta\upsilon\mu\beta\omicron\upsilon\lambda\omicron\varsigma$ ^(١) .

وكان الوالى يؤم المسلمين في المسجد الجامع في صلاة الجمع والأعياد بوصفه نائباً عن الخليفة ، ولذا يطلق عليه أمير الصلاة ، ويقال عن ولايته ولاية الصلاة . وإذا كان المسلمون يعتبرون أن إمامة الصلاة مما يختص به الخلفاء ، ويطلقون على الخليفة لفظ إمام ، كانت إمامة الوالى في الصلاة نيابة عن الخليفة تدل على عظم سلطة الوالى وعلى رئاسته العليا السياسية في الدولة . ولم يكن الوالى مسئولاً أمام أحد عن عمله إلا أمام الخليفة . وكان يجمع أحياناً إلى سلطته إدارة السالية المبر عنها بالخراج مما يحمله مطلق التصرف في الدولة ، وأحياناً يسند الخليفة عمل الخراج إلى شخص آخر يكون مسئولاً أمام الخليفة مباشرة لا أمام الوالى ، وكان هذا يحد سلطة الوالى كثيراً إذ يصبح عاجزاً عن التصرف في الأمور السالية كما يشاء . ولذا كان لعمال

الخراج أهمية كبيرة وكثيراً ما يكون منافساً للوالى مع أن الوالى هو رئيس الولاية بالنيابة عن الخليفة . وحسبنا دليل على أهمية عامل الخراج من أنه عند ما هزم عمرو بن العاص الروم وطردهم من الإسكندرية سنة ٢٥ هـ أراد الخليفة عثمان بن عفان أن يولى عمراً على الحرب (أى يوليه على الصلاة) وأن يولى عبد الله بن سمد على الخراج فقال عمرو « أنا إذاً كسك البقرة بقرنيها وآخر يحملها^(١) ». ورفض ما أراد عثمان بن عفان وترك ولاية مصر .

وتبين أيضاً تلك الأهمية التى كانت لعامل الخراج من أنه بعد وفاة عمرو ابن العاص ، عين معاوية بن أبى سفيان (٤٠ - ٥٦٠ = ٦٦٠ - ٦٨٠م) أخاه عتبة بن أبى سفيان (٤٣ - ٤٤ هـ) واليا على الصلاة فى مصر وولى وردان الخراج ، ثم خرج عتبة بن أبى سفيان إلى معاوية فى نفر من أهل مصر ، فسأل معاوية الوفد عن عتبة ، فقال أحدهم « حوت بحريا أمير المؤمنين على بر » . فقال معاوية ليمتبه : اسمع ما يقوله فيك رعيتك . فقال : صدقوا يا أمير المؤمنين حجبتنى عن الخراج ولهم على حقوق وأكره أن أجلس فأسأل فلا أفعل فأبخل . فضم إليه معاوية الخراج^(٢) .

ولعل أبلغ مثل يرينا مدى ما وصلت إليه سلطنة عامل الخراج ، هو عبيد الله بن الحجاج عامل الخراج فى مصر زمن الخليفة هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥ هـ) ، فقد ظل عاملا على خراج مصر منذ ولى هشام الخلافة حتى خرج إلى إمارة أفريقية فى سنة ١١٦ هـ^(٣) أو سنة ١١٤ هـ^(٤) ، وفى

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر - طبعة تورى - ص ١٧٨

(٢) ابن عبد الحكم - طبعة المعهد العلمى الفرنسى - ص ٧٨

(٣) القريزى : خطط ج ١ ص ٢٠٨

(٤) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٧٣

خلال هذه المدة نتابع على حكم مصر خمسة ولايات^(١) ، وقد امتد نفوذه إلى عزمل الولاية وتوليهم رضى الخليفة . فتراه عندما تنازع مع الحر بن يوسف وإلى مصر سنة ١٠٨ هـ يكتب إلى الخليفة هشام يشتكيه ؛ وسرعان ما عزمل الخليفة الحر عن ولاية مصر ، وولى بدله حفصا بن الوليد على الصلاة ، ولكن عبيد الله بن الحبصاب كتب إلى الخليفة يقول « إنك لم تنزل الحر إذ وليت حفصا » . فجعل الخليفة الاختيار إلى عبيد الله فاختر عبد الملك بن رفاعه^(٢) . وقد ولى مصر بعد عبد الملك بن رفاعه هذا ، أخوه الوليد بن رفاعه ، (١٠٩ - ١١٧ هـ) ويقول أبو الهاسن^(٣) : « ولم تبطل مدة الوليد هذا على مصر إلا لنزول عبيد الله بن الحبصاب المتولى على خراج مصر منها ، وقد تقدم عزمل جماعة كبيرة من العمال بمصر بسبب عبيد الله المذكور ، فدبر عليه الوليد هذا حتى أخرجه هشام من مصر واستتمله على أفريقية ، فسار إليها عبيد الله بن الحبصاب واشتغل بها عن خراج مصر » . ولعل من أسباب نفوذ ابن الحبصاب أنه كان يمثل سياسة الخليفة المالية أحسن تمثيل .

وكان بيد الوالى أيضا الحرب أى الرئاسة على الجيش فى الولاية ، ولأهمية ذلك كان يقال أحيانا : ولى فلان الحرب كناية عن ولايته لمصر^(٤) . فوالى مصر كان يشرف على شئون الحماية الموجودة فى مصر ، وكان يقود بنفسه الجيش فى الحملات التأمينية لمصر أو لصد الأعداء عنها ، أو يرسل من يقوده نيابة عنه . ومثل تلك الحملات كانت بوجه خاص فى السنوات الأولى .

(١) الكندى : كتاب الولاية والقضاة ص ٧٢ - ٧٦

(٢) الكندى ص ٧٤ - ٧٥

(٣) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٦٦

(٤) ابن عبد الحكم : فتوح مصر - طبعة تورى - ص ١٧٨ وطبعة

بعد الفتح ، فقد قاد عمرو بن العاص الحملات لفتح بركة وطرابلس ، كما أرسل عبد الله بن سعد لفتح النوبة ، وكذلك خرج عبد الله بن سعد أثناء ولايته على مصر على رأس الحملات التي سارت لغزو أفريقية والنوبة^(١) كما غزا الروم في غزوة ذى الصواري . وفي ولاية عتبة بن أبي سفيان (٤٣ — ٤٤ هـ) عندما شكأ قائد رباط الإسكندرية من قلة من معه من الجنود خرج عتبة ورابط فيها وذلك في سنة ٤٤ هـ^(٢) كذلك خرج الحر بن يوسف في ولايته على مصر مرابطا في دمياط ثلاثة أشهر من سنة ١٠٧ هـ^(٣) . كما نرى قرة بن شريك يطلب من صاحب كورة كوم اشقاو أن يجعل في إرسال المال المفروض على كورته ليأمر للجنود بمطأهم^(٤) ، ونجده أيضا يهتم بالإشراف على الأدوات اللازمة لتنظيف وتجهيز مرابك الأسطول ويهتم بالؤون التي يحتاجها بحارة الأسطول^(٥) كما يشرف على أجور البحارة الذين يخرجون مع الأسطول للغزو^(٦) .

وللوالى أيضا الإشراف على الشرطة ، وكان مقرها مدينة الفسطاط التي بناها عمرو بن العاص . ولما بنى العباسيون مدينة المسكر التي كانت تقع شمالي الفسطاط عملت شرطة أيضا في المسكر وقيل لها الشرطة العليا^(٧) ، وربما وصفت بالعليا لأهميتها . وكان الوالى هو الذى يعين صاحب الشرطة كما ورد

(١) الكندى ص ١٢

(٢) الكندى ص ٣٦

(٣) الكندى ص ٧٤

(٤) Grohmann: Arabic Papyri. vol. 111. pp. 12-13. Becker: Neue

Arabische Papyri. Der Islam. 11. pp. 251-252

Bell: Translations of the Greek Aphrodito Papyri. 11. p. 277 (٥)

Bell : op. cit. 11, pp. 375-376 (٦)

(٧) القرزى : خطط ج ١ ص ٣٠٤

في المصادر القديمة ، مثل كتاب الولاية وكتاب القضاة للسكندي وكتاب
النجوم الزاهرة لأبي المحاسن . وفي حالات نادرة جدا كان الخليفة هو الذي
يعين صاحب الشرطة ، ومن ذلك ما كان من الخليفة المأمون حين عين
صاحب الشرطة بمصر بعد ما قضى على الثورة التي كانت فيها سنة ٣١٧هـ^(١)
وصاحب الشرطة هذا كان بمثابة نائب للوالي يؤم الناس في الصلاة إذا مرض
الوالي ، ويحكم الولاية إذا خرج الوالي من مقر ولايته . فترى خارجة بن
حذافة صاحب الشرطة يؤم الناس في الصلاة أثناء مرض عمرو بن العاص^(٢) ،
ونرى عابس بن سميد المرادي صاحب الشرطة ينوب عن عبد العزيز بن
مروان والي مصر في حكم البلاد عند خروجه إلى الخليفة عبد الملك بن مروان
سنة ٦٧هـ^(٣) . ولذا نجد أن صاحب الشرطة كثيرا ما يمينه الخليفة واليا
على البلاد إذا ما عزل الوالي أو مات أو تنهى عن أمور الولاية . فثلا كان
حفص بن الوليد على شرطة مصر قبل إن يلي على صلاة مصر من قبل الخليفة
هشام بن عبد الملك^(٤) . وتكاد المراجع العربية لا تذكر شيئا عن أعمال
الشرطة في مصر ، ولكن لا بد أن الولاية كانوا يمهدون إلى صاحب الشرطة
بتنفيذ المقوبات التأديبية التي يفرضونها وبنشر الأمن في البلاد ، كما كانت
وظيفة صاحب الشرطة في الخلافة نفسها ، ولا بد أنه كان لصاحب الشرطة
عمال في العاصمة وفي الأقاليم لتنفيذ أوامره . ونلاحظ أن استتباب الأمن في

(١) السكندي : كتاب الولاية ص ١٩٢ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٢

ص ٢١٦

(٢) ابن عبد الحكم — طبعة توري — ص ١٠٥ والسكندي ص ٣١—٣٢

(٣) كتاب الولاية للسكندي ص ٤٩

(٤) الكندي ص ٧٤ — ٧٥

مصر وتطبيق القوانين فيها وتنفيذ الأحكام القضائية ومنع الجرائم ، كل ذلك كان يضمن للخلافة استغلال موارد البلاد على أتم وجه ويضمن لها أكثر ما يمكن من الضرائب . ويظهر أن المصادر القديمة ترجع دائما استتباب الأمن في البلاد إلى الولاة لا إلى أصحاب الشرطة لأن الوالي هو الرئيس الأعلى في الولاية وهو الذي يأمر صاحب الشرطة بذلك ، فمثلا نسمع في عهد ولاية يحيى بن داؤد الخراسي الشهير بابن ممدود والذي يعرف بأبي صالح (١٦٢ - ١٦٤هـ) أنه لما قدم إلى مصر وجد بها السبل مخيفة ، لكثرة المفسدين وقطاع الطرق ، فأخذ في قمع المفسدين وأبادهم وقتل منهم جماعة كثيرة . وقد بلغ من استتباب الأمن أنه منع غلق الأبواب والحوائط ليلا حتى جعلوا عليها شرايح^(١) القصب والشباك لمنع السكاب من دخولها ليلا ، كذلك منع حراس الحمامات أن يجلسوا فيها وقال : من ضاع له شيء فعلى أداؤه ؛ فكان الرجل يدخل الحمام فيضع ثيابه ويقول : « يا أبا صالح احفظها (٢) » .

وبالطبع كل هذه الأشياء لم يرقم بها أبو صالح ، وإنما قام بها صاحب الشرطة وأعوانه ، ولكن الوالي كان هو الأمر الناهي ، وكانت الأحوال في مصر تتوقف على درجة حزمه وشدته أو لينه وضمفه .

كذلك كان أصحاب الشرطة يهتمون بنشر الفضيلة والمحافظة على الأخلاق ، ففي ولاية مزاحم بن خاقان سنة ٣٥٣ هـ نراه بتشدد في نشر الأخلاق النافذة وقمع أهل الفساد « ثم التفت إلى أرخوز^(٣) » (صاحب

(١) شرائع جمع شريجة وهي باب من القصب يعمل للدكاكين

(٢) الكندي ص ١٢٢ وأبو الحسن : النبوم الزاهرة ج ١ ص ٤٤

(٣) في الكندي أرخوز ص ٢١٠

شرطته) وحرصه على أمور أمره بها ، فشدد أرخوز المذكور عند ذلك ومنع النساء من الخروج من بيوتهن والتوجه إلى الحمامات والمقابر وسجن المؤنثين والنوائح^(١) .

ومن الوظائف الرئيسية الهامة في تلك الفترة أيضاً وظيفة صاحب البريد ولم تكن تلك الوظيفة قائمة في عهد الخلفاء الراشدين ، إنما بدأتها الدولة الأموية ثم تقدم نظام البريد في عهد الدولة العباسية . ويقال إن معاوية بن أبي سفيان هو أول من وضع البريد لوصول الأخبار بسرعة ، وتبمه في ذلك الأمويون ومن بعده العباسيون ، ولذا نجدهم يهتمون بمهارة الطرق لتقصير المسافات ولوصول الأخبار بسرعة .

وقد وصلت الينا نقوش معاصرة لعبد الملك بن مروان (٦٥-٥٨٦) ، كشفت بالقرب من بيت المقدس وتشير إلى أواصره بصنعة الأميال^(٢) وبمهارة أربسة طرق تخرج من إيلياء^(٣) ومن دمشق^(٤) . وقد اهتم العباسيون اهتماماً كبيراً بالطرق حتى أصبحت بغداد مركزاً تتشعب منه الطرق إلى جميع الجهات ، فكانت جميع الطرق تؤدي إلى بغداد كما كانت جميع الطرق تؤدي إلى روما . هذا ، ولم يكن البريد نظاماً يستعمله الشعب إنما كان نظاماً رسمياً حكومياً ، ويظهر أن الخلفاء استعملوا نظام البريد في

(١) أبو الحسن ج ١ ص ٢٣٧

(٢) صنعة الأميال هي مسح الأراضي لوضع حدود على كل مسافة قدرها ميل .

(٣) أيلياء هي بيت المقدس (معجم البلدان لياقوت ج ١ ص ٤٢٤)

(٤) van Berchem, *Materiaux pour un Corpus Inscriptionum Arabicarum* (Jérusalem t. I; pp. 20, Répertoire Chronologique d'epigraphie Arabe. t. I. pp. 18-16

أول الأمر لنقل الأخبار بسرعة من مقر خلافتهم إلى الولايات المختلفة ولتلقى الأخبار ثم ما لبث هذا النظام أن تطور واستعمله الخلفاء العباسيون للتجسس على ولاية الأقاليم وعمالها^(١). ولم أجد في المصادر القديمة ذكراً لأصحاب البريد الموفدين من الخلفاء إلى مصر اللهم إلا في موضع أو موضعين ، فيذكر الكندي في كتابه الولاية والقضاة أن صاحب البريد بمصر كتب إلى الخليفة المتوكل بأمر يتعلق بأحد الجنود^(٢)، وفي موضع آخر يذكر أن صاحب البريد في مصر في ولاية داود بن يزيد بن حاتم (١٧٤ - ١٧٥ هـ) أراد أن يتدخل في عمل قاضي مصر إذ ذاك أبو الطاهر عبد الملك بن محمد الحزبي فلم يكن من القاضي إلا أن استعفى عن القضاء^(٣) ويظهر أن إغفال ذكر أصحاب البريد في تلك المصادر راجع إلى أن مهام وظيفتهم كانت تعني الخلافة وتعني عمال الخليفة أكثر مما تعني مصر نفسها .

تحدثنا حتى الآن عن الوظائف الرئيسية التي كانت وفقا على القائميين ،

(١) كان أبو جعفر المنصور يقول . ما كانت أحوجني إلى أن يكون علي بابي أربعة نفر لا يكون علي بابي أعف منهم فليل له يا أمير المؤمنين من هم قال . هم أركان الملك ولا يصلح الملك إلا بهم ، كما أن البريد لا يصلح إلا بأربعة قوائم إن قصت واحدة وهي ، أما أحدهم ففاض لا تأخذه في الله لومة لائم ، والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى ، والثالث صاحب خراج يستقصي ولا يظلم الرعية فإني عن ظلمها غني ، والرابع ثم عض على أصبغه السبابة ثلاث مهات يقول في كل حسرة . آآه قيل له ومن هو يا أمير المؤمنين ؟ قال . صاحب بريد يكتب إلى بخبر هؤلاء على الصحة . الطبرى ج ٩ ص ٢٩٧ — ويقول قدامه بن جعفر في كتاب الخراج عند كلامه على ديوان البريد ص ١٨٤ — ١٨٥ : « والذي يحتاج إليه في صاحب هذا الديوان هو أن يكون ثقة إما في نفسه أو عند الخليفة القائم بالأمر في وقته ، لأن هذا الديوان ليس فيه من العمل ما يحتاج منه إلى السكافي للتصفيح وإعما يحتاج إلى الثقة المتحفظ »

(٢) ص ٢٠٣

(٣) ص ٣٨٤

وستحدث عن وظيفة القاضي في فصل آخر ، وفيما عدا ذلك أبقى الفاتحون معظم الأنظمة الموجودة كما تركوا الوظائف والأعمال في يد أهل البلاد .

وكانت مصر بعد الفتح مباشرة مقسمة إداريا إلى قسمين رئيسيين مصر العليا ، ومصر السفلى . فيذكر ابن عبد الحكم^(١) أن الخليفة عمر بن الخطاب توفي وعلى مصر أميران عمرو بن العاص بأسفل الأرض^(٢) ، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح على الصعيد . ولسنا نظن أن هذا البعد عن الدقة من ابن عبد الحكم ينقض ما نعرفه من أن عمرو بن العاص كان الرئيس الأعلى وكانت له ولاية مصر كلها . ويذكر الكندي^(٣) أنه في ولاية حفص بن الوليد الثانية على مصر (١٢٤ - ١٢٧ هـ) جعل على الصعيد رجاء بن الأشيم وعلى أسفل الأرض فهد بن مهدي الحضرمي .

من هذا يتبين أن مصر كانت مقسمة إداريا إلى مصر العليا والسفلى ، وهذان القسمان الرئيسيان كانا مقسمين إلى أقسام أو كور ، ويقال إنه كان بها ثمانون كورة^(٤) ، وهذه كانت مقسمة بدورها إلى قرى . ولفظ كورة مشتق من الاسم اليوناني κορα التي لم تكن شيئا آخر سوى الأقاليم المعروفة في العهد البيزنطي باسم بجارشي pagarchie أى أن العرب احتفظوا بنظم

(١) فتوح مصر وأخبارها - طبعة توري - ص ١٧٣

(٢) أسفل الأرض أى مصر السفلى أو الوجه البحرى . وكان مقسما جغرافيا إلى الحوف المرق شرق فرع دمياط والحوف الغربى غربى فرع رشيد وبعن الريف بين فرعى رشيد ودمياط (القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٨٠ - ٣٩٠)

(٣) كتاب الولاة وكتاب الفضاة ص ٨٤ .

(٤) ابن دقاق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار ج ٤ ص ٢ والمقرئى : خطط

البيزنطيين الإدارية وكان على رأس الكورة « صاحب الكورة » وهذا اللقب ترجمة مضبوطة للفظ اليوناني بجماركوس^(١) παραρχος فنجد مثلا قرة بن شريك والى مصر زمن الوليد بن عبد الملك (٩٠ - ٨٩٦) يرسل كتابا إلى بسيل صاحب اشقوه^(٢) وفي كتاب آخر يخبر صاحب الكورة بأن يرسل التعليمات الخاصة بدفع الجزية إلى جسطال كورته وإلى موازيت القرى^(٣). وهنا مرة أخرى نجد كلمتين غريبتين على اللغة العربية ! فكلمة جسطال هنا بمعنى الموظف المشرف على مالية الكورة أى مندوب ديوان الخراج والأموال ، أما موازيت فمنها رؤساء أو مشايخ القرى . ويرى الأستاذ جاستون فييت^(٤) G Wiet أن كلمة جسطال مقابلة للكلمة البيزنطية أو جستاليوس αγγυδαλιος ، وأن كلمة ما زوت مقابلة للكلمة البيزنطية ميزوتروس μειζοτερος .

ومما سبق تبين إلى أى حد أبقى العرب على النظم التي وجدوها في البلاد ، بل أبقوا على الأسماء كما كانت من قبلهم . ومع أن مصر كانت مقسمة إدارياً إلى هذه الأقسام ، فقد كانت جميعها تحت سلطة الوالى العليا مباشرة ، ولم يمط الولاية فرصة لعمال الأقاليم للتمكين لأنفسهم وللاستقلال محلياً بأمور إقليمهم ، فكان الحكم في مصر مركزياً إلى أقصى حد ،

Wiet : Précis de l'hist. d'Egypte t. 11, n. 127 (١)

Becker ; Neue Arabische Papyri pp. 251-252, Grohmann, (٢)
Arabic Papyi, vol. III p. 12

اشقوه كانت كورة من كور الصعيد وهى الآن كوم اشقاو بين أبو تيج وطهطا في مديرية أسيوط وقد عثر فيها سنة ١٩٠١ م على مجموعة من الأوراق البردية التي ألقت شماعا من النور على حكم قرة بن شريك في مصر .

Becker : op. cit. pp. 254. Grohmann, op. cit. p. 17 (٣)

Précis de l'hist. d'Egypte. t. 11; p. 127 (٤)

وكانت اللامركزية معدومة في البلاد ، فمنها أن الوالي كان تحت سلطة الخليفة مباشرة ترى الوالي بدوره يضع رؤساء الأقاليم المختلفة تحت سلطته مباشرة . ولقد ألفت أوراق البردي التي كشفت في كوم أشقاو شعاعاً من النور على حكم الولاية في مصر ، وخاصة في العهد الأموي ، وهو ما أحص في عهد ولاية قرّة بن شريك (٩٠ - ٨٩٦) إذ عرفنا من تلك الأوراق إلى أي حد كانت تمتد سلطة الوالي في الأقاليم ، فقرأنا في رسائل كتبت كثيراً إلى عماله يطلب منهم ما يجمع من الضرائب وفي الوقت نفسه يطلب من صاحب الكورة أن يعدل بين الناس ولا يفعل شيئاً يدرهونه ^(١) ، ثم ترى الوالي يرسل إلى صاحب الكورة يذكر له أن صاحب البريد أخبره بأنه أوقع الغرامة على بعض القرى ويطلب من صاحب الكورة أن يرد ما كان قد عمله حتى يكلمه في هذا الأمر ^(٢) . وهناك مرة أخرى ترى أنه لما كان للخليفة صاحب بريد يخبره بأعمال الوالي ، كان للوالي أيضاً صاحب بريد يخبره بأعمال أعمال الأقاليم في مصر . وفي كتاب آخر نجد مرة من رسائل الوالي صاحب كورة أشقوه بشأن أحد الأفراد الذي أعطى مالا لأخر ، ويطلب منه أن ينظر في أمر تسديد الدين الذي لأحدهما على الآخر ^(٣) . ونجد أيضاً كتاباً آخره يأمر فيه بالقبض على أحد المجرمين ^(٤) . وفي كتاب آخر نراه يتحدث أجور الصناع الذين يعملون في بناء السفن ولا يترك تحديد ذلك لصاحب الكورة التي منها الصناع ^(٥)

Becker : Neue Arabische Papyri. pp. 247 - 248, (Grohmann (١)

Arabic Papyri vol. III. pp. 3 - 5

Grohmann - Arabic Papyri. vol. III. p. 28

(٢)

op. cit. pp. 29 - 31

(٣)

van Berchem - Une Page Nouvelle de l'histoire d'Égypte (٤)
p. 161

Bell. Translations of the Greek Aphrodite Papyri (Der (٥)
Islam, Band II) p. 274

هذه كلها أمثلة تربينا إلى أى حد تغلقت سلطة الوالى فى شئون البلاد المختلفة وحتى فى أمور القضاء الذى كان يعتبر مستقلا، كان الوالى فى أوقات كثيرة هو الذى يعين القاضى ويصدق الخليفة على هذا التعيين . وقد احتاج الوالى تبعا لذلك إلى كتابة كثيرين ليستعين بهم فى تحرير رسائله إلى مختلف الجهات فى مصر وإلى الخليفة نفسه . ولذا ترى فى آخر الكتب التى كان يرسلها الولاية أسماء الكتبة الذين كانوا يحورونها^(١) ، مما يدل على أنه كان بمصر فى ذلك العهد ديوان رسائل أو ديوان إنشاء . ويشير القلقشندى^(٢) إلى وجود ديوان إنشاء فى ذلك العهد من الفتح إلى بداية الدولة الطولونية ، إلا أنه يذكر أنه كان قليل الأهمية فيقول : « ولم يكن لديوان الإنشاء بالديار المصرية فى هذه المدة صرف عناية تقاصراً عن التشبه بديوان الخلافة إذ كانت الخلافة يومئذ فى غاية العز ورفعة السلطان ، ونيابة مصر بل سائر النيابات مضمحلة فى جانبها ، والولايات الصادرة عن النواب فى نياتهم متصاعرة متضائلة بالنسبة إلى ما يصدر من أبواب الخلافة ، فلذلك لم يقع مما كتب منها ما تتوفر الدواعى على نقله ولا تنصرف الهمم لتدوينه » .

وقد كان والى مصر بعد الفتح ومنذ ولاية عمرو بن العاص الأولى عليها يشرف أحيانا على بلاد برقة وما يليها من شمال أفريقية ، إذ نجد إشارات كثيرة خلال المصادر القديمة تبين سلطة والى مصر وإشرافه على عمال برقة والمغرب وعلى الجيوش المرسلتة إلى هناك ، فنرى مثلا أن عبد العزيز ابن مروان والى مصر (٦٥ - ٨٦ هـ) يقع سوء تفاهم بينه وبين حسان ابن النعمان الفسائى الذى قدم من الشام ليتولى أمر جيوش المغرب ، فيمزله ريولى

Grohmann : op. cit. pp. 5,8, 13, 20, etc (١)

(٢) صبح الأعشى ج ١١ ص ٢٨

موسى بن نصير أمر المغرب^(١) . كذلك نرى صالح بن علي بن الله المباسي في ولايته الثانية على مصر (١٣٦ - ١٣٧ هـ) يولى أبا عوف على جيوش المغرب^(٢) .

على أن هذا الإشراف الذي كان لولاية مصر لم يمنع من أن يكون لبرقة والمغرب عاملها وولايتها . ولكن كانت تضم برقة والمغرب أحياناً تحت سلطة والى مصر مباشرة ، فقد جمع لسلمة بن مخلد والى مصر (٤٧ - ٦٢ هـ) أمر مصر والمغرب^(٣) ، كما امتدت سلطة صالح بن علي في ولايته الثانية على مصر الى المغرب وفلسطين^(٤) ، ونجد الخليفة أبا جعفر المنصور يضم إلى والى مصر يزيد بن حاتم (١٤٤ - ١٥٢ هـ) برقة بالإضافة إلى مصر^(٥) ونلاحظ أن ولاية مصر في عهد الخلفاء الراشدين والأمويين كانوا من العرب ، ولا عجب فقد كان معظم الوظائف الكبرى في الدولة الإسلامية حينئذ للعرب دون سواهم .

وقد أعطى الخلفاء الأمويون لمهلم على الولايات قسطاً كبيراً من الحرية ولذا ظهر في الدولة الأموية شخصيات بارزة مثل عمرو بن العاص وزيد بن أبيه والحجاج بن يوسف الثقفي وخالد بن عبد الله القسري وعبد العزيز بن مروان وموسى بن نصير وغيرهم . وفي عهد الدولة الأموية في مصر نجد معاوية يولى عمرو بن العاص صلالة مصر . وخراجها ويجملها طعمة له بمد عطاء جندها والنفقة على إدارتها ، فظل عمرو من سنة ٣٨ هـ إلى سنة

(١) الكندي : الولاية والقضاة ص ٥٢ — ٥٣

(٢) الكندي ص ١٠٢

(٣) الكندي ص ٣٨

(٤) الكندي ص ١٠٢ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٣٢٨

(٥) الكندي ص ١٠٢ وأبو المحاسن ج ٢ ص ٣

٤٣ هـ حين وفاته . ونجد مثلاً مسلمة بن مخلد يظل والياً على مصر خمس عشرة سنة (٤٧ - ٦٢) وتوفى هو وال عليها ، وكذلك عبد العزيز بن مروان يظل في ولايته على مصر حوالي إحدى وعشرين سنة (٦٥ - ٨٦ هـ) وتوفى وهو وال عليها ، وكان عبد العزيز شبيه ملك مستقل في حكم البلاد من مقره في القسطنطينية أولاً ثم في حلوان التي أمر ببنائها في سنة ٧٠ هـ ، واتخذها عاصمة له على أثر وقوع الطاعون بمصر^(١) أو على أثر مرضه بالجندام^(٢)

وفي العصر العباسي يتغير الحال ؛ فالدولة العباسية قامت على أكتاف الفرس ولذا نجد بين ولاية مصر من قبل خلفائها بعض ولاية من عناصر فارسية . وكان آخر وال عربي على مصر عنبة بن إسحق (٢٣٨ - ٢٤٢ هـ)^(٣) على أنه ظهر عنصر جديد في الدولة العباسية اعتمد عليه الخلفاء وهو عنصر الأتراك . وقد بدأ الخليفة المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧ هـ) سياسة الاعتماد على الأتراك والاستكثار منهم ، إذ رأى فيهم قوماً يحبون القتال والحرب وليست لهم عصبية العرب وليس لهم وطن قديم يريدون إحياءه كالفرس . وسرعان ما تغفل الأتراك في الدولة وأصبحت بيدهم شؤونها الحربية والمدنية . ونجد مصر تتأثر بتلك السياسة أيضاً فيلدها ولاية من الترك كان أولهم يزيد بن عبد الله التركي (٢٤٢ - ٢٥٣ هـ)^(٤)

-
- (١) الكندي ص ٤٩ وخطط المقرئ ص ١ ص ٢٠٩ وأبو المحاسن :
النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٧٣ .
(٢) أبو صالح الأرمي : كنائس وأديرة مصر ص ٦٦ وسعيد بن بطريق :
التاريخ المجموع ج ٢ ص ٤٠ .
(٣) الكندي : كتاب الولاية والقضاة ص ٢٠٢ وخطط المقرئ ص ٢ ص
٢٩٤ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٣٠٠ .
(٤) الكندي : كتاب الولاية والقضاة ص ٢٠٢ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة
ج ٢ ص ٣٠٨

وأهم ما نلاحظ في حكم مصر في العصر العباسي كثرة تغيير الولاة ، وقد يكون هذا راجعاً إلى بعد مقر الخلافة العباسية (أعنى بغداد وسامرا) عن مصر ، فلم يأمن الخلفاء أن يتركوا ولاية مصر في الحكم طويلاً لئلا يطمعوا في الاستقلال بالبلاد . وقد يكون ذلك راجعاً أيضاً إلى ضعف الخلفاء العباسيين الحقيقي بالرغم من مظاهر المظمة الخارجية ، وخاصة منذ عهد المعتصم ، ولذا عني هؤلاء الخلفاء بتولية ولاية كثيرين في مدد متقاربة قصيرة كيلا يتمكن أحدهم من الاستقلال بها أو التمسكين لنفسه فيها ، كما استخدموا البريد للتجسس على أعمال هؤلاء الولاة .

على أن ما كانت تخشاه الدولة العباسية من استقلال الولاة قد تحقق نتيجة لسياسة الإقطاع التي اتبعتها ، فنذ عهد الخليفة هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣ هـ) إتبع الخلفاء العباسيون سياسة إقطاع بعض أقاليم الدولة العباسية لبعض الشخصيات على أن يؤديوا مالا معيناً للخلافة . ولا ريب في أن النظام الإقطاعي في الشرق كان يختلف اختلافاً كبيراً عنه في الغرب ، ولعل أكبر فرق بين النظامين الشرق والغربي أن الإقطاع الأوروبي كان يتوارث في أسرة صاحب الإقطاع وفق تقاليد وراثية معروفة أما في الشرق فلم يكن من حق صاحب الإقطاع أن يورث إقطاعه ، كذلك كان السكان في الغرب يقطعون مع الأرض بعكس النظام في الشرق . وقد أقطع الخليفة الرشيد أفريقية (تونس الحالية) لإبراهيم بن الأغلب في سنة ١٨٤ هـ^(١) ، وربما تكون قسمة العالم الإسلامي إلى قسمين إقطاعيين في عهد الخليفة المنعم (٢٥٦ - ٢٧٩ هـ) الذي عاصره أحمد بن طولون ، والذي قسم الدولة العباسية إلى إقطاعين : شرق وغربي ، على أن يحكم القسم الشرق أخوه الوفاق ويحكم القسم الغربي ابنه المفوض إلى الله ، ربما تكون هذه

(١) الطبري ج ١٠ ص ٢١

القسمة قد سبقها قسمة أخرى في عهد الخليفة المأمون ، فيذكر الطبري^(١) أنه في سنة ٢١٣ هـ ولى المأمون أخاه المعتصم الشام ومصر ، وولى ابنه العباس بن المأمون الجزيرة والثغور والعواصم . وقد نبت المعتصم من الحكام من ثبت وعزل من عزل في البلاد الخاضعة لحكمه . وتدل أوراق البردي على أنه في سنة ٢١٧ هـ كانت الأوامر والرسائل التي تصدر إلى الولاية باسم الخليفة المأمون يذكر فيها اسم المعتصم بجانبه^(٢) . وقد علمنا من نص « بروتوكول »^(٣) تاريخه ٢١٧ - ٢١٨ هـ أن الأمير المعتصم كتب اسمه بعد الخليفة المأمون مع كيدر الذي كان والياً على مصر في سنة ٢١٧ - ٢١٩ هـ في حين أن كيدر هذا كان الولى الذي أقامه الخليفة مباشرة^(٤)

ولما ولى المعتصم الخلافة (٢١٨ - ٢٢٧) هـ حذا حذو الرشيد والمأمون . فانتطع أشناس التركي ولاية مصر . وقد علمنا من أوراق البردي أن القائد أبا جعفر أشناس تولى الأمانة على مصر في سنة ٢١٩ هـ من قبل المعتصم ثم أذن له بأن يولى الحكام بنفسه وهذا يدل على مكانة أشناس ، فقد كان يذكر اسمه في خطبة الجمعة مع الخليفة . ومنذ سنة ٢٢٧ هـ كان تحت حكمه دولة تمتد من بغداد إلى آخر حدود المغرب . كما ضربت السكة باسمه الذي نقش على الموازين والمكاييل^(٥) ، وقد ظل أشناس صاحب إقطاع مصر ويعين ولائها من قبله إلى أن توفي سنة ٢٣٠ هـ .

(١) تاريخ الأمم والملوك ج ١٠ ص ٢٧٩

(٢) جرومان : المحاضرة الثالثة عن الأوراق البردية العربية ص ١١

(٣) كان درج البردي يتألف من عشرين ورقة ملصق بعضها ببعض وتسمى الورقة الأولى من هذه الأوراق باليونانية Protocol πρωτοχολλον وكانت تشمل على الكتابة الرسمية التي تسمى الآن الطراز (جرومان : أوراق البردي العربية مدار الكتب المصرية ج ١ ص ٤)

(٤) جرومان : المحاضرة الثالثة عن الأوراق البردية ص ١١

(٥) جرومان : المحاضرة الثالثة عن الأوراق البردية العربية ص ١٢

ثم أعطى الخليفة الواثق (٢٢٧ - ٢٣٣ هـ) مصر لإيتاخ التركي إقطاعاً له^(١) ولم تقتصر سلطة إيتاخ على مصر ، بل نرى الخليفة المتوكل (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ) يفوض إليه في سنة ٢٣٤ هـ أمر الكوفة والحجاز وتهمامة ومكة والمدينة مضافاً إلى مصر^(٢) . ولكن لم يلبث المتوكل أن أمر بالقبض على إيتاخ في المحرم سنة ٢٣٥ هـ وأقطع مصر ابنه وولى عهده المنتصر^(٣) الذي ظل يولى ولاية مصر إلى أن تولى المتوكل، وولى المنتصر الخلافة (٢٤٧-٢٤٨ هـ) . وفي سنة ٢٥٤ ولى ابن طولون بالنيابة عن باكباك التركي صاحب إقطاع مصر^(٤) على أن سياسة إقطاع الأتراك ولاية مصر أدت إلى نتيجة لم تكن في الحسبان . إذ كان هؤلاء التواد الترك يؤثرون البقاء في عاصمة الخلافة خشية أن تدبر ضدّهم الدسائس ، كما كان الخليفة نفسه يرحب ببقائهم في العاصمة خوفاً من أن يستقلوا بالبلاد التي كانوا يحكمونها فكان هؤلاء الأتراك لا يمكنون بأنفسهم بل يستخلفون من يقوم بالأمر نيابة عنهم على أن يحمل إليهم هؤلاء النواب الأموال ويدعون لهم على المنابر كما يدعى للخليفة^(٥) . وتدل الوثائق البردية على أنه كان يدعى للخليفة وللوالى معاً في خطبة الجمعة^(٦) . وإذا كان الخلفاء يراقبون أصحاب الإقطاع لئلا يستقلوا بالبلاد ، فإنه لم يكن في استطاعتهم أو لم يدر بخلدّهم أن يراقبوا نوابهم ، ولم يكن من العسير على نائب والٍ له شخصية بارزة وله آمال واسعة أن يستقل بأمور البلاد بعد أن تطرق الضعف إلى مراكز الخلافة نفسها . وهذا ما حدث في عهد أحمد بن طولون الذي استقل بمصر عن الخلافة وأسس بها دولة مستقلة عرفت باسم الدولة الطولونية كانت أول دولة مستقلة في تاريخ مصر الإسلامية (٢٥٤ - ٢٩٢ هـ = ٨٦٨ - ٩٠٥ م) .

-
- (١) أبوالمحسن : النجوم ج ٢ ص ٢٥٥ (٢) أبوالمحسن ج ٢ ص ٢٧٥
(٣) أبوالمحسن ج ٢ ص ٢٧٨ (٤) القريري: خطط ج ١ ص ٣١٣
(٥) الدكتور زكي محمد حسن : مصر والحضارة الإسلامية ص ٤
(٦) جروهمان : المحاضرة الثالثة عن الأوراق البردية الرية ص ١٢

٢ - النظام المالى

الجزية والزكاة

قبل أن نبدأ بتفصيل الكلام على النظام المالى للعرب فى مصر يجدر بنا أن نشير أولاً إلى معنى الجزية والخراج . فالمعروف أن الجزية هى الضرائب المفروضة على الرؤوس أما الخراج فهو ضريبة الأرض ، ولكننا كثيراً ما نجد فى المراجع خلطاً بين هاتين الضريبتين فنرى الجزية تعنى ضريبة الرؤوس وضريبة الأراضى معاً . ويلاحظ Van Berchem^(١) أن كلمة خراج يقصد بها الضريبة العقارية ، وأيضاً جرية الرؤوس ؛ وأحياناً تطلق على ضرائب أخرى تختلف وطبيعتها عن هاتين الضريبتين .

بعد فتح العرب لمصر ، وأعنى هنا بعد معاهدة بابلون الأولى ، فرض العرب على أهل مصر الجزية ، وهاك نص ما ذكره المؤرخون . « فاجتمعوا على عهد بينهم واصطلحوا على أن يفرض على جميع من بمصر أعلاها وأسفلها^(٢) من القبط دينارين عن كل نفس شريفهم ووضعهم ومن بلغ الحلم منهم ، ليس على الشيخ الفانى ولا على الصغير الذى لم يبلغ الحلم ولا على النساء شئ ... وأحصوا عدد القبط يومئذ خاصة من بلغ منهم الجزية وفرض عليهم الديناران رفع ذلك عرفاً^(٣)م بالأيمان المؤكدة ، فكان جميع

(١) la Propriété territoriale et l'impôt p. 21

(٢) أعلاها وأسفلها أى الوجه القبلى والوجه البحرى

(٣) العريف : العالم بالثىء ومن يعرف أصحابه والجمع عرفاء . ويذكر De Sacy أن العريف معناها كاتب وهى المقابلة للكلمة اليونانية جرافس أى كاتب
Sur la Nature et les Révolutions du droit de propriété p. 179

من أحصى يومئذ بمصر أعلاها وأسفلها من جميع القبط فيما أحصوا وكتبوا ورفضوا أكثر من ستة آلاف ألف نفس وكانت فريضتهم يومئذ اثني عشر ألف ألف دينار في كل سنة^(١) .

هذا فيما يتعلق بالجزية التي فرضت على أهل الذمة في مصر كما ذكرها بعض المؤرخين . ويذكر البلاذري^(٢) في رواية له عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه وضع على كل عالم دينارين جزية إلا أن يكون فقيراً . ولا نفهم من هذا النص إذا كان الفقراء قد أعفوا من الجزية أم قدرت عليهم جزية أقل من غيرهم . أى أنه إذا استثنينا النص الذي ذكره البلاذري بأن الفقراء لم يدفعوا الدينارين نفهم مما ذكره المؤرخون أن المصريين تساوا في دفع الجزية . ولكن لو كان العرب عاملوا أهل الذمة في مصر على هذا الأساس لثار عليهم المصريون من أول الفتح ، وكان العرب قد عادوا بذلك إلى تمسف الحكم الروماني والبيزنطي الذي كان يعنى ذوى النفوذ والثراء من الأعباء المالية أو من أغلبها بينما يقع عبؤها على الطبقات الفقيرة من السكان . كما أن هذا لا يتفق والإسلام الذي يدعو إلى الإنصاف والمدل ، كما لا يتفق وسياسة العرب الحكيمة ، التي كانت ترى إلى التحب إلى أهل البلاد وإلى توطيد سلطانهم فيها ليس بقوة السيف وإنما بحسن السياسة .

وقد أثبتت أوراق البردى فساد الرأي الذي يقول بمساواة الذميين في دفع الجزية وأثبتت أن الجزية كانت تتناسب مع ثروة الشخص . ففي كتاب من قرة بن شريك إلى صاحب كورة أشقوه مجده بأمره بأن يرسل

(١) ابن عبد الحكم (طبعة المعهد الفرنسي) ص ٦٣ — ٦٤ وخطط القريري

ج ١ ص ٢٩٢ — ٢٩٣ والسيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ٥١

(٢) فتوح البلدان ص ٢١٤

كشفاً بالأما كن المختلفة لمعرفة عدد الرجال في كل مكان ، والجزية الواجب عليهم أدائها وما يملكه كل رجل من الأراضي وما يقوم به من الأعمال . ويطلب من صاحب الكورة ألا يوجد أى مجال للشكوى أو الاستياء منه ويذكره بأنه مصمم على مكافأة من يسير سيراً حسناً ومعاقبة من يتفكك عن طريق المدل^(١) ونحن نرى من هذا الكتاب أنه لو كان كل فرد يدفع جزية مساوية لما يدفعه الآخر لما طلب والى مصر كشفاً بما يملكه كل شخص وما يقوم به من عمل وبالجزية الواجبة عليهم ، ولما طلب من صاحب الكورة أن يكون عادلاً في عمله ، ولما هدده إذا هو لم يتبع طريق الحق أو أوجد أى مجال للشكوى أو الاستياء من جاب أهل كورته ، ولا اكتفى الوالى بمعرفة عدد رجال كورته وبذلك يعرف الجزية الواجبة عليهم . وفي كتاب آخر بحث به قره بن شريك نراه يطلب من صاحب الكورة أن يعدل في تقدير الضرائب الواجبة على كل فرد وأن يسهل عليهم الاتصال به كي يسمع ما يقولون^(٢) .

وقد حفظت لنا أوراق البردى أيضاً كشوفاً من القرن الثالث الهجرى دوت فيها أسماء أشخاص مختلفين ، وذكرت فيها مقدار الجزية الواجبة على كل ، وقد اختلفت هذه الجزية باختلاف كل شخص وقلما نجد شخصين يدفعان جزية متساوية : فشخص يدفع ديناراً ، وآخر ديناراً ونصفاً ، وثالث ثلثي دينار ، ورابع ديناراً وثلثاً وهكذا^(٣) . وهذا

Bell. Translations of the Greek 'Apuodito, der Islam, II, (١)
p. 272

Bell op. cit. pp. 281-282 (٢)

Grohmann : Arabic Papyri in the Egyptian Library. vol. III (٣)
pp. 197-178, 201-203, 217, 219, 220-221.

بلا شك راجع إلى تقدير الجزية على أساس ثروة كل شخص . ويجمع الفقهاء أيضا على أن الجزية كانت تتناسب إلى حد ما مع ثروة الشخص فيؤخذ من الموسر ثمانية وأربعون درهما ومن الوسط أربعة وعشرون ومن دون الوسط إثنا عشر درهما^(١) وعن هشام بن أبي رقية اللخمي أن صاحب إخواننا^(٢) قدم على عمرو بن العاص فقال له « أخبرنا ما على أحدنا من الجزية فيصبر^(٣) لها فقال عمرو وهو يشير إلى ركن الكنيسة . لو أعطيتني من الأرض إلى السقف ما أخبرتك ما عليك إنما أنتم خزائننا إن أكثر علينا أكثرنا عليكم وإن خفف عنا خففنا عنكم^(٤) » وهذا يبين لنا أن العرب لم يحددوا الجزية على أهل الذمة في مصر ، وإنما اكتفوا بفرضها عليهم كما يظهر ذلك من نص معاهدة بابلون ، وترك تقديرها للوالي أو الخليفة .
وذكر ابن عبد الحكم^(٥) في رواية له عن عبد الملك بن مسleme عن ابن وهبة عن يونس عن ابن شهاب « أن عمر بن الخطاب كان يأخذ ممن صالحه من

(١) أبو يوسف : كتاب الخراج ص ٦٩ ويحيى بن آدم القرشي : كتاب الخراج

ص ٥١ والماوردي : الأحكام السلطانية ص ١٣٨

(٢) إخواننا بالكسر ثم السكون والنون مقصور وبعض الناس يقول إخوانو ووجدته في غير نسخة من كتاب فتوح مصر بالجيم واحفيت في السؤال عنه بمصر فلم أجد من يعرفه إلا بالحاء وقال القاضي وهو يعدد كور الحوف الغربي وكورتا إخوانا ورشيد والبحيرة وجميع ذلك قرب الاسكندرية وأخبار الفتوح تدل على أنها مدينة قديمة (معجم البلدان لياقوت ج ١ ص ١٦٦) .

(٣) في المخطوط للقرظي ج ١ ص ٧٧ « فتصير لها »

(٤) ابن عبد الحكم : فتوح مصر (طبعة تورى) ص ١٥٣ — ١٥٤

وخطوط القرظي ج ١ ص ٧٧

(٥) المرجع نفسه ص ١٥٣

الماعدين ما سعى على نفسه لا يضع من ذلك شيئا ولا يزيد عليه ، ومن نزل منهم على الجزية ولم يسم شيئا نظر عمر في أمره فإذا احتاجوا خفف عنهم وإن استغنوا زاد عليهم بقدر استغنائهم » .

وكانت الجزية في مصر تدفع نقدا بالدنانير وكسور الدنانير ، وكان المصريون يعرفون تلك الضريبة حسب ما ورد في قطع « الاوستراكا » وفي أوراق البردي المكتوبة باليونانية باسم دُمُزْيَا δημοσια أما في أوراق البردي العربية فتعرف باسم الجزية^(١) .

وكما كانت الجزية تجبي من أهل اللمة كان يجبي من المسلمين الزكاة أو الصدقة ، ويقول القرظي^(٢) أن أول من جبي الزكاة بعصر السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب . ولكن أوراق البردي أثبتت غير ذلك ، إذ تبين منها أن الولاة في مصر كانوا يقومون بجباية فريضة الزكاة ويتسلم الأهالي إيصالا أو براءة بعد تأدية ما يجب عليهم من الزكاة بمقتضى الشريعة الإسلامية . ولدينا إيصال يرجع إلى القرن الثاني الهجري (سنة ١٤٨ هـ) عن زكاة بعض الأشخاص^(٣)

الملكية العقارية في مصر وضريبة الأرض أو الخراج

قبل أن نتعرض للتكلام على ضريبة الأرض أو الخراج يجدر بنا أن نعرف موقف الفاتحين أزاء أراضي المصريين . وهنا يعترض الباحث سؤال

Crum Coptic Ostraca, p. 3, 37, van Berchem : Une page (١)
Nouvelle de l'hist. d'Egypte p. 161., Becker: Neue Arabische Papyri
pp. 253-254, Grohmann: Arabic Papyri. vol. III .pp. 16-17

(٢) المخطوط ج ١ ص ١٠٨

Grohmann : Arabic Papyri vol. III. p. 177 (٣)

طالما واجه المؤرخين الأقدمين والمحدثين ، وهو « هل فتحت مصر صلحاً أم عنوة ؟ وذلك لأن الأراضى التى تفتح صلحا تكون فينا للمسلمين ^(١) فإذا كانت مصر فتحت صلحا ، بدون قتال وبمقتضى عهد ، يتفق المصريون مع الفاتحين على مقدار الجزية والخراج التى تدفع لهم دون أن يمس الفاتحون أراضى المصريين أو يأخذوها منهم عنوة وقهرا .

أما الأراضى التى تفتح عنوة فتكون فى حكم الغنيمة وتقسم بين الفاتحين طبقاً للآية الكريمة « واعلموا أنما غنمتم من شىء فإن لله خمسها وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شىء قدير ^(٢) » فالخمس الذى لله عز وجل مرادود من الله تعالى على الذين سمي الله (للرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) لا يوضع فى غيرهم ، وذلك إلى الأمام يضمنه فيمن حضره منهم بعد أن يجتهد رأيه ويتحرى العدل ، وما بقى بعد الخمس فهو للذين غلبوا عليه من المسلمين يقسم بينهم بالسوية ^(٣) .

وأما إذا كانت مصر فتحت عنوة فإنها تصبح غنيمة للفاتحين كما بينا سابقا وتخرج أراضى المصريين من أيديهم ولا يكون لهم أى حق فيها . ولذا يجب أن نعرف هل فتحت مصر صلحا أم عنوة ، لئلا نرى أى الأحكام طبقت عليها فيما يختص بالأراضى . وقد اختلف الأمر على المؤرخين

(١) الفى هو ما صلح عليه المسلمون من الجزية والخراج (ابن آدم القرشى :

كتاب الخراج ص ٣)

(٢) سورة الأنفال آية ٤١

(٣) ابن آدم القرشى : ص ٣ - ٤

في ذلك مثل ابن عبد الحكم^(١) ثم القريزي^(٢) وأبو المحاسن^(٣) والسيوطي^(٤) فزى المؤرخ الواحد منهم يكتب أن بعض الرواة ذكر أن مصر فتحت عنوة ، والبعض ذكر أنها فتحت صلحا ، وفريق ثالث قال إنها كلها فتحت صلحا إلا الأسكندرية أو الأسكندرية وبعض قرى الوجه البحرى فإنها فتحت عنوة .

فالرواة الذين أخذ عنهم هؤلاء المؤرخون والذين قالوا أن مصر فتحت صلحا إلا الأسكندرية يبررون نظريتهم بأن حصن بابلون - الذى حدد فتحه مصر السياسى - فتح صلحا لا عنوة عمقتضى المفاوضات التى جرت بين المقوقس وعمرو بن العاص ويثبتون نظريتهم بأنه كان للمصريين عهد بينهم وبين العرب . وأن الأسكندرية فتحت صلحا فى الفتح الأول ولكن لما انتفض الروم سنة ٢٥ هـ ، فتحها العرب عنوة وقهراً ، والفريق الذى يقول إن مصر فتحت عنوة يثبت نظريته بأنه لم يكن للمصريين عهد ولا عقد . وهنالك فريق وسط يقول إن مصر فتح بعضها صلحا والبعض الآخر عنوة كالأسكندرية وبعض القرى التى ظاهرت الروم على العرب .

على أنه مهما اختلفت آراء هؤلاء المؤرخين فإنهم لم يختلفوا أن مصر أجريت مجرى البلاد المفتوحة صلحا . وقد ذكرت آنفاً أن صلح بابلون

(١) فتوح مصر وأخبارها . طبعة العهد من ٧٤ - ٨٢

(٢) المخطوط ج ١ من ٢٩٤ - ٢٩٥

(٣) النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٩ - ٢٠

(٤) حسن المحاصرة ج ١ ص ٥٥ - ٥٦

عقد بمد فتح المسلمين للحصن عنوة وذكرت أن فتح الحصن هو الذى حدد مصير مصر السياسى . أى أن مصر فتحت عنوة ، وفى الوقت نفسه قبل العرب أن يمنحوا المصريين عهداً ، فالعرب فى الواقع كانوا يعتبرون أنفسهم محاربين للروم لا المصريين . كما أنه عند ما فتح العرب الإسكندرية سنة ٢٥ هـ عنوة كان فتحها انتصاراً على الروم وعلى قائد الأباطور قنسطنز الثانى ولم يؤثر ذلك فى عهد الصلح الذى أعطاه العرب للمصريين . ويؤيد ذلك الرأى ما ذكره البلاذرى^(١) فى رواية له عن عبد الله بن عمرو بن العاص . إذ قال « اشتبه على الناس امر مصر فقال قوم فتحت عنوة وقال آخرون فتحت صلحاً والتلج^(٢) فى أمرها أن أبى (يعنى عمرو بن العاص) قدمها فقاتله أهل اليونه^(٣) ففتحها قهراً وأدخلها المسلمين ، وكان الزبير أول من علا حصنها ، فقال صاحبها لأبى إنه قد بلغتنا فعلكم بالشام ووضمكم الجزية على النصرارى واليهود وإقراركم الأرض فى أيدي أهلها بممرونها ويؤدون حراجها فإن فعلتم بنا مثل ذلك كان أرد عليكم من قتلنا وسبينا وإجلائنا قال . فاستشار أبى المسلمين فأشاروا عليه بأن يفعل ذلك إلا نفرأ منهم سألوا أن يقسم الأرض بينهم ، فوضع على كل حالم دينارين جزية إلا أن يكون فقيراً وألزم كل ذى أرض مع الدينارين ثلاثة أرداب حنطة وقسطى زيت وقسطى عسل وقسطى خل ، رزقا للمسلمين بجمع فى دار الرزق وتقسم فيهم ، وأحصى المسلمون

(١) فتوح البلدان ص ٣١٤ - ٢١٥

(٢) التلج ما تملطن إليه النفس وترتاح له وتسر به

(٣) اليونه - يعنى بها بابليون

فأزم جميع أهل مصر لكل رجل مهم جبة صوف ورنساً^(١) أو عمامة وسراويل^(٢) وخفين في كل عام أو عدل الجبة الصوف ثوباً قبطياً^(٣) . وكتب عليهم بذلك كتاباً وشرط لهم إذا وفوا بذلك أن لا يتباع نساؤهم وأبناؤهم ، ولا يسبوا ، وأن تقرأ مواهمهم وكنوزهم في أيديهم ، فكتب بذلك إلى أمير المؤمنين عمر فأجازه وصارت الأرض أرض خراج ، إلا أنه لما وقع هذا الشرط والكتاب ظن بعض الناس أنها فتحت صلحاً . ولما فرغ ملك اليوننة من أمر نفسه ومن معه في مدينته صالح عن جميع مثل صلح اليوننة فرضوا به وقالوا : هؤلاء الممتنعون^(٤) قد رضوا وفتحوا . فنحن به أقنع لأننا فرش^(٥) لا منعمة لنا . ووضع الخراج على أرض مصر فحمل على كل جريب^(٦) ديناراً وثلاثة أراذب طعاماً وعلى رأس كل حالم

-
- (١) البرنس : قلنسوة طويلة كانت تلبس في صدر الإسلام . كل ثوب يكون غطاء الرأس جزءاً منه متصلاً به .
(٢) السروال لباس يستر النصف الأسفل من الجسم . والكلمة فارسية وهي مؤنثة وقد تذكر
(٣) كانت الأثواب القبطية مشهورة بدقة صنعها وغلاء ثمنها .
(٤) الممتنعون : الأقوياء المتحصنون الذين لا يقدر عليهم
(٥) فرش : المراد بها أهل فرش والفرش هو القضاء الولسع من الأرض
(٦) الجريب وحدة تقاس بها الأرض . قال الماوردي في الأحكام السلطانية ص ١٤٦
فأما الجريب فهو عبادة عن عشر قصباب في عشر قصباب والقدان الحال كما تعلم يساوي ٣٣٣ قصبه مربعة .

ويقول الأب أنستاس السكرملي في كتابه النقود العربية وعلم النبات ص ٣١ .
أن أهل البصرة يعرفون الجريب إلى عهدنا هنا وهو عدم نحو من مائة نخلة . ومن غير النخيل أرس سعتها هكتار . (الهكتار ١٠٠٠ متر مربع)

دينارين وكتب بذلك إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

ومن ذلك زى أن الأراضى تركت لأهل البلاد ولم تقسم بين الفاتحين .
وكذلك جاء في نص الصلح الذى أعطاه عمرو بن العاص لأهل مصر :
« هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم
وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم ويرمهم وبجرمهم لا يدخل عليهم شيء
من ذلك ولا ينتقص » (١) .

وورد أيضاً نص آخر أنه من الشروط التى اصطلح عليها أهل مصر
مع الفاتحين أن تكون « لهم أرضهم وأموالهم لا يتعرض لهم فى شيء
منها » (٢) .

وهكذا نرى أن العرب ابقوا أراضى مصر على حالها ولم يتعرضوا لها ،
بالرغم من فتحهم لمصر عنوة ، وذلك بناء على العهد بينهم وبين المصريين
وهذا مما يميزه الفقهاء للفاتحين ويفسرون ذلك بأن « الغنيمة جميع ما أصابوا
من شيء قل أو كثر حتى الأبرة إلا الأراضين فإن الأراضين إلى الأمام إن رأى
أن يخنسها ويقسم أربعة أخماسها للذين ظهروا عليها فعل ذلك ، وإن رأى أن
يدعها فينكأ للمسلمين على حالها أبداً فعل بعد أن يشاور فى ذلك ويخند رأيه
لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وقف بمضى ما ظهر عليه من الأراضين

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ٤ ص ٢٢٩ وابن خلدون : كتاب
التاريخ ج ٢ ص ١١٥ والقلقشندى : صبح الأعشى ج ١٣ ص ٣٢٤ وأبو المحاسن :
النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٤
(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر — طبعة المهد — ص ٦٤ ونخط الميرزى
ج ١ ص ٢٩٢ والسيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٥١

فلم يقسمها وقد قسم بعض ما ظهر عليه ^(١) «

ولاريب في أن عمر بن الخطاب أظهر حكمة بالغة باتباعه تلك السياسة وهي عدم تقسيم الأراضي بين الفاتحين ولا سيما أنه لم يفعل ذلك في مصر وحدها بل في العراق والشام . فانه لم يرد أن يشغل جنده بالزراعة والأراضي بينما الجهاد يناديهم في كل مكان ، كما أن العرب في جملتهم لم يكونوا أمة زراعية . ومن جهة أخرى رأى عمر بن الخطاب ألا يثير عليه سخط أهالي البلاد المفتوحة حتى يماونوه على تثبيت سلطان المسلمين ، كما أن أهل مصر وغيرها كانوا أعلم بزراعتهم وريهم ولا بد أن عمرا كان يسترضى جنده ويعوضهم عن امتلاك الأرض بمنحهم الأموال والبنايا الأخرى غير الأرض . ولعل أبلغ مثل يرينا سياسة عمر لإزاء الأراضي المفتوحة من حيث عدم تقسيمها بين الفاتحين ذلك الكتاب الذي بعث به إلى سعد بن أبي وقاص حين فتح العراق يقول فيه « أما بعد فقد بلغني كتابك تذكر فيه أن الناس سألوك أن تقسم بينهم مغانعهم وما أفاء الله عليهم فإذا أتاك كتابي هذا فانظر ما أجب الناس عليك به إلى العسكر من كراع ^(٢) ومال فاقسمه بين من حضر من المسلمين واترك الأرضين والأنهار لعمالها ليكون ذلك في أعطيات المسلمين فإنك إن قسمتها بين من حضر لم يكن لمن بعدهم شيء ^(٣) » .

الآن وقد عرفنا أن العرب أبقوا أراضي المصريين على حالها مجرد بنا أن نرى ما كانت عليه الملكية المقارية في مصر زمن الفتح وكيف أن الغزوات

(١) ابن آدم القرشي : كتاب الحراج ص ٤ — ٥

(٢) الكراع : اسم يطلق على الحبل والبغال والحمر

(٣) أبو يوسف : كتاب الحراج ص ١٣ — ١٤ وابن آدم القرشي : كتاب

الحراج ص ١٣ والبلادري : فتوح البلدان ص ٢٦٥ — ٢٦٦

الأجنبية التي توالى على مصر كانت سبباً في إضمار الملكية فيها ، إذ كان الغزاة ينزعون الأراضي من الأهالي أو يمنحونهاهم حق الانتفاع فقط .
وفي عهد الرومان وخاصة منذ القرن الثاني للميلاد ترى زيادة ملحوظة في الأراضي التي يمتلكها المصريون وكان أصحاب هذه الأراضي يؤدون ضريبة عقارية للدولة^(١) . ويقول Van Berchem^(٢) أن عمر بن الخطاب حول الأراضي التي فتحت خارج جزيرة العرب إلى أراضى وقف متبعا في ذلك ما اتبعه الرسول عليه الصلاة والسلام بشأن بعض أراضى جزيرة العرب . وكان عمر أراد بتحويله الأراضي المفتوحة إلى أراضى موقوفة أن يضمن للجماعة الإسلامية في عهده وفي المستقبل أملاكاً عامة ، لا يتصرف فيها . وإنما يديرها الخلفاء لصالح الجماعة الإسلامية .

على أنه لا يمكننا قبول نظرية الوقف هذه فيما يتعلق بمصر . فإذا كانت الأراضي قد صارت وقفاً في هذه البلاد كان ذلك معناه أن العرب منحوا المصريين حق الانتفاع بها فقط . ولكن صلح بابلون قد أقر أراضى المصريين على حالها وأمنهم عليها ، ونحن لانستطيع الجزم بأن المصريين كانوا يملكون حق الانتفاع فقط قبل الفتح ، خصوصاً وأنه وجدت ملكيات تامة زمن البطالسة وزادت تلك الملكيات في عهد الرومان . كذلك تدل الأوراق البردية التي ترجع إلى عهد الولاة على أنه كان يحق لأهالي مصر التصرف في الأراضي التي يملكونها بالبيع والشراء والتورث والهبة^(٣) ، وهذا طبعاً مما ينقض نظرية الوقف .

Jouguet: l'Egypte Gréco-Romaine p. 348

(١)

La Propriété territoriale. p. 23

(٢)

(٣) انظر جرومان : الأوراق البردية العربية . الجزء الأول من ١٢٩ — ١٣٠ ،

و ١٣٢ — ١٣٣ و ١٤٥ و ١٤٦ — ١٤٨

فرض العرب على أراضي المصريين ضريبة عقارية تعرف بالخراج ،
ونعرف مما ورد في أوراق البردى وما ذكره المؤرخون أن الخراج في مصر
كان يجبي عينا وتقداً ، ففي كتاب من قرّة بن شريك سنة ٩١ هـ إلى أهل
شبرا بسيرة من كورة أشقوه نجده يطلب منهم دفع متأخرات الجزية عليهم
بالدنانير ودفع ضريبة الطعام قحماً^(١) ، وضريبة الطعام هنا تعنى الخراج أو
جزءاً منه . كذلك حفظ لنا ورق البردى إيصالاً عن خراج سنة ٢٣٣ هـ
دفعه بعض الأشخاص ويتبين منه أن الخراج دفع تقداً^(٢) . وفي كتاب
آخر من قرّة بن شريك إلى صاحب أشقوه نجده يطلب منه أن يرسل إليه
القمح المفروض على أهل كورته ، ويخبره أنه إذا وجد الأهالي صعوبة في
دفع الضريبة غلة فلا بأس من دفعها تقداً ويحدد له ما يعادل عدداً معيناً
من الأرادب تقداً ، ولكنّه يطلب منه أن يعمل على إرسال القمح
للقنود^(٣) . ويذكر البلاذري^(٤) في رواية له عن عبد الله بن عمرو بن العاص
أنه جعل على كل جريب ديناراً وثلاثة أراذب طعاماً . وفي رواية أخرى
للبلادري^(٥) عن يزيد بن أبي حبيب أن أهل الجزيرة بمصر صولحوا في خلافة
عمر بعد الصلح الأول مكان الحنطة والزيت والعسل والنحل على دينارين
دينارين ، فألزم كل رجل أربعة دنانير فرضوا بذلك وأحبوه . ويذكر اليعقوبي^(٦)

Becker: Neue Arabische Papyri. p. 267, Grohmann : Arabie (١)

Papyri. vol. III. p. 48

Grohmann : ap. cit. vol. III. pp. 141-142 (٢)

Bell : Translations... (Der Islam, Band III) p. 271 (٣)

(٤) فتوح البلدان ص ٢١٥

(٥) المصدر السابق ص ٢١٦

(٦) تاريخ ج ٢ ص ١٧٦ - ١٧٧

أن عمرو بن العاص جبي من مصر أربعة عشر ألف ألف دينار من خراج رؤوسهم^(١) لكل رأس دينار وخراج غلاتهم من كل مائة أردب أردين . يتبين مما سبق أن الجزية كانت تدفع نقداً بينما كان الخراج يدفع عيناً ونقداً . وكان يطلق علي الضريبة التي تدفع عيناً في أوراق البردي العربية اسم « ضريبة الطعام » أما في أوراق البردي اليونانية فكانت تعرف باسم امبوليه εμβολη^(٢) . ويجدر أن نشير هنا إلى أن القمح كان أهم ما يجبي من ضريبة الطعام ، ولكن هذه الضريبة كانت تشمل أحياناً غير الغلال ، الزيت والملح وأنواع الطعام الأخرى^(٣) . وكان يصرف من المال الذي يجبي عطاه الجند المرابط في مصر^(٤) ، كما أن أرزاق الجند في مصر كانت تعتمد على ضريبة الطعام^(٥) .

وكان الخراج في مصر يجبي على أساس مساحة الأراضي التي يمتلكها الشخص كما كان الحال في عهد الرومان والبيزنطيين . على أنه كان يراعى في ذلك حالة فيضان النيل في كل عام ، لارتباطه بالزراعة ، وقد وضع ذلك تماماً من نص الصلح الذي أعطاه عمرو بن العاص لأهل مصر كما ذكرنا سابقاً . وكذلك كان يراعى في تقدير الخراج كمية المحصول التي تنتجها

(١) يعني بخراج الرؤوس هنا الجزية

(٢) Bell : op. cit. p. 271, van Berchem : Une page Nouvelle de l'histoire d'Egypte p. 161, Wiet : Hist. de la Nation Egyptienne T. IV, p. 169

(٣) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢١٥ و Art. Kibt, Encyclopaedia of Islam vol. II p. 998, Bell (der Islam. Band XVII p. 8)

(٤) Becker, Neue Arabische, pp; 251-252, Grohmann: Arabic

Papyri vol III pp; 12-18, van Berchem : Une page Nouvelle; p; 161

(٥) Bell : op. cit. p. 271, pp. 383-384, van Berchem op. cit p. 161

الأرض وحالة الأرض إذا كانت عامرة أو ضامرة . وقد كتب الماوردي^(١) في هذا المعنى فقال إن الأرض تختلف من ثلاثة أوجه يؤثر كل واحد منها في زيادة الخراج ونقصانه « أحدها ما يختص بالأرض من جودة يزكو بها زرعها أو رداءة يقل بها ريعها ، والثاني ما يختص بالزرع من اختلاف أنواعه من الحبوب والثمار؛ فمما ما يكثر ثمنه ومنها ما يقل ثمنه، فيكون الخراج بحسبه ، والثالث ما يختص بالسقي والشرب لأن ما التزم المؤنة في سقيه بالنواضح^(٢) والدوالي^(٣) لا يمتثل من الخراج ما يمتثله سقي السيج^(٤) والأمطار. ومن الناس من اعتبر شرطاً رابعاً وهو قربها من البلدان والأسواق وبعدها لزيادة أثمانها ونقصانها ، وهذا إنما يعتبر فيما يكون خراجه ورقاً^(٥) ولا يعتبر فيما يكون خراجه حباً^(٦) ، وتلك الشروط تعتبر في الحب والورق .

لاشك إذن في أن الضرائب التي كانت ترسل إلى الخلافة كانت عيناً ونقداً وأنه عقب الفتح مباشرة بدأت مصر ترسل القمح إلى المدينة كما كانت ترسله لروما ومن بعدها لبيزنطة . وهذا مما حدا للأب لامانس^(٧) Lammens على القول بأنه لم تكن لمصر سوى أهمية اقتصادية إذ كانت تنفج الحبوب وتدفع الضرائب .

والمعروف أن عمر بن الخطاب كتب في سنة ٢١ إلى عمرو بن العاص

(١) الأحكام السلطانية من ١٤٢ — ١٤٣

(٢) نضح البعير الماء : حمله من بئر أو نهر لسقي الزرع

(٣) الدالية : الناعورة يغيرها الماء والأرض تسقى بدلو أو بناعورة ، والجمع دوال

(٤) السيج : الماء الجاري الظاهر

(٥) الورق هنا بمعنى النقود

(٦) الحب بمعنى الغلال

يعلمه ما فيه أهل المدينة من الشدة ، ويأمره أن يبعث إليها ما يجمع من الطعام في الخراج ، فكان ذلك يحمل إليها ومعه الزيت . وانقطع في فتنة عثمان ثم همل في أيام معاوية ويزيد ، ثم انقطع إلى زمن عبد الملك بن مروان ، ثم لم يزل يحمل إلى زمن المنصور^(١) . ومن ذلك نرى أن مصر بدأت تميز الحجاز عقب الفتح مباشرة وكان ينقطع ذلك المورد أيام الفتن والثورات . وقد ذكر البلاذري أن الطعام ظل يرسل إلى خلافة أبي جعفر والمقصود هنا أنه ظل يرسل إلى زمن أبي جعفر عن طريق البحر ، وذلك لأن أبا جعفر أمر بطم خليج أمير المؤمنين الذي كان الوسطة بين مصر وبلاد العرب بحرا ، وقد كانت الغلال ترسل أولا إلى المدينة بوصفها مقر الخلافة ، ولكن الواقع أن إرسالها لم يبتل إلى يومنا هذا — إذا استثنينا فترات معينة — بالرغم من أنه حل محل المدينة عواصم أخرى للخلافة وبالرغم من التغيرات السياسية التي حدثت في مصر وفي الخلافة نفسها .

ولدينا بعض النصوص التي تشير إلى مقدار ما كان يرسل نقداً إلى بيت المال في مقر الخلافة . فيقال إنه في زمن معاوية أرسل واليه على مصر مسلمة ابن مخلد (٤٧ — ٦٢ هـ) ستائة ألف دينار^(٢) . إلى بيت المال ، بعد أن دفع عطاء الجند وأنفق على البلاد ما يحتاجه وبعد إرسال القمح إلى الحجاز ، ويذكر ساويرس^(٣) أن ما كان يحمل إلى بيت المال مائتا ألف دينار بعد النفقة على الأجناد وما يحتاج إليه البلاد .

ونلاحظ أنه وجدت في مصر منذ الفتح العربي أراض امتلكتها

(١) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢١٦

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر — طبعة توري — ص ١٠٢

(٣) سير الآباء البطارقة (Patr. Orient. T.V.) ص ١٨٩

حكومة العرب ، إذ كان هنالك قبل الفتح أراضٍ يمتلكها الأباطرة امتلاكاً خاصاً غير تلك الأراضى التي كان يمتلكها سائر أفراد الشعب سواء أكانوا من الروم أم من المصريين . فهذه الأراضى التي كانت ملكاً خاصاً للأباطرة أو التي هرب أهلها أو هلكوا زمن الفتح ، لا بد أنها آلت إلى الخليفة ، وارث الأباطرة في مصر ، فكان له حق التصرف فيها وكان تصرفه هذا لا يمس حقوق الأهالي ولا ينقض الصلح الذي أعطاه العرب للمصريين . وكانت حكومة العرب تتبع في الانتفاع بالضياء التي استولت عليها طريقة الإقطاع . وقد زادت هذه الضياء التابعة للحكومة زيادة كبيرة بما أضيف إليها من الموات أو الأرض المهجورة agri deserti أثناء الحكم العربي نفسه .

وتذكر النصوص أن عمر بن الخطاب أقطع ابن سندر أحد الصحابة منية الأصبع^(١) بمصر فغاز لنفسه منها ألف فدان ولم تزل له إلى أن مات . واشتراها بعده ذلك الأصبع بن عبد العزيز بن مروان من ورثته . وكانت أقدم وأفضل قطيعة بمصر^(٢)

ونلاحظ هنا أن نظام الإقطاع بدأ في عصر الولاة ولكن بده وتطوره يختلفان عن نظام الإقطاع في الغرب لأن من العوامل الأساسية في نشأة الإقطاع في الغرب وفي أسباب منحه رغبة الأمير أو الملك في أن يحصل على عون حربي ممن هو من الأمراء والأشراف . بينما لم يدخل العنصر الحربي في نظام الإقطاع الإسلامي في مصر إلا في نهاية العصور الوسطى على يد الأيوبيين ثم المماليك ، ودخل بأسلوب آخر ، يتلخص في انتفاع الجنود بدخل

(١) شمال القاهرة وموقعها الحالي قريب من ضاحية الدرداش

(٢) ابن عبد الحكم - طبعة تورى - ص ١٣٧ - ١٣٨ والمقرئى :

المخطوط ج ١ ص ٩٦ والسيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٦٦

الإقطاعات المختلفة بغير منحهم الأراضي للإقامة فيها وزراعتها . كما لم يوجد في الإقطاع بمصر حق الوراثة الذي كان يتمتع به أصحاب الإقطاع في أوروبا .
ونعرف أن الأراضي التي امتلكها المسلمون كان يدفع عنها المشر زكاة لها كما يزكى المسلم عن أنواع الأموال الأخرى . ويذكر الفقهاء أن الأرض الموات أرض عشر أيضاً أي أن من يحميها يدفع المشر ولا يؤدي عنها خراجاً^(١) . ومن الوجهة النظرية كان القبطى الذى يمتنق الإسلام تصيب أرضه عشرية ، ولا شك في أن ذلك حدث طويلاً ، ثم رأيت الحكومة أن في هذا جل الخطر على مالية القطر فأصبح نوع الضريبة متصلاً بالأرض نفسها وأصبح القبطى إذا اعتنق الإسلام لا تدفع أرضه من الخراج . والواقع أن هذه العملية يمكن الدفاع عنها من وجهة النظر المالية والاقتصادية ، لأن دخل الحكومة ومالياتها يجب أن يكونا مستقلين إلى حد كبير عن الظروف الخاصة غير المنظورة كاعتناق الأشخاص الدين الإسلامى وما إلى ذلك مما يصعب على الحكومة تقدير أثره في مالياتها . بل إن هذه القاعدة لم تلبث أن طبقت على العرب أنفسهم بحيث أنهم إذا اشتروا أرضاً عليها خراج جزية ظلوا يدفعون هذا الخراج الواجب عليها ولم تصيب هذه الأرض عشرية^(٢)

ونلاحظ أن الخراج الذى يفرض على الأرض التى صولح أهلها على أن تكون لهم يسمى خراج جزية ، أما الخراج الذى يفرض على الأرض التى صولح أهلها عليها على أن تصير وقفاً يسمى خراج أجرة . ولا يسقط عنها باسلامهم

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٧٠

Becker : Islamstudien t. II. p. 281

(٢)

أو بانتقالها إلى غيرهم من المسلمين بمكس خراج الجزية^(١) ولا نعرف أن مصر فرض عليها خراج أجرة لأن أرضها لم تكن وقفاً كما بينا ، وإنما كان خراجها خراج جزية . والواقع أن نظام الأرض في فجر الإسلام وما عليها من ضرائب عشرية أو خراجية كان نظاماً مطاطاً مرناً ولم يستقر إلا بعد ذلك بقرون طويلة . والمعروف أن الأرض في مصر في عصر الولاة أصبح يفرض عليها الخراج بمضى الوقت سواء أسلم مالكيها أو كانت ملكاً لأحد المسلمين . ونعرف أن القبط والمسلمين على السواء ثاروا في العهد العباسي من أجل زيادة الخراج زيادة أجهضت بهم .

ضرائب الصنائع والتجارة

كانت حكومة العرب منذ الفتح تفرض ضرائب على الصنائع والأجراء . وتقدر هذه الضرائب بقدر احتياهم^(٢) .

وكان العرب في مصر - كالبزنطيين - يفرضون ضرائب على التجارة وتعرف هذه الضرائب بالمكوس^(٣) .

ويقال إن ربيعة بن شرحبيل بن حسنة رضى الله عنه ، وكان ممن شهد فتح مصر من أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام ، كان والياً لعمرو بن

(١) الأحكام السلطانية ص ١٣١ - ١٣٢ و ١٤٠

(٢) ابن عبد الحكم : طبعة توري ١ ص ١٥٢ - ١٥٣

(٣) يذكر جرومان : Arabic Papyri. vol. III. p. 9 أن

كلمة مكس مشتقة من اللفظ السرياني ماكسو makso ، ويذكر الميرزي أن أصل المكس في اللغة الجبائية يقال مكسه يمكسه مكسا ، والمكس دزاهم كانت تؤخذ من بائع السلع في الأسواق في الجاهلية ، والمكس هو المشار ويقال للمعاشر صاحب مكس . والمكس أيضا انتقاس الثمن في البياعة ومكس درهم معناه نقص درهم في بيع ونحوه . وعشر القوم معناه أخذ عشر أموالهم ، والمشار هو قابض المعسر (المخطوط ج ٢ ص ١٢١)

الماضي على المكس في مصر^(١). وأثر عن زريق بن حيان الذي كان على مكس مصر زمن الخليفة عمر بن عبد المزني أنه قال « إن الخليفة كتب إليه أن يراقب من سي عليه من المسلمين فيأخذ مما ظهر من أموالهم وما ظهر له من التجارات من كل أربعين ديناراً ديناراً وما نقص بحسابه حتى تبلغ عشرين ديناراً ، فإن نقصت عن ذلك تركها ولا يأخذ منها شيئاً ، وإذا مر عليه أهل الزمة أخذ منهم من كل عشرين ديناراً ديناراً وما نقص فبحسابه ذلك حتى تبلغ تجارتهم عشرة دنانير ، فإن نقصت عن ذلك لا يأخذ منها شيئاً . وألا يأخذ من التجار مرة أخرى قبل انقضاء المام وأن يكتب لهم كتاباً بما أخذ منهم^(٢) .

ويظهر أن هذه الضرائب التي يحددنا عنها المؤرخون كانت تؤخذ من التجار الذين يتاجرون في مصر نفسها أعني أنها كانت تؤخذ على التجارة الداخلية . وكان مقر إدارة هذه الضرائب في الجهة التي عرفت باسم المقس وهي قرية أم دين التي كانت تقع شمال القسطنطينية ، وإنما سميت المقس لأن العاشر أو صاحب المكس كان مقره هناك فقبل المكس وقلب فقبل المقس^(٣) .

وثبتت أوراق البردي وجود هذه الضرائب التي تفرض على التجارة الداخلية^(٤) .

وكما اهتمت حكومة العرب في مصر بفرض ضرائب على التجارة

(١) خطط المقرزي ج ٢ ص ١٢٣

(٢) خطط المقرزي ج ٢ ص ١٢٢

(٣) المصدر نفسه ص ١٢١

(٤) Becker: Neue Arabische Papyri. p. 256 Grohmann: Arabic

Papyri. vol. III. p. 8, van Berchem: Une Page Nouvelle p. 164.

الداخلية في البلاد فإنها لم تنس أيضاً أن تفرض ضرائب على التجارة الخارجية التي تمر بثغورها أو التي ترد إليها أو تصدر منها . فيذكر المفريزي (١) أنه كان يجبي من التجار في الثغور المصرية ، وهي دمياط وتنيس ورشيد وعيناب وأسوان والأسكندرية ، ضرائب مقررة . فالكس قبل الإسلام كان عبارة عن حق فرض الضرائب على الأسواق ، أو حق فرض الضرائب التي تجبي في الموانئ والبلاد التي على الحدود المصرية ، وقد حافظ المسلمون على هذا الحق وقربوه من نظام الزكاة أو المشور (٢) .

الضرائب الأخرى

كانت حكومة العرب في مصر تفرض على المصريين ضرائب أخرى غير تلك التي ذكرناها ، ويمكننا اعتبار واجب الضيافة على أهل البلاد للجنود المسلمين الذين يعمرون في البلاد من هذه الضرائب ، فقد اشترط على القبط بعد فتح العرب لمصر أن من نزل عليه ضيف واحد أو أكثر من المسلمين وجبت عليه الضيافة لهم ثلاثة أيام (٣) . ولعل السبب الذي حدا بالعرب إلى ذلك هو أنهم في أول عهدهم بمصر كانوا جنوداً وكانت إقامتهم قاصرة على العاصمة التي بنوها لأنفسهم أو في الثغور لحمايتها ضد الأعداء . وواجب الضيافة هذا أخذه العرب من الرومان والبيزنطيين في مصر .

وقد ورد في نصوص أوراق البردي ذكر لضرائب غير عادية . ففري قرة بن شريك يطالب في رسائله إلى صاحب أشقوه بجمع تلك الضرائب

(١) المخطوط ج ١ ص ١٠٩

(٢) Van Berchem op. cit. pp. 164-165

(٣) ابن عبد الحكم ، طبعة المهد ص ٦٤ وخطط المفريزي : ج ١ ص ٢٩٢

والسيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ٥١

العادية أو بجبايتها من الناس بالمدل^(١) وربما كانت حكومة العرب تفرض هذه الضرائب تبعاً لزيادة مصروفات السولة عن إيراداتها . ونعرف أنه في ولاية موسى بن مصعب الخثعمي على مصر (١٦٧ - ١٦٨ هـ) فرضت ضرائب على أهل الأسواق والذواب^(٢)

لأولى ابن طولون نصر أئني ضرائب كان قد ابتدعها ابن المدر^(٣) ومحدثنا المقرئ^(٤) عن هذه الضرائب فيقول : إن أحمد بن محمد بن مدبر لما ولي خراج مصر بعد سنة خمسين ومائتين ابتدع في مصر بدعا صادرة مستمرة من بعده فأحاط بالظنون وحجر عليه بعد ما كان مباحا لجميع الناس وقرر على السكّال الذي ترماه البهائم مالا سماه الراعي ، وقرر على ما يطعم الله من البحر مالا سماه المصايد إلى غير ذلك ، فانقسم حينئذ مال مصر إلى خراجي وهلالى . والخراجي ما يجبي مسانحة ، أما الهلالى فهو ما يجبي مشاهرة . وكان الهلالى يعرف في زمن ابن المدبر وما بعده بالرافق والمعاون وهى التى ألتاها ابن طولون . ويلاحظ بيكر Becker حسب ما ورد فى أوراق البردى أن ابن المدبر ولى خراج مصر منذ سنة ٢٤٧ هـ لا كما يذكر المقرئى بعد سنة ٢٥٠ هـ^(٥) وتبين من أوراق البردى أنه فرضت ضريبة صراحي المواشى وضريبة الصيد بين سنتى ٢٤٧ و ٢٥٣ هـ^(٦) .

(١) Bell: op. cit. pp. 272, 281-282

(٢) السكندى : الولاة والفضاة ص ١٢٥

(٣) السكندى : ص ٢٠٥ - ٢١١ والمقرئى : ج ١ ص ٢١٢ - ٢١٣

Zaky M. Hassan : les Tulunides. p. 38 و

(٤) خطط ج ١ ص ١٠٣ و ١٠٧ - ١٠٩ و ج ٢ ص ٢٦٧

Zaky Hassan : op. cit. pp. 244-246 و

(٥) Zaky Hassan. op. cit. p. 37

(٦) جرومان : المحاضرة الرابعة عن الأوراق البردية العربية ص ٧

ونلاحظ على وجه الإجمال أن النظام المالى العربى كان مأخوذاً إلى حد كبير من النظام البيزنطى ، ولم يكن أخف منه وطأة إلا أنه كان يمتاز بتبسيطه بمض الشىء ، فقد أبطل العرب وخاصة فى أول عهدهم بالفتح بعض الضرائب الثقافه التى استحدثها البيزنطيون ، إلا أن النظام المالى فى مجمله لم يكن سوى صورة مماثلة للنظام البيزنطى . وقد زادت وطأة هذا النظام خاصة فى عهد أصحاب إقطاع مصر من الترك كما يتبين من أوراق البردى^(١)

نظام جباية الضرائب

اتبع العرب فى جباية الضرائب النظام الذى اتبعه البيزنطيون من قبل فكانت كل قرية مسئولة بالتضامن عن الضرائب المفروضة عليها .

فى كتاب من قرة بن شريك فى سنة ٩١ هـ إلى صاحب شبرا بسيرى من كورة أشقوه يذكر فيه أن على قرينته من جزية سنة ٨٨ هـ ١٠٤ ٢ دينا ومن ضريبة الطعام ١١ أردبا من القمح^(٢) ، وفى كتاب آخر أرسله سنة ٩١ إلى أهل شبرا أجييه بنوتيه من كورة أشقوه يذكر أنه أصابهم من جزية سنة ٨٨ هـ ٣٧ دیناراً^(٣) ، وفى كتاب ثالث أرسله سنة ٩١ هـ لأهل هروس ايرميوطس من كورة أشقوه ذكر أنه أصابهم من جزية سنة ٨٨ هـ ٢٨ ١/٢ دیناراً^(٤) . وكما كان الحاكم العام فى مصر فى عهد الرومان يقدر الضرائب التى تفرض على مختلف نواحى البلاد على أساس المعلومات التى يقدمها إليه

Zaky Hassan: op. cit. p. 244 (١)

Becker : Neue Arabische Papyri p. 267, Grohmann : Arabic Papyri vol. Ifl. p. 48 (٢)

Becker : op. cit. p. 267, Grohmann : op. cit. p. 51 (٣)

Becker : op. cit. p. 268, Grohmann op. cit. p. 54 (٤)

الحكام المحليون ، كذلك نجد العرب يتبعون نظاماً يشبه النظام السالف .
فقرى قرّة بن شريك يرسل إلى صاحب كورة أشقوه تعليمات خاصة بجباية
الضرائب فيأمره بجمع رؤساء كل قرية وذوى النفوذ فيها كي يختاروا
رجالاً أمناء أذكياء ليكلفهم بتقدير ما على كل قرية من الضرائب بقدر
استطاعتهم ، وبعد أن يقوموا بمهمتهم هذه تحت إشراف صاحب الكورة ،
يطلب منه أن يرسل إليه نتيجة عملهم بمد أن يحتفظ بنسخة لنفسه ، ويطلب
منه أيضاً أن يكتب أسماء والقباب ومحل إقامة هؤلاء الذين قاموا بتقدير
الضرائب ، ويندره بأنه إذا وجد أن قرية حملت أكثر مما تحتل من
الضرائب أو أقل فإنه سيعاقب هؤلاء الذين قاموا بتقدير الضرائب وصاحب
الكورة أيضاً أشد عقاب^(١) .

وهذا يؤيد ما ذكره ابن عبد الحكم^(٢) والمقرئى^(٣) والسيوطى^(٤)
من أنه لما استوثق الأمر لعمرو بن الماص « أقر قبطنها على جباية الروم ،
وكانت جبايتهم بالتمديد ، إذا عمرت القرية وكثر أهلها زيد عليهم وإن قل
أهلها وخربت نقصوا ، فيجتمع عرفاء كل قرية ومازوتها ورؤساء أهلها
فيتناظرون في المارة والخراب حتى إذا أقروا من القسم بالزيادة انصرفوا
بتلك القسمة إلى الكورة ، ثم اجتمعوا هم ورؤساء القرى فوزعوا ذلك على
احتمال القرى وسمة المزارع »

من هذا نرى أن صاحب الكورة هو الذى كان يتصل بالوالى أو عامل

Bell : op.cit p. 282

(١)

(٢) فتوح مصر ، طبعة تورى ، ص ١٥٢ - ١٥٣

(٣) المخطوط ج ١ ص ٧٧

(٤) حسن المحاضرة ج ١ ص ٦٣

الخراج لتأدية الضرائب الواجبة على كورته وعلى القرى التي تدخل في دائرة هذه الكورة ، ويشرف على تقدير هذه الضرائب رؤساء القرى وذوو النفوذ فيها تحت إشراف صاحب الكورة .

وقد قام في مصر في العصر المماليكي نظام آخر لجباية الضرائب وهو نظام قبالات^(١) الأراضى ، ويشبه نظام الالتزام ، الذى وجد في العهد الرومانى ، فيقول القرزى^(٢) : « وكان من خبر أراضى مصر ، بمد نزول العرب بأريافها واستيطانهم وأهاليهم فيها وأخذهم الزرع معاشا وكسبا وانقياد جمهور القبط إلى إظهار الإسلام واختلاط أنسابهم بأنساب المسلمين لنكاحهم المسلمات ، أن متولى خراج مصر كان يجلس فى جامع عمرو بن العاص من الفسطاط فى الوقت الذى تنهى فيه قبالة الأراضى وقد اجتمع الناس من القرى والمدن فيقوم رجل ينادى على البلاد صفقات صفقات وكتاب الخراج بين يدى متولى الخراج يكتبون ما ينتهى إليه مبالغ الكور والصفقات على من يتقبلها من الناس ، وكانت البلاد يتقبلها متقبلوها بالأربع سنين لأجل الظلم والاستجارة وغير ذلك ، فإذا انقضى هذا الأمر خرج كل من كان تقبل أرضا وضمها إلى ناحيته فيتولى زراعتها وإصلاح جسورها وسائر وجوه أعمالها بنفسه وأهله ومن ينتدبه لذلك ويحمل ما عليه من الخراج فى إبانه على أقساط ويحسب له من مبلغ قبالاته وضممانه لتلك الأراضى ما ينفقه على عمارة جسورها وسعة ترعها وحفر خلجها بضراية مقدره فى ديوان الخراج ويتأخر من مبلغ الخراج فى كل سنة فى جهات الضمان والتقبلين ، يقال لما

(١) يذكر دى ساسى أن كلمة قبالة معناها أن أحد الأشخاص يضمن دفع ضريبة معينة أو يلتزم بتنفيذ عهد أو ارتباط Sur la nature et les Révolutions du droit de propriété territoriale p. 200

(٢) المخطط ج ١ ص ٨٢

تأخر من مال الخراج البواقي . وكانت الولاية تشدد في طلب ذلك مرة وتسامح به مرة ، فإذا مضى من الزمان ثلاثون سنة حولوا السنة^(١) ورا كوا البلاد^(٢) كلها وعدلوا تمديلاً جديداً فزيد فيما يحتمل الزيادة من غير ضمان البلاد ونقص فيما يحتاج إلى التفتيش فيها ولم يزل ذلك يعمل في جامع عمرو بن العاص إلى أن عمر أحمد بن طولون جامعه وصار المسكر^(٣) منزلاً للأمرء مبرر فنقل الدبوان إلى جامع أحمد بن طولون »

من الوصف السابق نعرف أنه كان يقوم في جامع عمرو ثم في جامع ابن طولون مزاد لتقبل الأرض أو ضمان خراجها ، وكان التقبل لأربع سنوات (حتى تتبادل سنو المحصول الضميف بسنى المحصول الطيب) وكان المتقبل يخصم من المبلغ المطالب بدفمه ما ينفقه في كرى الترع وما إلى ذلك . ولسنا نعرف تماماً تفصيل علاقة التقبل مع رجال الإدارة

وقد ظهرت في العصر المباسي مسألة ضمان الوالى لخراج مصر كله وكان الخليفة أبو جعفر المنصور أول من أراد إدخالها في مصر^(٤) وتبين هذا مما ذكره السكندى^(٥) والمقرزى^(٦) عن محمد بن الأشعث والى مصر (١٤١) -

(١) تحويل السنة معناه تحويل السنين القمرية إلى شمسية فإذا جمع الخراج على حسب السنين القمرية فكأننا نجتمع الخراج في مدى ٣٢ سنة شمسية ثلاثاً وثلاثين سنة وهذا ضد طبيعة الأشياء . وعلى هذا تحذف سنة كل ٣٣ سنة قرية أى يحذف كل ٣٣ سنة قرية خراج سنة . وهذا ما يسمى لتحويل (خطط المقرزى ج ٦ ص ٧٣ De Sacy : Sur la Nature et les Revolutions p. 200 De Sacy : op. منهاها تهويم الأراضى ومسحها cit. p. 200

(٢) في الواقع كانت القطائع هى مقر أمراء الدولة الطولونية منذ أن بناها أحمد ابن طولون لا المسكر

Zaky M. Hasean : Les Tulunides pp. 248-244 (٤)

(٥) الولاية والقضاة ص ١٠٩

(٦) الخطط ج ١ ص ٣٠٦

١٤٣ هـ) إذ قالوا: « فلما استقر محمد بن الأشعث بمانعها بمث أبو جعفر إلى نوفل بن
الفرات أن أعرض على محمد بن الأشعث ضمان خراج مصر فإن ضمنه فأشهد
عليه وأشخص إلى وإن أبي فأعمل على الخراج ، فمرض عليه ذلك فأبى »
أى أن الخليفة أراد أن يجعل الوالى يلتزم بدفع مبلغ معين عن القطر كله .
ويبدو أن يرفض أى شخص أن يلى خراج مصر ، ولكن من العقول أن
يرفض ضمان خراجها مثلما فعل محمد بن الأشعث ، وذلك خشية العجز عن
القيام بما التزم به نظراً لاضطراب أمور البلاد فى كثير من الأحيان ، أو
لاحتياجه إلى المال للتنفقة على الإدارة وعلى الجنود .

وكانت الضرائب بمد الفتح — إذا استثنينا الضرائب غير المادية —
تجى كل سنة قرية . وكان المصريون قبل الفتح يعتمدون فى الزراعة والحصاد
وجباية الخراج على السنين الشمسية والشهور القبطية . وقد اضطرب الرب
إلى تحويل السنة الخراجية القبطية إلى السنة الهلالية المربية ، فكانوا يسقطون
سنة عند رأس كل اثنين وثلاثين سنة قرية ، وسموا ذلك الأزلاق لأن
لكل ثلاث وثلاثين سنة قرية اثنين وثلاثين سنة شمسية بالتقريب (١) .

وكان الأهالى الذين يقومون بدفع ما عليهم من الضرائب يتسلون
إيصالات عرفت فى أوراق البردى المربية باسم براءة (٢) وكان جابى الضريبة
المينية ينتخبه السكان ويسمى القبال (٣) ونسمع عن قبال قرية فى ورقة
بردية كتبت سنة ١٣٤ هـ (٤)

(١) انظر المهرزى — خطط ج ١ ص ٢٧٠ — ٢٧٣

(٢) Grum : Coptic Ostraca. pp; 36-37, Grohmann: Arabic Papyri
vol. III. p. 141-142

(٣) Papyri Schott-Reinhardt I. 45

(٤) Grohmann: Arabic Papyri vol. III. p. 102

وكانت الضرائب المينية المكونة من الجيوب ترسل إلى أمراء الماشح
أما الضرائب النقدية فكانت ترسل إلى ديوان الخراج والأموال^(٢)
طريق فروعه في الأقاليم ، وكان يشرف على كل فرع من فروع المال
الأقاليم موظف يسمى الجسطال^(٣)

ويظهر أنه كانت تتبع في مصر في ذلك العصر وسائل الشدة في
الخراج . ونعرف أن الليث بن الفضل والى مصر خرج إلى الخليفة الرشيد
سنة ١٨٧ هـ وسأله أن يبعث معه بالجيوش لأنه لا يستطيع استخراج الخ
من أهل الحوف إلا بجهش . ولكن محفوظ بن سليمان ضمن للتخليفة حيث
جباية خراجها عن آخره بلا سوط ولا عصا فولاه الخليفة الخراج^(٤)

كذلك تبين ورقة بردية عربية من القرن الثالث الهجري مدى الخ
التي كانت تتبع في جباية الأموال ، ففيها أمر بأنه إذا لم يؤد كل فرد ما
من الأموال بضرب عشرة سباط ويفرم في صلب ماله ديناراً^(٥) .

(١) :Translations of Greek papyri (Der Islam II) p. 271. 381

(٢) ديوان الخراج والأموال بمثابة وزارة المالية وقد وجد العرب في مصر
الديوان فأجهوه على حاله حتى أنه كان يكتب باليونانية والقطبية إلى أن أمر عبيد
ابن عبد الملك بتعريب هذا الديوان سنة ٨٧ هـ

(٣) : Neue Arabische Papyri. p. 353; Grohmann. op.

vol. III p. 17

(٤) الكندي : ص ١٤٠ و مترج ١ ص ٢٢١ — ٢٢٢

Grohmann · Arabic Papyri vol. III. p. 104

(٥)

النقود الإسلامية في مصر

كان بين البيزنطيين وبين الدولة الساسانية معاهدة خاصة بالعملة تفضي بأن يضرب الساسانيون نقوداً من الفضة فقط وبالأب يتخذوا عملة ذهبية سوى العملة الرومية ، ولهذا كانت عملة بلاد الفرس الجارية هي الدراهم الفضية ، بينما شاعت العملة الذهبية في بلاد الإسلام التي كانت تحت حكم الرومان من قبل (١)

وكان العرب في الجاهلية يتعاملون بالدراهم الفارسية وكانت من الفضة ، والدنانير البيزنطية وكانت من الذهب . فلما جاء الرسول عليه الصلاة والسلام أقرهم على ذلك ، وكذلك فعل من بعده خليفته أبو بكر الصديق (٢) . وتذكر بعض المراجع أن أول من ضرب النقود من الخلفاء هو عبد الملك بن مروان (٣) ، على أن القرظي (٤) يذكر أن عمر بن الخطاب أقر النقود على حالها إلا أنه في سنة ١٨ هـ ضرب الدراهم على نقش الفارسية وشكلها غير أنه زاد في بعضها « الحمد لله » وفي بعضها « محمد رسول الله » وفي بعضها « لا إله إلا الله وحده » . ولما بويع عثمان بن عفان بالخلافة ضرب دراهم ونقش عليها « الله أكبر » (٥) .

(١) آدم متر : الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٣١٦

(٢) البلاذري : فتوح البلدان ص ٤٦٥ - ٤٦٦ والمقرظي : النقود الإسلامية

ص ٢ - ٤

(٣) الماوردي : الأحكام السلطانية ص ١٤٨ والقلقشندي : مسيح الأعمى ج ١

ص ٤٢٤ وأبو الحسن : النجوم ج ١ ص ١٧٦

(٤) المقرظي : النقود الإسلامية ص ٤ - ٥ والمقرظي : إغاثة الأمة ص ٥١ - ٥٢

(٥) المقرظي : النقود الإسلامية ص ٥ وإغاثة الأمة ص ٥٢

فجر الإسلام - (٥) .

وقد سك معاوية في خلافته أيضاً دراهم ودنانير^(١) . ولما قام عبد الله ابن الزبير بمكة ضرب دراهم مدورة ، ويقال إنه أول من ضرب الدرهم المسمتديرة كذلك ضرب أخوه مصعب بن الزبير دراهم بالمرق ، فلما قدم الطنجاج بن يوسف العراق من قبل أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان أبطل تلك العملة وقال : « ما نبق من سنة الفاسق أو المنافق شيئاً »^(٢) .

غير أن هذه النقود التي سكها خلفاء الدولة الإسلامية وأمرؤها لم تثبت على وزن واحد بل كانت متميزة الأوزان^(٣) . كذلك كان العرب يتعاملون بالنقود الأجنبية جنباً إلى جنب مع النقود الإسلامية ، إلى أن ولي عبد الملك ابن مروان الخلافة وتمهدت له الأمور في الدولة بعد القضاء على منافسيه والخارجين عليه ، فأراد أن يصلح النقود ويوحدها في جميع المملكة الإسلامية ويستغنى عن النقود الأجنبية^(٤) .

(١) القرظي : النقود ص ٥٠ وإغاثة الأمة ص ٥٢ - ٥٣

(٢) القرظي . النقود ص ٥ - ٦ وإغاثة الأمة ص ٥٣

(٣) انظر القرظي : النقود ص ٤ - ٦ وإغاثة الأمة ص ٥١ - ٥٣

De Sacy : Traité des monnaies Musulmanes pp. 17-19 والأب انستاس

الكرمي : النقود العربية وعلم النميات ص ٢٧ - ٣٣

(٤) روى المؤرخون أن السبب الذي حدا بعبد الملك إلى هذا هو أن القراطيس كانت تدخل بلاد الروم من أرض مصر ويأتي العرب من قبل الروم الدنانير فكان عبد الملك بن مروان أول من أحدث الكتاب الذي يكتب في رؤوس الطوامير من (قل هو الله أحد) وغيرها من ذكر الله . فكتب إليه ملك الروم إنكم أحدثتم في قراطيسكم كتاباً نكرهه ، فإن تركتموه وإلا أتاكم في الدنانير من ذكر نبيكم ما تسكرهونه . قال فكبر ذلك في صدر عبد الملك وكره أن يدع سنة حسنة سنها فأرسل إلى خالد بن يزيد بن معاوية فاستشاره في ذلك فلم يكن منه إلا أن قال . حرم دنانيرهم فلا يتعامل بها واضرب للناس سكا ولا تصف هؤلاء الكفرة مما كرهوا في الطوامير . فقال عند الملك : فرجتها عن فرج الله عنك ، وضرب الدنانير (البلاذري . فتوح البلدان ص ٢٤٠ والمقرظي : النقود ص ٦ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٧٦ - ١٧٧)

ولما نرى عبد الملك يضرب الدينارين والدراهم في سنة ٦٧ هـ بعد تعديله في أوزانها مما يتفق والزيادة . وقد أرسل إلى الأمصار الإسلامية كلها لتضرب نقودها بمقتضى السكة التي ضربها عبد الملك^(١) . وربما عمل المؤرخين على القول بأن عبد الملك بن مروان أول من ضرب النقود في الإسلام كونه نظم سك النقود وجعلها وزناً واحداً وجعلها تسرى في جميع أنحاء المملكة الإسلامية ، لأننا وأينا أنه ضربت نقود فلا قبل عبد الملك . والحق أن لعبد الملك الفضل الأول في إصلاح السكة وتوحيدها في أسماء الدولة الإسلامية والامتناع عن النقود الأجنبية . وهذا مما يسهل كثيراً في انتظام المعاملات ، إذ أن كثرة ضرب العملات الموجودة في بلد ما تدعو إلى الاضطراب في التعامل ، وكان الخلفاء من بعد عبد الملك يضربون سكة على وزن سكته وأحياناً يغيرون في أوزانها . ولما انتهت الدولة الأموية سنة ١٣٢ هـ صار الخلفاء العباسيون يضربون سكا أيضاً .



تدل قطع « الاستراكا »^(٢) على أن المعاملات بين الأهالي في مصر قبل الفتح كان أسماها العملة الذهبية المروفة بالدينار tremision, solidus denarius^(٣) ، أي أن مصر كانت تتبع قاعدة الذهب^(٤) . ويذهب علماء الاقتصاد السياسي إلى القول بأن نظام المدين الفردي الذهبي لا يمنع استعمال

(١) انظر : القرظي : شعور النقود ص ٦-٨ والأب انتاس الكرميل :

النقود العربية ص ٣٤-٣٩

(٢) قطع من الفخار والأحجار ، كتبت عليها بعض الشعوب القديمة ، ولا سيما الأفرقيق والفرعنة والقط ، واستند منها علماء الآثار كثيراً من الحقائق التاريخية .

(٣) Crum : Coptie Ostraca. pp. 23. 45. 78. 79. 80

(٤) إذا كان أساس النظام النقدي في الدولة الذهب يقال إنها تتبع قاعدة الذهب

gold standard (الدكتور عبد الحكيم الرطاعي . الاقتصاد السياسي ج ١ ص ١٧٩)

نقود أخرى غير الذهب ، وبخاصة النقود الفضية ، ولكن الذهب يكون وحده هو العملة القانونية التي لها قوة إبراء غير محدودة^(١) ، وتعتبر النقود الأخرى عملة مساعدة^(٢) ، ولا نجد في الاستراكا سوى إشارة أو اثنتين إلى النقود الفضية في مصر وتعرف بالدرام^(٣) . ويظهر أن النقود الصغيرة التي كانت تستعمل في مصر إذ ذاك — كالفروش وكسورها اليوم — كانت العملة البرززية^(٤) .

ويقول المقرزي^(٥) : « أما مصر من بين الأمصار فما برح نقدها المنسوب إليه قيم الأعمال وأثمان المبيعات ذهباً في سائر دولها جاهلية وإسلاماً ، يشهد لذلك بالصححة أن خراج مصر في قديم الدهر وحديثه إنما هو الذهب » .

وتؤيد أوراق البردي وقطع الاستراكا ما ذكره المقرزي ، إذ تشهد كلها بأن الجزية والضرائب وإيجار لأراضي وأجور العمال وسائر المعاملات كانت تدفع بالدنانير وأقسامها ، وتصرف الدنانير في أوراق البردي اليونانية باسم solidi^(٦) . ويظهر أن مصر بعد الفتح كان يتعامل فيها بالدنانير الذهبية التي كان يتعامل بها قبل ذلك ، ولا بد أن النقود الإسلامية قد دخلت فيها

(١) أى تكون أداة للوفاء فإن القانون لا يعترف لفسرها بقوة الإبراء من الديون — عبد الحكيم الرفاعي : الاقتصاد السياسي ص ٤٤٨

(٢) عبد الحكيم الرفاعي : الاقتصاد السياسي ص ٤٨

(٣) Crum : op.cit. p. 23

(٤) Crum : op. cit. p. 23. 42. 45

(٥) النقود الإسلامية ص ١١ وإغانة الأمة ص ٦٢

(٦) Crum: Coptic Ostraca. pp.36—37, Bell:(der Islam 11).pp.271.

274 etc., Becker: Neue Arabische Papyri. pp. 254—267 etc., Orohmann

Arabic Papyri vol. 11. pp. 44, 45, 48, vol. 111. pp. 17, 31 48. 141

بعد الفتح . ويذكر Quatremère^(١) وSauvaire^(٢) أن الكاتب القبطي بشندي Picendi أسقف قفط الذي عاصر فتح العرب ، كتب كتاباً إلى أساقفة أمته (وهذا الكتاب محفوظ في مكتبة باريس) يقول فيه : « إن العرب أخذوا النقود الذهبية المنقوشة عليها الصليب المقدس وصورة السيد المسيح ومسحوا الصليب وصورة المسيح وكتبوا محلها اسم نبيهم محمد الذي يتبعون تعاليمه واسم خليفة نبيهم ونقشوا الامين مما على النقود الذهبية » .
وربما ظلت النقود الأجنبية في مصر يتعامل بها جنباً إلى جنب مع النقود الإسلامية حتى إصلاح عبد الملك بن مروان للسكة وتجرعه الدنانير الأجنبية ، أى أن السكة في مصر خضعت للسكة الإسلامية ، وهذا مظهر من مظاهر التبعية دون شك . ولم تستقل سكة مصر عن السكة المستعملة في الخلافة إلا بعد أن استقلت عنها كما حدث في عهد أحمد بن طولون^(٣) .
وفي ذلك يقول المقرئ^(٤) : « ومع هذا فإن مصر لم تزل منذ فتحت دار إمارة وسكها إنما هي سكة بنى أمية ثم بنى العباس إلا أن الأمير أبا العباس أحمد ابن طولون ضرب بمصر دنانير عرفت بالأحمدية » .

(١) Mémoires géographiques et Historiques sur l'Egypte t. I, p 343.

(٢) Matériaux (Journal Asiatique, Septième Série T. XIV) pp. 456—457.

(٣) Stanley Lane-Poole : Catalogue of the Collection of Arabic Coins preserved in the Khedivial Library at Cairo pp 135-6

(٤) النقود الإسلامية ص ١٢

٣ - النظام الحربي

١ - الجيش

بعد أن تم للعرب فتح مصر بقي بها جيش احتلال عربي ولم يشرك العرب المصريين في هذا الجيش ، ولم يرد في صلح بابليون أية إشارة تدل على السماح للمصريين بالاستئصال بالجندية . وربما دعا العرب إلى انتهاج تلك السياسة خوفاً منهم من أن يحمي المصريون روح القومية المصرية على حسابهم وأن يقوموا بطردهم من بلادهم متى حانت لهم الفرصة ، فأوأ من الحكمة أن يمدوهم عن الأعمال الحربية وألا يتركوا لهم إلا الأعمال المدنية . وربما كان العرب يشكون في كفاءة المصريين الحربية ، إذ كان المصريون زمن الفتح قد غمرتهم روح التواكل والاستسلام ، بينما كان العرب حينذاك شعباً يتقد حماساً وشجاعة ، ولم يكونوا قد تنصموا بمد وغمرتهم تلك الروح التي تنصر الشعوب حين تمتد الترف والرخاء .

ولا أدل على هذه الروح المضموية القوية وهذا الجهاد في سبيل الله من تلك الكلمات التي فاه بها عبادة بن الصامت رسول عمرو بن العاص أمناه المفاوضات التي جرت بين العرب والروم قبل فتح حصن بابليون ، إذ قال للمقوقس : « أنا قد وليت وأدبر شبابي وإني مع ذلك بحمد الله ما أهاب مائة رجل من عدوى لو استقبلوني جميعاً ، وكذلك أصحابي ، وذلك إنما رغبتنا وهمتنا الجهاد في الله واتباع رضوانه . وليس غزونا عدونا ممن حارب الله لرغبة في دنيا ولا طلب للاستكثار منها ، إلا أن الله عز وجل قد أحل لنا ذلك وجعل ما غنمنا من ذلك حلالاً . وما يبالي أحدنا إن كان له قنطار من ذهب أم كان لا يملك إلا درهماً لأن غاية أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها

يسد بها جوعه لليله ونهاره وشملة يلتحفها ، فإن كان أحدنا لا يملك إلا ذلك كفاه وإن كان له قنطار من ذهب أنفقه في طاعة الله واقتصر على هذا الذى بيده ، ويبلغه ما كان فى الدنيا لأن نعيم الدنيا ليس بنعيم ورخاءها ليس برخاء ، إنما النعيم والرخاء فى الآخرة ، وبذلك أمرنا الله وأمرنا به نبينا وعهد إلينا أن لا تكون همة أحدنا من الدنيا إلا ما يمسك جوعته ويستر عورته ، وتكون همته وشغله فى رضوانه وجهاد عدوه^(١) .

وقد حرم الخليفة عمر بن الخطاب على الجند فى مصر وفى سائر الأقاليم المفتوحة الاشتغال بالزراعة أو امتلاك الأرض ، لئلا يركنوا إلى الكسل ويسيطر عليهم حب المال والنعيم . والحق أن العرب بهرتهم ثروة البلاد التى فتحوها ، بل إن رغبتهم فى الانتفاع بخيراتها العظيمة كانت من الأهباب التى شجعتهم على المضى فى حروبهم وشجذت همهم للغزو والفتوحات^(٢) .

(١) خطط القرظى ج ١ ص ٢٩١

(٢) ليس فى هذا ما يشين الإسلام فى شيء ولا سب من قوم كالعرب لم تحمد الطبيعة على بلادهم بقى وخصب يجعلان العيش فيها سهلا مسورا . فانتظار الغنمة كان من أسباب الفتوحات الإسلامية فى القرن السابع الميلادى وظل من العوامل المعروفة فى الحروب حتى العصر الحديث . وحسبنا أن نذكر قول بونابرت للجنود الذين سار على رأسهم لغزو إيطاليا سنة ١٧٩٦ : « أيها الجنود ! أنتم عمارة وليس لديكم الغذاء الطيب الكافى والحكومة مدينة لكم بالكثير ، ولكنها لا تستطيع أن تعطىكم شيئا وسوف أقودكم الآن فى أخصب سهول الدنيا وستصبح فى يديكم مقاطعات غنية ومدن كبيرة ... »

ولا يفوتنا أن المؤرخين العرب أنفسهم قد فطنوا إلى هذا السبب الاقتصادى فكتب البلاذرى مثلا : « قالوا لما فرغ أبو بكر رضى الله عنه من أمر أهل الردة رأى توجيه الجيوش إلى الشام فكتب إلى أهل مكة والطائف واليمن وجميع العرب بنجد والحجاز يستفروهم للجهاد ويرغبهم فيه وفى غنائم الروم فسارع الناس إليه من بين محتسب وطامع وأتوا المدينة من كل أوب ... » (فتوح البلدان . ط القاهرة سنة ١٩٠١ س ١١٤) راجع أيضا

وقد بدا خطر هذه الروح للتخليفة عمر بن الخطاب فأراد كبح جماح الجند لأن واجب الجهاد كان يفاديهم في كل مكان ، فلم يرض بتقسيم الأراضي بينهم كما رأينا ، بل حرم عليهم الاشتغال بالزراعة . ويذكر ابن عبد الحكم^(١) في رواية له عن عبد الله بن هبيرة أن عمر بن الخطاب كتب إلى أمراء الأجناد بأن يمنموا الجنود من الزرع والمزراعة^(٢) لأن عطاءهم قائم ورزق عيالهم سائل .

وكتب الماوردي^(٣) أن من واجبات أمير الجيش « أن لا يمكن أحداً من جيشه أن يتشاغل بتجارة أو زراعة لصرفه الاهتمام بها عن مصابة العدو وصدق الجهاد » . ويرى Lane-Poole^(٤) أن من أسباب تلك السياسة أن الاستثمار الدائم كان بعيداً كل البعد عن تفكير عمر بن الخطاب ، وأنه كان حريصاً على أن يظل الجند على أهبة الاستعداد للانتفاع بهم في أى مكان آخر عن امتلاك الأراضي والاستقرار ليكونوا مستعدين دائماً للجهاد والحرب .

ولكننا لا نستطيع الأخذ بهذا الرأي فليس امتلاك الجند الأرض شرطاً للاستثمار المنظم . ولا يفتقر أن جيوش المسلمين كانت حملات للنهب والسلب . بل الأرجح أن عدم امتلاك الأراضي كان سياسة موضوعة وأنه جزء من سياسة نشر الدين الإسلامى ونفوذ المسلمين ، تلك السياسة التى حرص العرب على اتباعها في البداية فحببتهم إلى الشعوب التى غلبوها على

(١) فتوح مصر — طبعة تورى — ص ١٦٢

(٢) إذا أجز المالك جزءاً من أرضه وافتح مع المستأجر على أن يؤدي الايجار من المحصول عرف ذلك باسم الزراعة . وفي القاموس زارع فلان أى عامله على الأرض يهيم ما يخرج منها ويكون البذر من مالكها

(٣) الأحكام السلطانية ص ٤٢

A History of Egypt in the Middle Ages p. 15

(٤)

أمرها ، وكان لهذه السياسة أكبر الأثر في تثبيت أقدامهم في البلاد التي حلوا بها . فالاحتلال العربي يذكرنا بالاحتلال الروماني قديماً والاحتلال الإنجليزي حديثاً ، فإننا لا نلمس تدخلًا كبيراً من جانب تلك الشعوب في نظم البلاد المفتوحة رغم أنهم يستغلونها استغلالاً منظماً وينتفعون بثرواتها أيما انتفاع ويحتفظون لأنفسهم بالحكم والسيادة والرئاسة العليا لها . وطبيعي أن الكلام على « احتلال عربي » لا ينصرف إلا إلى الفترة السابقة لتعريب مصر واندماج المصريين والعرب لتأليف الأمة المصرية الحديثة .

ويزمرو المؤرخون تدوين الدواوين إلى الخليفة عمر بن الخطاب حين اتسمت رقعة الدولة الإسلامية في عهده ، فكان لا بد من ضبط الأموال وتقرير المطاع المفروض للأجناد وأسرانهم وما إلى ذلك مما تغلبه أمور الدولة بعد اتساعها ، وكان في مصر ديوان للجند تدون فيه أسماءهم وأسرانهم لتقرير المطاع والأرزاق اللازمة لهم . وأول من دون ديواناً للجند في مصر هو عمرو بن الماص ، ^(١) بن عبد العزيز بن مروان ^(٢) تدويناً ثانياً ، ودون قرعة ابن شريك التدوين الثالث ، ثم دون بشر بن صفوان (١٠١ - ١٠٣ هـ) التدوين الرابع ^(٣) . وكان الجند يثبتون فيه على حسب قبائلهم التي ينتمون إليها ، ونلاحظ هذا في نظام الجيش الذي فتح مصر ، إذ كان مقسماً على حسب القبائل ، وفي مدينة الفسطاط أيضاً التي اختطها العرب اتخذت كل قبيلة لنفسها خطة مستقلة عن القبائل الأخرى . وكان أهل الديوان في مصر

(١) في كتاب الولاية والقضاة يذكر السكندی أنه تدوين عمر بن عبد العزيز ابن مروان ، ولكن المقرئ يذكر أنه تدوين عبد العزيز بن مروان ، وهو الصحيح

(٢) السكندی ص ٧١ وخطط المقرئ : ج ١ ص ٩٤

زمن خلافة معاوية بن أبي سفيان أربعين ألفاً^(١). ويذكر ابن عبد الحكم^(٢) والمقريزي^(٣) أن معاوية بن أبي سفيان جعل على كل قبيلة من قبائل العرب رجلاً يدور على المجالس كل صباح ليسأل عما إذا كان مولود قد ولد فيهم أو ضيف حل بهم فيكتب أسماءهم وأسرانهم ويذهب إلى الديوان ليثبتهم فيه .

والذي حمل بشر بن صفوان على تدوينه الديوان ما رآه من تفرق قبيلة قضاة في القبائل الأخرى ، فاستأذن الخليفة يزيد بن عبد الملك ليستخرجهم من كافة القبائل ويجمعهم في قبيلة على حدة فأذن له بذلك^(٤) .

ونجد بعد هذا أن قبيلة قيس مثلاً تلتحق بالديوان زمن الخليفة هشام بن عبد الملك^(٥) . ومن يقرأ أخبار الولاة يجد عادة أن كل وال جديد يصحب معه نفرًا من قبيلته وعشيرته ، وكان هؤلاء الولاة عربًا حتى نهاية الدولة الأموية . أما في الدولة العباسية فقد جدت عناصر أخرى فارسية دونت في الديوان . ثم ما لبث أن ظهر عنصر آخر طمى على العنصر العربي والفارسي ، وقوام هذا العنصر الجديد الجند الأتراك الذين استكثر منهم المتصم وأثبتهم في الديوان . بل إن المتصم لم يقف عند هذا ، فقد أمر واليه على مصر كيدر نصر بن عبد الله باسقاط العرب من الديوان وقطع أعطياتهم في سنة ٢١٨ هـ ففعل ذلك كيدر^(٦) ، وكان من أثر هذا أن انتشر العرب في أنحاء مصر يسمون

(١) خطط المقريزي ج ١ ص ٩٤

(٢) فتوح مصر — طبعة تورى — ص ١٠٢ .

(٣) الخطط ج ١ ص ٩٤

(٤) الكندي : الولاة والقضاة ص ٧٠ — ٧١

(٥) الكندي ص ٧١

(٦) الكندي : ص ١٩٣ وخطط المقريزي : ج ١ ص ٩٤

وراء الرزق عن طريق آخر غير طريق الجهاد والحرب ، فاحترفوا الزراعة والتجارة والصناعة وغيرها من المهن والحرف التي كانت إلى ذلك الوقت وقفا على أهل البلاد .

ويستنبط من أوراق البردي أن الوالي كان يطلب المال من أصحاب الكور عند حلول موعد عطاء الجند وأسراتهم^(١) أو يطلب من أصحاب الكور إرسال ضريبة الطعام لتوزيع الأرزاق على أهل الديوان^(٢) .

ولسنا نعرف تماما المبادئ التي كانت تقدر على أساسها إعطيات الجند وهل كان ينظر إلى القبيلة وسابقتها في الإسلام وفضلها في الجهاد ، أو كان الأساس قدر ما على الشخص من التزامات عائلية . ولكن من المحتمل أن بعض الخلفاء كان يزيد إعطيات بعض القبائل استرضاء لها واصطناعاً لأبنائها ، ولعل عطاء الفارس كان ضئف عطاء الراجل ليستطيع أن ينفق منه على فرسه

ويذكر الماوردي أن تقدير المطاء كان بحيث يننى المرء عن الاشتغال بحرفة أخرى تشغله عن القتال والحرب . ومهما يكن ، فقد كان من الواجب أن يراعى في تقدير المطاء ثلاثة وجوه : أحدها عدد من يعوله الفرد من الدراري والماليك ، والثاني عدد ما عنده من الخيل والظهر^(٣) . والثالث ظروف الموضع الذي يحل فيه من الفلاء والرخص . وإذا مات أحدهم أو قتل يصبح عطاؤه إرثاً من بعده يأخذه ورثته . ويختلف الفقهاء في ذلك ، فبعضهم

Becker : Neue Arabische Papyri. pp. 251—252, Grohmann: (١)

Arabic Papyri vol. 111. pp. 12—13

Bell : Translations of the Greek Papyri (Der Islam, Band (٢)

11.) p. 271

(٣) الظهر : الركاب التي تحمل الأثقال

يقول إن ورثته يحالون على مال العشر والصدقة لأن عطاءه قد سقط بموته ،
والبعض يقول بأن يورث ورثته من عطاءه ، وهذا فيه تشجيع للجنود
على التجند .

ونحن نعرف من المصادر التاريخية أن العطاء لم يستمر على حال واحدة ،
فانخليفة عثمان بن عفان أول من زاد في عطاء الجنود^(١) ، ولكن هذه الزيادة
لم تستمر بده ، فبعض الخلفاء أبقاها والبعض منمها . فنجند مثلاً عمر بن
عبد العزيز (٩٩ - ١٠١ هـ) يكتب زيادة أعطيات الناس في ولاية أيوب
ابن شرحبيل (٩٩ - ١٠١ هـ)^(٢) وبأمر الخليفة يزيد بن عبد الملك بمنمها
(١٠١ - ١٠٥ هـ)^(٣) . كذلك كانت الحال فيما يختص بالأرزاق ففي
رواية عن ابن لهيعة أن أرزاق المسلمين كانت اثني عشر أردباً في كل سنة
فنقص أردبين أردبين فصار كل رجل إلى عشرة ، فلما ولي حفص بن الوليد
(في ولايته الثانية ١٢٤ - ١٢٧ هـ) سيرهم إلى اثني عشر اثنى عشر^(٤) .
ويجد ملاحظة كثيرة هذه الكمية التي كانت تصرف للفرد الواحد ، ولكن
المفروض أن كل رجل يعول أسرة . على أن إنقاص العطاء والأرزاق كثيراً
ما كان يثير اضطرابات ومشاكل عدة بين الأجناد العرب المقيمين في مصر ،
خصوصاً في أواخر الدولة الأموية وفي خلال الدولة العباسية عند ما أصبح
العرب يملكون أراضي زراعية ، إذ أصبحوا يؤدون خراجاً وفي الوقت نفسه
يأخذون عطاء ، وإنقاص العطاء أو زيادة الخراج يكون معناه زيادة الأعباء
المالية على العرب ، وهذا كان سبباً في ثوراتهم بمصر كما سنرى . ولا أدل على

(١) خطط الميرزى ج ١ ص ٩٣

(٢) الكندي : الولاة والفضة ص ٦٨

(٣) الكندي ص ٧٠

(٤) الكندي ص ٨٢

كثرة الاضطرابات والمشاكل التي قامت بين العرب بسبب المطاء والأرزاق من أنه في عهد ولاية الحسن بن التختاخ (١٩٣ — ١٩٤ هـ) بمصر ثاروا عليه حينما أعطاهم المطاء ثلثاً عيناً^(١) وثلثاً بزاً^(٢) وثلثاً قحاً ، ووقعت فتنة عظيمة قتل بسببها فريق من الجند ومن أهل مصر في المسجد الجامع وانقض أهل الرملة على بمض الأموال وهي في طريقها إلى دار الخلافة وأخذوا منها عطاهم كاملاً وقالوا . هذا عطاؤنا قد ساقه الله إلينا^(٣)

ولسنا نعرف كيف كانت الأعطيات تصرف للجند ، ولكن أكبر الظن أن الجند كانت فيهم رتب مختلفة من أمير وعريف وخليفة وقائد ونقيب وما إلى ذلك من الرتب التي لم تتبين تماماً الفرق بين كل منها في فجر الإسلام ، ومن المحتمل أن العرفاء كانوا يتسلمون الأعطيات ويتولون تفريقها على الجند ويظهر أنه كان هناك وقت معين يعرفه الجند أو أهل الديوان ، يتسلمون فيه عطاهم على رأس كل سنة . ويقال إن مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية قطع المطاء عن جند مصر سنة فكتب إليهم كتابا يمتدح فيه في السنة التالية ، ويقول « إني إنما حبست عنكم المطاء في السنة الماضية لمدوح حضرتي فاحتجت فيه إلى المال ، وقد وجهت إليكم بمطاء السنة الماضية وعطاء هذه السنة فكلوا هنيئاً مريئاً وأعوذ بالله أن أكون أنا الذي يجرى الله قطع المطاء على يديه^(٤) »

ومن أقوال الفقهاء في هذا الصدد^(٥) : « ويكون وقت المطاء معلوما

(١) العين : الذهب المضروب أو الدينار خلاف الفضة المضروبة

(٢) البز : الثياب من الكتان أو القطن . السلاح والجمع بزوز

(٣) الكندي : الولاة والفضة ص ١٤٦

(٤) الكندي ص ١٩٤ وخطط القرظي : ج ١ ص ٩٤

(٥) الماوردي : الأحكام السلطانية ص ١٩٥ — ١٩٦

يتوقعه الجيش عند الاستحقاق وهو معتبر بالوقت، الذي يستوفى فيه حقوق بيت المال، فإن كانت تستوفى في وقت واحد من السنة جعل العطاء في رأس كل سنة، وإن كانت تستوفى في كل شهر جعل العطاء في رأس كل شهر، ليكون المال مصر وفا إليهم عند حصوله فلا يجبس عنهم إذا اجتمع ولا يطالبون إذا تأخر، وإذا تأخر عنهم العطاء عند استحقاقه وكان حاصلًا في بيت المال كان لهم المطالبة به كالديون المستحقة، وإن أعوز بيت المال لعوارض أبطلت حقوقه أو أخرتها كانت أزراقهم دينًا على بيت المال وليس لهم مطالبة ولي الأمر به، كما ليس لصاحب الدين مطالبة من أعسر بدينه» كذلك اشترط على المصريين ضيافة الأجناد، فمن نزل عليه جندي أو أكثر وجبت عليه ضيافتهم ثلاثة أيام^(١)، وهذا كان يوفر على الخند كثيرًا من العناء عند انتقالهم من جهة إلى أخرى في أنحاء مصر.

ولا يسمح المقام هنا بأن نرض للتجنيد في الإسلام عامة من حيث إنه كان تطوعًا في البداية ثم دخله نوع من الإلزام في عصر بني أمية، فإنا لا نكاد نرى في المصادر العربية ما يساعد على أن نجعل غوامض هذه المسألة وأكبر ظننا أن حال التجنيد من تطوع وإلزام كان يتغير بين حين وآخر بتغير الأسماء واختلاف ظروف القتال وقوة الخلافة نفسها ونوع العناصر التي كانت تعتمد عليها في تكوين الجيوش الإسلامية.

وكان ملحقًا بالجيش طائفة تسمى المطوعة، وربما كان أساسها أهل البلاد الذين كانوا في جيش مصر أثناء الفتح العربي لها، وهذا لا يخالف ما ذكرناه من أن العرب أبدوا المصريين عن الاشتراك في الجيش

(١) ابن عبد الحكم — طبعة المعهد — ص ١٤ والمقرزي — خطط ج ١

ص ٢٩٢ والسيوطي: حسن المحاضرة ج ١ ص ٥١

إذ أن هؤلاء المطوعة لم يدخلوا في صلب الجيش ولم يشتركوا اشتراكاً فعلياً فيه ، وينقلب على الظن أنهم كانوا يقومون بأدوار ثانوية في خدمة الجيش وفي أوقات الضرورة القصوى كما كان عملهم مقصوراً على مصر وحدها ، ولم يكن هؤلاء المطوعة عطاء ولم يشتوا في الديوان ، إنما كان عطاؤهم من الصدقات . فيذكر الكندي^(٢) أن مواحيز^(٣) مصر كان يعمرها أهل الديوان وطائفة المطوعة ، وكانت أحباس السبيل^(٤) التي يتولاها القضاة تجمع في كل سنة فإذا جاء شهر أيب فرق القاضي أموال السبيل التي جمعت من الأحباس على المطوعة ، ومن كان فقيراً من أهل الديوان الذين يشغلون مواحيز مصر من العريش إلى لويبة ومراقية^(٥) .

ويحسن هنا أن نشير إلى اهتمام الخلفاء بأمر حامية مصر وذلك لأهمية موقعها ، فصر تقع في منطقة يسهل منها التوسع جنوباً وغرباً وشرقاً بل وشمالاً عن طريق البحر الأبيض المتوسط ، أي أنها قاعدة للفتوحات والتوسع ما دامت محتفظة بقوتها ، أما إذا تطرق إليها انضعف فإن العدو يهددها من هذه الجهات . أي أن مركز مصر يتطلب السهر دائماً على شئونها والعناية

(٢) الولاة والقضاة س ٤١٨ — ٤١٩

(٣) الماحوز : المكان الذي يكون بين القوم وبين عدوهم وهو من استعمال أهل الشام ، ويذكر Dozy أن الماحوز في سوريا معناه الحدود (Supplément aux dictionnaires Arabes)

(٤) أحباس السبيل : الأوقاف التي توقف في سبيل الله

(٥) صحافية : اسم لحد مصر الغربي بينها وبين برقة . في خطط القرينى ج ١ ص ١٦ قال القضاة : الذي يقع عليه اسم مصر من العريش إلى آخر لويبة وصحافية وفي آخر أرض صحافية تلي أرض انطابلس وهي برقة ، وفي ابن عبد الحكم — طبعة تورى — ص ١٧٠ لويبة وصحافية كورتان من كور مصر الغربية مما يشرب من السماء ولا ينالها النيل .

بالجيش الذى يجمعها . وليس غريباً أن ترى الرواة ينسبون إلى الرسول صلوات الله عليه وسلامه أحاديث خاصة بهذا الشأن ، فقد روى عبد الله بن هزيمة عن حديث لمعرو بن العاص أنه قال « حدثني عمر أمير المؤمنين رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إذا فتح الله عليكم بمصر فأتخذوا فيها جنداً كثيفاً فذلك الجند خير أجناد الأرض . قال أبو بكر رضى الله عنه : ولم ذلك يا رسول الله ؟ قال : لأنهم فى رباط إلى يوم القيامة^(١) » وروى أيضاً أن عمرو بن العاص قال فى خطبة له بمصر : « واعلموا أنكم فى رباط إلى يوم القيامة لسكت الأعداء حولكم وإشراف قلوبهم إليكم وإلى داركم ممدن الزرع والمال والخير الواسع والبركة النامية^(٢) » ولا بد أن حامية مصر قد زادت بعد الفتح زيادة كبيرة ، ونعلم أن حامية الاسكندرية أو رباطها كانت إثني عشر ألفاً (٤٣ - ٤٤ هـ) ، ولكن قائد هذا الرباط كتب إلى عتبة بن أبي سفیان وإلى مصر يشكو قلة من معه من الجند وأنه يتخوف على نفسه وعليهم^(٣) . ونستطيع أن نلخص هذه الزيادة الكبيرة إذا تذكرنا أن الجيش الذى قدم إلى مصر لفتحها قبل ذلك بنحو عشرين عاماً كان كله يتراوح بين ١٢ ألفاً و ١٥ ألفاً من الجنود .

وقد ظلت مصر طوال هذا العهد قاعدة للفتوحات والتوسعات تخرج منها جيوش الخلافة جنوباً وغرباً ، إما لتأمين حدودها مثل تلك الحملات التى ذهبت لفتح النوبة أو لفتح بركة ، وأما لمشاركة جيوش الخلافة فى حملاتها للتوسع غرباً ، فعند ما ولى عبد الله بن سعد بن أبي سرح مصر فى خلافة

(١) خطاط المقرئى ج ١ ص ٢٤

(٢) المرجع نفسه ص ٢٦

(٣) الكندى ص ٣٦

عثمان بن عفان خرج منها لغزو أفريقية^(١) .

وفي خلافة معاوية بن أبي سفيان خرجت جيوش الخلافة من مصر لغزو أفريقية أيضا . ومن القواد الذين اشتهروا بغزوها في عهد معاوية عقبة ابن نافع الفهري^(٢) وغزيت أفريقية من مصر أيضا في خلافة عبد الملك بن مروان^(٣) ، وفي أوراق البردي أن المصريين اشتركوا في الأسطول الذي ذهب لغزو أفريقية بجرا في خلافة الوليد بن عبد الملك^(٤) ، والواقع أن غزو أفريقية كان منذ البداية على يد الجند من الحامية العربية في مصر .

وكتب البلاذري « كان أهل برقة ييمثون بخراجهم إلى والي مصر من غير أن يأتيهم حاث أو مستحث فكانوا أخصب قوم بالمغرب »^(٥) وكان إخضاع برقة وطرابلس على يد جنود عمرو بن العاص ، ولكن فتح شمال أفريقيا بدأ سنة ٢٧ هـ (٦٤٧ م) بقيادة خلفه في ولاية مصر عبدا لله ابن سعد ومعه جنود من حامية مصر وجنود آخرون أمده بهم الخليفة عثمان بن عفان . وقد نجح الجيش الاسلامي في الوصول إلى الموضع الذي تقوم فيه الآن مدينة القيروان ، ثم انحدر إلى الجنوب الغربي وأوقع بجيش البيزنطيين هزيمة منكرة عند سببطله وأصاب غنائم كثيرة ، ولكن البيزنطيين كانت لهم حاميات أخرى في قلاع حصينة ومدن منيعة ، ولعل

(١) ابن عبد الحكم : طبعة ثوري من ١٨٣ — ١٨٤ والبلاذري : فتوح

البلدان من ٢٢٦ — ٢٢٧ والسكندی : الولاية والقضاة من ١٣

(٢) ابن عبد الحكم من ١٩٤ — ١٩٧ والبلاذري : فتوح البلدان من

٢٢٧ — ٢٢٨ .

(٣) ابن عبد الحكم . شرحه من ٢٠٠ — ٢٠١ والبلاذري . شرحه .

من ٢٢٩ .

(٤) Bell : op. cit (der Islam II) p. 279

(٥) فتوح البلدان من ٢٣٢

عبد الله بن سعد كان يخشى أن يوردوا إلى المهجوم فقبل ما عرضه عليه عظماء إفريقية حين تقدموا إليه بأن يترك البلاد على أن يأخذ منهم غرامة حربية كبيرة . فرجع الجيش إلى مصر مثقلا بالفنائم بعد حملة دامت نحو عام كامل أدرك فيها ضعف إفريقية وسهولة فتحها وبذر فيها الفوضى وشجع قبائل البربر على الخروج على طاعة البيزنطيين .

وكان منتظرا أن يعود العرب في مصر إلى غزو إفريقية ولكن أزمة الخلافة والنزاع بين علي ومعاوية والشأن الذي كان لمصر في الثورة على عثمان ثم النزاع على الخلافة من بعده كل ذلك ترك لأفريقية فترة هدوء وسلام وأبعد عنها الفاتحين المسلمين نحو سبعة عشر عاما .

ولما استقر الأمر لبني أمية عاد عمرو بن العاص إلى ولاية مصر وعاد الجند المسلمون في مصر إلى التطلع نحو الغرب ولكن عمرو بن العاص توفي سنة ٤٣ هـ (٦٦٣ م) وخلفه ابنه عبد الله ثم عزله الخليفة معاوية وولى معاوية بن حديج زعيم الحزب الأموي بمصر أثناء النزاع بين علي ومعاوية . وخرج معاوية بن حديج إلى أفريقية بأمر من الخليفة على رأس جيش من حامية مصر سنة ٤٤ هـ (٦٦٤ م) . فهزم جيشا بيزنطيا كبيرا نزل من البحر عند Hadrūmetum (سوسة الحالية) واستولى على حصن جلولاء ثم رجع إلى مصر محملا بالفنائم .

وأتى بعد ذلك دور احتلال إفريقية وفتحها فتحا منظما ، وكان ذلك على يد عقبة بن نافع الذي شيد مدينة القيروان سنة ٥٠ هـ — (٦٧٠ م) وبالرغم من ذلك فإن إفريقية لم تصبح في عهده ولاية قائمة بذاتها تتبع الخلافة مباشرة ، بل ظلت ملحقة بولاية مصر ، بل إن عقبة بن نافع نحى عن حكمها حين عهد معاوية بن أبي سفيان بولاية مصر والمغرب لسلمة بن مخلد الأنصاري

فولى المغرب أبا المهاجر أحد مواليه . ولكن عند ما ولى الخلافة يزيد بن معاوية رد عقبة بن نافع إلى قيادة المسلمين في إفريقية سنة ٦٢ هـ (٦٨١ م) فقام بحملة واسعة النطاق في شمالى إفريقية هزم فيها جيوشاً من الروم والبربر وتقدم إلى أن وصل إلى شاطئ المحيط عند طنجة ، ويروى أنه قال حينئذ : « يارب لولا هذا البحر لضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك » . على أن عقبة لم يحسن سياسته ولم يفد من هذه الانتصارات ، بل اتحد ضده الروم والبربر بزطامة كسيلة . وقتل عقبة وأنهزم جيشه سنة ٦٤ هـ (٦٨٣ م) واضطر المسلمون إلى التخلي عن كل فتوحاتهم غربى برقة وارتد عن الإسلام معظم البربر الذين كانوا أسلموا قبل ذلك .

ولم يستطع المسلمون أن يبادروا بالأخذ بالثار ، فقد شغلهم عن ذلك ما كان من نزاع بين الخليفة عبد الملك بن مروان ومناقسه عبد الله بن الزبير ، ثم انتهز عبد الملك فترة هدوء فأرسل إلى إفريقية جيشاً سيره أخوه وعامله على مصر عبد العزيز بن مروان ، وعقد لواءه لزهير بن قيس البلبى . واستطاع المسلمون أن يهزموا جيوش الروم والبربر سنة ٧٠ هـ (٦٨٩ م) وقتل في هذه المعركة كسيلة زعيم البربر وترك زهير بن قيس حامية بالقيروان ورحل يريد الرجوع إلى مصر ولكنه فوجئ في برقة بحملة أنزلها الروم من البحر حين بلغهم أنه تقدم من برقة إلى إفريقية وترك برقة خالية فعاثوا فيها فساداً وقتلوه هو ومن معه حين عادوا من إفريقية في طريقهم إلى مصر وكان النصر للبيزنطيين وقتل زهير ومعظم جنوده . وعزم الخليفة عبد الملك ابن مروان على الانتقام لهذه الهزيمة وكان النزاع بينه وبين عبد الله بن الزبير قد انتهى بقتل عبد الله ، فاستطاع الخليفة أن يرسل إلى إفريقية جيشاً كبيراً بقيادة حسان بن النعمان الفسائى . ونجح هذا الجيش في طرد الروم من

قرطاجنة بمساعدة الأسطول الإسلامي سنة ٨٧٧ (٦٩٨ م) ثم تحول إلى البربر في جبل أوراس حيث نجحت زعيمتهم « السكاهنة » في توحيد كلمتهم وهزمت المسلمين . فتقهقر حسان ومن بقى من جيشه إلى برقة . وظل فيها خمس سنين ، كانت السكاهنة خلالها تحكم إفريقية حكما مطلقا قوامه الظلم والفساد ، والظاهر أنها ظنت أن المسلمين يريدون استفلال بلادها ، وحمل الفنائم منها فلجأت — حين شعرت بقرب هجومهم — إلى تخريب البلاد وهدم المائر وقطع الأشجار مما أثار الحضر والمشتغلين بالزراعة من سكان البلاد سواء كانوا من البربر أم من الروم ، واستطاع المسلمون بقيادة حسان ابن النعمان أن يفيدوا من هذه الحال ، ورحب بهم كثيرون من السكان واستطاعوا أن يوقعوا بجيش السكاهنة هزيمة منكرة ، وانتهت بقتلها مقاومة البربر . وعاد حسان إلى القيروان ثم عزله الوليد بن عبد الملك . وفي سنة ٨٨٦ (٧٠٥ م) . أرسل الخليفة إلى إفريقية موسى بن نصير واليا على البلاد يحكمها من القيروان ويتبع الخليفة مباشرة . وهكذا أصبحت إفريقية منذ ذلك الحين ولاية مستقلة في حكمها عن مصر ، بعد أن كانت منذ بدأ الفتح تنبمها في الإدارة وتلقى منها الجيوش الفاتحة .

على أن مصر لم تكن مركزا للممليات الحربية البرية بحسب ، بل كان على المسلمين أن ينفوا بحماية سواحلها ، وقد أثبتت الحوادث أنهم كانوا محقين في ذلك ، فكثيرا ما أغار الروم على الأسكندرية أو غيرها من الثغور . وقد رأينا أن الروم تقضوا العهد بينهم وبين المسلمين وأغاروا على الأسكندرية سنة ٢٥ هـ ونقدموا منها إلى الدلتا يريدون إخراج المسلمين من مصر . وتم طرد الروم على يد عمرو بن العاص .

كذلك اشتبك عبد الله بن سعد أثناء ولايته على مصر مع الروم في

سنة ٣٤ هـ (٦٥٤ م)، وكانوا تحت قيادة الأباطور قنسطانز الثاني^(١) (٦٤١ م ٦٦٨ م) الذي كان يحاول طرد العرب من مصر واسترداد الأسكندرية كما فعل في سنة ٢٥ هـ (٦٤٥ م) ويقال إن سراكب الروم في هذه الغزوة كانت ألف مركب أو سبعمائة، أما المسلمون فقد لقوا في مائتي مركب، ورغم هذا فقد انتصر المسلمون عليهم، وتعرف هذه الغزوة بغزوة ذى الصواري لكثرة صواري المراكب واجتماعها^(٢)، ويقال إن هذه الغزوة كانت في سنة ٣٥ هـ (٦٥٥ م) وأن ريحا شديدة فرقت الروم^(٣)، وقد تتابعت غزوات الروم بعد ذلك على الشواطئ المصرية، ففي إمرة مسلمة بن مخلد على مصر نزل الروم بالبرلس في سنة ٥٣ هـ ففرج المسلمون إليهم براً وبحراً واستشهد في تلك الغزوة وردان مولى عمرو بن العاص^(٤)، ثم نزل الروم على دمياط في سنة ٩٠ هـ في خلافة الوليد بن عبد الملك^(٥) أى أن غزوتهم هذه كانت في أوائل ولاية قررة بن شريك على مصر (٩٠ - ٩٦ هـ) أو في أواخر ولاية عبد الله بن عبد الملك (٨٦ - ٩٠ هـ)، وكذلك نزل الروم بتنيس^(٦)

(١) يجدر أن نشير هنا إلى أن المراجع العربية تذكر دائماً قنسطانز بن هرقل لا قنسطانز.

(٢) ابن عبد الحكم ص ١٨٩ - ١٩٠ والكندى ص ١٣. وخطط

المفريزي ج ١ ص ٢٢٩.

(٣) ابن عبد الحكم ص ١٩١.

(٤) الكندى: الولاة والقضاة ص ٣٨ وخطط المفريزي ج ٢ ص ١٩٠.

(٥) خطط المفريزي ج ٢ ص ٢١٤.

(٦) تنيس: بكسرتين وتشديد النون وياه سا كنة والسين مهملة: جزيرة في بحر مصر (يعنى هنا بحيرة المنزلة) قريبة من البر ما بين دمياط والفرما في شرقها (ياقوت: معجم البلدان ج ١ ص ٨٨٢). ويقول المفريزي في الخطط ج ١ ص ١٨١ «وما زالت تنيس مدينة عاصرة ليس بأرض مصر مدينة أحسن منها ولا الحصن من عماراتها إلى أن خربها الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب في سنة أربع وعشرين وستمئة فاستمرت خراباً».

في سنة ١٠١ هـ في إمرة بشر بن صفوان (١٠١ — ١٠٢ هـ) وقتل في تلك الغزوة أميرها مزاحم بن مسleme المرادى^(١) في جمع من الموالى^(٢) وفيهم يقول الشاعر :

ألم ترع فتخبرك الرجال بما لاقى بتئيس الموالى^(٣)

وفي خلافة هشام بن عبد الملك نزل الروم دمياط في إمرة حنظلة بن صفوان الثانية على مصر في ثلثمائة وستين مراكباً فقتلوا وسبوا ، وذلك في سنة ١٢١ هـ^(٤) . ويذكر المقرئ^(٥) أنه لما قامت الفتنة بين الأخويين محمد الأمين وعبد الله المأمون وما استتبع ذلك من الفتن في مصر طمع الروم في هذه البلاد ونزلوا دمياط في أعوام بضع ومائتين . كذلك أغار الروم على مصر في ولاية عنبسة بن إسحاق فنزلوا بدمياط سنة ٢٣٨ هـ وملكوها وقتلوا وسبوا عدداً كبيراً منها ثم مضوا إلى تئيس وأقاموا بأشتومها^(٦) ، ويظهر أن غزو الروم في تلك المرة كان وقعته شديداً ؛ فان الخليفة المتوكل أمر ببناء الحصون في دمياط وتئيس والفرما ، فأنفقت في ذلك الأموال العظيمة ، وبدى في بناء حصن دمياط سنة ٢٣٩ هـ^(٧) .

-
- (١) في السكندى ص ٧٠ . يقول إنه « ابن أحرر بن مسleme المرادى » .
 - (٢) الموالى هنا معناها أهل البلاد الوطنيين أو المصريين .
 - (٣) السكندى ص ٧٠ وخطط المقرئ ج ١ ص ١٧٧ .
 - (٤) خطط المقرئ ج ١ ص ٢١٤ .
 - (٥) خطط المقرئ ج ١ ص ٢١٤ .
 - (٦) الأشتوم بالضم ثم السكون والنون وتاء مثناة مضمومة والواو ساكنة وميم موضع قرب تئيس (يا قوت . معجم البلدان ج ١ ص ٢٧٦) .
 - (٧) للسكندى ص ٢٠١ — ٢٠٢ وخطط المقرئ ج ١ ص ١٨٠ — ٢١٤ .

ويذكر ابن عبد الحكم^(١) والسيوطي^(٢) أنه لما استقامت البلاد وفتح المسلمون الإسكندرية جعل عمرو بن الماص ربيع الجند لرباط^(٣) الإسكندرية صائفة يقيمون ستة أشهر ، ويعقبهم شانية يقيمون ستة أشهر أيضاً ، ويقال إن عمر بن الخطاب كان يبعث في كل سنة جنداً من أهل المدينة ليرابط بالإسكندرية ، وكان يكتب الولاية قائلاً : « لا تنقلها ولا تكشف رباطها ولا تأمن الروم عليها » ، وكذلك اتبع عثمان بن عفان سنة عمر بن الخطاب ، وكان عبد الله بن سعد في هذا الشأن يقول : « قد علمت كيف كان هم أمير المؤمنين بالإسكندرية وقد نقصت الروم مرتين فألزم الإسكندرية رباطها ثم أجر عليهم أرزاقهم وأعقب بينهم في كل ستة أشهر » .

ولا نعلم إذا كان هذا يحدث في حامية الإسكندرية فحسب أو في الإسكندرية وحاميات البلاد الأخرى . وربما كان تمييز الحاميات ونقلها يقصد به العرب راحة الجند وتجنب تعويدهم على الإقامة في مكان واحد كما يتبع في جيوش العصر الحديث .

ب — البحرية

« ساهمت مصر بنصيب وافر في إنشاء الأساطيل الإسلامية الأولى ويمكننا القول بأن عبد الله بن سعد الذي خلف عمرو بن الماص في حكم مصر كان أمير البحر الثاني في الإسلام . أما أمير البحر الأول فكان معاوية ابن أبي سفيان أثناء ولايته على الشام وقبل أن تضير له الخلافة . فكان

(١) فتوح مصر وأخبارها — طبعة توري — ص ١٩١ — ١٩٢ .

(٢) حسن المحاضرة ج ١ ص ٧١ .

(٣) الرباط : المكان الذي يربط فيه الجيش . والجمع ربط .

السلعون يقومون بغزواتهم البحرية ضد البيزنطيين من الشام بقيادة معاوية ومن مصر بقيادة عبد الله بن سعد . وبعد أن كان البحر الأبيض المتوسط في عهد جستنيان بحيرة بيزنطية أصبح بفضل مصر والشام بحراً إسلامياً . ولا نفي أن سكان مصر ولا سيبا القبط كان لهم الفضل في بناء السفن وتشديد دور الصناعات في وادي النيل وفي تونس والشام^(١) .

أجل إن مصر اشتهرت منذ البداية بصناعة السفن التي كان يحتاج إليها أسطول الخلافة ، فالعرب عند ظهور الإسلام لم يكونوا شعباً بحرياً^(٢) . ولكن عندما اتسعت امبراطوريتهم وشملت شعوباً وأممًا بحرية ، وعندما

(١) الدكتور زكي محمد حسن : مصر والحضارة الإسلامية ص ٣٥ — ٣٦ .

(٢) ولكن أهل بلاد العرب الجنوبية في ممالك معين وسبأ وحير يافيم اليمن كانوا يستغلون بفضل التجارة بين مواطني المدينت القديمة في الهند ومصر وبلاد الجزيرة والشام وكانت سفنهم تمر عبر البحر الواقع جنوبي شبه جزيرة العرب والذي أصبح ينسب إليهم فيقال بحر العرب أو البحر العربي — ومهما يكن من شيء فإن الامبراطورية الإسلامية لم تصبح دولة بحرية بمعنى الكلمة لأن الشعوب التي قامت على أكتافها كالعرب والفرس والترك كانت تتألف في البداية من قبائل معظمها رحل . ومن الطريف أن بعض المستشرقين أشار إلى أن في القرآن مواضع شتى يذكر فيها فضل الله عز وجل على الناس بخلق الأرض . ومن ذلك قوله تعالى في سورة طه آية ٥٣ — ٥٤ (الذي جعل لكم الأرض مهدياً وسلك لكم فيها سبلاً وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى . كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولي النهي) ، أما البحر فقد جاء وصف أحواله في سورة النور آية ٤٠ (أو كظلمات في بحر لجي يشاءه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور) راجع مقال الأستاذ هيربرت جانسكي عن « البحر في تاريخ المسلمين وثقافتهم » ، وقد نصر في كتاب Hans Mzik

Beitrag zur historischen Geographie (Leipzig 1929) p. 42

ومع ذلك كله فلا يستطيع منصف أن ينكر ما حققه المسلمون رغم ذلك من السيادة على البحر الأبيض المتوسط في فترة من تاريخهم . راجع أيضاً ملحة « سفينة » في ملحق دائرة المعارف الإسلامية :

اضطروا إلى محاربة شعوب بحرية وعملوا على الاستيلاء على جزائر في البحار ،
بدأوا يشعرون بحاجتهم الماسة إلى أسطول يكون عوناً لهم في تحقيق أمانهم
في مد سلطانهم وغزو الروم في عقر دارهم .

لم يكن البحر يركب للغزو في حياة الرسول عليه الصلاة والسلام أو في
خلافة أبي بكر وعمر بن الخطاب ، وقيل إن أول من ركب البحر للغزو في
الإسلام الملاء بن الحضرمي وذلك في خلافة عمر بن الخطاب ، إذ نذب أهل
البحرين وكان أميراً عليها إلى غزو فارس عن طريق البحر بغير إذن الخليفة
ففرقت سفن المسلمين وغضب عمر على الملاء ، وأمر بتأميم سعد بن أبي
وقاص عليه .

ولما فتح المسلمون الشام ألح معاوية بن أبي سفيان — وهو يومئذ على
جند دمشق والأردن — على الخليفة عمر بن الخطاب في غزو البحر معللاً
ذلك بقرب الروم من حصص ، ولكن الخليفة لم يوافق على ذلك لأنه خشى على
المسلمين من ركوب البحر وقال في ذلك : « والذي بئت محمداً بالحق لأحجل
فيه مسلماً أبدأ » وسرعان ما غيرت الدولة العربية سياستها هذ ورأت
ضرورة إنشاء أسطول بحري للغزو في البحر وذلك في خلافة عثمان بن عفان ،
فقد وافق على القتال في البحر على أن يكون الاشتراك فيه تطوعاً لا يحمل
عليه أحد .

فنزاه المسلمون جزائر عدة مثل قبرص وصقلية ورودرس وأرواد وكريت
وغيرها من الجزائر ، بل إن معاوية بن أبي سفيان غزاه مضيق القسطنطينية في
سنة ٣٢ هـ^(١) ونعرف أن عبد الله بن سعد بن أبي سرح وإلى مصر من قبل

(١) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ج ٥ ص ٧٧ . راجع أيضاً : Lamouens :

Etude sur le règne du calife omayyade Moawia Ier pp. 52,270,279

عثمان بن عفان قد قاتل البيزنطيين بجزراً في غزوة ذي الصواري وانتصر عليهم رغم حداثة العرب في الحروب البحرية ورغم قلة سفنهم . وكان طبيعياً أن يستخدم العرب في غزواتهم البحرية شحوب الأهم التي فتحوها والتي صرحت على ركوب البحار منذ القدم . وإذ كنا في معرض الكلام على مصر فلا بد أن نذكر هنا أن العرب أفادوا من خبرة المصريين البحرية ومن الممال المصريين أيما إفادة فقد أصبحت مصر عقب الفتح مركزاً لصناعة السفن اللازمة لأسطول الخلافة كما كانت تمد هذا الأسطول بخبرة الملاحين والممال المصريين . وأصبح اسم « الصناعة » في مصر يدل على المكان الذي تبنى فيه السفن الحربية . وقد عقد القرزي في كتابه الخطوط (ج ٢ ص ١٨٩) فصلاً في ذكر المواضع المروفة بالصناعة ، كما أشار في مواضع أخرى من هذا الكتاب (ج ١ ص ٣٠١) إلى أن الصناعة كانت بجزيرة الروضة وأنها أسست في سنة ٥٥٤ هـ ، ويلاحظ أن ذلك كان على أرغزو الروم نغر البرلس والخسارة الفادحة التي حلت بالمسلمين في قتالهم . وقد سميت جزيرة الروضة حينئذ « جزيرة الصناعة » كما كانت تسمى أحياناً « جزيرة مصر »^(١) ولكننا نرجح أن « الصناعة » أنشئت في مصر الإسلامية قبل هذا التاريخ ، فميد الله بن سعد غزا غزوة البحرية في سنة ٣٤ هـ وليس بعيد الاحتمال أن يكون المسلمون قد بدأوا يعنون ببناء السفن الحربية منذ عهد الخليفة عثمان بن عفان (٢٣ — ٣٥ هـ) وأن قتال الروم جمل المسلمين يمنون بصناعة السفن في جهات مختلفة من أنحاء دولتهم بمد أن كانت الصناعة في مصر وحدها . فيذكر البلاذري^(٢) أنه لما كانت سنة ٤٩ هـ هاجم الروم

Maspero et Wiet : *Materiaux pour servir à la Géographie* (١)
d' Egypte p. 68 ; et G. Wiet : *Corpus Inscriptionum Arabicarum* ,
Egypte II. pp. 197—199.

السواحل الإسلامية وكانت الصناعة بمصر فقط فأمر معاوية بن أبي سفيان بإنشاء دار للصناعة في عكا .

ولما ولي عبد الملك بن مروان الخلافة بعث إلى حسان بن النعمان عامله على إفريقية يأمره بإنشاء صناعة بتونس لإنشاء الآلات البحرية ، وقد كتب عبد الملك بن مروان إلى أخيه عبد العزيز وإلى مصر أن يوجه إلى ممسك تونس ألف قبطي بأهله وولده لإنشاء دار صناعة فيها . أما مهمة البربر هناك فكانت أن يجرروا ويحملوا إلى دار الصناعة ما يحتاجه من خشب لصنع المراكب (٢) .

ويظهر أن بناء السفن في مصر كان له شأن عظيم في فجر الإسلام ولا سيما في العهد الأموي فقد ألقت أوراق البردي شعاعاً من النور على صناعة السفن بمصر وأظهرت مهارة المصريين في تلك الصناعة ومهارة الملاحين المصريين وتقدير الحكومة الإسلامية المركزية لتلك المهارة ومدى استفادتهما على يد الأمراء المسلمين .

وقد أظهرت أوراق البردي التي كشفت في كوم أشقاو والتي ترجع إلى عصر الوليد بن عبد الملك أن صناعة السفن كانت زاهرة بوادي النيل في جزيرة الروضة (٣) وفي القلزم (٤) وفي الإسكندرية (٥) ، فبمض تلك الأوراق

(١) فتوح البلدان ص ١٧٧ .

(٢) أبو عبيد البكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب (طبعة الجزائر سنة ١٨٥٧ م) ص ٣٨ — ٣٩ راجع أيضاً مقال الأستاذ فييت عن المواصلات في مصر في العصور الوسطى ص ٣٣ — ٣٤ من كتاب « ق مصر الإسلامية » الذي أخرجها الدكتور زكي محمد حسن والبيكباشي عبد الرحمن زكي .

(٣) Bell : (Der Islam vol. IV) p. 92

(٤) Bell : (Der Islam vol. II) p. 277

(٥) Bell : (Der Islam vol. II) p. 280

يكشف لنا أن الولى قرّة بن شريك كثيراً ما يطلب من صاحب كورة أشقوه أن يرسل إليه عمالاً وصناعاً وملاحين للعمل في دور الصناعة والمساهمة في إعداد الأسطول المصرى الحربى . كما تشهد تلك الأوراق بأن الولى كان يتفق مقدماً على أجور هؤلاء العمال والملاحين الذين يعملون في الأسطول المصرى^(١) ، كما كان يفرض على الكور قدراً من الأدوات والآلات المختلفة اللازمة لصناعة السفن ولتنظيفها ، وكذلك يفرض عليها^(٢) تخمين الملاحين الذين يشتغلون في إعداد الأسطول^(٣) .

ولم يقتصر نشاط المصريين على إعداد الأسطول المصرى ، بل كان والى مصر يرسل بعض الملاحين المصريين للعمل في أسطول المغرب^(٤) أو أسطول المشرق^(٥) والمساهمة في الشروط البحرية العامة للدولة الإسلامية .

ولابد أن المصريين كانوا يصنمون أيضاً سفنًا نيلية غير تلك السفن الحربية لأن الطريق المائى في مصر كان يستخدم كثيراً للنقل^(٦) والتجارة في ذلك العهد . وطبيعى أنه كانت هناك سفن بحرية ممددة للتجارة الخارجية وقد ظلت صناعة السفن الحربية زاهرة في مصر في العهد المباسى أيضاً ، فيذكر المقرئى (الخطط ج ٣ ص ١٩١) أنه بعد أن نزل الروم دمياط في

(١) Bell : (Der Islam vol. II) pp. 271, 272, 279, 280

(٢) هذه الحقوق للحكومة على الهيئات أو الأفراد كلها من آثار الليتورجيا او Leiturgia او الالتزامات الاجتماعية التي عرفت في العالم القديم .

(٣) Bell : op cit. pp. 277, 279. & (der Islam vol. XVII) p. 8.

(٤) Bell: op. cit. vol. II. p. 279

(٥) Bell : op. cit. vol. XVII. p. 6-8

(٦) انظر مقال فييت عن المواصلات في مصر في العصور الوسطى ص ٤ - ٦

سنة ٣٣٨ هـ في خلافة المتوكل وفي ولاية عنبسة بن اسحق على مصر « وقع الاهتمام من ذلك الوقت بأجر الأسطول ، وأنشئت الشواني^(١) رسم الأسطول وجعلت الأرزاق لغزاة البحر كما هي لغزاة البر ، وانتدب الأمراء له الرماة ، فاجتهد الناس بمصر في تعليم أولادهم الرماية وجميع أنواع المحاربة وانتخب له القواد المارفون بمحاربة العدو ، وكان لا ينزل في رجال الأسطول غشم ولا جاهل بأمر الحرب . هذا وللناس إذ ذاك رغبة في جهاد أعداء الله وإقامة دينه ، لا جرم أنه كان لخدم الأسطول حرمة ومكانة ، ولكل واحد من الناس رغبة في أنه يمد من مجلتهم فيسمى بالوسائل حتى يستقر فيه . وكان من غزو الأسطول بلاد العدو ما قد شجنت به كتب التواريخ . فكانت الحرب بين المسلمين والروم سجالاتا ينال المسلمون من العدو وينال العدو منهم وبأسر بعضهم بعضاً لكثرة هجوم أساطيل الإسلام بلاد العدو فإنها كانت تسير من مصر والشام ومن أفريقية » وأشار المقرئ في هذه المناسبة إلى تبادل الأسرى بين الروم والمسلمين وإلى افتداء الأسرى المسلمين في بلاد الروم وكتب المقرئ أن بعض مناطق وادي النيل كان بها أشجاراً تخص من سنط ، لها حراس يحمونها حتى يعمل منها مراكب الأسطول فلا يقطع منها إلا ما تدعو الحاجة إليه ، وكان فيها ما تبلغ قيمة العود الواحد منه مائة دينار . ويذكر أيضاً أنه كان لا يباع مما في البهنسا إلا ما فضل عن احتياج المصالح السلطانية . ولكن المقرئ (الخطط ج ١ ص ١١٠ - ١١١) يمود فيقول إن هذا بطل جميعه في زمانه أي في عصر المهالك واستولت الأيدي على تلك الأشجار فلم يبق منها شيء البتة ونسى هذا من الديوان . وإن كنا لا نعرف متى نشأ هذا النظام ومتى أُلغى ، فإن من المحتمل أن هذا

(١) الشونة : الركب المد للجهاد في الحرب والجمع شوان

الاهتمام بالأخشاب يرجع إلى عهد الولاة ولا سيما في نهايته. وما يذكره المقرئ أيضاً أن القرظ وهو ثمرة شجر السنط كانت لا يتصرف فيه إلا الديوان وإذا وجد مع أحد شيء منه اشتراه من غير الديوان نكل به واستهلك. ما وجد معه ، فإذا اجتمع مال القرظ أقيم منه مراكب تباع . ولكنه يضيف أن ذلك كله بطل في عصر المهاليك .

ومن هذا نرى أن صناعة السفن في مصر ، وخاصة السفن الحربية المدة لمحاربة الأعداء وللدفاع عن الشواطئ ، كانت من أهم الصناعات في فجر الإسلام كما أن المصريين كان لهم الفضل الأكبر في عظمة الدولة الإسلامية البحرية ، إذ كانت الخلافة تتمتع عليهم في إنشاء أسطولها الحربي . بل المعروف أن بناء السفن كان في البداية بمصر فقط وظل كذلك إلى زمن معاوية بن أبي سفيان . وحتى بعد ذلك المهد كانت الخلافة تستخدم المال والفلاحين المصريين في دور الصناعة التي أنشأتها في المشرق والمغرب كما يتبين من أوراق البردي . ثم أصبحت الخدمة في الأسطول شرفاً عظيماً يتمناه كل امرئ في مصر . ونلاحظ أن الدولة الإسلامية التي كانت تحشى غزو البحر حتى خلافة عمر بن الخطاب استطاعت بعد ذلك أن يكون لها شأن في البحر . فنذ أيام عثمان بن عفان بدأ المسلمون يمتلكون بعض الجزر في البحر المتوسط ، واستطاعت مصر في خلافته أن تهزم الروم في موقعة ذي الصواري البحرية . وقد سميت بهذا الاسم لكثرة صواري السفن التي التحمت في القتال فيها ، ونسبى في الكتب الأوربية واقعة فونيكه phoenicis وربما كان ذلك لوقوعها بالقرب من ثمر فونيكه غربي الإسكندرية^(١) . والحق أن هذه

(١) Justus Perthes : Atlas Antiquus Tab 18 D 3 ولكن معظم المستشرقين يرون أن هذه الواقعة البحرية حدثت جنوب آسيا الصغرى بجوار ثمر فونيكس Phoenix راحع M. Canard : Expedition des Arabes contre Constantinople dans l'Histoire et dans la Légende (Journal Asiatique, Janvier - Mars 1926) وانظر ما كتبه الدكتور ركي محمد حسن في هذا الصدد في عهد شهر ماو سنة ١٩٤٤ من مجلة القطف ص ٤٨٢ — ٤٨٣ .

المركبة كانت نصراً بحرياً كبيراً للمسلمين . ومما ذكره المقرئ في وصفها أن قسطنطين بن هرقل^(١) قدم لغزو الإسكندرية سنة ٣٤٤ هـ على رأس أسطول من نحو ألف سفينة . وكان عبد الله بن سعد قد أنزل نصف جنوده إلى البحر ثم فوجئ بقدوم العدو وعلم من أحد الرسل أو المراقبين أن الروم أقبلوا في ألف مركب (١٩) بقيادة قسطنطين بن هرقل « وكانت مراكب المسلمين مائتي مركب ونيفا فقام عبد الله بن سعد بين ظهراني الناس فقال : بلنبي أن ابن هرقل قد أقبل عليكم في ألف مركب فأشيروا على . فاكلمه رجل من المسلمين جلس قليلا لترجع إليهم أفئدتهم ثم قام ثانية فكلمهم فاكلمه أحد جلس ، ثم قام الثالثة فقال إنه لم يبق شيء فأشيروا على ، فقام رجل من أهل المدينة كان متطوعا مع عبد الله بن سعد فقال : أيها الأمير إن الله جل ثناؤه يقول كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين فقال عبد الله أركبوا فركبوا . وإنما في كل مركب نصف شحنته لأنه قد خرج النصف الآخر إلى البر ... فلقوم فافتتلوا بالنبل والنشاب وتأخر ابن هرقل لثلاث صبيبه الهزيمة وجعلت القوارب تختلف إليه بالأخبار فقال : ما فعلوا ؟ قالوا : قد أفتتلوا بالنبل والنشاب فقال : غلبت الروم . ثم أتوه فقال : ما فعلوا ؟ قالوا : قد نفذ النبل والنشاب فهم يرمون بالحجارة فقال غلبت الروم . ثم أتوه فقال : ما فعلوا ؟ قالوا : قد نفذت الحجارة وربطوا المراكب بعضها ببعض يقتتلون بالسيوف . قال : غلبت الروم (بضم النين) ! وكانت السفن إذ ذاك تقرن بالسلاسل عند القتال . قال : فقرن مركب عبد الله يومئذ وهو الأمير بمركب من مراكب العدو فكان مركب العدو

(١) بمجرد الإشارة هنا أن امبراطور البيزنطيين حينذاك كان قسطنطين بن هرقل لا قسطنطين كما تذكر المراجع العربية .

بجتر مركب عبد الله إليهم فقام علقمة بن يزيد الملقب وكان مع عبد الله بن سعد في الركب فضرب السلسلة بسيفه فقطعها . فسأل عبد الله امرأته بمد ذلك بسيسة ابنة حمزة بن يشرح وكانت مع عبد الله يومئذ — وكان الناس يمزون بنسائهم في المراكب — من رأيت أشد قتلاً؟ قالت : علقمة صاحب السلسلة . وكان عبد الله قد خطب بسيسة إلى أبيها فقال له إن علقمة قد خطبها وله على فيها رأى فإن تركها أفضل ، فكلم عبد الله علقمة فتزوجها عبد الله بن سعد ثم مات عنها عبد الله فتزوجها علقمة بن يزيد ^(١) .

وانتهى الأمر بأن أصبحت الدولة الإسلامية سيدة في البحر المتوسط . وإليك نص ما ذكره ابن خلدون في « المقدمة » (فصل ٣٤) عن عظمة المسلمين في هذا البحر : « وكان المسلمون لمهد الدولة الإسلامية قد غلبوا على هذا البحر من جميع جوانبه وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه ، فلم يكن للأمم النصرانية قبل بأساطيلهم بشيء من جوانبه وامتطوا ظهره للفتح سائر أيامهم فكانت لهم المقامات المملوكة من الفتح والغنائم وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه مثل ميورقة ومنورقة ويابسة ومردانية وصقلية وقوصرة ومالطة واقريطش وقبرص وسائر ممالك الروم والأفروج » وإذا كان الفضل لعظمة الخلافة البحرية يرجع إلى الشعوب التي فتحوها والتي تملأوا منها هذا الفن والتي استخدموها في حاجتهم البحرية فلنا أن نقول غير مبالغين بأن الفضل الأكبر والأول يرجع إلى مصر والمصريين وليس في المراجع العربية ما يمكننا بواسطته أن نعرف شيئاً يستحق

(١) خطط الميرزى ج ١ ص ١٦٩ . وقد أتينا بهذا النص الطويل لما فيه من أخبار طريفة عن أساليب القتال البحري عند المسلمين . راجع أيضاً : G. Wiet , L'Egypte Arabe (Histoire de la Nation Egyptienne t. IV, pp. 29,30.

الذكر عن أشكال السفن الحربية المصرية ومعداتها في فجر الإسلام ، ولكن أكبر الظن أنها لم تكن تختلف كثيراً عن السفن المعروفة عند الروم في ذلك العصر ، لأنها كانت من صناعة عمال تأثروا بالأساليب المعروفة عند الرومان والبيزنطيين ، بل إن السفن التي صنعت بمصر للمسلمين في البداية « أخذت أشكالها من سفن الروم التي استولى عليها عمرو بن العاص في واقعة الإسكندرية »^(١) وطبيعي أن المراكب الحربية كانت متنوعة في أحجامها وأغراضها كما تدل على ذلك الأسماء المختلفة التي أطلقت عليها بعد ذلك مثل الحراقات والشونات والطرادات والمشاريات والشلندات والمسطحات^(٢) . وإذا كنا لا نعرف تماماً معدات تلك السفن وأسلحتها فإننا نظن أنها كانت تشبه ما عرفنا بعد ذلك عن السفن الحربية الإسلامية في المصور الوسطى ، وكان في بعضها أبراج وقلاع للدفاع والمهجوم وفي بعضها منجنيقات وآلات تقذف النفط ، وكان بعضها لجلل المؤمن لرجال الأسطول والبعض الآخر لجلل الخيل^(٣) . وما يعرف من تقاليد المسلمين في القتال حينئذ أنهم كانوا في بعض الأحيان يصحبون نساءهم في المارك البحرية^(٤) .

على أن تاريخ البحرية عند المسلمين لا يزال يحتاج إلى بحوث طويلة ، لأن أخبار البحر وركوبه كثيرة في كتب الأدب والتاريخ وتقويم البلدان

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ج ٢ ص ٢٢

(٢) انظر الدكتور زكي محمد حسن : كنوز الفاطميين ص ٥٠ حاشية . وما جاء فيها من مهاجع وانظر مادة سفينة في ملحق دائرة المعارف الإسلامية

(٣) يراجع جورجى زيدان : تاريخ المدن الإسلامي ج ١ ص ١٨٠ - ١٨٢

عبد الفتاح عبادة : سفن الأسطول الإسلامي وأنواعها ومعداتها (في أعداد السنة الحادية والعشرين من مجلة الهلال ثم طبعت مستقلة بمطبعة الهلال سنة ١٩١٣ م)

(٤) راجع المقرئى : خطط ج ١ ص ١٦٩ . وأبو الحسن : النجوم الزاهرة

فلا بد من جمعها للدراسة ما يمكن الوصول إلى معرفته عن أساطيل الحرب والتجارة في الأمم الإسلامية المختلفة^(١). وقد ظهر باللجنة الأردنية سنة ١٩٣٥ كتاب عن البحرية الإسلامية للسيد سليمان ندوى في جمعية الدراسات الإسلامية بمدينة بمباي . كما ظهر في لندن سنة ١٩٢٨ مؤلف بالإنجليزية عن تاريخ البحرية الإيرانية للسيد هادي حسن . وعنى السقشرقون الفرنسيون في بلاد المغرب بدراسة الملاحة والبحرية عند المسلمين في تلك البلاد . ولكن هذه الدراسات كلها لم تؤت ثمارها بعد .

(١) من الأبحاث الطيبة التي ظهرت حديثاً في هذا الميدان تاريخ الأسطول العربي للأستاذ محمد ياسين المحوى (دمشق ١٣٦٤ هـ : ١٩٤٥ م)

٤ - النظام القضائي

أدخل العرب في مصر نظاما قضائيا يقوم على أساس الشريعة الاسلامية ، ويخص الفاتحين من العرب أو الذين يسلمون من أهل البلاد ، أما الذميون فكان لهم قضاؤهم إلا إذا احتكوا إلى القاضي المسلم فله أن يحكم بينهم بالعدل . قال تعالى : « فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئا وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين ^(١) » . ويذكر الكندي ^(٢) أن القاضي خير بن نعيم الحضرمي (١٢٠ - ١٢٨ هـ) كان يقضى بين المسلمين في المسجد ثم يجلس على باب المسجد بعد العصر فيقضى بين النصارى ؛ وأنه كان يقبل شهادة النصارى على النصارى واليهود على اليهود ، ويتحقق من عدالة هؤلاء الشهود بين أهل دينهم .

ونجد القاضي محمد بن مسروق الكندي (١٧٧ - ١٨٤ هـ) يسمح للنصارى المتخاصمين بالدخول في المسجد الجامع كالمسلمين ليقضى بينهم ^(٣) . كان القضاء في الدولة الإسلامية من الأمور الخاصة بالخلافة ^(٤) ، ولكن لما كان الخليفة لا يمكنه مباشرة كل أمور القضاء بنفسه ولا سنيا بعد أن اتمت رقعة الدولة الإسلامية اتساعا كبيرا منذ أيام الخليفة عمر بن الخطاب ، نجده يفوض القضاء إلى غيره كما كان يفوض إلى الولاة حكم الولايات المفتوحة . فنجد الخليفة عمر بن الخطاب يعين أول قاض بمصر وهو قيس بن أبي الماص

(١) سورة المائدة آية ٤٥ .

(٢) الولاة والقضاء ص ٣٥١ .

(٣) الكندي : الولاة والقضاء ص ٣٩١ والقفشندي : صبح الأعشى ج ١

ص ٤١٨ - ٤١٩

(٤) ابن خلدون : المقدمة ص ١٨٢ - ١٨٣ (صل في الخطط الدينية الخلافة)

السهمي (سنة ٢٣ هـ^(١)) ونزى معاوية بن أبي سفيان يولى القضاء بها سليم ابن عتر التنجيبي (سنة ٣٠ - ٦٠ هـ^(٢))، ويولى الخليفة هشام بن عبد الملك القاضي يحيى بن ميمون الحضري في سنة ١٠٥ هـ^(٣). وكذلك كان الحال في عهد الخلفاء العبّاسيين، فكانوا هم الذين يولون القضاء، فنرى الخليفة أبا جعفر المنصور يولى القضاء عبد الله بن لهيعة سنة ١٥٥ هـ^(٤)، وكذلك فعل من بعده من الخلفاء. ولكن بعض القضاء كان يمينهم الولاة بتفويض من الخليفة لواليه، فنرى والى مصر عبد العزيز بن مروان (٦٥ - ٨٦ هـ) يولى القضاء عبد الرحمن بن حجيرة الأكبر (٦٩ - ٨٣ هـ) وعندما يبلغ الخليفة هشام بن عبد الملك أن قاضيه يحيى بن ميمون الحضري سئء السيرة يكتب إلى واليه على مصر الوليد بن رفاعة (١٠٩ - ١١٧ هـ) يطلب منه أن يمزله قائلا: « اسرف يحيى عما يتولاه مذموما مدحورا ونخير القضاء جندك^(٥) رجلا عفيفا ورعا تقيا سليما من العيوب لا تأخذه في الله لومة لائم» وعندئذ عزله الوليد وولى القضاء توبة بن نمر الحضري سنة ١١٥ هـ^(٦).

(١) الكندى: الولاة والقضاة ص ٣٠٠ - ٣٠١

(٢) الكندى ص ٣٠٣

(٣) الكندى ص ٣٤٠

(٤) الكندى ص ٣٦٨ - ونلاحظ هنا أن الكندى يناقض نفسه حين يقول:

« ثم ولى القضاء بها عبد الله بن لهيعة مستهل سنة خمس وخمسين ومائة من قبل أمير المؤمنين أبي جعفر وهو أول قاضى ولى مصر من قبل الخليفة » فالواقع كما رأينا وكما يذكر الكندى في مواضع أخرى من كتابه أن الخليفة هو الذى عين معظم قضاة مصر قبل ابن لهيعة.

(٥) يستنبط من « قضاء الجند » هنا أن الرعب في مصر حتى أيام الخليفة

هشام ابن عبد الملك لم يكونوا إلا جنوداً أو ان الذين أسلموا من المصريين لم يكونوا سوى أقلية بدليل انه لم يهتم بالتمميم في خطابه بل خص القضاء على الجند. ولكن قد يكون القصود بكلمة جند هنا المنطقة الحريسة Dozy: Supplément aux

Dictionnaires Arabes

(٦) الكندى ص ٣٤١ - ٣٤٣

وأحيانا كان الوالي يولى القاضى ويقره الخليفة على ذلك . فبنى وإلى مصر داوود بن يزيد بن حاتم المهلبى (١٧٤ - ١٧٥ هـ) يولى المفضل بن فضالة القضاء سنة ١٧٤ هـ ، ثم يرد كتاب الخليفة الرشيد باقراره فى السنة نفسها^(١) .

هذه أمثلة أوردتها لأبين أن سلطة القضاء كان مرجعها إلى الخلافة مباشرة ، إذ كان الخليفة هو رئيس القاضى المباشر . وكان القضاء فى مصر أكثر استقرارا فى مناصبهم من الولاة ، وهذا طبعا مما يستدعيه حسن سير العدالة ، فى كثير من الأحيان كان القاضى يشغل منصبه فى عهود ولاة مختلفين أو فى عهود خلفاء مختلفين وكثيرا ما مات القضاء فى مصر وهم فى مناصبهم ، فنجد القاضى سليم بن عتر التجيبى يتولى القضاء عشرين سنة (٤٠ - ٦٠ هـ)^(٢) بينما يتعاقب فى حكم مصر فى عهده أربعة ولاة هم عمرو ابن الماص وعتبة بن أبى سفيان وعقبة بن عامر الجهنى ومسلمة بن مخلد ، ونزى عبيد الرحمن بن حجيرة الأكبر يلى القضاء أربعة عشر عاما ويظل يشغل هذا المنصب حتى موته (٦٩ - ٨٣ هـ) فى ولاية عبد العزيز بن مروان^(٣) ، ومجد القاضى عياض بن عبيد الله الأزدى يلى القضاء فى مصر نيابة عن خليفته متوالين هما سليمان بن عبد الملك (٩٦ - ٩٩ هـ) وعمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١ هـ)^(٤) ، ولى عبد الله بن لهيعة

(١) الكندى ص ٣٨٥

(٢) الكندى ص ٣٠٣ - ٣١١

(٣) الكندى ص ٣١٤ - ٣٢٠

(٤) الكندى ص ٣٣٣ - ٣٣٤

المحضرى^(١) القضاء مدة تسع سنين (١٥٥ - ١٦٤ هـ^(٢)) نيابة عن الخليفة أبى جعفر النصور ثم المهدي ، بينما بلى مصر في هذه اللدة سبعة ولاية . ولم يكن القاضى ليرضى بأن يتدخل فى أحكامه أحد ، إذ كانت وظيفة القضاء من الوظائف السامية التى تحاط بالهيبة والإجلال ، كما كان لصاحبها نفوذ كبيرة يتفق مع خطورة العمل الذى يؤديه ، ولا نعرف أن والياً من ولاية مصر جمع إلى سلطته ولاية القضاء . ولم نسمع عن حدوث تصادم بين حكم القاضى وسلطان الولى فى المصر الذى نحن بصدده سوى ما حدث إزاء مسألتين تسمان الأحوال الشخصية^(٣) .

ولدينا أمثلة كثيرة ترينا إلى أى حد كان القاضى مستقلاً لا يقبل أى وساطة أو شفاعة ، وشديداً فى أحكامه إذا ما تبين له الحق . فيروى النكندى^(٤) أن توبة بن نمر المحضرى لما ولى القضاء بمصر (١١٥ - ١٢٠ هـ) « دعا امرأته عفيرة فقال : يا أم محمد . أى صاحب كنت لك ؟ قالت : خير صاحب وأكرمه ، قال : فاسمى . لا تعرضى لى فى شىء من القضاء ولا تذكرينى بخم ولا تسألينى عن حكومة ، فإن فعلت شيئاً من هذا فأنت طالق ، فإما أن تقيمى مكرفة وإما أن تذهبي ذميمة . فانتقلت عنه فلم تكن تأتيه إلا فى الشهر والشهرين » .

(١) عثر على شاهد قبر عبد الله بن هيمة المحضرى . وهو شاهد من الرخام كتب اسمه وسنة وفاته وهى جمادى الآخرة سنة ١٧٤ هـ وم محفوظ الآن بدار الآثار العربية بالقاهرة .

Répertoire Chronologique d'épigraphie Arabe. t. I, pp. 42-48

(٢) النكندى ص ٣٦٨ - ٣٧٠

(٣) النكندى ص ٣٦٧ و ٤٢٧ وآدم متر : الحضارة الإسلامية ج ١

٣٥٤ - ٣٥٥

(٤) النكندى ص ٣٤٢ - ٣٤٣

وروى عن خير بن نعيم في ولايته على القضاء (١٣٣ - ١٣٥ هـ) « أن رجلا من الجند قذف رجلا من الأهالي نفاصمه إليه وثبت عليه شاهدا واحدا ، وأمر بحبس الجندی إلى أن يثبت الرجل شاهدا آخر ، فأرسل أبو عون (والى مصر إذ ذاك) فأخرج الجندی من الحبس ، فاعتزل خير بن نعيم وجلس في بيته وترك الحكم ، فأرسل إليه أبو عون فقال : لا ، حتى ترد الجندی إلى مكانه »^(١) .

وروى أيضا أن صاحب البريد شفع في خصم إلى القاضى أبى الطاهر عبد الملك بن محمد الجزمى (١٧٠ - ١٧٤ هـ) فكتب إليه الجزمى : « ما أنت والقضاء ! عليك تديير دوابك وبراذعها وكفس زولها » وما لبث أن استتمى عن القضاء فأعفى^(٢) .

ويروى عن القاضى عيسى بن المنكدر (٢١٢ - ٢١٤ هـ) أن رجلين اختصما إليه فقضى لأحدهما على الآخر ولم يكتف بذلك بل أمر صاحب الحق بأن يضجع خصمه ويضع قدمه على خده ليذله بالحق^(٣) .

ومع ذلك فلم يكن كل قضاة ذلك العصر موسومين بالعدالة والنزاهة ، بل وجد أحيانا القاضى المرتضى والقاضى غير النزيه . فقد عزل الخليفة هشام بن عبد الملك القاضى يحيى بن ميمون الحضرمى (١٠٥ - ١١٤ هـ) عن ولاية القضاء لما بلنه أنه لم ينصف يتيا احتكم إليه بمد بلوغه^(٤) ، كما اتهم هذا القاضى بأن كتبتة كانوا يقبلون الرشوة وهو يعلم ذلك ولا ينههم^(٥) .

(١) الكندى ص ٣٥٦

(٢) الكندى ص ٣٨٤

(٣) الكندى ص ٤٣٧

(٤) الكندى ص ٣٤١

(٥) شرحه ص ٣٤٠

وقيل كذلك أن القاضي عبد الرحمن ابن عبد الله العمري (١٨٥ — ١٩٤هـ) جمع من الرشوة أموالاً كثيرة^(١).

ولم يكن هناك محكمة خلسة للفصل في القضايا، إنما كانت مجالس القضاء تمقد في جامع عمرو بن العاص بالقسطنطين.

ويذكر الكندي أن القضاة كانوا يعملون للقضاء بين النصارى يوماً في منازلهم إلى أن جاء القاضي محمد بن مسروق فأذن لهم بالدخول في المسجد^(٢) ولا بد أن ولاية القاضي كانت تمتد على الأراضي التي كانت تدخل تحت سلطة الولاى السياسية، كما أن الاختصاص النوعى *ratione materiae* للقاضي كان غير محدود سواء أكان فى الأمور المدنية أو الجنائية^(٣).

وكان القاضي يستمد أحكامه القضائية من مصادر التشريع الإسلامى وهى القرآن والسنة والاجماع والاجتهاد أو القياس.

وكان بعض القضاة يرجع أحياناً إلى الخليفة فى المسائل الدقيقة، وربما كان ذلك خوفاً من الانفراد بالرأى فى مسألة ربما يخطئ فيها باجتهاده وحده ويرى من الأوفق أن يشترك الخليفة معه فى حلها استئناساً برأيه وضماناً للمدالة. ومن ذلك أن القاضي عياض بن عبيد الله الأزدي استفتى الخليفة عمر بن عبد العزيز فى مسألة، فأفتاه فيها^(٤)، وأحياناً كان الخليفة لا يبدى رأياً بل يفوض الأمر إلى القاضي، فقد استفتى القاضي عياض

(١) شرحه ص ٣٩٧

(٢) شرحه ص ٣٩٠

(٣) Wiet: Précis de l'hist. d'Egypte T. 11; pp. 124-125

(٤) الكندي ص ٣٣٤ — ٣٣٥

الخليفة عمر بن عبد العزيز في مسألة أخرى فكتب إليه : « إنه لم يبلغني في هذا شيء ، وقد جعلته لك فامض فيه برأيك ^(١) » وكذلك نسمع أن القاضي عبد الله بن يزيد بن خذامر استشار الخليفة عمر بن عبد العزيز في مسائل فأفتاه فيها ^(٢) . على أننا لا نمثر في مصادر هذا المصدر على قضاة يستشيرون خلفاء آخرين غير عمر بن عبد العزيز في المسائل الفقهية ، ولعل هذه حالة فردية يمكن تفسيرها بمكانة عمر بن عبد العزيز الدينية وتفقهه في الدين .

لكننا نلحظ خلال هذه المصادر أن الخلفاء كانوا يرحبون بسماع شكاوى أهل مصر إذا ما انتابهم ظلم أحد القضاة وأنهم يتدخلون في أحكام أمثال هؤلاء القضاة ، فقد صرف الخليفة هشام بن عبد الملك يحيى بن ميمون الحضرمي عن ولاية القضاء لعدم إنصافه يتيا تظلم إليه بعد بلوغه ^(٣) ، كذلك نعلم أن الخليفة الأمين فسخ حكم إحدى القضايا حين تبين أن حكم القاضي فيها لم يكن منزهاً عن الغرض ^(٤) .

وقد انتشرت بمصر في العصر العباسي المذاهب الأربعة المعروفة اليوم . على أن قضاة مصر لم يكونوا ملزمين باتباع مذهب معين يصدر عن أحكامهم وفقاً له . وكان أول قاض بمصر يقول بقول أبي حنيفة إسماعيل بن اليسع الكندي (١٦٤ - ١٦٧ هـ ^(٥)) وأول من ولي قضاء مصر ممن يقول بقول الامام مالك القاضي إسحاق بن الفرات ^(٦) . وما يدل على أن القضاة لم

(١) الكندي ص ٣٣٤

(٢) الكندي ص ٣٣٨ - ٣٣٩

(٣) الكندي ص ٣٤١

(٤) الكندي ص ٤١٣

(٥) الكندي ص ٣٧١ والفلقندي : وصحح الأعمى ج ١ ص ٤١٨

(٦) الكندي ص ٣٩٣ والفلقندي ص ٤١٩

يكونوا ملزمين باتباع مذهب ممين ما رواه الكندي^(١) عن القاضي أبي الطاهر عبد الملك بن محمد الحزمي (١٧٠ - ١٧٤ هـ) إذ يقول: «فكانت أحكامه على مذاهب ابن القاسم وسالم وابن شهاب وربيعة وكان مستضلعاً بمذاهب أهل المدينة حافظاً لها» .

ونعرف أن القضاة كانوا يأخذون رزقاً من بيت المال . فكان رزق ابن حجيرة (٦٩ - ٨٣ هـ) من القضاء مائتي دينار في السنة^(٢) ، وكان رزق عبد الرحمن بن سالم الجيشاني سنة ١٣١ هـ عشرين ديناراً في الشهر^(٣) ، وكان رزق عبد الله بن لميعة (١٥٥ - ١٦٤ هـ) ثلاثين ديناراً في كل شهر^(٤) ، وكان رزق الفضل بن غانم (١٩٨ - ١٩٩ هـ) مائة وثمانية وستين ديناراً في كل شهر^(٥) .

ويجدر أن نشير هنا إلى أن النظام القضائي في مصر في عهد الولاة نشأ بسيطاً ثم ارتقى وتطور تدريجياً؛ فثلاثاً لم تكن أحكام القضاة تدون ، ولكن حدث مرة أن اختُصم إلى القاضي سليم بن عتر التجيبي في ميراث فقضى بين الورثة ، ثم أنكروا حكمه وعادوا إليه ثانية فقضى بينهم وكتب بذلك

(١) الكندي ص ٣٨٣

(٢) الكندي ص ٣١٧

(٣) الكندي ص ٣٥٤

(٤) الكندي ص ٣٦٩

(٥) الكندي ص ٤٢١ وفي ص ٤٣٥ أن رزقه كان ١٦٣ ديناراً . فيما يتعلق بأرزاق القضاة أنظر آدم متو: الحضارة الإسلامية ج ١ ص ٣٦٢ - ٣٦٤ . ويذكر مبتد ج ١ ص ١٣٤ نقلاً عن خطط القريري ج ١ ص ٩٩ « أن الأخشيد أول من رتب الرواتب » ولكن هنذا يتناقى مع ما ذكرنا سابقاً من أن القضاة كان لهم أرزاق قبل ذلك .

سجلاً^(١)، فكان أول قاضٍ في مصر سجل سجلاً بقضائه^(٢). وتبعه في ذلك القضاة من بعده. كذلك لم يكن للقاضي شيء تصان فيه كتبه وأوراقه، بل كان كاتب القاضي يحضر، ومعه الكتب في مندبل فأخذ القاضي محمد بن مسروق الكندي لنفسه قطراً يحفظ فيه أوراقه، وكان يجتهد قبل أن يودعها القمطر، وإذا جلس للقضاء أحضرت^(٣) وظلت هذه العادة متبعة من بعده.

وقد عني قضاة هذا العهد عناية كبيرة بأحوال الشهود الذين يتقدمون للشهادة في المحاكم، فنجد الفضل بن فضالة في ولايته الثانية على القضاء (١٧٤ - ١٧٧ هـ) يتخذ في مجلسه عشرة رجال للشهادة^(٤)، كذلك أخذ القاضي عبد الرحمن بن عبد الله العمري الشهود ودون أسماءهم وأسقط ما عداهم من سائر الناس، واتبع القضاة من بعده هذه الطريقة^(٥)، وفي ولاية لهيعة بن عيسى الثانية على القضاء سنة ١٩٩ هـ نراه يمهّد إلى سعيد بن تليد أحد كتبه ويسمى صاحب السائل ليجدد السؤال عن الشهود في كل ستة أشهر وكانوا نحو ثلاثين رجلاً، ومن حدثت له جرحه^(٦) أوقفه وقد أوقف غير واحد ممن شهيد عنده وبلغته جرحته^(٧). كذلك كان القاضي عيسى بن النكدر يمهّد إلى صاحب مسأله بالسؤال عن الشهود، وفضلاً عن

(١) السجل هنا معناه تدوين الأحكام لا التسجيل المعروف اليوم

(٢) الكندي ص ٣٠٩ - ٣١٠

(٣) الكندي ص ٣٩١ - ٣٩٢

(٤) الكندي ص ٣٨٦

(٥) الكندي ص ٣٩٤

(٦) الجرحه ما تبرح به شهادة الخصم أو حجته أي تسقط.

(٧) الكندي ص ٤٢١ - ٤٢٢

ذلك فقد كان هو نفسه يتسكّر في الليل ويعمى في السكك ليسأل عن الشهود^(١).

ومن التقاليد التي نشأت في هذه الفترة أيضاً خروج القاضي في نفر من أهل الصلاح لرؤية هلال رمضان ، وقد نشأ ذلك التقليد في ولاية عبد الله بن لهيعة الحضرمي للقضاء ، حينما اختلف الناس في رؤية هلال رمضان في سنة ما من ولايته ، فبعضهم زعم أنه رآه والبعض لم يره وشك الناس في ذلك فلما كان العام التالي خرج عبد الله بن لهيعة في نفر من أهل المسجد ممن عرفوا بالصلاح لرؤية هلال رمضان وإثبات الرؤية ، وكانوا يخرجون لرؤيته في الجزيرة^(٢).

ونلاحظ أن إنشاء ديوان الأحياس أو الأوقاف يرجع إلى هذا المهد منذ سنة ١١٨ هـ وكان القضاة هم الذين بشرفون عليه ، وأول قاض بمصر وضع يده على الأحياس هو توبة بن نمر الحضرمي (١١٥ - ١٢٠ هـ) وكانت الأحياس قبل ذلك في أيدي أهلها وفي أيدي أوصيائهم فقال توبة : « ما أرى مرجع هذه الصدقات إلا إلى الفقراء والمساكين ، فأرى أن أضع يدي عليها حفظاً من التواء والتوارث ، فلم يمت توبة حتى صارت الأحياس ديواناً عظيماً^(٣) » .

(١) الكندي ص ٤٣٧

(٢) الكندي ص ٣٧٠

(٣) الكندي ص ٣٤٦ . أنظر ملادة وقف في دائرة للطرف الإسلامية

الباب الثاني

موقف مصر من الحركات السياسية والدينية

التي ظهرت في الخلافة

بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام مباشرة ظهر الخلاف بين المسلمين حول مسألة الخلافة ومن الذي يتولاها ، وهل هي إرث في بيت النبي وفي فرع معين من هذا البيت كبنى هاشم أو بنى أمية ، أم يتقلد أمرها أي فرد كفاء لها بغض النظر عن القبيلة التي ينتسب إليها . فالدين الإسلامي لم ينص على شكل حكومة معينة للأمة العربية وألغىها من الأمم ، ولم يمهّد الرسول إلى شخص معين من بعده ليكون زعيماً للأمة العربية يتولى الإشراف على أمورها الدينية والدينية . وأقصد بالدينية هنا الإشراف على تنفيذ أحكام الدين ، لا أن يخلف الرسول في صفته الدينية. إذ أن النبوة والرسالة قد انتهت بوفاة خاتم النبيين والمرسلين سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وكان امتناع العباس عم الرسول وعلي بن أبي طالب وطلحة والزبير وغيرهم ممن لم يرضوا بمبايعة أبي بكر الصديق بالخلافة إيداناً بما حدث بعد ذلك من انقسام المسلمين إلى سنيين وشيعيين . وكثير النزاع حول الخلافة ومن يتولاها، وكان هذا النزاع تارة بالكلام والجدل وتارة بالسيف والحرب ، وقد اتبع كل فرقة أو حزب من الأحزاب التي نشأت أفراد عديدون ، إما إيماناً بمبادئها ومبادئها ، وإما رغبة في منفعة أو مصلحة مادية تمود عليهم ؛ كبت بعض تامل البيانات والمناهج القديمة وصوغها في قالب إسلامي رغبة

في إساءة سمعة الدين الإسلامى أو إحياء وطن قديم على حساب الدولة الإسلامية .

وقبل أن نعرض للكلام عن الحركات التى قامت فى الخلافة والتى اشتركت فيها مصر ، يجدر بنا أن نشير إلى أن الذين اشتركوا فى تلك الحركات لم يكونوا من المصريين الوطنيين الذين اعتنقوا الدين الإسلامى ، وإنما كانوا من الجند العربى الذين استقروا بمصر أو من الأجناد الأخرى الذين أتوا إليها فى عهد الدولة العباسية . أما المصريون أنفسهم سواء أ كانوا من الأقباط أو من الذين أسلموا بعد الفتح فلم يشتركوا فى تلك المنازعات - إذا استثنينا معاوتهم إلى حد ما للعباسيين ضد الأمويين .

(١) - الحركات السباسبية والدينية زمن الخلفاء الراشدين

(٢٠ - ٥٤٠ = ٦٤٠ - ٦٦٠ م)

١ - موقف مصر من الثورة التى قامت ضد عثمان بن عفان

ظهر النزاع حول الخلافة بأجلى مظاهره فى الثورة التى قامت ضد الخليفة عثمان بن عفان ، إذ احتكم فى ذلك النزاع إلى السيف بدلا من أن يحكم العقل واللسان ، وكانت هذه أول مرة يحتكم فيها إلى السيف فى النزاع الخلقى الذى يدور حول مسائل الحكم والملك .

عرف عثمان بمكانته الدينية المالية ، ولما انتخب خليفة بعد مقتل عمر ابن الخطاب فى آخر سنة ٢٣ هـ (٦٤٤ م) سار على سياسة سلفه فى الفتح وتم فى عهده فتوحات وغزوات كثيرة^(١) . على أنه لم تعض ست سنوات

(١) الطبرى ج ٥ ص ٤٥ ، ٤٨ ، ٥٢ ، ٥٧ ، ٧٧ ، ٨١ .

من حكمه حتى بدأت تسرى ضده حركة تدمر في الولايات الإسلامية المختلفة وقد ترأس هذه الحركة رجل يهودى من أهل صنعاء أسلم زمن عثمان بن عفان واسمه عبد الله بن سبأ وكان يعرف بابن السوداء لسواد أمه . ويظهر أن عبد الله بن سبأ هذا كان من الذين أسلموا ليضلوا الناس عن الإسلام وليكيدوا لهذا الدين ، فتنقل في البلاد الإسلامية يحاول ضلالتهم كما يذكر المؤرخون ، فبدأ بالحجاز ثم البصرة والكوفة والشام ، ولكن يظهر أن محاولاته لم تكن ذات نال في تلك البلدان ، فلم ينجح في الحجاز أو الشام كما أنه طرد من البصرة والكوفة ، فأتى إلى مصر ووجد أن الحالة فيها كانت مهيأة للثورة ضد عثمان فأخذ ينشر دعايته وتعاليمه ، فكان مما نشره مذهب الرحمة . وأخذ يقول إنه يجب ممن يقول إن عيسى يرجع ويكذب يرجوع محمد عليه الصلاة والسلام وقد قال تعالى : (إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد)^(١) ، ولذا فإن محمداً أحق بالرجوع من عيسى . كذلك نادى عبد الله بن سبأ بمذهب الوصاية ، فذكر أن لكل نبي وصي وعلى بن أبي طالب وصي محمد صلى الله عليه وسلم ، ولما كان محمد خاتم الأنبياء فإن علياً خاتم الأوصياء ، أى أن عثمان قد اغتصب الخلافة من وصي الرسول ، وبذلك حرّض ابن سبأ المصريين على الثوب على عثمان لأخذه الخلافة بغير حق^(٢) . ولسنا هنا بحاجة إلى القول بأن تعاليم ابن سبأ بعيدة عن الإسلام ، فالرجعة والوصاية من تعاليم النحل والديانات المختلفة التي وجدت قبل الإسلام فليس للرسول وصي كما أنه ليس في الإسلام رجعة ، فذهب

(١) سورة القصص آية ٨٥ .

(٢) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ٥ ص ٩٨ ، خطط القرينى .

الرجعة هذا لا يقر بالموت بل يذهب إلى أن الإنسان يتنبيب ثم يمود ثمانية ، أما تماليم الإسلام فتنقول بأن كل الناس تموت ثم تبحث يوم القيامة وقد أنكر الثأرون على عثمان أموراً ، منها اللور الفخمة التي شيدها لأهله وبتانه بالمدينة ، وتوليته أهله وبني عمه من بني أمية على الأعمال والولايات دون غيرهم^(١) ، كذلك قالوا إن عثمان وسع على نفسه وعلى أهله بخلاف أبي بكر وعمر اللذين اعتادا التقلل والكف عن أموال المسلمين ، ففقر المسلمون من ذلك التبيذير ووعدهم قريب بضبط أبي بكر وعمر^(٢) ، وزعموا أيضا أن الوليد بن عقبة صلى بالناس الصبح وهو أمير عليها أربع ركعات وهو سكران ثم قال لهم : إن شئتم أن أزيدكم ركعة زدتمكم . فلما بلغ عثمان ذلك لم يسرع إلى إقامة الحد عليه بل أخر ذلك^(٣) .

قد تكون هذه الأسباب التي تدرع بها الثأرون مبالغ فيها أو غير صحيحة . وإن صححت فهي في الواقع أسباب لا تستدعي الثورة ضد الخليفة ، وقد قيل عن عثمان إنه قد عيبت عليه أشياء لو فعلها عمر بن الخطاب ما عيبت عليه^(٤) ، وربما أطمع الناس فيه دماثة خلقه ولينه .

ولم يفعل فيلسوف المؤرخين ابن خلدون^(٥) ما انطوت عليه هذه الثورة ، فقد أوضح أن المسألة لم تكن مسألة عثمان إنما كانت عود إلى الجاهلية ونزاع بين القبائل على السيادة ، وأنفة بعض القبائل العربية مثل بني بكر بن وائل وعبد القيس وربيعة والأزد وكندة وتميم وقضاعة وغيرهم ، من سيادة

-
- (١) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ١ ص ٣٦ .
 - (٢) ابن طباطبغا : الفخرى ص ٨٦ .
 - (٣) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ١ ص ٣٦ .
 - (٤) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ١ ص ٣١ .
 - (٥) البر وديوان المتنا والخبر ج ٢ ص ١٣٨ - ١٣٩ .

المجاهدين والأنصار من قريش ووجههم ، فأظهروا الطعن في ولاية عثمان وفي الخليفة نفسه ، فلما وصلت تلك الأخبار إلى الصحابة بالمدينة أوتابوا لها وحلوا عثمان على النظر في الأمر .

ومما يدل على أن المسألة كانت مسألة أغراض مختلفة ما رواه الطبري (١) من أنه عندما حرض عبد الله بن سبأ أهل مصر على الطعن في أمراء عثمان « وإظهار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » أخذ أهل مصر يكتبون الكتب إلى الأمصار المختلفة في عيوب وولاتهم ، ويكاتبهم إخوانهم في مثل ذلك ، ويكتب أهل كل مصر منهم إلى مصر آخر بما يحدث ، حتى « أوسعوا الأرض إذاعة وهم يريدون غير ما يظهرون ويسرون غير ما يريدون ، فيقول أهل كل مصر إنا لنى عافية مما ابتلى به هؤلاء . إلا أهل المدينة فإنهم جاءهم ذلك عن جميع الأمصار فقالوا إنا لنى عافية مما فيه الناس » .

ويظهر أن الخليفة عثمان كان يجهل تلك الحركة في بادئ الأمر ، إذ أنها كانت حركة سرية . ويظهر أيضا أنها وصلت إلى مسامع الصحابة بالمدينة أولا فأعلموا عثمان بها وأشاروا عليه بأن يرسل رجلا ممن يثق بهم إلى الأمصار المختلفة ليتبين ذلك الأمر ففعل ، وأرسل محمد بن مسلمة إلى الكوفة وأسامة بن زيد إلى البصرة وعبد الله بن عمر إلى الشام وعمار بن ياسر إلى مصر ، وأرسل غيرهم إلى سائر الجهات ، فلما عاد الرسل إلى عثمان أخبروه أن الحالة على ما يرام وأن أهل البلاد لا ينكرون شيئا وأن أمراءهم يقسطون بينهم ويقومون عليهم ، ولكن عمار بن ياسر الذي أرسله الخليفة إلى مصر تخلف ولم يمد إلى المدينة ، ولشد ما كانت دهشتهم عند ما أرسل إليها عبد الله بن سعد كتابا إلى المدينة يقول إن قوما استألوه ، منهم عبد الله بن سبأ

(١) تاريخ الأمم والملوك ج ٥ ص ٩٨ - ٩٩ .

وخالد بن ملحم وكنانة بن بشر^(١)

ويجدر بنا الآن أن نعرف موقف الثائرين في مصر وكيف كانت هذه البلاد سبياً في تعجيل الحوادث وفي إشعال نار تلك الثورة التي انتهت بقتل الخليفة عثمان بن عفان ، والتي كانت سبياً في انقسام المسلمين على أنفسهم انقساماً طال أمده وتمددت مناحيه .

ذكرنا أن عبد الله بن سبأ طرد من البصرة والكوفة ولم يلق أى نجاح في الشام ، ثم قدم إلى مصر فوجدها متهيئة لقبول دعوته وللظن في عثمان ، وهذا الأمر استلفت النظر ويدعو الباحث إلى أن يتساءل عن السبب في ذلك ؛ فلم نجحت دعوة ابن سبأ في مصر نجاحاً كبيراً ؟ ولم لم يطرد منها كما حدث له في البصرة أو الكوفة مثلاً ؟ نحن لا نجد في المصادر القديمة ذكر السبب في ذلك ، ولكن إذا أعوزتنا الأدلة النقلية فلا بأس من أن نلجأ إلى الأدلة العقلية . ويظهر أن الدعوة ضد عثمان نجحت نجاحاً كبيراً في مصر لأن أفراد القبائل العربية التي لا تنتمى لقريش ومن بينهم بعض الصحابة والمجاهدين والذين استقروا بمصر رأوا فيها فرصة للقيام ضد الخلافة ، وهم في ذلك لم يقصدوا الخليفة عثمان نفسه وإنما أرادوا زعزعة سيادة قريش ، فقد كرهوا تلك السيادة التي زادت منذ ظهور الإسلام . وهذا سبب ذكره المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون كما رأينا . على أنه وجد أيضاً في مصر بعض القرشيين الذين ناروا ضد عثمان ، وعلى رأسهم محمد بن أبي بكر الصديقي ومحمد بن أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف ، ولا يبعد أن يكون هؤلاء ممن طمعوا في الخلافة نفسها ، فهم يرومون سيادة

(١) الطبرى ج ٥ ص ٩٩ ، تاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ١٣٩ ، خطط القريرى

قريش بالطبع ، ولكن ربما حدثتهم أنفسهم وسط حركة التذمر التي عبرت بين الناس أن يلقوا دولهم في الدلاء عليهم يصلون إلى منصب الخلافة أو إلى أى منصب عظيم في الدولة الإسلامية . وضع عثمان عبد الله بن سبأ كان يكيد للإسلام والدولة الإسلامية . وضع أن تعاليمه الشيعة أبدا ما تكون عن الدين الإسلامي إلا أنه لا بد كان رجلا ماهرا ذا مواهب متعددة جعلته يجذب الكثيرين إلى تعاليمه الشيعة ، ولم يكن تأثيره عظيما على العامة فحسب ، بل نرى أيضا أنه استطاع بمهارته أن يجذب إليه رجلا من كبار الصحابة ومن أئمة الحديث وأن يؤلبهم على عثمان ، مثل الصبيحاني الكبير عمار بن ياسر الذي كان عثمان قد أوفده للاستفسار عن حقيقة ما قيل بصدد التذمر والثورة ولكنه تنكر للخليفة ولم يعد إليه .

واستطاع عبد الله بن سبأ أن يجذب إليه أيضا أحد كبار أئمة الحديث ، كان مقيا بالشام عند ما كان ابن سبأ ينقل في الأمصار المختلفة ليثير الناس ضد عثمان ، ذلك هو أبو ذر الغفاري^(١) . وكان هناك فريق من الصحابة يفضل عليا على غيره ، وطبيعي أن يكون في مصر فريق ممن يؤمنون بأن عليا أحق بالخلافة ممن عداه . .

وهكذا نرى أن الثورة ضد عثمان كان الباعث عليها اتجاهات وميول مختلفة ، فمن نازر يريد بخروجه السكيد للدين الإسلامي والدولة الإسلامية بوجه عام ، ومن متذمر من خلافة قريش وسيادتها ، ومن طامع في الخلافة ومن شيعي خرج مؤمنا بحق علي بن أبي طالب في الخلافة ، وقد تتجمع هذه العوامل المختلفة في بلد آخر غير مصر . ولكن يظهر أن الذي ساعد على نجاح تلك الحركة فيها والذي سهّل على ابن سبأ القيام بمهمته هو انشغال

(١) الطبري ج ٥ ص ٦٦ .

والى مصر إذ ذاك ، عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، بالحروب الجارجية التي قام بها ، إذ غزا النوبة وعقد مع ملكها هدنة سنة ٣١ هـ وغزا إفريقية سنة ٢٧ هـ كما حارب الروم في وقعة ذى الصواري سنة ٣٤ هـ^(١) ، وفي هذه الأثناء بالذات كان عبد الله بن سبأ يقوم بدعوته وفي سنة ٣٤ هـ كان الثأرون على عثمان في مصر والأمصار المختلفة يتكاثرون للاجتماع لمناظرته فيما كانوا يذكرون أنهم تقوموا عليه بسببه^(٢) ، أى أن الثورة التي كان يدعو إليها ابن سبأ والتي كان مركزها في مصر كانت قد اختمرت وخرجت إلى دور العمل والتنفيذ في السنة التي كان يقزو فيها عبد الله بن سعد الروم ، تلك الغزوة التي أسفرت عن انتصار العرب الباهر ضد البيزنطيين . ففي الوقت الذي كان عبد الله بن سعد مشغولاً بغزوات وفتوحات عظيمة كان ابن سبأ يعمل في الخفاء ضد عثمان . ويظهر أن عبد الله بن سعد لم يعلم بأمر هذه الثورة إلا سنة ٣٥ هـ بعد رجوعه من غزوة ذى الصواري كما يخبرنا بذلك أبو المحاسن^(٣) ، فليس هناك ما يشير إلى أنه علم بهذه الحركة قبل ذلك الوقت وإلا لما تناقل أو تعامى عنها وهو أخو عثمان في الرضاة وموضع ثقته .

وتذكر بعض المراجع المتأخرة أن الذي ساعد على نجاح تلك الحركة في مصر هو سحق أهلها على واليها عبد الله بن سعد لأنهم كرهوا أن يليهم بعد عمرو بن العاص ولأنه اشتغل عنهم بقتال أهل المغرب وغيرها^(٤) ولكن عبارة « أهل مصر » هنا ليس معناها المصريين الوطنيين فهؤلاء

(١) الكندي : الولاة والقضاة ص ١٢ - ١٣

(٢) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ٥ ص ٩٢ .

(٣) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٨٠ .

(٤) النجوم الزاهرة ص ٨٠ ، السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢ .

لم يقوموا بتلك الحركة ولكن يقصد بها العرب الذين استقروا بمصر وكانوا
أجناداً كما نعلم، فلعل الذين اشتركوا معهم في الفتح كرهوا أن يولى عليهم
غير قائدهم الأول عمرو بن العاص . ولعل عمراً نفسه - وهو المعروف
بدهائه العظيم - كانت له يد في إثارة الاضطراب بمصر ليفسد الأمر على
خلفه عبد الله بن سعد . ولعل كثيراً من الجند العرب في مصر أصبحوا
لا يرحبون بقتال أهل المغرب إمارغبة في الراحة أو استخفافاً بنتائج هذا القتال
وما يصيبونه فيه من غنائم .

ولنرى الآن ما تم من أمر هذه الثورة وإلى أى حد نجح الثوار
في ثورتهم .

وفد عبد الله بن سعد بن أبي سرح إلى عثمان بن عفان بالدينية في رجب
سنة ٣٥ هـ واستخلف على مصر عقبة بن طامر الجهني في قول ، أو السائب
ابن هشام بن كنانة العاصري في قول آخر^(١)، ولكن خليفته عليها طرد من
القساطط في شوال من السنة المذكورة على يد محمد بن أبي حذيفة الذي أخذ
يدعو الناس إلى خلع عثمان ويحرض عليه بكل الوسائل الممكنة لدرجة أنه
كان كما يذكر القرظي^(٢) يكتب الكتب على لسان أزواج الرسول عليه
الصلاة والسلام ويدعى أنهن كتبها ويقراها في المسجد فإذا فيها الاستفاعة
مما عمل في الإسلام وما صنع في الإسلام ، وبالطبع صدق أناس وكذب آخرون
وبالطبع كان لعثمان شبيعة في مصر فناوأوا ابن أبي حذيفة وأرسلوا إلى عثمان
من يخبره بصنيعه ، ومن بين شبيعة عثمان في مصر معاوية بن حديج وخرجة

(١) الكنتى : الولاية والقضاء ص ١٣ - ١٤ ، خطط القرظي ج ٢

ص ٣٣٥ .

(٢) الكنتى ص ١٤ ، القرظي ج ٢ ص ٣٣٤ .

ابن حذافة وسلامة بن مخلد وبسر بن أبي أرطاة وغيرهم كثير^(١)

وأراد عثمان بن عفان معالجة الموقف باللين والسياسة لا بالصف والشدّة ، خوفاً من إراقة دماء المسلمين فأرسل سعد بن أبي وقاص عليه يستطيع أن يصلح بين المصريين ويوصل إلى حل في السألة . ولكن سرعان ما خطب ابن أبي حذيفة في أتباعه يحضهم على التماسك والآنخدعوا رسول عثمان بدعوى أنه جاء ليشنت أمرهم ويقبل عنيتهم ، وكان لكلامه أكبر الأثر في أتباعه إذ سار إلى سعد بن أبي وقاص نحو مائة شخص فأساءوا إليه واضطروه إلى العودة من حيث أتى . وما لبث عيد الله بن سعد أن أتى مصر إلا أنه لم يكذب يبلغ جسر القانوم حتى منعه أتباع ابن أبي حذيفة من الدخول فيها ، فطلب منهم أن يسمحوا له بالدخول ليخبر جنده بما أتى به ، ولكنهم أصروا على منعه فرحل إلى عسقلان وظل بها إلى أن توفي^(٢) .

ولم تقف الثورة في مصر عند هذا الحد من عصيان الخليفة ، بل فكر ابن أبي حذيفة في إرسال جيش من مصر إلى عثمان بن عفان ، فأرسل ستمائة رجل على كل مائة منهم رئيس أما قائدهم الأعلى فكان عبد الرحمن ابن عديس البلوي . وكانت النتيجة أن قتل عثمان رضي الله عنه في ذي الحجة سنة ٣٥ هـ وعاد هذا الجيش ثانية إلى مصر^(٣) . وهناك رواية أخرى تذكر أن وفد مصر ، وكان معهم الثائرون من البصرة والكوفة ، خرجوا متظاهرين بأن غرضهم العمرة^(٤) ، ولكنهم كانوا يريدون الثورة على عثمان

(١) الكندي : الولاة والقضاة ص ١٥ ، خطط الميرزى ج ٢ ص ٣٣٥

(٢) الكندي ص ١٦ - ١٧ ، خطط الميرزى ج ٢ ص ٣٣٥ .

(٣) الكندي ص ١٧ ، خطط الميرزى ج ٢ ص ٣٣٥ .

(٤) العمرة : زيارة البيت الحرام في غير أوقات الحج ويسمى الحج الأصغر .

ابن عفان ، وكان من بينهم محمد بن أبي بكر الصديق فشكوا إلى عثمان بن عفان واليه على مصر عبد الله بن سعد وطلبوا منه عزله فأجابهم عثمان إلى طلبهم وكتب بتولية محمد بن أبي بكر على مصر وعزل عبد الله بن سعد فقتل ذلك الوفد راجعاً ، وبيناهم في الطريق رأوا راكباً ارتابوا في أمره فقتلوه وإذا معه كتاب من عثمان إلى عبد الله بن سعد يأمر فيه بقتل محمد بن أبي بكر ونفر من معه ، فأخذوا الكتاب ورجعوا ثانية إلى المدينة . وقرأه على من فيها من الصحابة وقد أنكروا عثمان ذلك الكتاب وحلف لهم أنه لا يعلم من أمره شيئاً ، فظنوا أن الكتاب كتبه مروان بن الحكم كاتب عثمان وابن عمه وطلبوا إليه أن يسلم إليهم مروان فلم يرض عثمان بذلك إذ أن مروان حلف هو الآخر أنه لم يكتبه . فطلبوا إليه أن يعتزل الخلافة فأبى وتمسك بها ، ومالبت الثوار أن تطاولوا عليه وقتلوه أفضع قتلة وربما شجهم على قتله ما علموا من استنجاهه بمعاوية بن أبي سفيان وعبد الله ابن عامر والى البصرة وأمراء الأجناد فأرادوا أن يتموا ثورتهم قبل وصول المدد إلى عثمان خوفاً من أن يقضى على حركتهم هذه بالفشل . وكان يدافع عن عثمان في داره مائة رجل من الصحابة وهو عدد قليل بالنسبة للتأثرين ، ويقال إن محمداً بن أبي بكر هو أول من حرض الثوار على قتله وأول من دخل عليه ليقتله (١) .

قد تكون الرواية السابقة صحيحة وقد يكون خصوم عثمان دسوها دساً ليتهموه بالخداع أو الفعلة ، خصوصاً إذا علمنا أن عبد الله بن سعد كان قد خرج من مصر قبل خروج التأثرين إلى عثمان ولم يضع قتل عثمان حداً لتلك الفتنة ، بل كان بداية الفتن والمنازعات التي حفل بها التاريخ الإسلامي في المصور الوسطى .

(١) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ج ١ ص ٤١ - ٤٨ ، ابن الأثير : الكامل

ب - أمر النزاع بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان في مصر

كان مقتل عثمان بن عفان كما يقول ابن خلدون^(١) فتنة ابتلى الله بها الأمة ، فقد بويع علي بن أبي طالب من بعده بالخلافة في سنة ٣٥ هـ ولكن النزاع تجدد بين المسلمين حول هذه المسألة . إذ رأى علي ومن تبعه أن بيعته قد انقضت ولزمت من تأخر عنها وذلك لاجتماع من اجتمع عليها بالمدينة ، دار النبي صلى الله عليه وسلم وموطن الصحابة ، وأرجأ المطالبة بدم عثمان ربمًا يجتمع الناس وتتفق الكلمة فيتمكن حينئذ من ذلك . ورأى آخرون أن بيعته لم تنقذ لاقتراق الصحابة ولا تكون البيعة صحيحة إلا باتفاق أهل الحل والمقد كما أنها لا تكون صحيحة بغيرهم أو بحضور أقلية منهم ، كذلك رأوا أن المسلمين كانوا حينئذ في فوضى واضطراب فيجب أولاً المطالبة بدم عثمان ثم الاتفاق على خليفة المسلمين . وكان على رأس هذا الفريق المعارض لخلافة علي ، معاوية بن أبي سفيان والى بلاد الشام من قبل عثمان بن عفان وابن جمه .

وقد يادر علي بعد توليه الخلافة بعزل ولاية عثمان وإرسال عماله إلى الولايات ، كذلك أرسل بيعته إلى جميع الأمصار . والظاهر أن البيعة جاءت من كل مكان إلا بلاد الشام التي كان يليها معاوية بن أبي سفيان ، فكان لابد من نشوب النزاع بين الطرفين وبينهما يستعدان لذلك وقع على مسرح الخلاف السياسي حادث جديد . هو خروج طلحة والزبير وعائشة زوج

(١) المقدمة من ١٧٩ (فصل في ولاية العهد) .

الرسول على خلافة علي واشتبا كههم معه في موقعة الجمل التي انتهت بانتصار علي وقتل طلحة والزبير وأسر السيدة عائشة في سنة ٣٦ هـ . وفي تلك الأثناء استطاع معاوية أن يستميل إليه رجلاً من أمجكبر دهاة العرب : هو عمرو ابن العاص . ويذكر اليمقوبي^(١) أن عمرو بن العاصن اشترط على معاوية بن أبي سفيان أن تكون ولاية مصر طمعة له نظير مساعدته له ضد علي فقبل معاوية ذلك .

سار علي بن أبي طالب في أواخر سنة ٣٦ هـ من الكوفة — التي اتخذها مقراً لخلافته بعد موقعة الجمل — نحو الشام لمحاربة معاوية وتقابل الفريقان في سهل صفين ، حيث نشب القتال بين الفريقين . وانتهت تلك الموقعة في صفر من سنة ٣٧ هـ بحيلة ارتآها عمرو بن العاص . إذ أشار على معاوية برفع المصاحف على الرماح والنداء بتحكيم القرآن بدلاً من تحكيم السيف فكان ذلك سبباً في فتور أكثر جند علي بعد أن كانوا قاب قوسين أو أدنى من الانتصار . وقد اختير عمرو بن العاص حكماً من قبل معاوية كما اختير أبو موسى الأشعري من قبل علي . وقيل إن هذا التحكيم انتهى باتفاق الحكّمين على خلع علي معاوية ، فأعلن أبو موسى الأشعري خلعهما ، ثم قام عمرو فأعلن خلع علي وتثبيت معاوية لأنه ولي عثمان والطالب بدمه وأحق الناس بأن يخلفه^(٢)

وقد خرج معاوية من التحكيم أقوى مما كان فقد رضى أهل الشام بخلافته ، ولا بد أن فريقاً غيرهم من الناس اعتقد بصحة التحكيم وبصحة خلافة معاوية ، كذلك خرج فريق من أتباع علي عليه بسبب رضائه

(١) تاريخ ج ٢ ص ٢١٦ — ٢١٧ .

(٢) انظر الطبري ج ٦ ص ٣٧ — ٤٠ ، المسعودي : صروج الذهب . ج ٢

ص ٢٨ — ٣٣ (ط . القاهرة) .

بالتحكيم وهذا الفريق هو الذي يعرف بالخوارج ، كما أن فريقاً آخر من جند علي ملوا الحرب والزراع . وقد عزم علي على محاربة أهل الشام لاعتقاده أن الحكيم حكما الهوى ولم يحكما القرآن ، وحث الناس على قتالهم في سنة ٣٨ فتناقلوا ولم يطيعوه إذ كانوا قد ملوا الحرب وشموا القتال .

وقد اتفق ثلاثة من الخوارج على قتل علي ومعاوية وعمرو فلم ينجح من هؤلاء الخوارج سوى عبد الرحمن بن ملجم الذي قتل علياً بالكوفة في شهر رمضان من سنة ٤٠ هـ . وبقتله انتهى عهد الخلفاء الراشدين وبايع المسلمون من بعده ابنه الحسن بن علي ، ولكن خلافته لم تزد على بضعة أشهر ، إذ كان لا قبل له بمحاربة معاوية وجنده فتنازل له عن حقه في الخلافة .

تجلى النزاع بين علي ومعاوية بأجلى مظاهره في مصر التي كانت مركزاً للتأثرين علي عثمان بن عفان . فبعد مقتله في دى الحجة سنة ٣٥ هـ طرد الركب الذي كان قد خرج عليه إلى مصر ثانية ، ويلوح أن نفراً منهم تخلفوا في المدينة ومنهم محمد بن أبي بكر نفسه ، ويظهر أن أولئك التأثرين كانوا يتوقمون أن ينتقم منهم شبيعة عثمان أو أنهم كانوا كما دعتهم دائماً يمزجون السياسة بالدين ، وذلك لأنهم لما أتوا القسطنطين ودخلوا المسجد صاحوا : « إننا لسنا قتلنا عثمان ولكن الله قتله ^(١) » أما شبيعة عثمان في مصر فقد بايعوا معاوية بن حديج على الطلب بدم عثمان فسار بهم إلى الصعيد ، ولكن ابن أبي حذيفة أرسل إليهم من بحارهم والتقى الفريقان في إحدى قرى اليهنسا فكان النصر حليف شبيعة عثمان وهزم جيش ابن أبي حذيفة . ثم

(١) الكندي : الولاية والقضاء ص ١٨ خطط القرظي ص ٢٣٥ .

صار معاوية بن حديج إلى برقة ولا نعرف لماذا سار إليها — ثم رجع ثانية إلى الإسكندرية فأرسل إليه ابن أبي حذيفة جيشاً آخر على رأسه قيس بن حرملة النخعي فاقتتل الجيشان بخربتنا^(١) في أول شهر رمضان سنة ٣٦ هـ فقتل قيس بن حرملة وهزم جيشه^(٢). وعلى هذا نرى أن شيعة عثمان في مصر انتصرت للمرة الثانية على الحزب الذي تار على عثمان ولما يمض عام واحد على مقتله.

نرى إذن أن النزاع الذي كان يقوم في حاضرة الخلافة أو حول منصب الخلافة كان يؤدي إلى فوضى ونزاع في مصر حتى تكاد تنعدم سلطة الخليفة في تلك الظروف، فنرى ابن أبي حذيفة يفتصب ولاية مصر لنفسه دون أن يمينه خليفة، كما نرى شيعة عثمان وشيعة علي يقتتلان في مصر.

ويظهر أن انتصار شيعة عثمان على ابن أبي حذيفة شجع معاوية بن أبي سفيان على القدوم إلى مصر لثروتها وخيراتها الوفيرة ولوقوعها الجغرافي الممتاز فوصل في نفر من أصحابه إلى سَلَمَت من كورة عين شمس في شوال سنة ٣٦ هـ فخرج إليه ابن أبي حذيفة وأهل مصر^(٣) ليمنوه من دخولها، فبعث معاوية — بما عرف عنه من الدهاء وحسن السياسة إلى ابن أبي حذيفة يقول لهم لم يحيثوا لقتال أحد وإنما جاءوا يطلبون القصاص لدم عثمان ويريدون القبض على قاتليه وهما عبد الرحمن بن عديس وكنانة بن بشر اللذين كانا على رأس الوفد الذي ذهب إلى المدينة لقتل عثمان، فلم يجب ابن أبي حذيفة

(١) خَرَبَتَا . بفتح الحاء أو كسرهما كانت من كور الحوف الغربي بالقرب من الإسكندرية وهي الآن خراب لا يعرف (ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٤١٦)
(٢) الكندي ص ١٨ - ١٩ ، خطط القريري ج ٢ ص ٣٣٥ - ٣٣٦
(٣) مصر هنا تعني القسطنطينية لا القطر المصري لأن معاوية بوصوله إلى عين شمس كان قد دخل القطر المصري فعلا وليس القسطنطينية عاصمة مصر .

طلب معاوية وقال له لو طلبت منا جديا رطب السرة بثمان ما دفعناه إليك !!
وهنا لما معاوية إلى الحيلة مرة أخرى فمرض على ابن أبي حذيفة وأتباعه
بأن يعطوه رهنا لكي يتفادوا حربه ضدهم . فرضى ابن أبي حذيفة بذلك
وخرج في الرهن هو وابن عديس وكنانة بن بشر وغيرهم من قتلة عثمان فلما
بلغوا لد^(١) سجنهم معاوية بها . وسار هو إلى دمشق فهربوا من السجن
فتبعهم صاحب فلسطين وقتلهم في ذى الحجة سنة ٣٦ هـ^(٢)

واستطاع معاوية بجهارته وسياسته أن يقضى على معظم الحزب العلوي في
مصر ، ولا سيما الذين كانوا قد ناروا على عثمان ، دون أن يكلفه ذلك حربا
أو سفك دماء . ولم يلجأ إلى حربهم أو إلى دخول مصر عنوة في وقت كان
يستمد فيه الحرب يتوقف عليها مصير الخلافة بينه وبين علي بن أبي طالب

ولما بلغ عليا نبأ قتل ابن أبي حذيفة أرسل إلى مصر قيس بن سعيد
ابن عبادة الانصاري واليا عليها من قبله فدخلها في بداية ربيع الأول
سنة ٣٧ هـ . ويظهر أن قيسا كان من أصحاب المقدرة السياسية الذين يعرفون
كيف يستميلون الرجال حتى المعادين لآرائهم ومبادئهم ، فتراه يحسن إلى
شيمة عثمان بخربتنا ويكرمهم ويبعث إليهم بأعطياتهم . ولعل معاوية خشى أن
تجمل سياسته هذه من مصر ولاية علوية لا تعرف غير علي والطاعة له
فيقضى بذلك على حزب بني أمية ، فعمل هو وعمرو بن العاص على إخراجه من
مصر بأية وسيلة ، ولكنه امتنع مهما بالدهاء والمكيدة . وأخيرا لجأ معاوية
إلى مكيدة استطاع بها أن يجمل عليا يشك في إخلاص قيس بن سعد فكان

(١) هي الآن Lydda في فلسطين على الطريق الذي يوصل بين مصر وسوريا
(د . د . بالقسم والتشديد .. قرية قرب بيت المقدس من نواحي فلسطين) — ياقوت : معجم
البلدان ج ٤ ص ٣٥٤ .

(٢) الكندي : الولاة والقضاة ص ١٩ ، وخطط القرظي : ج ٢ ص ٣٣٦

معاوية يحدث رجلا من ذوى الرأي من قريش في هذا ويقول « ما ابتدعت من مكيدة قط أعجب إلى من مكيدة كدت بها قيس بن سعد حين امتنع منى قيس ». إذ تظاهر معاوية لأهل الشام بأن قيسا من شيمته وأن كتبه ونصائحه تأتيه منه، وكتب بذلك إلى شيمته في العراق، فسمع بذلك جواسيس على في العراق، وانتهى ذلك الخبر إلى علي وأراد أن يتحقق من صحته فأرسل إلى قيس يأمره بمحاربة شيمة عثمان بخربتا فرفض قيس مقاتلتهم مبلا ذلك بأهم وجوه أهل مصر وأشرفهم فنهزم مسلمة بن مخلد وبسر بن أبي أرطاة ومعاوية بن حديج وقال إن معاملتهم بالحسن خير من قتالهم؛ فقتلهم لا يجدي نفعا وأنه في الواقع يكيد لهم بمعاملتهم بالحسن، ثم كتب إلى علي: « إن كنت تهمني فأعزلي وأبعث غيري » فعزله علي وكانت ولايته على مصر حوالى أربعة أشهر. وولى علي مصر الأشتر مالك بن الحارث النخعي وهو من أعوان علي وكبار قواده حضر معه موقعتي الجمل وصفين. وسار الأشتر إلى مصر حتى نزل القلزم في بداية رجب سنة ٥٣٧هـ، وهناك شرب عسلا فمات مسموما. ولما سمع بذلك معاوية وعمرو قال عمرو: « إن لله جنودا من عسل^(١) » ومن المحتمل أنه كان لمعاوية وعمرو يد في مقتله.

وكتب أبو الحسن^(٢) أن معاوية استاء من تولية الأشتر مصر لكفايته وشدته فكتب إلى عامل القلزم يمنيه بوعود مختلفة على أن يهلك الأشتر بكل طريقة يقدر عليها، فكان أن قدم عامل القلزم للأشتر طعاما وعسلا مسموما فمات لساعته.

(١) الكندي: الولاة والقضاة ص ٢٠ — ٢٤، حطط الميرزى ج ٢ ص ٣٣٦

(٢) النجوم الزاهرة: ج ١ ص ١٠٣ — ١٠٤

لما علم علي بموت الأشر أرسل إلى مصر محمد بن أبي بكر فكان حكمه بداية النهاية لحكم علي بن أبي طالب في مصر ، ولا غرو ففسد كان رجلا . يجهل أمور السياسة والحكم ، وكانت تغلب على طبيعته روح الفوضى والثورة ، وفيه حب للرياسة والزهو ، وقد تجلت طبيعته هذه في ثورته ضد عثمان وفي سياسته في مصر عندما وليها .

قدم محمد بن أبي بكر إلى مصر في رمضان سنة ٣٧ هـ . ويقال إن قيس ابن سعد لقيه فنصحه عدة نصائح تختص بحكم مصر ، تذكرنا بساسة قيس قبل أن يمزله علي ، ومن تلك النصائح أن يصارع شيمة عثمان في مصر ليكشف عما ملته الحسنه عن أمرهم وآرائهم ، كما نصحه بأن يحسن سياسته مع الشعب بوجه عام وبأن يتجنب إلى الناس وذلك بأن يمود المرضى ويشهد الجنائز ، وغير ذلك من النصائح التي تستحق التقدير . على أن محمد بن أبي بكر لم يفعل شيئا من ذلك ، بل كان أول ما عمله أن كتب إلى معاوية بن حديج ومن معه من شيعة عثمان يدعوهم إلى بيعته فلم يجيبوه فبث إلى دورهم فهدمها ونهب أموالهم وسجن ذراريهم ، فنهضت شيعة عثمان لمحاربتة ولما علم أنه لا قبل له بهم كف عنهم ثم صالحهم على أن يسيرهم إلى معاوية ففماوا ولحقوا معاوية^(١) . ويظهر أن ذلك جعل معاوية يتخذ خطة الهجوم وينهى خطة السياسة والمكائد ويرسل جيشا لفتح مصر .

في ذلك الوقت الذي عزم فيه معاوية على إرسال جيش لاستخلاص مصر من علي ، كان قد انفق هو وعلى على التحكيم عقب موقعة صفين ، ونعرف أن مدة التحكيم كانت بمثابة هدبة يضع فيها الفريقان المتحاربين السلاح . وتذكر المصادر أنهما لما انفقا على التحكيم غفل علي أن يشترط

(١) الكندي ص ٢٦ - ٢٨ ، خطط المقرئ ج ٢ ص ٣٣٧ .

على معاوية ألا يقاتل أهل مصر^(١) ، ولذا أصبح معاوية في حل من قتال أهلها . ويذكر أبو المحاسن^(٢) أن معاوية طمع في مصر لما اختلف أهل العراق على علي ، وكان معاوية قبل ذلك يهاب مصر لكثرة الشيعة بها بالرغم من أن أهل خربتنا كانوا عثمانية ، ويذكر أيضا أن معاوية قصد باستيلائه على مصر أن يستعين بها على حرب علي . ولأهمية تلك المسألة استشار معاوية خواصه ومن بينهم عمرو . فقال عمرو : « أهك أمر مصر وخراجها الكثير وعدد أهلها فتدعوننا لنشير عليك فيها فاعزم وانهض ، في افتتاحها عزك وعز أصحابك وكبت عدوك . فقال له معاوية . يا ابن الماص : « إنما أهك الذي كان بيننا^(٣) » وقد رأى بقية خواصه ما رأى عمرو . وفي تلك الأثناء كاتب معاوية شيعته في مصر وعلى رأسهم معاوية بن حديج ومسلمة ابن مخلد بمنبهم بقدم جيشه فكتبوا إليه : « أما بعد فعجل علينا بجيملك ورجلك ، فإن عدونا قد أصبحوا لنا هائبين فإن أانا المدد من قبلك يفتح الله علينا » .

هذه هي الرواية التي يذكرها أبو المحاسن ويستفاد منها أن شيعة عثمان بمصر لم يخرجوا منها ، وأن معاوية لم يرسل جيشا لاستخلاص هذه البلاد إلا بعد أن تمهدت له الأمور في مصر .

وقد تكون شيعة عثمان في مصر قد خرجت حقا في ولاية محمد بن أبي بكر كما ذكرنا سابقا ، ولكن الأرجح أنها لم تخرج كلها بل ظل فيها طائفة منهم .

وقد أرسل معاوية سنة ٣٨ هـ جيشا إلى مصر بقيادة عمرو بن الماص .

(١) السكدي ص ٢٨ ، خطط المقرزي ص ٣٧

(٢) النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٠٧ - ١٠٨

(٣) يشير معاوية بذلك إلى الاتفاق الذي كان بينه وبين عمرو على أن يعطيه

مصر طمعة له وذلك عند ما تباهد معه على قتال علي

وهنا يجب أن نتذكر أن عمراً لم يكن يستخلص مصر هذه المرة من أيدي البيزنطيين كما فعل سنة ٥٢٠ هـ وإنما كان يستخلصها من شيمة على ابن أبي طالب ، فكان جيش عمرو في تلك المرة يحارب هريقا من شمبه يدين بدينه ، لا شمبا أجنبياً عنه ويدين بدين غير الدين الإسلامي . ففي سنة ٥٢٠ هـ وقف العرب كتلة واحدة أمام البيزنطيين ، وهنا في سنة ٥٣٨ انقسم العرب على أنفسهم وأصبح حزب منهم يقاتل حزبا آخر . وكان جيش عمرو يتكون من أهل دمشق وعليهم يزيد بن أسد البجلي وأهل فلسطين وعليهم رجل من خشم وكان معاوية بن حديج على رأس شيمة عثمان ، وأبو الأعور السلمي على أهل الأردن . وتقابل جيش عمرو مع جيش محمد بن أبي بكر فأقتلوا بالمساة^(١) وهزم الجيش الذي كان يقوده محمد بن أبي بكر بعد أن تكبد الفريقان خسائر فادحة في الأرواح . وبين شدة القتال في تلك الموقعة ما قاله عمرو : « شهدت أربعة وعشرين زحفاً فلم أر يوماً كيوم المسناة ولم أو الأبطال إلا يومئذ » وبعد انتصار عمرو دخل هو وأهل الشام مدينة القسطنطينية^(٢) .

هرب محمد بن أبي بكر بعد تلك الموقعة فأقبل معاوية بن حديج في رهط من أنصاره يبحث عنه فدلتهم على مكانه امرأة فسار إليه معاوية بن حديج وقتله وقال : يقتل كنانة بن بشر ويترك محمد بن أبي بكر وإنما أمرهما واحد^(٣) . ويقال إن محمدا طلب المفومين معاوية بن حديج فقال له معاوية : « قتلت ثمانين رجلاً من قومي في عثمان وأتركك وأنت صاحبه ! » فقتله ووضعه في جيفة حمار ميت وأحرقه بالنار . فكانت ولاية محمد بن أبي بكر

(١) المسناة : مكان بين عين شمس وأم ديين أي شمال القاهرة .

(٢) الكندي : الولاة والقضاة ص ٢٩

(٣) الكندي ص ٢٩

على مصر خمسة أشهر ومقتله في ١٤ من صفر سنة ٣٨ هـ وقيل أيضاً إنه قطع رأسه وأرسله إلى معاوية بن أبي سفيان بدمشق وطيف به ، وهو أول رأس طيف به في الإسلام^(١) ، وبذلك انتهى حكم الخلفاء الراشدين من مصر في صفر سنة ٣٨ هـ^(٢) . وتقديراً لهذه الخدمات التي أداها عمرو بن العاص ولاء معاوية مصر مبالغاً فيها وخراجها وجعلها له هبة بعد عطاء جدها والنفقة على إدارتها ، وهذه هي ولاية عمر بن العاص الثانية على مصر . ولم يلبث عمرو أن خرج للتحكيم الذي كان بين علي ومعاوية واستخلف على مصر ابنه عبد الله ، وفيل خارجة بن خديفة صاحب شرطته ، وبعد أن أدى مهمته في التحكيم كما رأينا عاد ثانية إلى مصر^(٣) . وهكذا أصبحت مصر ولاية تابعة للدولة الأموية منذ سنة ٣٨ هـ بالرغم من أن علياً ظل خليفة حتى سنة ٤٠ هـ .

٢ -- النزاع الذي فاصم حول النهوض بزعمه الخلفاء الأصويين (٤٠) --
١٣٢ هـ = ٦٦١ - ٧٥٠ م) :

١ -- دعوة ابن الزبير لنفسه بالخلافة وأثر ذلك في مصر

طمع عبد الله بن الزبير في الخلافة كما طمع غيره وتجتأ أمنيته هذه منذ خروجه مع أبيه في موقعة الجمل^(٤) ، على أن الفرصة لم تكن قد حانت بعد لخروجه وادعائه للخلافة ، بل نراه يشترك في خدمة الدولة زمن معاوية

(١) خطاط القرظي : ج ٢ ص ٣٣٧

(٢) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ١١٠

(٣) الكندي ص ٣١ ، خطاط القرظي : ج ٢ ص ٣٣٧

(٤) انظر الطبري : تاريخ الأمم والملوك ج ٥ ص ١٦٩ ، ابن طباطبا :

الفخرى ص ٧٦

ابن أبي سفيان ويخرج في الجيش الذى سار لعزو القسطنطينية سنة ٤٩ هـ بقيادة يزيد بن معاوية^(١). وعند ما أخذ معاوية قبيل وقاه البيعة لابنه يزيد، بارض في تلك البيعة نفر يسير من أهل المدينة منهم الحسين بن على وعبد الله ابن الزبير. وقد حذره معاوية من هؤلاء النفر وخاصة من ابن الزبير إذ قال له «... وأما الذى يجثم لك جثوم الأسد ويراوغك مراوغة الثعلب فإن أمكنته فرصة وثب فذاك ابن الزبير فإن هو وثب عليك فظفرت به فقطمه إربا إربا واحقن دماء قومك ما استطت^(٢)». ولما ولي يزيد بن معاوية الخلافة (٦٠ - ٦٤ هـ = ٦٨٠ - ٦٨٣ م) امتنع الحسين والزبير عن مبايعته. فأما الحسين فقد خرج على يزيد وقتل في اليوم المباشر من المحرم سنة ٦١ هـ بكر بلاء، وقتله خلا الجولان الزبير فدعا لنفسه بالخلافة في سنة ٦١ هـ وبايعه أهل تهامة والحجاز^(٣). وقد أرسل يزيد جيشا في سنة ٦٣ هـ لمحاربة ابن الزبير وأتباعه في المدينة ثم مكة، ومات يزيد ولما يتم إخضاع ابن الزبير. ثم ولي الخلافة معاوية الثانى ابن يزيد، إلا أن مدة خلافته لم تطل فقبل إنه ملك أربعين يوما وقيل ثلاثة أشهر، وحدثت بعد موته فترة هرج ومرج وتزعاج حول منصب الخلافة، وفي تلك الأثناء اتسع نطاق دعوة ابن الزبير الذى بايعه أهل الشام كلهم إلا أهل الأردن، وكذلك بايعه أهل مصر كما غلب على أهل العراق والحجاز واليمن.

ولما بويع مروان بن الحكم بالخلافة في سنة ٦٤ هـ (٦٨٤ م) كان عليه أن يقضى على معارضة عبد الله بن الزبير. أما في الشام فقد انتصر على

(١) الطبرى: ج ٦ ص ١٣٠.

(٢) ابن طباطبا: الفخرى ص ٩٨.

(٣) الدينورى: الأخبار الطوال ص ٢٦٠، الطبرى ج ٦ ص ٢٧٣ - ٢٧٤.

الضحاك بن قيس عامل عبد الله بن الزبير في موقعة مرج راهط وقتله وبذلك خلصت بلاد الشام لمروان ، وكذلك استولى مروان بن الحكم على مصر من عامل ابن الزبير كما سنرى ، ومات مروان في سنة ٦٥ هـ (٦٨٥ م) وابن الزبير منتقل على الحجاز والعراق .

وفي عهد عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦ هـ = ٦٨٥ - ٧٠٥ م) تم القضاء على ابن الزبير ، إذا تغلب بنو أمية على العراق في سنة ٧٢ هـ ، وعلى الحجاز في سنة ٧٣ هـ ، وانتهى الأمر بقتل ابن الزبير في هذه السنة .

وقد مر بنا أن مصر أصبحت ولاية تابعة للدولة الأموية منذ سنة ٣٨ هـ وأصبح ولايتها منذ ذلك الحين يولون من قبل الخلفاء الأمويين ، ولم تظهر دعوة ابن الزبير في مصر إلا عقب وفاة الخليفة يزيد وذلك في ولاية سميد ابن يزيد عليهما (٦٢ - ٦٤ هـ) . وقد قام بتلك الدعوة الخوارج وكانوا يحسبون ابن الزبير على مذهبهم^(١) . والواقع أن هذه الفرق المختلفة من الشيعة والخوارج كانت تؤيد جموع الناشرين على الخلافة عليها تستطيع الوصول إلى مآربها المختلفة دينية كانت أو سياسية . فلم يقل أحد بأن ابن الزبير كان يدين بمذهب الخوارج ، ولكن ربما ادعى الخوارج في مصر ذلك ، وساعدهم في دعوتهم هذه ما لاقوه من ترحيب ابن الزبير بهم واعتمادهم عليهم في نشر دعوتهم .

أوفد الخوارج في مصر وفدا إلى ابن الزبير - ليرسل إلى مصر أميرا من قبله يؤازرونه . كذلك خرج من مصر إلى ابن الزبير أناس من غير

(١) الكندي : الولاة والقضاة ص ٤٠ - ٤١ ، خطط القرظي : ج ٢

الخوارج ، مهم أبو عبيدة وعياض ابنا عقبة بن نافع بن عبد قيس الفهري
وأبو بكر بن القاسم بن قيس العذري وحيان بن الأعين الحضرمي وحجوة
ابن الأسود الصدقي - ثم أرسل ابن الزبير واليا عن قبله على مصر
هو عبد الرحمن بن عتبة بن جحدم الفهري ، فقدم مصر في طائفة من
الخوارج الذين قاموا ضد واليها سعيد بن يزيد فاعتزل الولاية سنة ٦٤ هـ
ومن ثم بدأت ولاية عبد الرحمن بن جحدم في شعبان سنة ٦٤ هـ وأصبحت
مصر ولاية تابعة لخلافة عبد الله بن الزبير . وقد بايمه الناس في مصر ومنهم
شيعة بني أمية الذين بايموه في الظاهر إلا أنهم كانوا مخلصين للمؤمنين
وللحكم الأموي في الباطن^(١) . فلما بويع مروان بن الحكم خليفة بالشام في
ذي القعدة سنة ٦٤ هـ دعاه شيعته بمصر لاستخلاصها من عامل ابن الزبير .
فقدم مروان بن الحكم إلى مصر وأرسل أمامه جيشا بقيادة ابنه
عبد العزيز بن مروان وأمره أن يدخل مصر عن طريق أيلة . وقد
أشار الجنيد على ابن جحدم بحفر خندق حول النسطاط للدفاع عن مصر ،
فأمر بحفر هذا الخندق فحفر في شهر واحد ، وفي ذلك يقول ابن أبي زمره
الخشبي .

وما الجد إلا مثل جد ابن جحدم وما العزم إلا عزمه يوم خندق
ثلاثون ألفا قد أثاروا ترابه وخدوه^(٢) في شهر حديث مصدق
وقد أعقب ابن جحدم ذلك بإرسال جيش إلى الشام أمر عليه السائب
ابن كنانة بن هشام العامري كما سير إليها حملة بحرية بقيادة الأكدر بن حمام

(١) الكندي : الولاة والقضاة ص ٤٠ - ٤٢ ، خطط المقرئ ص ٢

ص ٣٣٧

(٢) خدوه : شقوه

الضحى . وأرسل إلى أيلة جيشا آخر بقيادة زهير بن قيس البلوى لمنع عبد العزيز بن مروان من السير إليها . أما جيش السائب فقد انتصر عليه مروان بجندة غربية إذ أخبره روح بن زنياع بأن للسائب بفلسطين ولدا رضيعا فأخذه مروان ولسا التقى بجيش السائب أظهر له ابنه وهدده بقطع رأس ابنه إذا لم يرجع ، فرجع السائب دون قتال ولذلك سمى جيشه جيش السكرارين ، وأما المراكب التي سيرها ابن جحدم فقد هبت عليها ريح عاصف أغرقها ونجا أميرها الأكرد وعاد إلى القسطنطينية . وقد التقى جيش زهير بن قيس ببعد العزيز على مقربة من أيلة وتقاتلا فانهزم زهير ومن معه (١) .

وسار مروان إلى مصر حتى نزل عين شمس فخرج إليه ابن جحدم في اتباعه وتجاروا يوما أو يومين ثم رجعوا إلى خندقهم . وأخذوا يجارون مروان وهم في الخندق ، وقد سميت تلك الأيام بأيام الخندق والتراويح ، فكان أهل مدينة القسطنطينية يتناوبون القتال فيخرج نفر للقتال ثم يرجع ثم يخرج غيرهم ، وهكذا وقد اشتد القتال بين الفريقين حتى قام نفر ليصلحوا بين المصريين ومروان وتم ذلك الصلح وكتب مروان كتابا أمن فيه المصريين ثم دخل القسطنطينية في غرة جمادى الأولى سنة ٦٥ هـ (٢) . وانتهى في مصر حكم ابن الزبير بعد أن دام نحو تسعة أشهر وهي المدة التي ولي فيها عبد الرحمن بن جحدم .

وقد بايع المصريون مروان بن الحكم إلا نفرًا لم يرضوا بنكث بيعة ابن الزبير بعد أن بايعوه طائمين . ولما كان مروان يريد أن يقضى على خلافة

(١) الكندي ص ٤٢ - ٤٣ ، خطط القرظي ج ٢ ص ٣٣٧ - ٣٣٨

(٢) الكندي ص ٤٣ - ٤٥ ، خطط القرظي ج ٢ ص ٣٣٨

ابن الزبير نهائيا من مصر ، فقد اضطر إلى قتلهم بعد أن أبوا بيعته وكانوا ثمانين رجلا .

وأقام مروان بن الحكم بمصر شهرين ثم غادرها في أول رجب سنة ٦٥ هـ بعد أن وطد أمورها وأعادها ثانية إلى الحكم الأموي ، كما ولي عليها ابنه عبد العزيز بعد أن زوده بالنصائح الهامة التي تجعل مته حاكما قديرا وتساعد على حكم مصر (١) .

على أن مصر بعد خروجها عن طاعة ابن الزبير لم تقف على الحياد في النزاع الذي كان بينه وبين الخلفاء الأمويين ، بل مدت يد المساعدة إلى الأمويين كي تعينهم على التخلص منه ، فأرسل عبد العزيز بن مروان إلى مصر (٦٥ - ٨٦ هـ) في سنة ٧٢ هـ حملة بحرية إلى مكة لقتال ابن الزبير كان عدتها ثلاثة آلاف رجل ، وكان في هذا البعث رجل اسمه عبد الرحمن بن بجنس (٢) أحد موالى تميم يقال إنه هو الذي قتل ابن الزبير في جمادى الآخرة سنة ٧٣ هـ (٣) .

وقد رفعت خلافة ابن الزبير من شأن الخوارج بمصر لفترة يسيرة ، إلا أنهم ، كما يقول المقرئ (٤) ، انكفت ألسنتهم هم والعلوية بعد تغلب مروان على مصر . على أنهم عادوا إلى الظهور في ولاية قرّة بن شريك على مصر (٩٠ - ٩٦ هـ) في خلافة الوليد بن عبد الملك ، فيذكر الكندي (٥) والمقرئ (٦) أنه عندما خرج قرّة إلى الإسكندرية في سنة ٩١ هـ انفق

(١) الكندي ص ٤٧ - ٤٨

(٢) كتب الاسم في المصادر بجنس ويحتمل أن يكون ذلك الاسم « بجنس »

(٣) الكندي ص ٥١ ، خطط المقرئ : ج ١ ص ٢١٠

(٤) الخطط ج ٢ ص ٣٣٨

(٥) الولاة والقضاة ص ٦٤

(٦) الخطط ج ٢ ص ٣٣٨

الخوارج بالاسكندرية ، وكانت عينتهم نحو مائة ، على الفتك به وكان رئيسهم إذ ذاك المهاجر ابن أبي الشثبي التنجيبي أحد بني فهم ، وقد علم بذلك رجل يكنى بأبي سليمان فأبلغ قرّة ما عزم عليه الخوارج فأخذهم بقتة قبل أن يتفرقوا وحبسهم وقد أقروا بما عزموا عليه فقتلهم .

وبذلك انتهى ذلك الدور من أدوار النزاع حول الخلافة بمد أن ساهمت فيه مصر مساهمة ذات أثر لا ينفى . وقد ظلت مصر تقريبا طوال الحكم الأموي فيها (٣٨ - ١٣٢ هـ) هادئة لا تشترك في أية منازعات أو حركات ظهرت في مقر الخلافة أو في غيرها من أنحاء الدولة الإسلامية إذا استثنينا تلك الفترة التي قامت فيها خلافة ابن الزبير في مصر كما تقدم . على أن مصر دخلت في أواخر ذلك العهد في النزاع الذي قام بين الأمويين والعباسيين والذي انتهى بقيام الدولة العباسية كما سنرى .

ب — زوال الخلافة الأموية وأثر ذلك في مصر

تجمعت الظروف والعوامل التي أدت إلى زوال الخلافة الأموية وظهر أثرها بوضوح منذ أواخر القرن الأول الهجري وأوائل القرن الثاني ، فمن شيعة يعملون على السكيد لبني أمية ليقتصبوا الخلافة منهم ، ومن خوارج كانت مبادئهم وحركاتهم هادمة لخلافة قريش ، إلى موال كرهوا الدولة الأموية لتفضيلها العرب عليهم .

وهذه العناصر المناوئة للدولة وجدت منذ قيام الدولة الأموية ، ومع ذلك لم يظهر أثرها في إضعافها إلا بمد أن ظهر الضعف من جانب الدولة نفسها ، ولعل أهم مظاهر ذلك الضعف هو انقسام البيت الأموي على نفسه انقسامًا تامًا منذ خلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك (١٢٥ - ١٢٦ هـ =

٧٤٣ — ٧٤٤ م) إلى أن ولى الخلافة مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين في سنة ١١٧ هـ (٧٤٤ م) ، إذ أصبح كل فرد من أفراد البيت الأموي يتخذ لنفسه حزبا يستعين به على الوصول إلى الخلافة ، مما شجع الطامعين من غير بني أمية على إلقاء دلوهم في الدلاء عليهم يصلون إلى ما يريدون . وكان صاحب النصيب الأكبر في هذه الفئيمة هم المباسيون .

كذلك وضع خطر المصيبة القبلية في أواخر عهد الدولة الأموية وما زاد في شقة الخلاف بين أفراد القبائل أن الخلفاء زجوا بأنفسهم في هذه المنازعات ، فتمصب بعضهم لعرب الشمال وتمصب آخرون لعرب الجنوب . وقد استغل بنو العباس عم الرسول كل هذه الظروف السيئة التي أحاطت بالخلافة الأموية ، ويظهر أنهم بدأوا منذ أواخر القرن الأول الهجري ينظرون من جانبهم فيما طمح إليه الشيعة^(١) فأخذوا يميلون لأنفسهم واستغلوا في حركتهم الشيعة والموالى استقلالاً كبيراً ؛ إذ كانوا يدعون لواحد من آل محمد وطبيعي أن هذا يشمل آل علي وآل العباس .

وفي الوقت الذي أثمرت فيه الدعوة المباسية كان حال الخلافة الأموية قد ساء إلى أقصى حد . وقد وجدت الدعوة المباسية في شخصية أبي مسلم الخراساني صاحب الفضل في إخراجها إلى حيز العمل والتنفيذ ، فهو كما يقول ابن طباطبا^(٢) « رجل الدولة وصاحب الدعوة وعلى يده كان الفتح » . وقد نجح أبو مسلم في إظهار الدعوة المباسية ورفع راية المباسيين في خراسان سنة ١٢٩ هـ^(٣) . وتمت الغلبة للمباسيين على الأمويين في خراسان

(١) المسعودي : كتاب التنبيه والإشراف ص ٣٣٨

(٢) الفخرى ص ١١٨

(٣) الطبري ج ٩ ص ٨٢ — ٨٤

والمراق ، وسار أبو مسمم بجيئته من خراسان إلى الكوفة حيث بايع
أبا العباس السفاح بالخلافة في سنة ١٣٢ هـ . وتبمه الناس من بعده . وقابل
جيش العباسيين مع الجيش الأموي الذي كان يقوده مروان بن محمد عند نهر
الزاب (أحد روافد نهر دجلة) ، وهناك كانت الغلبة للعباسيين في
سنة ١٣٢ هـ (٧٥٠ م^(١)) وفر مروان بمد ذلك هاربا إلى مصر .

ولا نعرف على وجه التحقيق متى بدأت الدعوة العباسية في مصر لأن
العباسيين كما عرفنا اهتموا بخراسان والمشرق لنشر دعوتهم فيها ولأن محور
الحوادث منذ البداية كان في المشرق ، ولكن كان مقدرا أن تكون نهايتها
في مصر التي فر إليها الخليفة مروان بن محمد ولقي فيها حتفه .

أول ما نسمع عن الدعوة العباسية في مصر أيام خلافة هشام
ابن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥ هـ) وفي ولاية عبد الرحمن بن خالد عليها
(١١٧ - ١١٩ هـ) إذ يذكر أبو المحاسن^(٢) أن دعاة بني العباس أرسلوا
إليه سرا فآكرمهم ووعدهم فبلغ ذلك هشاما فعزله .

لكن مصر ظلت هادئة لم تتأثر عما كان يدور في المشرق حتى كانت
-خلافة مروان بن محمد (١٢٧ - ١٣٢ هـ) فيبدأ الاضطراب في مصر منذ
توليه الخلافة ونرى الجند لا يطيعون أوامر الخليفة في كثير من الأحيان ،
كما نرى النزاع بين القيسية واليمينية يتجلى بأجلى مظاهره في مصر ولاغرو
فقد عمت روح العصبية القبلية إذ ذاك في جميع أنحاء الدولة الإسلامية ،
فاليمينيون لا يتفدون أوامر الخليفة ، والقيسيون أو المضيرون في جانب
الخليفة ، ولكن بعضهم يشقون عصا الطاعة ، كما يشور بعض أفراد

(١) الطبري ج ٩ ص ١٣٠ - ١٣٢ ، ابن طباطبا : الفخرى ص ١٢٥ - ١٢٦

(٢) البجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٧٨

البيت الأموي تمصبا للخليفة مروان بن محمد وبعضهم يثور ضده ، كذلك يظهر الخوارج في مصر . أى أن ما يحدث في مقر الخلافة يقع مثله في مصر . وهنا نجد ظاهرة لم نهددها من قبل وهي ثورة الأهالي الوطنيين ومساعدتهم للعباسيين ضد الأمويين ، فالأهالي الوطنيين لم يشتركوا في المنازعات الخلافية من قبل ولكنهم لعبوا هنا دورا لا ينفل أثره ، فتهيأت بذلك الظروف للعباسيين ، كي يتموا نصرهم ضد الأمويين ، وكي ينشروا دعوتهم في مصر .

لما بويع مروان بن محمد بالخلافة في صفر سنة ١٢٧ هـ كان على ولاية مصر إذ ذاك حفص بن الوليد الحضرمي ، فلما أعلن بالفسطاط نبأ بيعة مروان ، كتب حفص إليه يستعفيه من ولايته على مصر فأعفاه مروان منها^(١) وهنا يجدر أن نشير إلى أن حفصا هذا كان من عرب الجنوب ، أو من اليمنية الذين كانوا في ذلك الوقت في عداة مستحكم مع المضرية أى عرب الشمال الموالين للخليفة .

ولى مروان بن محمد حسان بن عتاهية على صلالة مصر ، وولى على الخراج عيسى بن أبي عطاء ، وهنا تتجلى العصبية القبلية بأحلى مظاهرها ، كما تتجلى حالة الفوضى التي وصلت إليها البلاد ، وكيف قطعت الدولة العباسية شوطا بعيدا وسط تلك الفوضى الشاملة التي عمت أنحاء الدولة الأموية إذ ذاك . فقد كانت سياسة مروان بن محمد تنطوي على الاتحاد مع القيسية أو المضرية ضد اليمنية ، فكان طبيعيا أن يثور اليمنيون في مصر ضد سياسة الخليفة . لذا نجد أن حسان بن عتاهية عندما قدم إلى مصر في ١٢ من جمادى الآخرة

(١) الكندي : الولاة والقضاة ص ٨٤ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١

سنة ١٢٧ هـ يأمر بحل الفرق التي كان حفص بن الوليد^(١) قد جندها على أن حسان لم يكذب يستقر في ولاية مصر حتى ثار قواد الفرق التي جندها حفص وأعلنوا عدم رضاهم إلا بحفص بن الوليد^(٢). وكان هذا في الواقع نزاعا بين اليمنية والمصرية ؛ إذ كان اليمنيون يشورون ضد عامل مروان بن محمد الذي كان يهيمه موالاة المصريين ، على أن الذي شجهم على عصيان الخليفة هو حالة الفوضى والاضطراب التي سادت أنحاء الدولة إذ ذاك ، إذ كان الخليفة في ذلك الوقت مشغولا محاربة الخارجين على الدولة من مختلف الطوائف والأحزاب ، حتى إنه عجز عن عمل أى شيء ضد الدعوة العباسية .

ويظهر أن الدعوة العباسية في مصر كانت في ذلك الوقت قد قطعت شوطا بعيدا . إذ أرسل ثابت بن نعيم الجذامي — وكان ممن خرجوا على مروان بن محمد — كتابا إلى حفص بن الوليد يدعو فيه إلى خلع مروان ابن محمد . كذلك أتى إلى مصر رسول زامل بن عمرو الذي خلع مروان بحمص ودعاهم إلى مثل ما دعاهم إليه ثابت بن نعيم^(٣) . والمهم هنا أن اليمنية وسائر الخارجين على مروان ساروا إلى دار حسان بن ثابت وحاصروه فيها وطلبوا منه أن يخرج من مصر فنزل على رغبتهم وأتجه إلى الشام ليلحق بمروان ، فكانت ولاية حسان بن ثابت على مصر ستة عشر يوما . كذلك أخرج الثائرون من مصر صاحب الخراج عيسى بن أبي عطاء . وولى الثائرون عليهم حفص بن الوليد^(٤) . على أنه بالرغم من أن حفصا كان من اليمنيين إلا أنه كان رجل دولة بالمعنى الصحيح يعرف أن مصلحة الدولة فوق مصلحة القبيلة

(١) الكندي ص ٨٥

(٢) الكندي ص ٨٥

(٣) الكندي ص ٨٥ — ٨٦

(٤) الكندي ص ٨٦ ، أبو المعاسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٣٠١

وأن طاعة الخليفة واجبة . ويتبين لنا ذلك مما قاله الكندي^(١) إذ يذكر أنه ولى مصر في هذه المرة كرها وأن قواد الجندم الذين أجبروه على ذلك .

وفي تلك الأثناء قدم حنظلة بن صفوان الكلبي من إفريقية إلى مصر وكان أهلها قد أخرجوه منها ، فنزل بالجيزة . وعند ذلك كتب مروان إلى أهل مصر بتولية حنظلة بن صفوان عليهم . ولكن المصريين عصوا أمر الخليفة مرة أخرى ، بل حاربوا حنظلة وأخرجوه من القسطنطينية إلى الحوف الشرقى ، وظل حفص بن الوليد واليا على مصر طوال سنة ١٢٧ هـ حتى أوائل سنة ١٢٨ هـ^(٢) .

على أن الخليفة مروان بن محمد وجد أن تنفيذ أوامره في مصر لا يكون إلا بالقوة ، لذا عزل حفص بن الوليد عن ولايتها في الحرم سنة ١٢٨ هـ وولى عليها حوثة بن سهيل الباهلي وزوده بالجيش لقتال حفص وأهل مصر ، فسار حوثة إلى مصر يصحبه سبعة آلاف رجل من أهل حمص والجزيرة وقنسرين ، وهنا نجد حفصا مرة أخرى يلبي نداء عقله ولا يستمع لنداء المصيبة القبلية حين اجتمع إليه الجندم وطلبوا منه أن يمنع حوثة من دخول مصر ، إذ أبى عليهم ذلك وسلم ما بيده إلى أبي الجراح الجرشي بشر ابن أوس الذي أرسله حوثة ريثما يحضر إلى مصر^(٣) .

ولما دخل حوثة أرض مصر يصحبه الجنود ، خشى أهل مصر منه ، فأرسلوا إليه يزيد بن مسروق الحضرمي يسأله الأمان فلقبه بالعريش وأجابيه إلى ما طلب ، وكتب إلى أهل مصر كتاب أمان ففرج إليه حفص بن

(١) الكندي ص ٨٦

(٢) الكندي ص ٨٧ ، أبو الحسن ج ١ ص ٣٠٢ .

(٣) الكندي ص ٨٧

الوليد في وجوه الجند ، إلا أن حوثة لم يمبأ بالأمان الذي أعطاهم إياه فأمر بالقبض عليهم . ثم سار إلى الفسطاط في ١٢ من المحرم سنة ١٢٨ هـ . وعقب دخول حوثة الفسطاط بمث في طلب رؤساء الفتنة وكانوا من اليمينيين وتمكن من القبض عليهم وقتلهم ، ومنهم حفص بن الوليد ، وذلك سنة ١٢٨ هـ (١)

ولم يكد حوثة يتخلص من الهينة في مصر ويعهد أمورها حتى ظهرت فيها حركة أخرى كانت صدى لحركة الخوارج بالحجاز . فعندما قام عبد الله ابن يحيى الملقب بطالب الحق في الحجاز ضد مروان بن محمد ودعا إلى نفسه بالخلافة ، قدم إلى مصر داعيته ودعا لمبايمته ، فأجابه نفر من تميم وغيرهم ، ولما علم حسان بن عتاهية صاحب الشرطة بذلك قبض عليهم فقتلهم حوثة بن سهيل (٢)

وما زال حوثة يعهد أمور مصر حتى استدعاه مروان بن محمد سنة ١٣١ هـ ليخرج إلى العراق لقتال الخراسانية دعاة بني العباس (٣)

ولي مصر بعد ذلك المعيرة بن عبد الملك الفزاري في جمادى الأولى سنة ١٣٢ هـ ثم عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير ، وفي تلك الأثناء كان مروان بن محمد قد هزم أمام جيش العباسيين في وقعة الزاب (جمادى الآخرة سنة ١٣٢ هـ) وفر إلى حران عاصمة الجزيرة . وكانت مصر البلاد التي فكر مروان في الهرب إليه عليه يستطيع منها أن يقضى على العباسيين ليسترد سلطانه المههد بالضياع ، وذلك بما لها من مزايا عديدة من

(١) الكندي ص ٨٨ — ٩١ ، أبو الحسن ج ١ ص ٣٠٥

(٢) الكندي ص ٩٢ ، خطط القرظي ج ٢ ص ٣٣٨

(٣) الكندي ص ٩٢ ، أبو الحسن ج ١ ص ٣٠٥

حيث الموقع والثروة . ويقال إن مروان فكر أولا وهو بحران في الهرب إلى بلاد الروم حيث يجمع أمره ويلم شمل جنوده ليحارب العباسيين ، واستشار في ذلك رجلا من أخص الناس عنده وهو اسماعيل بن عبد الله القسرى . فكان ذلك رأى اسماعيل ، غير أنه تذكر معاداة مروان لليمنيين وتعامله عليهم فصرفه عن هذا الرأى ، وقال له يا أمير المؤمنين : أعينك بالله أن تحكم أهل الشرك في نفسك وحرملك لأن الروم لا وفاء لهم ^(١) .
و حين عاود الخليفة سؤاله قال : « الرأى أن تقطع الفرات وتستقرى ^(٢) مدن الشام مدينة مدينة فإن لك بكل مدينة صنائع ونصحاء ، وتضمهم جميعا إليك وتسير حتى تنزل ببلاد مصر ، فهى أكثر أهل الأرض مالا وخيلا ورجالا فتجعل الشام أمامك وإفريقية خلفك ، فإن رأيت ما تحب انصرفت إلى الشام ، وإن تكن الأخرى اتسع لك المهرب نحو إفريقية فإنها أرض واسمة نائية منفردة ^(٣) » وقد صادف هذا الرأى قبولا لدى الخليفة ، إلا أن مروان عند ما وصل إلى مصر وجد أن الدعوة العباسية قد قطعت مرحلة كبرى فيها فكان أمامه محاربة العباسيين في داخل مصر وخارجها ، وكانت النتيجة أن غلب على أمره فى النهاية .

لما وصلت الأخبار إلى مصر بأنهمزام مروان في موقعة الزاب أخذ واليها عبد الملك بن مروان يستمد لمقاومة العباسيين فصادر كل ما وجده من الذهب والفضة والنحاس والحديد وغيره ليستعمل ذلك فى الصناعة وغيرها من الأمور اللازمة للدفاع . وقد اخترعت فى ذلك الوقت مادة من المقاقير

(١) الدينورى : الأخبار الطوال ص ٣٤٦ — ٣٤٧

(٢) استقرى البلاد تنبها وطاق بها

(٣) الدينورى ص ٣٤٧

تدهن بها المراكب كيلا تؤثر فيها النيران ، ويحدثنا أحد الرواة الأقباط بأنه شاهد تلك الظاهرة بنفسه وهي عدم تأثر المراكب بالنيران إذا مادھنت بتلك المادة ، بل كانت النيران تنطفئ في الحال^(١) . ولا بد أن أهالي مصر الوطنيين ومن بينهم الأقباط قد نالهم بلاء عظيم^(٢) من جراء مصادرة أموالهم وأستخدامهم في كثير من الأمور اللازمة لمثل ذلك الدفاع . إلا أن الوالي كان مضطرا إلى ذلك إزاء الأزمة السياسية الخطيرة التي كانت سيتوقف عليها مصير الخلافة الأموية نهائياً . ومن غير المحتمل أن ذلك كان بغضا خاصا للنصارى من جانبه ، كما يظن ساويرس بن المقفع^(٣) .

ومن ثاروا على مروان في مصر عمرو بن سهيل بن عبد العزيز بن مروان وتبعه في ذلك الدماحس بن عبد العزيز الكنانى في جمع من قيس ، فأرسل إليهم الوالى عبد الملك بن مروان جيشا قوامه سبعة آلاف شخص برئاسة موسى بن المهند ، وفي بلبس التقى هذا الجيش مع الثائرين الذين طلبوا الصلح ، فأجابهم موسى بن المهند إلى ما طلبوا ، ثم ظفر بعمرو بن سهيل وحبسه في الفسطاط^(٤) . وحسبنا دليلا على الاضطراب الذى وصلت إليه مصر في تلك الفترة أن يثور على مروان بن محمد بعض أفراد البيت الأموى كعمرو ابن سهيل وأن يتبع هذا الثائر جزء من قبيلة قيس التي كانت موالية لروان . ولما عزم مروان على السير إلى مصر اجتمع بعض الجند فيها على منعه من دخولها وأمروا عليهم عبيد الله بن عبد الرحمن بن عميرة الحضرمى وهو

(١) ساويرس بن المقفع : سير الأباء البطارقة ص ١١٩

(Patr. Orientalis t. V).

(٢) ساويرس ص ١١٨ — ١١٩

(٣) ساويرس ص ١١٨

(٤) السكندى ص ٩٤ ، أبو المحاسن ج ١ ص ٣١٦

— كما نرى من نسبه — ينتمي إلى عرب الجنوب الذين أديبوا في عداة مستحکم مع الخلفاء الأمويين . وقد أرسل مروان على مقدمة جيشه ابنه عبيد الله بن مروان ، فلما وصل إلى مصر دعا ابن عميرة الجند إلى النهوض معه فثاقلوا عنه ولم يقوموا بشيء مما عزموا عليه^(١) ، ثم قدم مروان مصر لثمان بقين من شوال سنة ١٣٢ هـ فوجد أن أهل الحوف الشرقي قد أصبحوا من أعوان المباسيين ، كما وجد الأسود بن نافع بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري في الاسكندرية قد صار من أنصارهم ، وكذا عبد الأعلى بن سعيد بن عبد الله ابن مروان الجيشاني بصعيد مصر ويحيى بن مسلم بن الأشج مولى بني زهرة بأسوان^(٢) . ومن هذا ندرك كيف نظمت الدعوة العباسية في مصر .

ونجح مروان في أن يخضع الاسكندرية والصعيد ولكنه لم يجن ثمار هذا النصر لأن صالح بن علي بن عبد الله العباسي وأبا عون تبعاه إلى مصر على رأس الجيوش العباسية فوصلوا إليها بعده بنحو شهر كما يحدثنا بذلك ساويرس^(٣) أو بعد مجيئه بشهرين تقريبا أعنى في النصف من ذى الحجة كما تخبرنا بذلك المراجع المتأخرة^(٤) . وقد زاد الحالة هرجا في ذلك الوقت ثورة أهل البشمور^(٥) في وجه عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير والى مصر

(١) الكندي ص ٩٤ — ٩٥

(٢) الكندي ص ٩٥

(٣) سير الآباء البطارقة ص ١٥٦ ، ١٧٠

يذكر ساويرس أن مروان قدم إلى مصر في عشرين بثونة سنة ٤٦٧ للشهداء ، وأن الخراسانيين وصلوا مصر في يوم ١٩ أبيب . وساويرس في الواقع أكثر ثقة من المراجع المتأخرة لأنه استمد معلوماته من الوثائق اليونانية والقبطية المعاصرة لتلك الحوادث والتي كانت محفوظة في الأديرة .

(٤) الكندي ص ٩٦ ، أبو الحسن ج ١ ص ٣١٧

(٥) إقليم البشمور أو البشرد كما في المراجع العربية : هو المنطقة الرملية الواقعة على ساحل الدلتا بين فرعى دمياط ورشيد والمعروفة في التاريخ القديم =

قبل قدوم الخليفة إليها وقد امتنعوا عن دفع الخراج ، مغاربتهم عبد الملك ولكنهم هزموه . ولما وصل مروان بن محمد إلى مصر وعلم بثورتهم ، أرسل يمرض عليهم الأمان ولكنهم لم يقبلوا ذلك منه وظلوا على ثورتهم ، وساعدهم على ذلك أن المنطقة التي ثاروا فيها كانت تحيط بها المستنقعات ، وتعميق حركة الجيوش المهاجمة . وفشلت الجيوش التي أرسلها مروان لمحاربتهم . ولما اقترب العباسيون من الحدود المصرية وبلغوا غزة صمم مروان على إحراق مدينة الفسطاط وأعلن وجوب إخلائها في ثلاثة أيام ، فهرب جميع أهلها إلى الجزيرة أو إلى جزيرة الروضة ثم أمر مروان بإحراقها . ولما علم بوصول الخراسانيين إلى الفرما أمر بإحراق جميع المراكب في مصر وإحراق ما يستطيع إحراقه من المدن والكتور وتخريب ما يستطيع تخريبه في الوجه البحري ، وتم إحراق بعض المدن وتخريبها في شرق الدلتا . أما مروان نفسه فقد عبر إلى الضفة الغربية للنيل في مراكب هو وجنده بعد أن أحرق الفسطاط على الضفة الشرقية . ويذكر ساويرس أن مروان قام بحركة التخريب والإحراق لأنه ظن أن الخراسانيين إذا أتوا إلى الضفة الشرقية للنيل ووجدوها خالية من الناس والبهائم والفلات ولم يجدوا مراكب يركبون فيها رجعوا من حيث أتوا^(١) والحق أن مروان فعل ما يفعله معظم المتحاربين عندما تصبح حالتهم الحربية في خطر ويتيقنون أنهم مغلوبون على أمرهم لا محالة فيقومون بتدمير ذخيرتهم وأسلحتهم وكل شيء يصح أن ينتفع به العدو .

= باسم بيكولى Bucolies التي حدثت فيها حرب الزراع في عهد الإمبراطور ماركس أورليوس (G.Wiet : Hist. de la Nation Egypt. t. I. V. p. 87)

(١) ساويرس بن المقفع : سير الأباء البطارقة ص ١٦٧ - ١٧٠

(Patro. Orient. V.)

فجر الإسلام - (١٠)

وهنا نجد ظاهرة جديدة لم نعهد لها من قبل وهي اشتراك الأهالي الوطنيين وتقصد هنا الأقباط الذين كانوا يكونون أغلبية الشعب المصرى حينذاك ، فى تلك الحركة التى أدت إلى زوال الخلافة الأموية . ذلك أن الأهالي الوطنيين لم يشتركوا فى المنازعات الخليفية قبل ذلك وإنما فى هذه المرة نراهم يرحبون بالعباسيين لأنهم أرادوا التخلص من الحكم الأموى .

ظل أهل البشموور على ثورتهم ، بل ساروا إلى القرما لمقابلة الخراسانيين يشكون إليهم من مروان بن محمد ومن اضطهاده الشعب القبطى على العموم^(١) ولم يكن هذا شعور أهل البشموور فقط بل كان شعور القبط على وجه الإجمال فى ذلك الوقت كان مروان قد قبض على بطرك الأقباط أنبا ميخائيل لأنه لم يقم بدفع المال الذى طلبه منه كما أنه لم يعمل شيئا لردع أهل البشموور^(٢) .

ومجدثنا أحد القساوسة الذين كانوا فى السجن إذ ذاك مع البطرك عن المعاملة السيئة التى لقيها هذا الرئيس الدينى على يد مروان ثم يقول إن الخراسانيين كانوا فى الضفة الشرقية للنيل ينظرون ما حل بالبطرك ولو وجدوا سبيلا إلى العبور إلى مروان لقتلوه لما رأوا من ظلمه وقسوة قلبه^(٣) . وهذا يظهر لنا شعور القبط إذ ذاك نحو الأمويين وأنهم كانوا يأملون فى الخلاص على أيدي العباسيين .

لم يجد العباسيون إذ ذاك مراكب يعبرون فيها إلى الضفة الغربية للنيل حيث كان مروان مقبيا بالجيزة . وكان مروان قد أحرق الجسرين اللذين يصلان القسطاط بجزيرة الروضة وبالجيزة . وكانت هناك مخاضات فى النيل يمكن العبور منها بسهولة إلى الضفة الغربية ولم يكن العباسيون يعرفونها ،

(١) ساويرس سير الآباء البطارقة من ١٧٢ — ١٧٣

(Patr. Orient. t. V.)

(٢) ساويرس من ١٦٠

(٣) ساويرس من ١٧٣ — ١٧٤

ولكن دلم عليها قوم يعرفونها وعبروا معهم إلى الضفة الغربية واستولوا بعدها على مراكب مروان التي عبر فيها هو وجنده إلى الجزيرة .

ثم دارت وحى الحرب بين مروان وبين العباسيين وكتب النصر لهم ففر مروان حتى وصل إلى بوسير^(١) ، وهناك لحق به صالح بن علي العباسي حيث قتله لسبع بقين من ذى الحجة سنة ١٣٣ هـ^(٢) وبذلك زالت الخلافة الأموية نهائياً ، وأعقب العباسيون ذلك بقتل كثير من أنصار بني أمية في مصر وأسر البعض

(١) بوسير أو أبو صيرة اسم لبلدان كثيرة في مصر . وهذا الامم من بقايا التاريخ القديم إذ كان المصريون القدماء يسمون بلدانا كثيرة باسم الإله أوزيريس . وبوسير هذا مشتق من الاسم المصري القديم بروسرأى «مكان الإله أوزير» (سليم حسن بك : أقسام مصر الجغرافية . ص ١٨٧) . وكان هناك زمن مقتل مروان أربع قرى بمصر باسم بوسير ، فكان هناك بوسير قوريدس من أعمال الأشمونين وبوسير السدر في كورة الجزيرة ، وبوسير دغدو في كورة الفيوم ، وبوسير بنا في كورة سمندو (ياقوت معجم البلدان ج ١ ص ٧٦٠) وقد اختلف المؤرخون في المكان الذي قتل فيه مروان . فيذكر الكندي أنه قتل في بوسير من كورة الأشمونين (ص ٩٦) ويذكر ابن العميد في كتابه تاريخ المسلمين ص ٩٦ أنه قتل في بوسير قوريدس . ويذكر المقرئ في الخطط ج ١ ص ٣٠٤ أبو المحاسن . ج ١ ص ٣١٧ أنه قتل ببوسير بالجزيرة . ويرى الأستاذ فييت أن مروان قتل في أبي صير الملق بالحالية التي تقع الآن في مركز الواسطي في مديرية بني سويف وذلك لأنه يوجد هناك ضريح صغير باسم مروان يعمل له كل عام احتفال سنوي . كذلك نعلم أن مروان حمل معه ثروته إلى مصر . وقد اكتشف أخيراً في أبي صير الملق لإبريق نغم من الطراز الساساني يرجح أنه كان ملكاً له (انظر : زكي محمد حسن : الفنون الإيرانية ص ٢٧٠) . والأصح أنها كانت بوسير التي في أعمال الجزيرة . وبوسير الملق بالحالية قريبة من الجزيرة وربما كانت ضمن كورة الجزيرة في العهد العربي . وسوايرس يذكر أن الحراسانيين عبروا في آخر يوم من أييب أي بعد وصولهم إلى القسطنطينية أيام ويذكر أنهم عندما عبروا إلى الجزيرة قتلوا مروان (ص ١٨٣ ، ١٨٧) وإذا قارنا ذلك بما ورد في المصادر العربية بأن مروان قتل بعد وصول الجيش العباسي إلى القسطنطينية بنحو تسعة أيام . نرجح أن قتله كان قريباً من الجزيرة ونرجح أن أناصير هي أبو صير الملق بالحالية لقرابها من الجزيرة .

(٢) الكندي ص ٩٦ — ٩٧ ، أبو المحاسن ج ١ ص ٣١٧

الآخر ، ثم دخل صالح بن علي العباسي القسطنطين في المحرم سنة ١٣٣ هـ وبمس برأس مروان بن محمد إلى العراق (١) . ولم ينس العباسيون أن يكافئوا القبط الذين رحبوا بهم ، فخفضوا عنهم الخراج وأخلوا سبيل أنبا ميخائيل الذي حبسه مروان ، ولما طلب البطرك من قائد العباسيين في مصر أن يحمي أملاك الكنيسة في جميع البلاد ولا يتعرض لها ، أجابه إلى ما أراد . كذلك أعفى العباسيون البشامرة من دفع الخراج ومنحهم مكافآت باهية (٢) .

وهكذا زالت الدولة الأموية نهائيا بعد انتصار العباسيين على مروان ابن محمد في مصر ، وأصبحت مصر منذ أواخر سنة ١٣٢ هـ وأوائل سنة ١٣٣ هـ ولاية تابعة للخلافة العباسية بالعراق .

الحروب السياسية والريفية منذ قيام الدولة العباسية إلى قيام الدولة الطولونية (١٣٢ - ٢٥٤ هـ)

١ - موقف الأمويين والعلويين في مصر من الخلافة العباسية

لم يكن زوال الخلافة الأموية ومقتل مروان معناه انتهاء المقاومة الأموية نهائيا ، فقد ظهر من وقت لآخر بمض أنصار البيت الأموي أو أفرادهم ؛ قاموا ضد الخلافة العباسية ولم يتهاون العباسيون في القضاء على المعارضين لهم حتى لو كان هؤلاء ممن ناصرهم من قبل .

ونلاحظ أيضا أن قيام الدولة العباسية لم يكن معناه انتهاء مطالبته العلويين بالخلافة وتركهم مناوأة الحكومة القائمة ، فقد كان العباسيون

(١) السكندی ص ٩٧ ، أبو الحسن ج ١ ص ٣١٧

(٢) ساويرس ص ١٨٧ - ١٨٨

في نظر العلويين وشيعتهم مفتصبين للخلافة كما كان الأمويون من قبلهم .
لذا نجد أنه كلما قام خليفة عباسي ، قام علوي يدعو إلى نفسه بالخلافة .
وقد استعمل العباسيون كل الوسائل من قتل وغدر للقضاء على المعارضة
العلوية ، ولا يكاد تاريخ أى خليفة يخلو من وقائمه مع العلويين ، وظلت
فرق الشيعة من جانبها تكيدهم للدولة العباسية في الخفاء أو تحاربها جهرا إن
أمكن الجهر . والذي يهمننا الآن هو موقف الأمويين والعلويين بمصر
من الخلافة العباسية وموقف الخلفاء العباسيين منهم .

في عهد الخليفة العباسي المهدي (١٥٨ - ١٦٩ هـ) وفي ولاية إبراهيم
ابن صالح على مصر من قبل ذلك الخليفة (١٦٥ - ١٦٧ هـ) نسمع عن
خروج أحد الأمويين وأنه دعا إلى نفسه بالخلافة ، ذلك الأموي هو دحية
ابن مصعب بن الأصمغ بن عبد العزيز بن مروان الذي خرج بالصعيد ، فلما
بلغ ذلك والى مصر تراخى عنه ولم يحفل بأمره ولم يهتم بمحاربتة للقضاء عليه
وكان نتيجة سياسة هذا الوالي التراخية أن استفحل أمر دحية وملك أغلب
بلاد الصعيد وكاد أمره أن يتم وتخرج مصر من حكم العباسيين . فلما علم
الخليفة المهدي بذلك سخط على الوالي وعزله سنة ١٦٧ هـ^(١) .

ولى مصر بعد ذلك موسى بن مصعب بن الربيع الخثعمي (١٦٧ -
١٦٨ هـ) فأرسل جيشا مكونا من خمسة آلاف محارب بقيادة عبد الرحمن بن
موسى بن علي بن رباح الخثعمي ، إلى الصعيد لمحاربة دحية . وما لبث هذا
الوالي أن قتل في ٧ شوال سنة ١٦٨ هـ أثناء محاربتة قيسا واليمينية الذين ثاروا
ضده في الحوف^(٢) . ولى مصر بعد مقتله عسامة بن عمرو وافتتح أمرته

(١) الكندي ص ١٢٤ ، أبو المحاسن ج ٢ ص ٤٩

(٢) الكندي ص ١٢٦ ، أبو المحاسن ج ٢ ص ٥٤ - ٥٥

بحرب دحية الأموى بالصعيد ، وأرسل إليه الجيوش بقيادة أخيه بكار بن عمرو فحارب يوسف بن نصير الذى كان على مقدمة جيش دحية ، وقد عاد الجيشان دون أن يحدث بينهما ما يستحق الذكر^(١) . وبعد ذلك بأيام يسيرة ورد الخبر بمنزله عن ولاية مصر وتولية الفضل بن صالح بن على العباسى عليها فى آخر المحرم سنة ١٦٩هـ^(٢) . وكان أمامه قبل كل شىء أن يقضى على دحية الذى تفاقم خطره وبأيمه كثير من الناس حتى كاتبه البعض ودعوه إلى دخول القسطنطينية^(٣) .

أتى الفضل إلى مصر ومعه جيوش من الشام استخدمها فى قتال دحية فى بويط^(٤) ، وقد تمهقر أصحاب دحية أمامه وتوجه بمدها دحية على رأس حامية من جنده إلى الواحات فبعث إلى أهلها — وكانوا من المسالمة^(٥) والبربر الذين يدينون بمذهب الخوارج — يدعوم إلى القيام معه فأبوا أن يقاتلوا معه حتى يتبين إذا كان يدين بمذهبهم فأجابهم بأنه على مذهبهم فخرجوا إليه وقاتلوا معه يوم الدير . وقد أرسل إليه الفضل بن صالح جيشا كبيرا بقيادة عبد الله بن على فخرج إليه دحية فى أهل الواحات فهزم عبد الله بن على وقتل يومئذ عبد العزيز بن مروان بن الأصمغ ، على أن أهل الواحات مالبتوا أن تخلوا عن دحية لإيثاره العرب على الموالى وتقديعهم على البربر ، كما أنه لم يرض بأن يتبرأ من عثمان فتبين لهم أنه على غير مذهب الخوارج فتركوه

(١) أبو المحاسن ج ٢ ص ٥٧

(٢) أبو المحاسن ج ٢ ص ٦٠

(٣) الكندى ص ١٢٩

(٤) بويط بالضم ثم الفتح قرية فى مصر الوسطى قريبة من ديروط

(٥) المسالمة لفظ كان يطلق على القبط (خطط المقرئى ج ١ ص ٥٠) أو من

يسلم حديثا من القبط أو اليهود (خطط ج ١ ص ١١٠)

وانصرفوا عنه ، فلما علم عبد الله بن علي بانصرافهم عنه أتى ثانية لمحاربة دحية فقتل يومئذ مروان بن عبد الملك بن أبي بكر بن عبد العزيز بن مروان^(١) . وقد انتهى الأمر بأسر دحية وأتى به إلى القسطنطينية فحضره الفضل عنقه وصلب جثته وبعث برأسه إلى الهادي وكان قتله في جمادى الآخرة سنة ١٦٩هـ^(٢) . وكان القضاء على دحية الأموي معناه انتهاء أول المحاولات وآخرها من جانب الأمويين في مصر لاسترداد الخلافة . على أنهم بعد ذلك كانوا أحيانا ينضمون إلى الثأرين على الخلافة العباسية من العلويين وذلك رغبة في الكيد للدولة العباسية .

وقد ظهرت الدعوة العلوية في مصر منذ عهد الخليفة أبي جعفر المنصور (١٣٦ - ١٥٨هـ) ففي أمارة حميد بن قحطبة (١٤٣ - ١٤٤هـ) قدم إلى مصر علي بن محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب داعية لأبيه وعمه^(٣) . وقد كان أبوه محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي المعروف بالنفس الزكية قد دعا إلى نفسه سرا في خلافة المنصور وتلقب بأمير المؤمنين ، وفي سنة ١٤٥هـ ظهر بعد أن اختفى زمنا كان أشياعه يقيمون له الدعوة حتى كثرت أنصاره في خراسان واعترف الناس بإمامته في مكة والمدينة ، ومن ثم أرسل أخاه إبراهيم إلى البصرة لنشر دعوته . على أن محمدا كان مصيره القتل على يد عيسى بن موسى ، فدعا أخوه إبراهيم إلى نفسه وقام لفصرته كثيرون من فقهاء البصرة وذوى الرأي والجاه . ولكن إبراهيم لقي حتفه

(١) البكندي ص ١٢٩ - ١٣٠

(٢) أبو الحسن ج ٢ ص ٦٠ - ٦١

(٣) خطط القرظي ج ٢ ص ٣٣٨

كأخيه على يد عيسى بن موسى السباسي أيضا في موقعة باخرا^(١) وذلك في أول ذي الحجة سنة ١٤٥ هـ .

أما ما كان من أمر هذه الدعوة في مصر فهو أنه لما قدم على بن محمد إليها يدعو لأبيه وعمه تواني حميد بن قحطبة في الأمر ولم يجد في القبض عليه ، وبث إلى أبي جعفر المنصور يقول إنه أرسل في طلبه فلم يجده . وكان ذلك سببا في سخط أبي جعفر المنصور على الوالي وعزله في ذي القعدة سنة ١٤٤ هـ .
ولى مصر بعد ذلك يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة (١٤٤ - ١٥٢ هـ) وفي بدء ولايته كانت دعوة بني الحسن بن علي قد ظهرت في هذه البلاد وبايع كثير من الناس لملي بن محمد ، وكان على هذا أول علوى قدم مصر . وكاد أمر بني الحسن أن يتم في مصر حتى قدمت الخطباء إليها برأس ابراهيم بن عبد الله بن الحسن في ذي الحجة سنة ١٤٥ هـ فنصبوه في المسجد الجامع أياما^(٢) . فجمدت تلك الحركة كما جمدت في الحجاز والبصرة بمقتل زعمائها سنة ١٦٠ هـ . وأما على بن محمد النفس الزكية فقد اختلف في أمره فزعم بعضهم أنه حمل إلى أبي جعفر المنصور وقيل إنه اختفى بمصر عند عسامة ابن عمرو حتى مرض ومات . وقد حمل عسامة إلى العراق وحبس زمانا حتى آلت الخلافة إلى المهدي فأمنه على أن يصدقه عن علي بن محمد فاعترف بأنه مات في بيته^(٣) وهكذا انتهت تلك الحركة في مصر وقد كان يزيد بن حاتم

(١) باخرا : موضع بين الكوفة وواسط وهو إلى الكوفة أقرب (ياقوت :

معجم البلدان ج ١ ص ٤٥٨)

(٢) الكندي ص ١١١ - ١١٤ ، خطط القرظي ج ٢ ص ٣٣٨ ،

أبو الحسن ج ٢ ص ١ - ٢

(٣) الكندي ص ١١٥

قد منع أهلها من الحج بسبب خروج هؤلاء العلويين فلما قتل إبراهيم
ابن عبد الله العلوي أذن لهم في الحج^(١)

ويجدر بنا أن نشير إلى أن بعض أفراد البيت الأموي الذين بقوا في
مصر كانوا ممن بايع لعلی بن محمد ومن هؤلاء مصعب ومنصور وزياد
أبناء الأصمغ بن عبد العزيز بن مروان .

وحدث بعد ذلك أن آوت مصر أحد العلويين الذي استطاع بعد
خروجه منها أن يقتطع لنفسه جزءا من بلاد الدولة العباسية ويكون لنفسه دولة
مستقلة ، ذلك العلوي هو ادريس بن عبد الله أخو محمد الملقب بالنفس الزكية .

ففي عهد الخليفة الهادي (١٦٩ - ١٧٠ هـ) خرج الحسين بن علي بن الحسن
ابن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب بالمدينة يدعو إلى نفسه ومنها سار
إلى مكة حيث التقى بجيش العباسيين في فخ^(٢) فقتل بعد أن أبلى بلاء شديدا .

وكانت هذه الموقعة من الشدة بحيث قيل لم تكن مصيبة بعد كربلاء أشد
وأجح من فخ . وكان ممن ناصر الحسين بن علي في حركته هذه يحيى وادريس
ابنا عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي وقد هربا قبل هذه الموقعة . أما يحيى

فقد ثار في بلاد الديلم في عهد هرون الرشيد وانتصر له أهل اليمن وغدا أمره
من الخطر بحيث هدد سلامة الدولة العباسية وأقلق بال الرشيد فأنفذ إليه
الفضل البرمكي ، فما زال به حتى رضى بالصلح على أن يكتب له الرشيد أمانا

بيده ، ولكنه قتله ومداد الأمان لم يحف بعد .

أما إدريس بن عبد الله فقد توجه إلى بلاد المغرب الأقصى وبايعه البربر
في سنة ١٧٢ هـ ، وكون هناك أول دولة للعلويين وهي دولة الأدارسة .

(١) أبو المحاسن ج ٢ ص ٢

(٢) فخ بفتح أوله وتشديد ثانيه ... وهو واد بمكة (ياقوت معجم البلدان .

ج ٣ ص ٨٥٤)

مر لإدريس بن عبد الله على مصر في طريقه إلى المغرب في ولاية على ابن سليمان بن علي بن عبد الله العباسي (سنة ١٦٩ هـ - ١٧١ هـ) زمن هرون الرشيد . ويقال إنه لما قدم إلى مصر علم واليا بإمكانه وقابله سرا ولم يفضح أمره حتى توجه إلى المغرب^(١) . ويقول أبو المحاسن^(٢) بأن واضح ابن عبد الله المنصوري الذي كان واليا على مصر زمن المهدي سنة ١٦٢ هـ ، كان على يريد مصر عند ما قدم لإدريس إليها ، وكان يميل إلى العلويين فحمل إدريس على البريد إلى المغرب . أى أن مصر سهلت الطريق لإدريس بن عبد الله وساعدته في خروجه على الدولة العباسية . ولو قبض عليه واليا إذ ذاك أو أخبر عامل البريد بوجوده في مصر لما قامت تلك الدولة العلوية في المغرب بالرغم من أنف هرون الرشيد .

ويظهر أن تعقب العباسيين للعلويين واضطهادهم إياهم قد ألجأهم إلى الفرار إلى الجهات البعيدة عن مقر الخلافة العباسية ولاسيما ما كان منها مرتعا خصيبا للمعارضة كبلاد البربر^(٣) ، والذي يهمننا أن كثيرا من آل البيت قد أتوا إلى مصر ليكونوا بعيدين عن الاضطهادات والمضايقات التي نالتهم على أيدي الخلفاء العباسيين . ولا تزال مصر حافلة بقبور آل البيت منذ ذلك العهد البعيد . ومن أتى إلى مصر في ذلك العهد السيدة نفيسة رضي الله عنها بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم وزوجة اسحاق ابن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن علي بن الحسين بن علي ابن أبي طالب ، وقد أتت مع زوجها من المدينة إلى مصر هارين من

(١) الكندي ص ١٣١

(٢) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٤٠

(٣) أبو المحاسن ج ٢ ص ٦٨

اضطهاد العباسيين ، وقيل إنها كانت فيمن صلى على الإمام الشافعي عند موته سنة ٢٠٤ هـ وتوفيت في شهر رمضان سنة ٢٠٨ هـ^(١) وقبرها لا يزال من المقابر المشهورة بالقاهرة ، يتبذرك المسلمون بزيارتها ونعرف أن في دار الآثار العربية بالقاهرة قطعة خشبية عليها كتاب تاريخية من قبر السيدة نفيسة ونصها : « بسم الله الرحمن الرحيم رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد . هذا مشهد السيدة نفيسة ابنة الحسن بن زيد بن أمير المؤمنين الحسن بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله عليهم أجمعين . توفيت السيدة نفيسة صلوات الله عليها في شهر رمضان المعظم سنة ثمان ومائتين^(٢) » ولم نسمع بأن أحداً تعرض للملويين في مصر بسوء طوال ذلك العهد إلى أن كان زمن الخليفة المتوكل على الله العباسي (٢٣٢ هـ - ٢٤٧ هـ) ، وكان يبعث الملويين ، فأرسل كتابا هو وابنه المنتصر — صاحب اقطاع مصر حينذاك — إلى والي مصر اسحاق بن يحيى (٢٣٥ - ٢٣٦ هـ) يأمره بإخراج آل علي بن أبي طالب من مصر فأخرجوا من الفسطاط في رجب سنة ٢٣٦ هـ إلى العراق وهناك أمروا بالخروج إلى المدينة في شوال من سنة ٢٣٦ هـ^(٣) ويذكر المقرئ^(٤) أن الذين بقوا في مصر من الملويين اضطروا إلى الاختفاء .

أصبح الملويون والشيعة في مصر غير آمنين على أنفسهم من اضطهاد العباسيين منذ عهد المتوكل . وقد عمل والي يزيد بن عبد الله على استئصال

(١) خطط المقرئ ج ٢ ص ٤٤٠ — ٤٤١

(٢) (Répertoire Chronologique d'épigraphie Arabe. t. 1. p. 128).

(٣) السكندی ص ١٩٨ ، خطط المقرئ ج ٢ ص ٣٣٩ ، أبو الحسن ج ٢

ص ٢٨٣ — ٢٨٥

(٤) خطط ج ٢ ص ٣٣٩

شأقتهم فمأقهم وأبادهم وحمل منهم جماعة إلى العراق على أقبح وجه^(١) .
ولما قتل المتوكل في شوال سنة ٢٤٧ هـ وبويع ابنه المنتصر بالخلافة
أرسل إلى يزيد بن عبد الله بقره على ولايته بمصر^(٢) ثم ورد كتابه إلى يزيد
بالأُقبيل^(٣) علوى ضيعة ، ولا يركب فرساً ولا يسافر من الفسطاط إلى
طرف من أطرافها ، وأن يعموا من أخذ العبيد إلا العبد الواحد ، وإن
كانت بينه وبين أحد من الطالبين خصومة من سائر الناس قبل قول خصمه
فيه ولم يطالب ببينة^(٤) .

توفي الخليفة المنتصر في شهر ربيع الأول سنة ٢٤٨ هـ وبويع المستعين
بالله في شهر ربيع الآخر . وفي خلافته علم يزيد بن عبد الله بأن رجلا يقال
له محمد بن علي بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب بويع له ، فأخذه فاعترف
بذلك كما اعترف بمن بايعه ، فأخذ بعضهم فضربوا بالسياط ثم أخرج العلوى
في جمع من آل أبي طالب إلى العراق في شهر رمضان سنة ٢٤٨ هـ^(٥) .

خلع المستعين من الخلافة في المحرم سنة ٢٥٢ هـ وبويع المعتز (٢٥٢ -
٢٥٥ هـ) . فاضطربت الأمور في مصر لاضطراب أمر الخلافة^(٦) بسبب
تحكم الأتراك في شئون الدولة . والأتراك كما نعلم كانوا في البداية من الرقيق
الذين اتخذهم الخلفاء العباسيون جنوداً ، ثم كثر عددهم وقوى نفوذهم منذ

(١) الكندى ص ٢٥٣ ، خطط القرظى ج ٢ ص ٣٣٩ ، أبو المحاسن ج ٢

ص ٣٠٩

(٢) أبو المحاسن ج ٢ ص ٣١٣

(٣) قبيل وقبيل قبالة . ضمن والتزم ، قبيل المزارع الأرض . جمه
يلتزمها بقدر . وقد تحدثنا عن قبالة الأراضى سابقا

(٤) الكندى ص ٢٥٤ ، القرظى ج ٢ ص ٣٣٩

(٥) الكندى ص ٢٥٣ - ٢٥٤

(٦) أبو المحاسن ج ٢ ص ٣١٤

أيام الخليفة المتصم الذي أكثر من شرائهم ، إذ رأى فيهم قوماً أشداه
يميلون إلى الحرب ، وليس لهم وطن أو مجد قديم يعملون على إحيائه وليست
لهم عصبية العرب ، وإذا خصهم أحد بمنحه وعطاياها فلا يعرفون رئيساً إلا
هو ، وقد بلغ من قوة نفوذهم في عهد المتصم نفسه أن اضطر إلى مفاداة
بفداد حاضرة الخلافة العباسية وبناء حاضرة جديدة له ولجنده الأتراك هي
سامرا (٢٢١ هـ) ليكون بعيداً عن الجند العرب والفرسي ببغداد ، ثم لتخوفه
من أن يصطدم الأهالي بالأتراك^(١) . على أن هؤلاء ما لبثوا أن تدخلوا على
ممر الزمن في معامع السياسة ، وصاروا يولون ويعزلون من شاؤوا من الخلفاء ،
وأصبح بيدهم القوة المدنية والحربية في الدولة .

وكان هذا إيذاناً باضطراب الأحوال في الأقاليم المختلفة في الدولة الإسلامية
كما كان فرصة لذوى الأغراض المختلفة للقيام ضد الخلافة العباسية ومن
بينهم العلويون . ففي خلافة المعتز ثار في الإسكندرية جابر بن الوليد المدبلي
في ربيع الآخر سنة ٢٥٢ هـ ، واشتد أمره وقويت شوكته وبسط سلطانه
على بلاد كثيرة من الوجه البحري وجبي منها الخراج ، ولم يستطع يزيد
ابن عبد الله والى مصر إذ ذاك أن يقمع حركته ، فأرسل إليه للخليفة نجدة
بقيادة مزاحم بن خاقان الذي قدم من العراق في عسكر عظيم ، (رجب سنة
٢٥٢ هـ) وقد استطاعت جيوش الخليفة أن تهزم جابراً وتظفر به في النهاية ،
ولما كتبوا إلى الخليفة بذلك ورد عليهم الجواب بصرف يزيد بن عبد الله

(١) اليمقوني : كتاب البلدان ص ٢٥٦ ، ياقوت : معجم البلدان ج ٣ ص ١٦
١٢ وابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٦ ص ٣١٩ ، الدكتور زكي محمد حسن ،
الإسلامي في مصر ج ١ ص ٢٤ — ٢٥
ع : العن

عن إمرة مصر وتولية مزاحم بن خاقان بدلامنه (ربيع الأول سنة
والذي يهمننا في حركة جابر بن الوليد ما كان من انضمام أح-
تلك الحركة ، وهو عبد الله بن أحمد بن محمد بن اسماعيل بن -
ابن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، وكان يقال له ابن
هزمت جيوش جابر بن الوليد بعد قدوم مزاحم بن خاقان ، أخذ
وأخرج إلى العراق في ربيع الأول سنة ٢٥٣ هـ . وفي ولاية
على مصر (ربيع الآخر - رمضان سنة ٢٥٤ هـ) خرج
بالصعيد وهو احمد بن ابراهيم بن عبد الله بن طباطبا بن اسما
ابن الحسن بن الحسين بن علي وكان يعرف باسم بفا الأ-
أصحاب أزجور فقر ثم مات .

كذلك خرج من العلويين بفا الأصغر واسمه احمد بن
ابن طباطبا فيما بين الإسكندرية وبرقة في موضع يقال له ال-
في شهر جمادى الأولى سنة ٢٥٥ هـ ثم سار في جمع إلى الق-
على يد احمد بن طولون وقتل في الحرب وأتى برأسه إلى الق-
سنة ٢٥٥ هـ^(٣) . كذلك نأر بصعيد مصر سنة ٢٥٣ هـ أحد ا
ابن الصوفي العلوي ، ودخل إسنا في سنة ٢٥٥ هـ فنهبا و
إليه احمد بن طولون جيشاً لقتاله ، وانتهى أمر ذلك العلوي
الدينة النورة حيث قضى فيها بقية أيامه^(٤) .

-
- (١) الكندي ص ٢٠٥ — ٢١٠ ، خطط المقرئى
أبو المحاسن ج ٢ ص ٣١٤
(٢) خطط المقرئى ج ٢ ص ٣٣٩
(٣) الكندي ص ٢١٢ ، المقرئى ج ٢ ص ٣٣٩
(٤) الكندي ص ٢١٣ — ٢١٤ و Les Tulunides : n

ومن ذلك نرى كيف تتابعت حركات العلويين في مصر منذ عهد الخليفة المتوكل العباسي . فكان اضطهادهم وتضييقه عليهم هو ومن أتى بعده من الخلفاء لم يمنعهم من الخروج علانية بعد أن كانوا يكيدون للخلافة العباسية سرا ، عليهم بنا لون حظا من السلطان ويتخلصون من الخلافة العباسية واضطهادها . كما شجعهم على الخروج في تلك الفترة أيضاً ضعف الخلافة العباسية نفسها وسوء حالة الخلفاء الذين أصبحوا ألعوبة في يد الأتراك .

ب - أثر النزاع بين الأمين والمأمون في مصر

قام النزاع بين الخليفة الأمين وأخيه المأمون بسبب نظام ولاية المهدي فقد كان الخليفة هارون الرشيد قد أخذ البيعة من بعده لابنه الأمين ثم المأمون ، على أن يلى الأمين العراق والشام إلى آخر المغرب ويلى المأمون من همدان إلى المشرق على ألا يكون للأمين سلطان عليه^(١) .

لكن الأمين أظهر منذ توليه الخلافة عدم رغبته في تنفيذ عهد الرشيد^(٢) ، فخلع المأمون من ولاية المهدي وباع لابنه موسى ، وقامت الحروب لهذا بين الأمين والمأمون منذ سنة ١٩٥ هـ وانتهت بحصار جيش المأمون بغداد وقتل الأمين في سنة ١٩٨^(٣) وبذلك انتهت خلافة محمد الأمين وآلت الخلافة لعبد الله المأمون ولم ينتقل المأمون بعد توليه الخلافة إلى بغداد بل ظل في مبدأ الأمر في مرو عاصمة خراسان .

كانت خلافة الأمين (١٩٣ - ١٩٨ هـ) ، أو بعبارة أخرى فترة

(١) الطبرى ج ١ ص ٥٣ ، ٦٩ - ٧٠ و ٧٣ ، أبو المحاسن : النجوم

الزاهرة ج ٢ ص ٨١ ، ١٠٥ - ١٠٦ ، ١٠٩ - ١١٠

(٢) الطبرى ج ١٠ ص ١٢٤

(٣) الطبرى ج ١٠ ص ١٣٠ ، ١٣٨ - ١٣٩ ، ١٧٠ ، ١٧٤ -

النزاع بين الأمين والمأمون ، عهد فوضى واضطراب في جميع أنحاء الدولة الإسلامية . ولم تنته تلك الفوضى باعتماد المأمون عرش الخلافة في سنة ١٩٨ هـ ، بل ظلت آثارها عدة سنين وحدثت ثورات مختلفة في أنحاء الدولة ، ثورات من جانب العلويين ، وأخرى من جانب الأمويين الذين استفعلوا ذلك النزاع حول الخلافة لينالواهم أيضا حظا من السلطان .

وقد شملت هذه الفوضى مصر أيضا ، فتحزب فريق للأمين وتحزب فريق آخر للمأمون ، كما ظهرت في تلك الأثناء رغبة بعض الشخصيات في الاستقلال بمصر عن الخلافة ونجحوا في ذلك إلى حد ما ، واستطاع بعض الأندلسيين في تلك الفترة أن يؤسسوا لهم شبه جمهورية مستقلة عن الخلافة بالأسكندرية ، فكانت مصر في تلك الفترة يكاد لا يربطها شيء بالحكومة المركزية الإسلامية .

لما ولى الأمين الخلافة كان على ولاية مصر الحسن بن التختاخ^(١) وقد بدأ اضطراب الجند في مصر عقب وفاة الرشيد مباشرة ونشب القتال بين الحسن هذا وبين الثائرين عليه ، وقتل من الفريقين جمع غفير قبل أن يسكن الأمر ، ثم أخذ بعد ذلك في جمع الخراج ، وكتب إليه الفضل بن الربيع بأن يرسل الأموال إلى بفسداد ، ولما مر الرسل الذين كانوا يحملونها بفلسطين وثب أهل الرملة عليهم وأخذوها منهم^(٢) . وحسبنا مثل هذا الحادث دليلاً على الفوضى التي حلت إذ ذاك بالبلاد . وما لبث الخليفة الأمين أن عزل ابن التختاخ عن إمارة مصر (ربيع الأول سنة ١٩٤ هـ) وولى عليها حاتم ابن هرثمة بن أعين ، الذي قدم من بفسداد على رأس جيش قوامه ألف من

(١) في النجوم الزاهرة لأبي المحاسن ج ٢ ص ١٤١ أن اسمه الحسن بن البجاح

(٢) الكندي ص ١٤٦ ، أبو المحاسن ج ٢ ص ١٤١

الجنود الفرس؛ ويزل بلبيس . وهناك اتفق معه أهل الجوف على أن يدفعوا ما عليهم من الخراج ؛ ولكنهم ما لبثوا أن نقضوا ذلك الصلح واجتمعوا لقتال الوالى ، فبعث حاتم لمحاربتهم جيشا أفلح في هزيمتهم^(١) . ثم عزل الأمين حاتم بن هرثمة في جمادى الآخرة سنة ١٩٥ هـ . ولعل سبب ذلك أن والده هرثمة بن أعين انضم للمأمون ضد الأمين . وولى الأمين على مصر جابر ابن الأشعث الطائى . وكان جابر هذا لينا محببا إلى الناس من العامة والخاصة .

وقد ظهر الاضطراب في مصر عندما علم أهلها بخلع الأمين أخاه المأمون من ولاية المهد . ففكر فريق من الجند في خلع الأمين غضبا للمأمون وترجم هذه الحركة السرى بن الحكم بن يوسف فبعث إليهم والى مصر لينهاهم عما قاموا من أجله ويخوفهم عواقب الفتن . ولكن السرى بن الحكم ظل يدعو الناس إلى خلع الأمين^(٢) . وقد أتى السرى إلى مصر زمن الرشيد إذ كان من جند الليث بن الفضل والى مصر حينئذ (١٨٢ - ١٨٧ هـ) . ويقال إنه كان حامل الذكر ولم يرتفع شأنه إلا بقيامه في خلع الأمين^(٣) ، وقد شجع السرى بن الحكم على القيام بمحركته هذه ما بلغه من انتصار طاهر بن الحسين على جيوش الأمين^(٤) .

ولم يهمل الخليفة المأمون من جانبه أمر مصر فكتب إلى وجوه القوم فيها يدعوهم إلى القيام بدعوته فأجابوه كلهم سرا ، ثم ورد كتاب قائده هرثمة بن أعين إلى عباد بن محمد بن حيان وكان وكيلا على

(١) الكندى ص ١٤٧ ، أبو الحسن ج ٢ ص ١٤٤ .

(٢) الكندى ص ١٤٧ - ١٤٨ .

(٣) الكندى ص ١٤٨ .

(٤) أبو الحسن ج ٢ ص ١٥٠ .

ضياح هرثمة بمصر — يدعو إلى الدعوة للمأمون ، فجمع الجند في المسجد وقرأ عليهم كتاب هرثمة ودعاهم إلى خلع الأمين فأجابوه نفر عظيم منهم فأعطاهم عباد رزقا يسيراً وبايعوا للمأمون . وكان خلع الأمين بمصر في جمادى الآخرة سنة ١٩٦ هـ . وثار الجند على الوالى جابر بن الأشعث فأخرجوه من مصر في رجب من هذه السنة ثم ولى هذه البلاد عباد بن محمد من قبل المأمون (١) .

ولما علم الأمين بخلمه في مصر وإخراج واليه جابر بن الأشعث كتب إلى ربيعة بن قيس — وكان زعيم قبيلة قيس بالحوف — يبلغه اختياره إياه والها على مصر وكتب إلى بعض وجوه القوم في مصر يطلب إليهم أن يشدوا أزر ربيعة بن قيس ، فقام هؤلاء يدعون إلى خلع المأمون وساروا إلى الفسطاط لمحاربة عباد ، إلا أن عباد سرعان ما حفر خندقا حول الفسطاط للدفاع منها فسار ربيعة بن قيس إلى الخندق في آخر ربيع الآخر سنة ١٩٧ هـ ووقعت الحرب بين الطرفين عند الخندق عدة أشهر دون أن ينتصر أحدهما ، فرأى عباد أن يحاربهم في الحوف فأرسل إليهم جيشا بقيادة عبد العزيز ابن الوزير الجروى في ذى القعدة سنة ١٩٧ هـ فانهزم الجروى وبمضى في قومه من خلم وجذام إلى فاقوس (٢) . وهناك حرصه قومه على أن يدعو لنفسه وقالوا له : « لم لا تدعو لنفسك فما أنت بدون هؤلاء الذين غلبوا على الأرض ؟ » . فصادف ذلك هوى في نفس الجروى وذهب إلى بلبيس ومن هناك بعث عماله لجباية الخراج من مصر السفلى . وهكذا نرى أن النزاع في مصر لأجل الأمين أو المأمون بدأ يتطور إلى نزاع للاستئثار بالسلطة دون الخلافة .

(١) الكندى ص ١٤٨ — ١٤٩ .

(٢) الكندى ص ١٤٩ — ١٥١ .

وكانت آخر مرة سار فيها أهل الحوف إلى الفسطاط لمحاربة عباد في المحرم سنة ١٩٨ هـ ، فمقد عباد للسرى بن الحكم لمحاربتهم فاقتتل الفريقان ، وفي تلك الأثناء وصل إلى مصر خبر مقتل الأمين في المحرم وبئمة المأمون فتفرق أهل الحوف ، ثم عزل المأمون عبادا في صفر سنة ١٩٨ هـ وولى المطلب ابن عبد الله الخزاعي^(١) .

ساد الاضطراب في مصر كما رأينا زمن الخليفة الأمين ولم ينته ذلك الاضطراب بمقتله وتولية أخيه المأمون للخلافة ، بل تطور الأمر في هذه البلاد إلى نزاع بين بعض القواد للاستئثار بالسلطة فيها والاستقلال بأمورها عن الخلافة ، فكان على المأمون أن يبذل جهداً خاصاً لإعادة مصر إلى سلطانه والقضاء على الفتن فيها .

ومما يدل على اضطراب الحالة في مصر حينئذ أن أعمال الشرطة فيها وليها خمسة رجال على التوالي في بضعة أسابيع^(٢) . وقد عزل المأمون المطلب ابن عبد الله عن ولاية مصر في شوال سنة ١٩٨ هـ بعد أن وليها سبعة أشهر ونصف ، وولى مكانه العباس بن موسى ، وقد أرسل العباس ابنه عبد الله إلى مصر خليفة له ريثما يحضر هو ، فقدم عبد الله إلى مصر في شوال من هذه السنة ، وكان أول ما فعله هو القبض على المطلب بن عبد الله وزجه في السجن . وقد اشتد عبد الله فثار الجند عليه وقاتلوه غير مرة ، حتى هزموه في النهاية وأخرجوه من مصر ، ثم قصدوا المطلب بن عبد الله حيث أخرجوه من حبسه وولوه عليهم في المحرم سنة ١٩٩ هـ^(٣) .

(١) الكندي ص ١٥١ - ١٥٢ .

(٢) أبو المحاسن ج ٢ ص ١٥٧ .

(٣) الكندي ص ١٥٣ - ١٥٤ ، أبو المحاسن ج ٢ ص ١٦١ - ١٦٢ .

حدث كل ذلك ووالى مصر نفسه العباس بن موسى لم يحضر إليها فلما علم بما حدث لابته عبد الله قدم من مكة إلى الحوف فنزل ببليس ولم يلبث إلا قليلا حتى توفى وذلك فى جمادى الآخرة سنة ١٩٩ . ومن هذا نرى أن والى الذى عينه الخليفة ، لم يستطع دخول الحاضرة كما لم يستطع الوقوف وجها لوجه أمام والى الذى انتخبه الجند ، ومن هذا ندرك أيضا كيف تلاشت سلطة الخليفة على ولاية مصر تقريبا .

بعد موت العباس ، كاتب المطلب أهل الحوف فبايعوه ، فولى على الوجه البحرى يزيد بن خطاب الكلبي ، وبعد ذلك بعث المطلب إلى الجروى بولايته على تئيس وأمره بالشخص إلى الفسطاط^(١) ويظهر أن المطلب أراد بذلك أن يندع الجروى ويوقع به لأنه عرف رغبته فى الاستقلال وطمعه فى ولاية مصر ، فالمسألة لم تعد تتصل بالحكومة المركزية فى بغداد ، وإنما أصبحت مصر وسط هذه الفوضى غنيمة لمن غلب ، فالوالى الذى عينه الجند يرى أن طاعته واجبة على أهل مصر ، والجروى لا يرى نفسه أقل من والى كفاية . وبعد قليل نرى السرى أيضا ينضم إلى زمرة الطامعين فى مصر ويحاول أن يؤسس له ملكا وراثيا فيها ، كل هذا يحدث والخليفة المأمون مشغول بالقضاء على الثورات المختلفة التى قامت فى أنحاء الدولة الإسلامية .

لم يذهب الجروى إلى الفسطاط كما أمره المطلب ، وإزاء هذا بعث المطلب بوالى على تئيس ولكن الجروى أخرجه منها ، فبعث إليه السرى ابن الحكم فى جمع من الجند يسألونه الصلح فأجابهم إليه ، إلا أنه أراد التدرج بهم ففطنوا إلى ذلك وحاربوه ، ثم عاد فدعاهم إلى الصلح واستطاع أن يقبض على السرى خدعة ويأسره ثم مضى به إلى تئيس حيث سجنه بها

(١) السكندى ص ١٥٦ .

(جادی الأولى سنة ١٩٩ هـ) ويظهر أن بلاداً عدة في شرق الدلتا دخلت في حوزة الجروى إذ ذاك وزادت قوته نتيجة لذلك بدليل محديه قوة الوالى . فبعد أن سجن السرى بن الحكم ، ذهب لمقاتلة يزيد بن الخطاب ، عامل المطلب على الوجه البحرى ، واستطاع الجروى أن يهزمه فأرسل إليه المطلب جيشاً لمحاربه بقيادة ابن عبد التفار الجمحى ولكن الجروى هزم ذلك الجيش وأسر ابن عبد التفار وذلك في أول رجب سنة ١٩٩ هـ^(١) .

عزم المطلب إزاء هذا على أن يوجه كل قوته للقضاء على الجروى فلما علم الجروى بذلك أخرج السرى من سجنه وطاعده على أن يطلق سراحه ويدكر للمصريين أن كتاباً ورد من الخلافة بولايته على مصر ، على شرط أن يقوم السرى بمحاربة المطلب ، فاعده السرى على ذلك . وعند ذلك أطلقه الجروى وأعلن ولايته إلى الجند ، فبايعه الجند من أهل خراسان وامتنع الجند العرب وقد وقعت حروب بين السرى وبين المطلب انتهت بأن طلب المطلب الأمان من السرى على أن يسلم إليه الأمر ويخرج من مصر . فأمنه السرى وخرج المطلب إلى مكة في رمضان سنة ٢٠٠ هـ . وعقب ذلك ولي السرى بن الحكم مصر بإجماع الجند في مستهل شهر رمضان سنة ٢٠٠ هـ^(٢) . وقد أدرك الماصرون من المصريين والوطنيين أن الدين ولوا مصر إذ ذاك كانوا خارجين على الخلافة ، فيذكر ساويرس^(٣) نقلاً عن الوثائق المعاصرة أن الثوار استطالوا على مصر لاضطراب الأمور في بغداد وقام الخارجون بمباية الضرلثب لأنفسهم . ومن بين هؤلاء الخارجين عبد المزيز الجروى الذى استولى على شرق الدلتا من شطونوف إلى القريا ،

(١) السكندى ص ١٥٧ .

(٢) السكندى ص ١٥٩ — ١٦١ .

(٣) سير الآباء البطارقة ص ٤٢٨ (LX) .

والسرى بن الحكم الذى استولى على الوجه القبلى من مصر إلى أسوان .
أما غزوه الدلتا بما فى ذلك الاسكندرية وأعمالها ومربوط والبحيرة جميعها
فقد ملكها قبيلتنا نلم وجدام .

هكذا قسمت مصر بين الخارجين على الخلافة كما يذكر ساويرس ،
فالجروى كما رأينا سابقا كان صاحب السلطة الفعلية فى شرق الدلتا ، كما كان
صاحب الفضل فى تولية السرى بن الحكم على مصر ليتخلص بذلك من
المطلب بن عبد الله ، إلا أنه لى يتخلص من المطلب ، أوجد له منافسا آخر
فى شخص السرى ، الذى سرعان ما طمع فى أن يكون صاحب السلطة
الفعلية فى مصر كلها ، فبعد أن كان الجروى والسرى يحاربان لأجل الخليفة
المأمون ، أصبح كل منهما يحارب الآخر ، وهذا أدى إلى النزاع بين
الجروى والسرى نزاعا متواصلا فى السنين التالية ، بل إن هذا النزاع استمر
بين أولادها بعد وفاة الاثنين .

أما منطقة غربى الدلتا ، ونمى منطقة الاسكندرية بوجه خاص ، فقد
خزجت عن سلطة والى مصر منذ ولاية عباد بن محمد بن حيان (١٩٦ -
١٩٨ هـ) إذ تغلب بهلول اللخمي على الاسكندرية فى ولايته . فلما ولى
المطلب بن عبد الله مصر من قبل المأمون سنة ١٩٨ هـ ولى على الاسكندرية ،
حديث بن عبد الواحد بن محمد بن عبد الرحمن بن مارية بن حديث ، فنارضه
بنو مدلج بالاسكندرية ، فبعث إليهم المطلب بأخيه هرون فانهزم
هرون أمامهم (١) .

ولما ولى المطلب بن عبد الله ولايته الثانية على مصر بإجماع الجنود
(سنة ١٩٩ هـ - ٢٠٠ هـ) ولى على الاسكندرية محمد بن هبيرة

ابن هاشم بن حديج ، فاستخلف محمد هذا عمر بن عبد الملك بن محمد
ابن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج الذي يعرف باسم عمر بن هلال^(١)
فوليها عمر بن هلال ثلاثة أشهر ثم عزله المطلب وولى عليها أخاه الفضل
ابن عبد الله^(٢)

في تلك الأثناء كانت مراكب الأندلسيين قد درست عند الاسكندرية .
وكثيراً ما كان الأندلسيون يأتون إلى الاسكندرية فيتبادلون التجارة مع
الناس ، ولكن ولاية مصر كانوا لا يسمحون لهم بالدخول فيها^(٣) . أما
في هذه المرة فإن أهل الأندلس لم يأتوا للتجارة وإنما خرجوا من وطنهم
مطرودين وذلك في عهد ملكهم الحكم بن هشام الأموي على أثر وقعة
الربض بقرطبة في رمضان سنة ١٩٨ هـ^(٤) . فرسا فريق منهم بالقرب من
الاسكندرية وكان عددهم حوالي ١٥٠٠٠ شخص إذ استتبنا النساء
والأطفال^(٥) .

لما عزل عمر بن هلال ، كتب إليه عبد العزيز الجروى يأمره بالدعاء له
فيها وبإخراج واليها من قبل المطلب فلم يجد عمر بن هلال بدأ من استدعاء
هؤلاء القرطبيين ليساعدوه في ذلك ومرعاب ما لبوا طلبه واستطاع أن
يخرج واليها - الفضل بن عبد الله - ويدعو للجروى بالاسكندرية . إلا
أن أهل الاسكندرية ثاروا ضد الأندلسيين وأخرجوهم من الاسكندرية إلى

(١) يذكر الكندي أنه عرف باسم عمر بن هلال ويذكر القرظي في الخطط
ص ١٧٢ أنه عرف باسم عمر بن مالك .

(٢) الكندي ص ١٥٧ ، خطط القرظي ج ١ ص ١٧٢ .

(٣) الكندي ص ١٥٨ ، خطط القرظي ج ١ ص ١٧٢ .

(٤) ابن الأثير ج ٦ ص ٢٠٩ - ٢١٠ وأبو الحسن ج ٢ ص ١٥٨ .

Dozy: Histoire des Musulmans d'Espagne. t. 1. pp' 296-300

Dozy : op. cit. p. 300. (٥)

مراكبهم بعد أن قتلوا منهم فراً ، وأظلموا عليهم الفضل ثانياً^(١) .
ثم عزل المطلب أخاه الفضل عن الاسكندرية وولى عليها إسحاق بن أبرمه
ابن الصباح فسار إليه عمر بن هلال في شهر رمضان سنة ١٩٩ هـ ، فزله
المطلب وولاهها أبا بكر^(٢) بن جنادة بن عيسى المماقري^(٣) . ولما انتصر السرى
ابن الحكم على المطلب وولى مصر في رمضان سنة ٢٠٠ هـ بإجماع الجنود ،
سار عمر بن هلال إلى أبي بكر بن جنادة وأخرجه من الاسكندرية ودعا
للجروى بها ، وكان الجروى والسرى إذ ذاك متسالمين ، فلما علم الأندلسيون
بولاية ابن هلال على الاسكندرية قدموا إليه ، إلا أنه لم يعاملهم في تلك المرة
كما عاملهم أولاً إذ بلنه عنهم بعض الفساد فأمر بإخراجهم من الاسكندرية
إلى مراكبهم^(٤) .

حدد الأندلسيون على ابن هلال ، وظهر في الاسكندرية في ذلك الوقت
طائفة تعرف بالصوفية^(٥) « بأمرؤن بالمعروف وينهون عن المنكر » فبازعجوا ،
ويعارضون السلطان في أمره واتخذوا رئيساً لهم رجلاً منهم يقال له أبو عبد
الرحمن الصوفى ، وقد آتحد الأندلسيون مع هؤلاء الصوفية كما تقووا بقبيلة نلم
وكانت أقوى من في ناحية الاسكندرية ، ثم ساروا إلى عمر بن هلال ليثأروا
لأنفسهم منه فحاصروه وانتهى الأمر بقتله في ذى القعدة سنة ٢٠٠ هـ^(٦) .
وعقب مقتل ابن هلال انقلبت صداقة الأندلسيين واللخميين إلى عداوة

(١) الكندى ص ١٥٨ ، خطط القرزى ج ١ ص ١٧٢ .

(٢) في خطط القرزى (ج ١ ص ١٧٣) يقول إن اسمه أبو ذكر بن جنادة

(٣) الكندى ص ١٥٨ ، خطط القرزى ج ١ ص ١٧٣ .

(٤) الكندى ص ١٦١ — ١٦٢ ، القرزى ج ١ ص ١٧٣ .

(٥) يذكر آدم متر في كتابه الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ١٤ أن أول ظهور

الطوائف الصوفية حوالى عام ٢٠٠ هـ وذلك في مصر مهد الرهبنة المسيحية .

(٦) الكندى ص ١٦٢ ، القرزى ص ١٧٣ .

ووقت الحرب بينهم . ولما رأى أهل الاسكندرية ما حدث بين القرينين جردوا سيوفهم وقتلوا من الأندلسيين نحو ثمانين نفسا ، فلما علم الأندلسيون بذلك بمد انتصارهم على اللخمين خرجوا لقتال كل من لا قوه من أهل الاسكندرية ، مسلمين كانوا أو نصارى أو يهود وأحرقوا كل موضع عثروا فيه على أحد من أصحابهم القتولين^(١) .

أصبح الأندلسيون أصحاب السلطة الفعلية في الاسكندرية منذ انتصارهم على عمر بن هلال وتأكد سلطانهم عندما هزموا اللخمين وملكوا الإسكندرية عنوة في ذى الحجة سنة ٢٠٠ هـ^(٢) ، فولوا عليها أبا عبد الرحمن الصوفي ، إلا أن الأحوال في الاسكندرية اضطرت في عهده وعم القتل والنهب فيها فعزله الأندلسيون عنها وولوا عليها رجلا منهم يعرف بالكفاني^(٣) . وهكذا نرى أن الاسكندرية أصبحت شبه جمهورية مستقلة للأندلسيين ، وأصبحت مصر بمثابة قطائع مقسمة بين أفراد أو جماعات مختلفة ، كل منها مستقلة عن الأخرى وهي كلها مستقلة عن الخلافة .

بلغ الجرؤى مقتل ابن هلال وما فعله الأندلسيون بالاسكندرية فصار إليها في خمسين ألفا وحاصرها وكاد يفتحها في المحرم سنة ٢٠١ هـ ولكن السرى خشى ازدياد نفوذ الجرؤى فبعث عمرو بن وهب الخزامى علي رأس جيش إلى مقره في تيبس ، فترك الجرؤى حصار الاسكندرية ورجع إلى تيبس حيث أخرج جيش السرى منها . ومن ثم تطورت المنافسة الخفية بين الجرؤى والسرى إلى نزاع علني بينهما .

(١) ساويرس : سير الآباء البطارقة - س ٤٣٠ - ٤٣١

atr. Orient. t. X)

(٢) السكندى ص ١٦٣ .

(٣) السكندى ص ١٦٣ - ١٦٤ ، خطط القرينى ج ١ ص ١٧٣ .

وربما خشى الاندلسيون على مصيرهم قرأوا أن يتقوا بانضمامهم إلى
الوالي ، لذلك نراهم يدعون في الاسكندرية للسري بن الحكم سنة ٢٠١هـ^(١)
على أن السري مالبت أن يختلف مع آل عبد الجبار بن عبد الرحمن الأزدي ،
وكانوا وجوه أهل خراسان بمصر ، فبايعهم الجند على القيام ضد السري
وأظهروا كتابا من طاهر بن الحسين (قائد المأمون) بولاية سليمان بن غالب
ابن جبريل البجلي على مصر ، فلم يكن من السري إلا الرضوخ لهم وذلك
في ربيع الأول سنة ٢٠١هـ فكانت ولاية السري في هذه المدة ستة أشهر^(٢)
أمر سليمان بن غالب السري بن الحكم بترك العاصمة والذهاب إلى
إخميم . على أن السري مالبت أن تقوى ثانية بانضمام بني مدليج وكثير من
الناس إليه . فسار بهم يريد القسطنطين ، ولما علم سليمان بن غالب بذلك أرسل
إليه جيشا لمحاربتة قبل أن يصل إليها فدارت الدائرة على السري وأسر هو
وابنه ميخون ، فأمر سليمان بردهما ثانية إلى إخميم وسجنهما . وذلك في جمادى
الأولى سنة ٢٠١هـ^(٣) ، ولا نعرف لماذا لم يقتل سليمان بن غالب السري بعد
أن ظفربه ، وربما دعاه إلى هذا التصرف خوفا من أتباع السري ومن
ثورتهم ضده ، وما لبث أهل خراسان بمصر أن قاموا ضد سليمان بن غالب
وذلك لتقديمه أتباعه وبطانته عليهم ، وانتهى الأمر بأن خلفه الجند من
ولاية مصر في شعبان من سنة ٢٠١هـ ثم لحق سليمان بالجزيرة^(٤) . بمصر
عزل سليمان ، ولى السري بن الحكم مصر للمرة الثانية على أنه في هذه المرة

(١) الكندي ص ١٦٥ .

(٢) الكندي ص ١٦٥ .

(٣) الكندي ص ١٦٦ .

(٤) الكندي ص ١٦٦ - ١٦٧ .

لم يتولاها كالمرّة الأولى بمبايعة الجند له وإنما حولها بأمر من الخليفة المأمون^(١) ويظهر أن اضطراب الحال في الدولة الإسلامية دعا المأمون إلى التسليم بالأمر الواقع في مصر ريثما تهدأ الأمور فولى السرى الذي كان له أتباع كثيرون إذ ذاك .

وحدث في سنة ٢٠١ هـ أن بايع المأمون لولاية عهده عليا الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق وسماه الرضا من آل محمد ، وأمر جنده بطرح السواد شعار العباسيين ولبس ثياب الخضره شعار العلويين ، وكتب بذلك إلى جميع الآفاق .

وقد ظن أهل بغداد أن هذا من عمل الكندل بن سهل الذي كان يدبر أمور المأمون في مرو . والفرس كما نعلم كانوا يميلون إلى العلويين . ولذا نجد أهل بغداد يبايعون بالخلافة إبراهيم بن المهدي عم المأمون في سنة ٢٠١ هـ ويخلمون المأمون . اضطربت الأحوال في الدولة الإسلامية ، ولم يعلم المأمون بذلك إذ كتم الفضل بن سهل هذه الأخبار عنه ، ويقال إن الذي أعلمه بهذه الأمور عليا الرضا بل إنه أشار عليه بالرجوع إلى بغداد تهدأ الحالة وليضبط الأمور بنفسه ، فسار المأمون إليها وفي طريقه إلى هناك مات الفضل بن سهل سنة ٢٠٢ هـ ثم مات علي الرضا في طوس سنة ٢٠٣ هـ . وأخيراً دخل المأمون بغداد في سنة ٢٠٤ هـ واختفى إبراهيم بن المهدي ، واستطاع المأمون بعد دخوله بغداد أن يقبض على ناصية الحال في الدولة الإسلامية ويقضى على الاضطرابات التي سادت فيها بعد أن تخلص من النفوذ الفارسي ومن النفوذ العلوي ، وقد استمطفه إبراهيم بن المهدي فصفح عنه .

أما في مصر فإن أمورها في تلك الفترة كانت تسير دائما متأثرة بما يجري في الخلافة فينمكس عليها ما يحدث هناك وانما جليا . لذا نرى الخليفة المأمون يكتب إلى السرى بن الحكم بأمره بالبيعة فيها لولى عهده على الرضا في المحرم سنة ٢٠٢ هـ فيوبع له بها ، على أن المصريين انقسموا على أنفسهم كما حدث في بغداد وسائر الدولة الإسلامية ، إذ كتب إبراهيم بن المهدي إلى وجوه الجند بمصر يأمرهم بخلق المأمون وولى عهده ، والثورة ضد السرى ، وكان من السهل أن يلتقى إبراهيم بن المهدي أنصارا له بمصر ، لا حبا في خلافته وإنما طمعا من بعض الزعماء في السلطان أولتذمرهم من ولاية السرى أوغير ذلك من الأغراض المختلفة التي كانوا يسترونها وراء قيامهم بالدعوة لأحد الخلفاء أو لأحد الخارجين على الخلافة . فقام بالدعوة لإبراهيم في مصر الحارث بن زرعة بن قحزم بالفسطاط ، وعبد الميز ابن الوزير الجروى بالدلتا وسلامة ابن عبد الملك الأزدي الطحاوى بالصعيد ، وسليمان بن غالب بن جبريل الذى كان منضبا إلى الجروى . وعقدوا الولاية لعبد الميز بن عبد الرحمن الأزدي ، على أن السرى حاربه حتى ظفر به ، وقتله في صفر سنة ٢٠٣ هـ^(١) وانضم بمد ذلك كل من كره بيعة على الرضا إلى الجروى لعظم سلطانه إذ ذلك ، فسار الجروى إلى الإسكندرية للمرة الثانية لمحاربة الاندلسيين بها فحاصرها وانتهى الأمر بأن اصطلح الاندلسيون على فتح حصن الإسكندرية والدعوة للجروى بها . ثم دعى للجروى بالصعيد أيضا .

وعندما علم الجند بموت على الرضا وانخزال إبراهيم بن المهدي أظهروا بيعة المأمون والدعوة إليه ، وقد ورد كتاب المأمون إلى السرى بذلك وبفسل المنابر التي دعى عليها لعلى الرضا ففسلت^(٢) . واتهمز الاندلسيون أيضا هذه

(١) الكنتى ص ١٦٨ .

(٢) الكنتى ص ١٧٠ .

الفرصة فأخرجوا عامل الجروى بالإسكندرية منها وأغلقوا الحصن دونه وخلصوا الجروى ودعوا إلى السرى بن الحكم ، فسار إليهم الجروى في رمضان سنة ٥٢٠٣ هـ . على أن القبط بسخا ناروا ضده وانضم إليهم بنو مدلج فهزمهم الجروى وهرب بنو مدلج ثم بعت الجروى بجيوش إلى الإسكندرية لحاصرتها^(١) . وربما دعا القبط إلى الثورة ضد الجروى ما أتاه من أفعال ؛ إذ يذكر ساويرس^(٢) أن الجروى كان يذأب على قتل الناس وأخذ أموالهم وكان يدفن في الأرض ما يأخذه من أموال ، وإذا دفن المال يقتل الذين ساعدوه على دفنه كي لا يبيعوا بسره . وكذلك جمع الجروى قمح أرض مصر جميعها ووضعه في الأهراء تحت تصرفه ، حتى نذر القمح وعن وجوده ، فحدثت مجاعة كبيرة بسبب ذلك ولا سيما بالإسكندرية ، وكان يرى من وراء ذلك إلى أن تسلم إليه البلاد جميعها .

لكن السرى بن الحكم أفسد على الجروى خططه فأرسل جيشاً في ذى القعدة سنة ٢٠٣ إلى بلاد الصعيد لاستخلاصها منه ، فتم سلامة ابن عبد الملك الطحارى حليف الجروى بالصعيد ، وأسر هو وابنه إبراهيم وأرسل إلى القسطنطينية حيث قتلا هناك في المحرم سنة ٢٠٤ هـ^(٣) .

وفي تلك الأثناء سار عبد العزيز الجروى لحصار الإسكندرية للمرة الرابعة فأغلق الأندلسيون حصنها ولكن الجروى حاصرهم حصاراً شديداً وأخذ يضرب الحصن بالجمانيق وظل على ذلك سبعة أشهر من بداية شعبان سنة ٢٠٤ هـ إلى آخر صفر سنة ٢٠٥ هـ . وانتهى الأمر بأن قتل الجروى

(١) الكندى ص ١٧٠ .

(٢) سير الآباء البطركية . ص ٤٠٠ - ٤٠٦ . (Patr. Orient. t. X).

(٣) الكندى ص ١٧١ .

أثناء الحصار . ومات السرى بن الحكم بسده بثلاثة أشهر في الفسطاط
في آخر جمادى الأولى سنة ٢٠٥ هـ بعد أن ولى مصر ثلاث سنين
وتسعة أشهر .

بويج بولاية مصر بسد السرى بن الحكم ابه أبو نصر بن السرى ،
ولم يكن معنى ذلك القضاء على المنازعات التي قامت حول ولاية مصر ، إذ
ورث أبناء السرى والجروى نزاع والديهما . فكان بيد أبي نصر من أرض
مصر الفسطاط والصعيد وغربي الدلتا وكان بيد على بن عبد العزيز الجروى ،
بقية الوجه البحرى بما فى ذلك الحوف الشرقى ، وقد وقعت الحروب بينهما ،
ثم اصطالحا على أن يكف أحدهما عن الآخر . وأخيراً توفى أبو نصر فى
٨ شعبان سنة ٢٠٦ هـ بعد أن ولى مصر أربعة عشر شهراً^(١) .

بايع الجند عبيد الله بن السرى بولاية مصر بعد وفاة أخيه فى شعبان
سنة ٢٠٦ هـ ولم يتعرض كل من عبيد الله وعلى بن الجروى للآخر حتى انتهت
سنة ٢٠٦ هـ ، حين عقد المأمون ولاية مصر لخالد بن يزيد بن مزيد الشيبانى
وبمته إليها فى جيش من ربيعة فلما دخل الحدود المصرية أرسل إلى عبيد الله
يعلمه بذلك فاستنع عبيد الله عن التسليم له واحنجر بأن كتاب المأمون قد ورد
إليه بولايته هو ، واستعد عبيد الله لحرب خالد فخر خندقاً حول الفسطاط
وجند الجنود ، فسار خالد إلى خندق عبيد الله وهناك وقع القتال بينهما
وانتهى بأسر خالد بن يزيد فأكرمه عبيد الله بن السرى وخيره بين القام
فى مصر أو الرحيل حيث شاء فاختار الذهاب إلى مكة عن طريق القلزم^(٢) .
ويظهر أن الأمور فى مختلف أنحاء الدولة الإسلامية شغلت المأمون حتى ذلك

(١) الكندى ص ١٧٢ — ١٧٣ .

(٢) الكندى ص ١٧٣ — ١٧٦ .

الوقت عن التفرغ للقضاء على الفوضى في مصر وإرجاعها ثانية إلى حظيرته، فأرسل رسولا من قبله يقر عبيد الله على ما بيده من أرض مصر ويقر علياً ابن الجروى على ما بيده^(١).

حدث بعد ذلك نزاع بين عبيد الله بن السرى وبين علي بن الجروى وسببه أن قوما من أهل الحوف منعوا ابن الجروى من جباية الخراج وكتبوا إلى عبيد الله بن السرى يطلبون منه المساعدة ضد علي الجروى ، فأمدم بما طلبوا وبعث إليهم أخاه أحمد بن السرى في سنة ٢٠٧ هـ ف وقعت حروب بينهما كان نتيجةها أن دخل عبيد الله تليس ، مقر ولاية الجروى ، وهرب ابن الجروى إلى الفرما ثم العريش في ربيع الأول سنة ٢٠٩ هـ^(٢) ، أى أن مصر كلها خضعت لعميد الله بن السرى إذا استثنينا الاسكندرية التي كانت تحت سلطة الأندلسيين . على أنه لم يكن من السهل أن يتخلى ابن الجروى عن ولايته في مصر السفلى . فحدثت مناوشات وحروب بينه وبين ابن السرى^(٣) ، وبينناهما كذلك قدم عبد الله بن طاهر بن الحسين من الشام موفداً من قبل الخليفة المأمون ليقضى على تلك الفوضى التي سادت في مصر منذ نحو إحدى عشرة سنة ، كادت مصر في أثناءها تكون مستقلة عن الخلافة ، لا ترسل إليها الخراج والأموال ولا ترضخ فيها لأوامر الخليفة ولا تقبل المال الذي يوليههم وقد تغلب على كل ناحية فيها قائد أو زعيم .

سار عبد الله بن طاهر إلى مصر فاستقبله علي بن الجروى بالأموال والأنزال وانضم إليه ، ثم أرسل ابن طاهر إلى عبد الله بن السرى يدعوه إلى

(١) الكندى ص ١٧٦ — ١٧٧ .

(٢) الكندى ص ١٧٧ — ١٧٨ .

(٣) الكندى ص ١٧٨ — ١٧٩ ، خطط المقرئى ج ١ ص ١٧٩ .

الطاعة ولكن عبيداً أخذ يستمه لحرية فخر خندقه وأعد سفن به وأحكم
أموره وكانت النتيجة أن اشتبك الفريقان ووقعت الحرب بينهما فانهزم عبيد
وقتل معظم أصحابه حتى أشرف على الهلاك فطلب الأمان . فكتب ابن طاهر
إلى الخليفة المأمون كتاباً يسأل فيه أمان عبيد فأجاب الخليفة إلى ذلك . ثم
كتب عبد الله بن طاهر لمبيد كتاب أمان أشهد فيه شهوداً من الجند
والفقهاء وأشرف أهل مصر في صفر سنة ٢١١ هـ وخلق عليه ابن طاهر
وأجازه بمشرة آلاف دينار وأمره بالخروج إلى المأمون^(١) وبذلك خلصت
معظم مصر للخلافة على يد عبد الله بن طاهر وكان أمامه أن يقضى على
الجمهورية التي أقامها الأندلسيون بالاسكندرية منذ عشر سنوات .

سار عبد الله بن طاهر في قواده إلى الاسكندرية في بداية صفر
سنة ٢١٢ هـ وحاصرها في شهر ربيع الأول فطلب أهلها الأمان ، وصالح
الأندلسيين على أن يسير من الاسكندرية حيث أحبوا فخرجوا إلى جزيرة
أقريطش (كريت) وملكوها وكان أميرهم أبو حفص عمر بن عيسى ، ثم
ولى ابن طاهر على الإسكندرية الياس بن سامان ، ورجع ثانية إلى القسطنطينية
في جمادى الآخرة سنة ٢١٢ هـ^(٢) .

وهكذا عادت مصر بفضل مجهودات عبد الله بن طاهر ولاية خاضعة
للخلافة بعد أن سادت فيها الفوضى وكادت تخرج من حكم الخليفة وتستقل
بأمورها ، منتهزة فرصة النزاع بين الأمين والمأمون ثم الاضطراب الذي قام
في أوائل حكم المأمون . ويجدر بنا أن نلاحظ أن السرى بن الحكم ،
الخراساني الأصل ، استطاع أن يكون لنفسه ولأسرته من بعده ملكاً شبه

(١) الكندي ص ١٨٠ - ١٨٢ .

(٢) الكندي ص ١٨٣ - ١٨٤ ، خطط المقرئ ص ١٧٣ .

مستقل دام نحو عشر سنوات ولم تسيطر هذه الأسرة على مصر طوال هذه المدة وإنما سيطرت على العاصمة دأما وعلى الوجه القبلي في النبلب . ونلاحظ أيضاً أن أسرة السرى كانت كغيرها من الأسرات التي استقلت بمصر فيما بعد ، مثل الطولونيين والأخشيديين ، أى أنه لم يكن لها أساس قوى في البلاد التي اتخذتها مسرحاً لنشاطها . فهذه الأسرات التي قامت في مصر الإسلامية لم تكن نتيجة لحركات قومية وإنما كانت حركات فردية قام بها ذوو الشخصيات الطموحة القوية . ولذا لم يكن من المنتظر أن تعمّر طويلاً بعد وفاة مؤسسها ، وخاصة إن كان خلفاء هؤلاء المؤسسين لا تتوفر لديهم القوة والشخصية التي كانت لأسلافهم . ويصح أن تعتبر أسرة السرى أول أسرة شبه مستقلة في مصر الإسلامية . وكانت هذه الأسرة مقدمة لأسرة ابن طولون التي استقلت بمصر استقلالاً فعلياً في الواقع وذاتياً في الظاهر .

ج - مصر والمحنة بخلق القرآن

مسألة خلق القرآن هي إحدى المسائل التي أثارها المعتزلة حين ظهرت بتمايها كما ظهر غيرها من الفرق والمذاهب .

ولا يمتينا هنا أن نبحث في آراء المعتزلة الدينية ومعتقداتهم وإنما يهمنا أن الدولة العباسية في وقت ما اتخذت الاعتزال مذهباً رسمياً لها ، وحملت جميع رعايا دولتها على اعتناق ذلك المذهب مستعملة في ذلك جميع وسائل القوة والبنف ، وكانت مصر ممن حمل على اتخاذ ذلك المذهب . كانت مسألة خلق القرآن هي المسألة التي ركز فيها الاعتزال في تلك الفترة (٢١٨ - ٢٣٤هـ) لكثرة القول والجدل فيها ، ولأنها مبنية على أكبر أصل من أصولهم وهو فجر الإسلام - (١٢)

التوحيد وعدم تمدد صفات الله^(١).

وقد أظهر المأمون القول بخلق القرآن في سنة ٢١٢هـ^(٢)، إلا أنه لم يحمل الناس على اتباعه إلا في سنة ٢١٨هـ قبيل وفاته وهو خارج بغداد لغزو الروم، إذ كتب إلى والي بغداد إسحق بن إبراهيم يطلب منه أن يمتحن القضاة والفقهاء والمحدثين في خلق القرآن ويماقب من لا يقر بخلقه. على أن المأمون توفي بعد ذلك بنحو أربعة أشهر (رجب سنة ٢١٨هـ) فحمل هذا الأمر من بعده أخوه المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧هـ) ثم الواثق (٢٢٧ - ٢٣٢هـ) وقد عذب كثير ممن امتنعوا عن القول بخلق القرآن نذكر منهم الإمام أحمد بن حنبل، وقتل البعض الآخر، وبقدر ما كان الخلفاء يشهدون في تلك المسألة كان العلماء والشعب يمارضون فيها^(٣)، وقد أصبحت كلمة المحنة تمنى اختبار العلماء في القول بخلق القرآن وما لاقوه في ذلك من عذاب^(٤)، وهكذا أصبحت الدولة الإسلامية كلها موضوع محاكمة. ويهنا ما كان من أمر مصر في هذه المسألة.

في ولاية كيدر نصر بن عبد الله على مصر (٢١٧ - ٢١٩هـ) ورد عليه كتاب المعتصم (صاحب إقطاع مصر حينذاك) في جمادى الآخرة سنة ٢١٨هـ يأمره بأخذ الناس بالمحنة بخلق القرآن وأن يمتحن قاضي مصر إذ ذاك هرون بن عبد الله الزهري وأن يمتحن المحدثين والفقهاء والشهود، وأن يعزل القاضي إن لم يقر بخلق القرآن، وكذلك طلب منه

١) أحمد أمين بك: ضحى الإسلام ج ٣ ص ١٦٥.

٢) الطبري ج ١٠ ص ٢٧٩.

٣) أحمد أمين بك: ضحى الإسلام ج ٣ ص ١٥٦ - ١٨٢.

٤) المرجع نفسه ص ١٦٦.

الا يأذن لأحد في حديث أو فتوى أو شهادة إلا إذا أقر بخلق القرآن^(١) .
ويظهر أنه لم تقم في مصر في أول الأمر معارضة شديدة للقول بخلق القرآن ،
كما قامت في العراق مقر الخلافة ، ولم تتعرض مصر لما تعرضت له العراق
من قتل وتعذيب واضطهاد لهذا السبب ، وربما أقر المصريون القول بخلق
القرآن تقيية فكفاهم هذا شراً كثيراً . فيذكر الكندي أنه حين ورد
كتاب المعتصم على كيدر يأمره بأخذ الناس بالحنفة أحضر هرون بن عبد الله
القاضي ودعاه إلى هذا فأجاب إليه ووافق على ذلك عامة اليهود ومن عرف
بالعدالة كما أجاب أكثر الفقهاء إلا من هرب منهم وكذلك كان هرون
ابن عبد الله يوقف شهادة من لا يقول بخلق القرآن وقبل شهادة من يقر
بخلقه^(٢) .

ظل هرون بن عبد الله يلي قضاء مصر إلى أن ورد عليه كتاب الخليفة
المعتصم في سنة ٢٢٦هـ يأمره بالتوقف عن الحكم . وولى القضاء بعده محمد
ابن أبي الليث الخوارزمي . ولعل المصريين لم يقوموا بمعارضة شديدة ضد الحنفة
طالما لم يؤخذوا فيها بالشدّة ، فيذكر الكندي^(٣) أن أمر الحنفة كان سهلاً
في خلافة المعتصم ، « فلم يكن الناس يؤخذون بها شاءوا أو أبوا حتى مات
المعتصم وقام الواثق سنة سبع وعشرين ومائتين فأمر أن يؤخذ الناس بها
وورد كتابه على محمد بن أبي الليث بذلك وكأنها نار أضرمت » . فالخليفة
الواثق (٢٢٧ — ٢٣٢هـ) كان يقول بخلق القرآن عن عقيدة كما قال به
المأمون ، لذا أنجده يرسل إلى قاضي مصر محمد بن أبي الليث يأمره بامتحان

(١) الكندي ص ١٩٣ ، ٤٤٥ — ٤٤٧ ، أبو الحسن : النجوم الزاهرة

ج ٢ ص ٢١٨ — ٢١٩ .

(٢) الكندي ص ٤٤٧

(٣) الكندي ص ٤٥١ .

الناس جميعا حتى لم يبق أحد من فقيه أو محدث أو مؤذن أو معلم حتى أخذ بالحنة ، وعندئذ عارض كثير من المصريين الحنة وثاروا ضدها . فثلث السجون منهم كما هرب الكثيرون .

وقد أمر ابن أبي الليث أن يكتب على المساجد لا إله إلا الله رب القرآن المخلوق ، كما منع الفقهاء من أصحاب مالك والشافعي من الجلوس في المسجد وأمرهم أن لا يقربوه وقد اختص أصحاب مالك والشافعي بالنع لأنه لم يكن للمذاهب الأخرى أتباع في مصر حينذاك .

وكان ممن هرب بسبب الحنة أحد علماء مصر المشهورين في ذلك الوقت وهو ذو النون بن إبراهيم الأحمسي لكنه وقع في يد القاضي ابن أبي الليث فأقر بخلق القرآن^(١) ، ومن امتنع عن القول بخلق القرآن أبو يعقوب يوسف بن يحيى البويطي المصري صاحب الإمام الشافعي رضى الله عنه^(٢) ، فقد حمل إلى بغداد وظل ممتنعا عن القول بخلق القرآن ولم يزل محبوسا هناك إلى أن توفي سنة ٢٣١ هـ .

وعلى وجه الإجمال نلاحظ أن أمر الحنة في مصر كان سهلا خفيف الوطأة على المصريين فلم يقاسوا بسببها إلا بضع سنوات في عهد الخليفة الواثق فثلث السجون منهم ، كما تحمل البعض الآخر مشقة الرحيل عن وطنهم . ولكننا نسمع عن كثير من حوادث قتل أو تعذيب كما كانت الحال في العراق . فلما ولي الخليفة المتوكل العباسي وجد أن المسألة طال أمدها فأبطل هذه الحنة من مصر ومن جميع أنحاء الدولة الإسلامية . ففي شهر جمادى الآخر سنة ٢٣٤ هـ ورد كتاب المتوكل على هرثة بن النضر الجبلي

(١) الكنى ص ٤٥٣ .

(٢) أبو الحسن ج ٢ ص ٢٦٠ - ٢٦١ .

نائب مصر إذ ذاك من قبل صاحب إقطاعها إيتاخ (٢٣٣ - ٢٣٤ هـ) يأمره بترك الجدل في القرآن وبإبطال المحنة^(١) ، وفرح الناس بهذا فرحا عظيما وعظموا التوكل ومدحه الشعراء ، وبلغ من الثناء عليه وتمظيمه أن قال قائلهم : الخلفاء ثلاثة . أبو بكر الصديق رضى الله عنه يوم الردة ، وعمر ابن عبد العزيز في رد مظالم بنى أمية ، والتوكل في إحياء السنة^(٢) . وربما دعاهم إلى هذا ما لاقوه من اضطهاد وتعذيب وضيق زمن المحنة حتى أولوا الخليفة التوكل احتراما كبيرا لإبطال تلك المحنة التي كانت سببا في تفريق كلمة المسلمين .

(١) الكندي ص ١٩٧ ، القرظي : الخطط ج ١ ص ٣١٢ ، أبو الحسن ج ٢ ص ٢٦٥ .
(٢) أبو الحسن ج ٢ ص ٢٧٥ ، السيوطي : تاريخ الخلفاء . ص ٢٣٠ .

الباب الثالث

انتشار الاسلام وتعريب مصر

العرب والقبط

كان للفتوحات العربية أثر ملحوظ في سرعة انتشار الدين الإسلامي في كافة الأقاليم التي فتحها العرب خارج شبه الجزيرة العربية . فدخل الدين الإسلامي في هذه البلاد بدخول العرب فيها وما لبث أن تقلب على الأديان التي وجدت قبله وأصبح المسلمون أغلبية فيها . ومع ذلك كله فالثابت أن الدولة العربية التي قامت على أساس الدعوة الدينية والتي كان شعارها حماية ذلك الدين والقيام لنصرته لم تضطهد أحداً من أهل الذمة أو ترغمه على ترك دينه . ذلك أن القرآن لا يرضى الإكراه للدخول في الدين الإسلامي . وفي هذا يقول تعالى : (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي^(١)) . ويقول سبحانه مخاطباً الرسول : (ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكفره الناس حتى يكونوا مؤمنين^(٢)) . وإلى غير ذلك من الآيات القرآنية الكثيرة التي تفيد هذا المعنى . وقد رأينا العرب في مصر وفي غيرها من البلاد التي فتحوها يخبرون أهالي البلاد المفتوحة بين ثلاثة أمور : الإسلام أو الجزية أو الحرب . ولم يشتط العرب في تقدير الجزية ، بل راعوا في تقديرها ثروة الفرد ، فالغني لا يجبي منه مثل الفقير أو متوسط

(١) سورة البقرة آية ٢٥٦

(٢) سورة يونس آية ٩٩

الحال . ويقول الكونت دى كاستري^(١) « إن الإسلام لم يكن له دعاة مخصوصون يقومون بالدعوة إليه وتعليم مبادئه كما في الديانة المسيحية ولرأته كان للإسلام أناس قوامون لسهل علينا معرفة السبب في انتشاره السريع فأنا شاهدنا الملك شارلمان يستصحب معه على الدوام في حروبه ركبا من القسس والرهبان ليباشروا فتح الضمائر والقلوب بمد أن يكون هو قد باشر فتح الدائن والأقاليم بجيوشه التي كان يصل بها الأمم جريا تجعل الولدان شيئا ولكننا لا نعلم للإسلام مجما دينيا ولا رسلا وأخبارا وراء الجيوش ولا رهينة بمد الفتح فلم يكره أحد عليه بالسيف ولا باللسان » .

تلك كانت سياسة العرب الدينية العامة في مصر وفي غيرها من الدول التي فتحوها ، لكن الذي نعتى به هنا هو ما كان من أمرهم في مصر . فقد دخل الإسلام فيها لأول مرة بدخول العرب فأصبح . ويلاحظ هنا النقيوسى^(٢) أنه منذ دخول العرب مصر وقبل أن يتم فتحها نهائيا أسلم كثير من المصريين وحاربوا المسيحيين بعد إسلامهم ومن هؤلاء يوحنا أحد رهبان دير سيناء .

وقد أخذ الدين الإسلامى ينتشر تدريجيا في مصر كلما تقدم العهد بالعرب فيها . على أنه وجدت فترات معينة كان التحول فيها إلى الدين الإسلامى بكثرة وما ذلك إلا تحت تأثير ظروف وعوامل مختلفة ناشئة عن سياسة الخلفاء وولاتهم الذين يمثلون تلك السياسة .

وقبل أن نبدأ في تفصيل ذلك الموضوع يجدر بنا أن نبين أولا كيف كان موقف القبط من الفتح العربى .

(١) الإسلام خواطر وسواغ ص ٣٩ — ٤٠

(٢) تاريخ ص ٥٨٥

كان معظم المصريين في ذلك الوقت من الأقباط الذين تسميهم بعض المراجع « الباقية » والذين غلب عليهم بعد ذلك اسم الأقباط الأورتودكس وفيما عدا ذلك كانت مصر تحوى طوائف وأفرادا ينقسمون إلى عدة شعوب وأقوام كان أهمها قبيل الفتح العربي طائفة الروم الملكانيين أى الذين يدينون بالمذهب الملكاني — وكانوا في عداوة مع الأقباط — وطائفة اليهود . وكان هناك أيضا أفراد من الأقباط يدينون بالمذهب الملكاني أو الخلقدونى (١) . ولكن هذه كانت أحوالا شاذة . ونحن إذا تحدثنا عن المصريين في ذلك العصر إنما نتحدث عن الأقباط الأرتودكس .

كان العرب في فتحهم لمصر يحاربون البيزنطيين لا المصريين . وكان المصريون إذ ذاك قد أنهكتهم الأعباء السالية والاضطهادات الدينية حتى أن للؤرخين المصريين المسيحيين في المصور الوسطى يشمروننا بأن انتصار المسلمين هو غضب من الله على الروم . كذلك يتجلى لنا من ثنايا كتاباتهم مدى المداوة بينهم وبين الروم . فيقول حنا النقيوسى (٢) أن جميع الناس يذكرون أن سبب انتصار المسلمين على الروم هو استبداد هرقل والاضطهادات التي أنزلها بالأرتودكس والتي كان قبرس الآلة المحركة لها .

كذلك يذكر ساويرس (٣) أن الله كان يخذل جيوش الروم أمام المسلمين بسبب عقيدتهم الخلقدونية الفاسدة .

لهذا لا ننجب إذ رحب المصريون بالعرب واعتبروهم منقذين لهم من حكم البيزنطيين الجائر . على أننا لا نجد في المراجع القديمة ما يشير إليه بعض

(١) ساويرس ص ٢٢٦ — ٢٢٧ (١. ١.)

(٢) تاريخ ص ٨٤ .

(٣) ص ٢٢٨ — ٢٢٩ (١. ١.)

المحدثين - مثل ميزبشر Butcher من أن الأقباط استنجدوا بعمربن الخطاب لينقذهم من ظلم الروم^(١) أما فيما يختص بترحيب المصريين بالعرب ففي المصادر القديمة إشارات كثيرة تفيد هذا المعنى . بل لقد كتب حنا النقيوسي^(٢) أن المصريين الذين تركوا الدين المسيحي وأسلموا صحبوا جيوش العرب أثناء الفتح .

ونحن لا نعرف إذا كان هؤلاء قد انضموا إلى العرب بسبب كراهتهم للبيزنطيين أو بدافع الحماسة لنصرة الدين الجديد أو للسبيين معا .

ويذكر ابن عبد الحكم^(٣) ومن نقل عنه من المؤرخين مثل القرظي^(٤) وأبو المحاسن^(٥) والسيوطي^(٦) أنه كان « بالإسكندرية أسقف للقبط يقال له أبو ميامين^(٧) فلما بلغه قدوم عمرو بن العاص إلى مصر كتب إلى القبط يعلمهم أنه لا تكون للروم دولة وأن ملكهم قد انقطع ويأمرهم بتلقي عمرو فيقال إن القبط الذين كانوا بالفرما كانوا يومئذ أعوانا لعمرو .

ثم يمود ابن عبد الحكم^(٨) صفة ثانية فيذكر أنه عند ما فرغ عمرو ابن العاص من فتح حصن بابلبيون وعقد الصلح مع المقوقس خرج إلى الإسكندرية مع المسلمين حين أمكنهم الخروج ، « وخرج معه جماعة من رؤساء القبط وقد أسلحوا لهم الطرق وأقاموا لهم الجسور والأسواق

(١) انظر تاريخ الأمة القبطية وكنيستها للسيدة بونفمر ج ٢ ص ١٠٤

(٢) تاريخ ص ٦٥٠

(٣) فتوح مصر - طبعة المعهد الفرنسي ص ٥٣ - ٥٤

(٤) خطط ج ١ ص ٢٨٩

(٥) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٧

(٦) حسن المحاضرة ج ١ ص ٤٦

(٧) يقصد بالأسقف أي ميامين هنا البطرك بنيامين الذي كان معاصرا للفتح

(٨) فتوح مصر - طبعة المعهد العلمي الفرنسي ص ٦٦

وصارت لهم القبط أعوانا على ما أرادوا من قتال الروم »
فهذه الروايات تدل على أن القبط ساعدوا العرب منذ دخولهم الأراض
المصرية حتى أعموا فتح مصر . وإذ كنا لا نستطيع أن نأخذ بكل ما
فيها إذ أن بطرك القبط بنيامين كان في ذلك الوقت مختفيا في الصعيد وليد
في الإسكندرية . وجدير بالذكر أن وجود مصريين كثيرين في جند
البيزنطيين المدافع عن مصر كان من أسباب فشله في حمايتها من العرب لأنه
لم يخلصوا في الدفاع عنها

على أننا لا نستبعد أن يكون هناك فريق من المصريين قد وقف موقفه
الحياذ لأنهم يعرفون أن ترحيبهم بالعرب معناه انتقالم من تبعية إلى تبية
أخرى فإنهم لم يكونوا في موقف يستطيعون منه طرد البيزنطيين والعرب
في وقت واحد . وقد حارب فريق من الشعب المصري ممن كانت صنيا
للبيزنطيين في صفهم أو ربما حارب معهم منتظرا أن يكون النصر للبيزنطيين
لا للعرب .

فيذكر المقرئزي^(١) « أنه كان على تنيس رجل يقال له أبو ثور مر
العرب المنتصرة فلما فتحت دمياط سار إليها المسلمون فبرز إليهم نحو عشرين
ألغا من العرب المنتصرة والقبط والروم فكانت بينهم حروب آلت إلى وقوف
أبي ثور في أيدي المسلمين وانهزام أصحابه » وليكن الروح السائدة من جانده
المصريين بوجه عام كانت روح الترحيب بالعرب كما تبين من النصوص السابقة
ذلك هو موقف الأقباط بالنسبة للفتح العربي ولنبحث الآن كيف كانت
معاملة العرب لهم .

لم يكتف العرب بانتصارهم على البيزنطيين في مصر وإخراجهم منه

فزاهم يتجيبون إلى الأقباط وهم أهل البلاد كي يضمّنوا ولاءهم وإخلاصهم إذ لم يكن العرب غزاة أتوا للسلب والنهب وإنما كانوا فاتحين يستمرون البلاد استعماراً منظماً ويعرفون كيف يوطدون مراكزهم في البلاد التي فتحوها فلم يترك العرب أثراً للمسفل في فتوحاتهم إلا ما كان لا بد منه في كل حرب وقتال^(١).

ويذكر الرواة أن الرسول عليه الصلاة والسلام أوصى بقبض مصر في عدة أحاديث نذكر منها قوله « إن الله عز وجل سيفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبضها خيراً فإن لهم منكم صهراً وذمة » إذ كانت هاجر زوج إبراهيم الخليل عليه السلام وأم ولده اسماعيل منهم كما كانت مارية القبطية زوج الرسول عليه الصلاة والسلام منهم أيضاً^(٢). ولسنا نعرض هنا لصحة هذا الحديث ، فإنه يشهد ، على كل حال ، بموقف المسلمين من القبط في فجر الإسلام وحين جمعت الأحاديث .

فبعد أن تم استيلاء عمرو بن العاص على الإسكندرية ودخول الجيش العربي فيها نقل سانوثيوس^(٣) إلى عمرو بن العاص قصة بطرك القبط بنيامين الذي اختفى هرباً من اضطهاد الروم ولما كان الموضع الذي اختفى فيه الأب بنيامين غير معروف بالضبط فقد كتب عمرو إلى جميع أقاليم مصر كتاباً يقول فيه « الموضع الذي فيه بنيامين بطرك النصارى القبط له المهدي والأمان

(١) دي كاستري : الإسلام ص ٣٥

(٢) المقرئ ص ١ ص ٢٤ - ٢٥ ، أبو المحاسن ج ١ ص ٣٣

(٣) يقول ساويرس عن سانوثيوس « سانوثيوس التمس المؤمن » والتكس يعني بها الدوق duke . وسانوثيوس هذا كان عميد الأقباط يوم دخول العرب فتول إدارة شئون الكنيسة مدة اختفاء بطرك بنيامين . وأحسن إدارتها وجمع كلمة الأمة سد أن كانت الحوادث قد جعلتها أشتاتاً

والسلامة من الله فليحضر آمنًا مطمئنًا ويدبر حالة بييمته ونياسة طائفته^(١)»
وعند ما علم الأب بنيامين بذلك عاد إلى الإسكندرية مسروراً بعد غيبة دامت
ثلاثة عشر عاماً أمضى منها عشر سنين أثناء حكم هرقل وثلاث سنوات أثناء
الفتح العربي إلى أن فتح المسلمون الإسكندرية .

وقد طرب أهل مصر جميعاً لمودة راعيهم . ولما أبلغ سانوتيوس عمرو
ابن العاص مقدم بنيامين أمر عمرو بإحضاره إليه ممزراً مكرماً فلما مثل بين
يدى عمرو أكرمه وبالغ في حفاوته وأعطاه الحرية ليشرّف على الكنائس
ويرعى أحوال الأقباط^(٢) .

وكان من نتائج عودة بنيامين إلى كرسى البطركية أن رجع كثير إلى
المذهب الأرثوذكسى بعد أن كانوا نبذوه نتيجة لاضطهاد هرقل . كما عاد الذين
كانوا قد اختفوا خوفاً من هذه الاضطهادات^(٣) وبعد أن تم لبنيامين جمع
قومه من القبط ولم شعثهم أجمه إلى بناء ما كان هرقل قد هدمه من الكنائس
والأديرة .

ولا يجب إذ عم السرور والفرح أهل مصر جميعاً . ولا يستبعد أن
يكون القبط قد وقفوا من وراء راعيهم يشدون أزر العرب ضد الروم
حيناً أغاروا على الإسكندرية سنة ٢٥ هـ . وقد ذكرنا سابقاً أن أهل مصر
الحوار على عثمان بن عفان في سنة ٢٥ هـ أن يرسل عمرو بن العاص إليهم لطردهم
الروم لأنه أعلم الناس بحربهم ومدافعهم .

وكتب المقرئى^(٤) أنه كان بوادى هيب (الذى يقع بين صر يوط .

(١) ساويرس ص ٢٣١ — ٢٣٢ (١. ١) .

(٢) ساويرس ص ٢٣٢

(٣) ساويرس ص ٢٣٣

(٤) المخطوط ج ١ ص ١٨٦

والقيوم ويعرف أيضاً باسم وادى النطرون وهو الاسم الخاطئ له (مائة دير للنصارى وأنه خرج منه سبعمون ألف راهب^(١) فلقوا عمرو بن العاص بالطرانة بالقرب من الإسكندرية وسألوه الأمان لأنفسهم وأديارهم فبكتب لهم بذلك أمانا بقى عندهم .

لم يجد الأقباط إذاً في العرب عدوا لدينهم ولا لمذهبهم الدينى كما كان البيزنطيون ، بل كفّل لهم العرب الحرية التامة في إقامة شعائر دينهم واتباع مذهبهم الأرثوذكسى . وكما أن روح الإسلام الحقّة هي التي حفزت العرب إلى اتباع سياسة التسامح الدينى نحو المصريين فقد كان أيضاً للعوامل السياسية أكبر الأثر في حملهم على ترك مقاليد الأمور في يد أهل مصر من الأقباط محتفظين لأنفسهم بالسيادة العليا وتنفيذ أحكام الدين . أى أن الأقباط أصبحوا يتمتعون بحرية تامة في الدين كما أصبح لهم نصيب كبير في إدارة بلادهم ربما لم يصلوا إليه قبل الفتح العربى . ولا شك أن القبط حلوا محل الروم الذين غادروا مصر والذين كانوا يشغلون كثيراً من الأعمال فيها . وقد رأينا في الباب الأول كيف كانت نظم الحكم التي اتبعتها العرب في مصر وإلى أى حد كان الأقباط يتمتعون بإدارة بلادهم .

ونضيف إلى ما ذكرنا سابقاً أنه كان في الحكومة المركزية بالفسطاط

(١) طبعاً أن هذا العدد مبالغ فيه فإن معناه أن كل دير كان يسع حوالى ٧٠٠ راهب وهذا العدد الكبير يصعب تحمونه في الصحراء . والآن في العصر الحديث التقى زادت فيه سرعة وسائل المواصلات وتمددت لا يزيد عدد رهبان الدير على ٣٠ أو ٤٠ راهباً كما يجد الرهبان مشقة في تحمونه أنفسهم . ولاشك أن الرهبان قديماً كانوا أكثر من الرهبان الحاليين وربما كانت كثرة عدد رهبان الأديرة حينذاك ترجع إلى فرارهم من الانطهادات البيزنطية كما أن المسيحية في ذلك الوقت كانت هي السائدة في مصر . والرجعة كما نعلم من أصول المسيحية الأولى

أو حلوان كاتبان قبطيان لإدارة مصر العليا ومصر السفلى وقد أشار ساويرس^(١) أسقف الأشمونين إلى الكاتبين الأرتودكستين أنثاسيوس واسحق في عهد عبد العزيز بن مروان .

وكان هؤلاء الكتاب أو الرؤساء المسيحيون خاضعين للوالى بطبيعة الحال والظاهر أن رؤساء المالية كانوا قبطا طوال العصر الأموى وقد أشار ساويرس^(٢) إلى ظهور رئيسين من المسلمين في بداية العصر العباسى .

ونلاحظ أيضاً أنه في نهاية ولاية عبد العزيز بن مروان كان والى الصعيد قبطياً اسمه بطرس على أنه اعتنق الإسلام بعد ذلك^(٣) . وكان حاكم مريوط قبطياً اسمه تاوفانس^(٤) . كذلك ولى المأمون حين قدم مصر على مدينة بورة وما حولها قبطياً من أهلها فبنى ذلك القبطى كنائس كثيرة بها^(٥) .

ونلاحظ أن الفتح العربى ساعد أولاً على إحياء اللغة القبطية على حساب اللغة اليونانية التى كانت اللغة الرسمية منذ عهد البطالسة . فالدروس الدينية التى كانت تقرأ باليونانية وتشرح باللغة القبطية ، صارت لا تقرأ إلا باللغة القبطية . كذلك نجد أن البلاد والأقاليم التى كانت تغلب عليها الأسماء اليونانية ، أصبحت تعرف بأسمائها القبطية التى ترجع إلى الأسماء المصرية القديمة . فمثلاً نجد اسم أنخيم بدلا من يانوبوليس Panopolis

(١) سير الآباء البطاركة ص ١٢ . Patr. Orient. t.v.

(٢) سير الآباء البطاركة ص ١٨٨

(٣) ساويرس ص ٥٢

(٤) ساويرس ص ٥٢

(٥) سعيد بن بطريق : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ج ٢

ص ٥٨ — ٥٩ ، آدم متز : الحضارة الإسلامية ص ١٠٧

وأهناسيا بدلا من هيراكليوبوليس Héracléopolis والأثمنونين بدلا من هرموبوليس . على أن هذا كله كان بمثابة تقديم لم يندثر تماما فإن اللغة القبطية أو الأسماء المصرية كانت قد غلبت على أمرها حينما من الدهر ثم استمدت مكانتها بعد الفتح العربي . والمعروف أن الأسماء العربية لكثير من بلدان القطر المصري الآن مأخوذة من الأسماء المصرية القديمة^(١) كما أننا نستعمل في الوقت الحالي كثيراً من الألفاظ العامية التي ترجع إلى اللغة المصرية القديمة وإلى اللغة القبطية التي اشتقت منها^(٢) .

وقد كان لوالى مصر حن الاشراف على انتخاب البطاركة بوصفه رئيس الحكومة وممثل الخليفة في مصر . ويظهر من النصوص أن الأساقفة كانوا يستشيرون الوالى قبل انتخاب البطررك كما أن البطررك والأساقفة كانوا يذهبون من الإسكندرية مقر البطاركة إلى العاصمة لمقابلة والى مصر بعد الانتخاب للبطرركية^(٣) ويظهر أن هذه كانت مجرد مسائل شكلية إذ لم يعرف عن الولاة أنهم عارضوا في انتخاب أحد البطاركة ما دام الأساقفة يتبعون القوانين الكنسية . ونعرف أن عبد العزيز بن مروان أبطل انتخاب أحد البطاركة بعد ما علم أن البطررك المتوفى كان قد أوصى بشخص غير الذى انتخب وتم للوالى ما أراد فعين إسحق بطرركا بدلا من جرجة الذى كان قد انتخب^(٤) .

وقد بنيت عدة كنائس في ظل الحكم العربى وجددت كنائس أخرى

(١) سليم حسن بك : أقسام مصر الجغرافية في العهد الفرعونى ص ١٥٤

(٢) Dr. George Sobhy : The Survival pp. 65-69

(٣) ساويرس ص ٢٢ — ٢٣ (t. V.) ، ص ٤٨١ — ٤٨٢ T. X.

(٤) ساويرس ص ٢٣ — ٢٤ (t. V.)

ففي أيام البطررك أغاتون (٦٦١ - ٦٧٧ م = ٤١ - ٥٨ هـ) عمرت كنيسة أبي مقار^(١). ويذكر ابن المييد^(٢) والمقرزي^(٣) أن البطررك أغاتون بنى كنيسة القديس مرقس بالاسكندرية في ولاية عمرو بن العاص الثانية وقد ظلت هذه الكنيسة قائمة إلى أن هدمها السلطان العادل أخو صلاح الدين الأيوبي في القرن السابع الهجري .

كذلك بنيت أول كنيسة في فسطاط مصر أثناء ولاية مسلمة بن مخلد عليها^(٤). ويذكر سعيد بن بطريق^(٥) أنه في ولاية عبد العزيز بن مروان بنيت كنيسة مار جرجس وكنيسة « أبو قير » في داخل قصر الشمع . وقد جدد البطررك إسحق كنيسة القديس مرقس وبني كنيسة بحلوان^(٦) كذلك بنيت كنائس أخرى في حلوان وذلك في ولاية عبد العزيز بن مروان وقد عهد الوالي بمهارتها إلى أغريغوريوس أسقف القيس^(٧) .

ويذكر الكندي^(٨) أن الوليد بن رفاعه (١٠٩ - ١١٧ هـ) أذن للنصارى ببناء كنيسة بالجرعاء تعرف بأبي مينا .
ويخبرنا أبو صالح الأرمني^(٩) عن بناء كنائس عدة في مصر في خلافة

(١) ساويرس ص ٦ . T. V. ٦

(٢) تاريخ السلمين ص ٥٠

(٣) خطط ج ٢ ص ٤٩٢

(٤) ابن عبد الحكم — طبعة تورى ص ١٣٢ ، السيوطي : حسن المحاضرة

ج ٢ ص ٥

(٦) التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ج ٢ ص ٤١

(٧) ساويرس ص ٢٤ . t. V. ٢٤

(٨) ساويرس ص ٤٢ . t. V. ٤٢ وفي معجم البلدان لياقوت ج ٤ ص ٢١٥ :

القيس كانت بمصر وقد خربت الآن وكانت في غرب النيل بعد الجزيرة

(٩) الولاية والفضاة ص ٧٧

هشام بن عبد الملك بوجه خاص وفي الخلافة الأموية بوجه عام كما يذكر لنا كنيسة جددت في عهد الخليفة المأمون ، قام بتجديد عمارتها خدم الخليفة نفسه وهي المعروفة بكنيسة الروم بالقرب من قبة الهواء^(١)

وقد أذن موسى بن غيسى في ولايته الأولى على مصر (١٧١ — ١٧٢ هـ) للنصارى ببناء الكنائس التي هدمها الوالى الذى سبقه . وفى ذلك يقول الكندى^(٢) « فبنيت كلها بمشورة أليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة وقالوا : هو من عمارة البلاد ، واحتجا أن عامة الكنائس التى بمصر لم تكن إلا فى الإسلام فى زمن الصحابة والتابعين » وهذا لا يكشف سياسة الوالى إزاء المسيحيين فقط بل يبين لنا أن هذين الحجتين فى الفقه الإسلامى كانا يقولان ببناء الكنائس وتعميرها وبعدان هذا من مظاهر التمييز فى البلاد .

وجدد أبنا ميخائيل البطرك (٧٤٤ — ٨٦٨ م = ١٢٧ — ١٥١ هـ) كنيسة الإسكندرية وأصلحها وبني غيرها فى شرق البلاد وغربها^(٣) .

هذه أمثلة ترينا مدى الحرية الدينية التى تمتع بها الأقباط فى ظل الحكم العربى . ويمجد بنا أن نشير أيضاً إلى أن الأقباط ظلوا يحتفلون بأعيادهم الدينية التى يمددها لنا المقرئى^(٤) فى خططه . ولم نعرف أن العرب فعلوا شيئاً يحد من حرية الأقباط فى احتفالاتهم الدينية بتلك الأعياد ، وإن كان ولاية مصر فى ذلك العهد لم يشتركوا فى الاحتفالات الرسمية بهذه الأعياد كما كان يحدث

(١) قبة الهواء هذه هى التى بناها والى مصر حاتم بن مرثمة (١٩٤ — ١٩٥ هـ) فوق سفح المقطم ليقيم فيها ونوضمها الآن القلعة الحالية تقريباً . أبو الحسن ج ٢ ص ١٤٤ و Wiet : Hist. de la Nation Egypt. t. IV, p. 65

(٢) الولاية والقضاة ص ١٣٢

(٣) ساويرس ص ١٤٩

(٤) الخطط ج ١ ص ٢٦٤ — ٢٦٩

مثلا في عهد الأخشيديين والخلفاء الفاطميين^(١) ولعل السبب في ذلك هو أن مصر كانت جزءاً من الخلافة فلم يحرص الولاة على أن يتقربوا للشعب بعكس الأخشيديين الذين كانوا يتقربون إلى الشعب ليعاونهم في استقلالهم عن بغداد كذلك كان الفاطميون يتوددون إلى الشعب كي يتقربوا به ضد خلافة بغداد . أما المصريون المسلمون فلم يجدوا غضاضة في ذلك لأن الكثير منهم كان من أصل قبلي . وربما اكتفى ولاة مصر في ذلك العهد بمشاركة الأقباط في الاحتفال بوفاء النيل كل عام ، ذلك الاحتفال الذي ظل منذ عهد الفراعنة إلى الآن لأن النيل مصدر ثروة مصر ورخائها . وطبعاً كانت هذه الاحتفالات تختلف من حيث البهجة والمظمة باختلاف الأزمنة ومن أقدم ما نعرفه عن هذه الاحتفالات في العهد الإسلامي ما كتبه ابن رسته في كتابه الذي ألفه سنة ٢٩٠ هـ^(٢) .

ويذكر ابن عبد الحكم^(٣) ومن نقل عنه من المؤرخين^(٤) أنه لما فتح عمرو بن العاص مصر أتى أهلها إليه في شهر بؤونه فقالوا له . « أيها الأمير إن لنيلنا هذا سنة لا يجرى إلا بها فقال لهم : وما ذلك . قالوا : إنه إذا كان لانتني عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بكر بين أبيها فأرضينا أبيها وجعلنا عليها من الحلى والثياب أفضل ما يكون ثم ألقيناها في هذا النيل . فقال لهم عمرو إن هذا لا يكون في الإسلام وأن الإسلام يهدم ما قبله .

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ١ طبعة مصر س ٢١٢ - ٢١٣ ، خطط

المقريزي ج ١ ص ٢٦٤ - ٢٦٩ p. 148 Précis t. 11

(٢) الاعلاق النبوية ص ١١٦

(٣) فتوح مصر طبعة توري س ١٥٠ - ١٥١

(٤) ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ص ٦٥ ، القلقشندي : سبح الأعمى ج

٣ ص ٢٩٥ وخطط المقريزي ج ١ ص ٥٨ وأبو الحسن ج ١ ص ٣٥ - ٣٦

فأقاموا بؤونه وأيبب ومسرى لا يجرى قليلا ولا كثيراً حتى هموا بالجلاد
فلما رأى ذلك عمرو كتب إلى عمر بن الخطاب فكتب إليه عمر : قد أصبت .
إن الإسلام يهدم ما كان قبله وقد بعثت إليك ببطاقة فألقها في داخل النيل
إذا أتاك كتابي فلما قدم الكتاب على عمرو فتخ البطاقة فإذا فيها « من
عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل أهل مصر أما بعد فإن كنت تجرى من
قبلك فلا تجر وإن كان الله الواحد القهار الذي يجريك فنسأل الله الواحد
القهار أن يجريك » فألقى عمرو البطاقة في النيل قبل يوم الصليب^(١) يوم
وقد تهبأ أهل مصر للجلاد والخروج لأنه لا يقوم بمصلحتهم فيها إلا النيل
فأصبحوا يوم الصليب وقد أجراه الله ستة عشر ذراعاً في ليلة وقطع تلك
السنة السوء عن أهل مصر .

هذه الرواية انفرد بذكرها ابن عبد الحنكم ثم نقل عنه المؤرخون . على
أنه لا يعقل أن تبقى المسيحية على مثل هذه العادة إن كانت قد وجدت في عهد
الفراعنة وقد ثبت أيضاً أن الفراعنة لم يتبعوا هذه العادة وهي إلقاء فتاة مزينة
على قيد الحياة في النيل . ومسألة « عروس النيل » معروفة منذ القدم ؛ ولكن
المؤرخين الإسلاميين اعتبروها حقيقة لا مجازاً . والحق أن المصريين في العصر
القديم كانوا يزجون تماثيل النيل بتماثيل عروسه^(٢) فالسألة كانت مسألة
رمزية لاحقيقية . إذ كان الشعب المصرى في كل العصور يرى من الواجب
عليه أن يقدم هدية ثمينة إلى نهر النيل الذى يجلب لبلاد الخيرات الواسعة .

(١) عيد الصليب كان يحتفل به الأقباط في يوم ١٧ توت (خطط المقيري ج ١ ص ٢٦٦)
ويذكر الأستاذ فييت أن المسيحيين جعلوا للاحتفال بالنيل معنى دينياً فكانت الكنيسة
تحتفل في يوم ١٧ توت الذى كان يوافق ١٢ سبتمبر قبل الإصلاح الجمهورى في القوم
بذكرى إغلاء الصليب المقدس Hist. de la Nation Egypt. t. IV. pp. 177-178

ونعرف أن الأقباط في مصر كانوا يحتفلون بمييد الشهيد في اليوم الثامن من بشنس ويزعمون أن النيل لا يزيد في كل سنة حتى يلقوا فيه تابوتاً من خشب فيه أصبع من أصابع أسلافهم الموتي، وليكن هذا العيد أبطل في عهد السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون (٧٠٢ - ٧٣٨ هـ) ثم ألغى نهائياً في سنة ٧٥٥ هـ^(١) :

وفي عهد الولاية الذي نتحدث عنه كان المسلمون يشتركون مع الأقباط في الصلاة من أجل النيل إذا ما أتى النيل ناقصاً في موعد فيضانه بحيث تصبح مصر في خطر من قلة المياه، فكان المسلمون يصلون صلاة الاستسقاء كذلك كان الأقباط يصلون من أجله ففي ولاية حفص بن الوليد الثانية لي مصر من قبل هشام بن عبد الملك حدث قحط بمصر فاستسقى حفص بالناس ودعا الله سبحانه وتعالى وصلى^(٢). ويذكر ساويرس^(٣) أن المسلمين والأقباط صلوا من أجل النيل عندما نقصت مياهه في ولاية أبي عون على مصر (١٣٢ - ١٣٦ هـ).

وقد انتصر المسلمون لليعاقبة القبط على الكنيسة المملوكية فاسترد اليعاقبة أو أخذوا عدداً من الكنائس والأديرة التي كانت في يد أعدائهم المملوكيين. كما اتهموا فرصة حسن علاقتهم بالمسلمين لكي يجذبوا إلى مذهبهم كثيراً من المملوكيين^(٤) بل حدث في عهد قرّة بن شريك أن فرض على المملوكيين جزية مضاعفة^(٥).

(١) خطط الميرزى ج ١ ص ٦٨ - ٧٠

(٢) أبو الهاسن: النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٩١

(٣) سير الآباء البطركية ص ١٩٤ - ١٩٦ (٤٧).

(٤) انظر سعيد بن بطريق: التاريخ ج ٢ ص ٤٥ - ٤٦ وابن السيد:

تاريخ المسلمين ص ٨٣ - ٨٤.

(٥) Becker: Historischen Studien pp. 864-865, Wiet: Art. Kibt p.399

أى أنه أصبح مضيقا على المسكانيين كما ضيقوا هم على الأقباط قبل الفتح . ولم يتمتع المسكانيون ببعض الحرية إلا في فترات معينة . ففي خلافة يزيد ابن معاوية استطاع تاووزوروس أحد أتباع المذهب المسكاني في مصر — بعد أن قدم أموالا طائلة للخليفة — أن يتسلط على الإسكندرية وصرىوط وكل ما يليها كما سيطر على البطرك أغاثون وألزمه بدفع جزية سنوية مقدارها ستة وثلاثون دينارا سنويا كما ألزم البطركية اليمقوبية بالإنفاق على الأسطول^(١) كذلك نجد الخليفة هشام بن عبد الملك — على أثر الاتفاق الذي حدث بينه وبين الأمباطورية البيزنطية^(٢) — يرسل إلى عبيد الله بن الحبحاب يأمره بأن يسلم للمسكانيين كنائسهم التي كانت في يد اليعاقبة كما نصب بطركا لهم بعد أن كانوا قد أقاموا بغير بطرك منذ الفتح^(٣) كذلك عندما نجح بليطيان — البطرك المسكاني في مصر — في تطيب جارية للرشيد وهب له الخليفة مالا كثيرا وكتب له منشورا ليسترده كنائس المسكانيين التي تغلب عليها اليعاقبة فاسترد بليطيان من اليعاقبة كنائس كثيرة^(٤) .

ولم ينكر أحد زمن الفتوحات الإسلامية التسامح الديني الذي جرى عليه العرب في معاملتهم لأهل الذمة . وليس أدل على ذلك مما كتبه أحد الأساقفة النسطوريين بعد بدء الفتوحات العربية بنحو خمسة عشر عاما إذ قال : « إن العرب الذين وهبهم الله السيادة في أيامنا قد أصبحوا سادة لنا ولكنهم لا يحاربون الدين المسيحي قط بل يحافظون على ديننا ويحترمون

(١) ساورس ص ٥ — ٦ (T.V.)

(٢) Wiet : Hist. de la Nation Egyptienne t. IV p. 58

(٣) سعيد بن بطريق : التاريخ ص ٤٥ — ٤٦ ، ابن العسدي : تاريخ المسلمين

ص ٨٣ — ٨٤

(٤) ابن أبي أصيبعة : طبقات الأطباء ج ١ ص ٨٣

الأساقفة والقسيسين ويقدمون هدايا لكنائسنا وأديرتنا^(١) وهكذا نرى أن العرب تركوا القبط أحرارا في دينهم وفي ثقافتهم وجعلوا لهم نصيبا وافرا في إدارة بلادهم . على أن الأقباط كانوا عرضة أحيانا لبعض المضايقات التي حلت بمضهم على ترك دينهم كي يتخلصوا منها ويصبحوا على قدم المساواة مع المسلمين . فالعرب كانوا يشعرون بعد هذه الفتوحات العظيمة بتفوق شعبهم على الشعوب الأخرى كما كانوا يمتزون بغلبة دينهم على الأديان الأخرى . ولم تكن هذه النزعة قوية في السنوات الأولى للفتوحات العربية حينما كانت تغلب عليهم روح البساطة والتواضع ، ولكنها سرعان ما ونحت بعد غلبتهم على الشعوب الأخرى ، كما حدث للرومان من قبلهم . وليس أدل على هذه الروح الجديدة مما ذكره القريزي^(٢) عن معاوية بن أبي سفيان فقد أترعنه أنه قال : « وجدت أهل مصر ثلاثة أصناف فثلث ناس وثلث يشبه الناس وثلث لا ناس فأما الثلث الذين هم الناس فالعرب والثلث الذين يشبهون الناس فالوالي وثلث الذين لا ناس المسألة يعني القبط » .

وقبل أن نسردهم بعض ما كان يحدث للأقباط من مضايقات وشدة يجب أن نقول إن هذه المضايقات التي كانت تقع على أقباط مصر لم تكن دائمة وإنما حدثت في فترات متقطعة كما أنها لم تكن ذات بال إذا قورنت باضطهاد المسيحيين في مصر أيام الإمبراطور الوثني دقلديانوس^(٣)

(١) Wtet Précis t.11 p. 181 (٢) خطط ج ١ ص ٥٠

(٣) تحول مسز بتصرف في كتابها تاريخ الأمة القبطية وكتبتتها ج ٢ ص ١٠٤ « أن الأقباط منذ الفتح العربي ظلوا يذوقون من العرب من العذاب ويسامون أنواع الظلم والفساد ويضطهدون اضطهاداً لا ينكر بجانبه اضطهاد دقلديانوس ونيرون » ولكنها بالرغم من قولها هذا لم تذكر حادثة واحدة قام بها العرب ضد الأقباط تقارن باضطهادات دقلديانوس للمسيحيين . وقد عرض الأستاذ فليت هذه المسألة في مقاله عن القبط ، في دائرة المعارف الإسلامية ، عرضا يمتاز بالإنصاف والدقة العلمية .

(٢٨٤-٣٠٥ م) أو باضطهادهم أيام الإمبراطور هرقل المسيحي . كذلك لم تكن تلك المضايقات أيام العرب لتقارن مثلاً باضطهاد كاثوليك أسبانيا للبروتستنت والمسلمين واليهود ولا تزال ذكرى محاكم التفتيش في اسبانيا باقية ما بقى التاريخ . ولنتعرض الآن بمض هذه المضايقات في العهد العربي ففي ولاية عبد العزيز بن مروان على مصر نراه يهتم اهتماماً بالغا بتعرف العلاقات التي كانت بين بطركية مصر وبين الحبشة والنوبة على أثر ما كتبه البطررك إلى ملكي الحبشة والنوبة ليزيل سوء التفاهم الذي كان بينهما . ذلك أن قوماً من أهل السمايات وشوا بالبطرك لدى عبد العزيز حتى ساء ظنه به ولشدة غضبه أمر بكسر جميع الصليبان التي في مصر وكتب عدة رقاع أمر بوضعها على أبواب الكنائس وفيها « محمد رسول الله ^(١) » .

وكان الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان يبي كثيراً من أمور مصر في ولاية أبيه ولكنه كما يقول ساويرس ^(٢) كان مبغضاً للنصارى سفاكاً للدماء وكان يصحب شماساً اسمه بنيامين كثيراً ما كان يطلعه على أسرار النصارى حتى أنه ترجم له الإنجيل باللغة العربية ، وعدة كتب دينية أخرى وذلك ليعرف المسلمون إذا كان في هذه الكتب ما يحس الدين الإسلامي بسوء .

أى أن العرب بدأوا ينظرون نظرة شك إلى الأقباط وقد دعاهم إلى هذا عدم معرفتهم للغة القبطية . ويحتمل أن التفسير في جعل اللغة العربية ، اللغة الرسمية في مصر يرجع إلى هذا العهد كي يضطر القبط إلى ترك لغتهم التي لم يفهمها العرب ^(٣) وقد حدث فعلاً أن جملة اللغة العربية لغة الدواوين

(١) ساويرس ص ٢٤ - ٢٥ . t.v.

(٢) المرجع نفسه ص ٥٠ - ٥١ .

(٣) Wiet : Hist. de la Nation Egyptienne t. IV. p.43

الرسمية في مصر وذلك في سنة ٨٨٢ هـ (٧٠٦ م) في ولاية عبد الله بن عبد الملك
وفي خلافة الوليد بن عبد الملك (٨٦ — ٩٦ هـ) إذ أمر عبد الله بتدوين
الدواوين في مصر باللغة العربية بحد أن كانت تكتب باللغة القبطية^(١) فجاء
هنا الفصل في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك تنمة لما بدأ الخليفة عبد الملك
ابن مروان في أنحاء الدولة الإسلامية .

ولعل كثيراً من أهل الدمة اضطروا إلى التخلي عن مناصبهم للعرب أو إلى
المصريين الذين تعلموا اللغة العربية . وربما داهم ذلك إلى تعلم اللغة العربية كي
يمودوا ثانية إلى المناصب التي فقدوها . وقد حاول الخليفة عمر بن عبد العزيز
(٩٩ — ١٠١ هـ) لإحلال المسلمين محل المسيحيين حتى في الوظائف
الصغيرة^(٢) ويحدثنا ساويرس^(٣) عن عمر بن عبد العزيز بأنه كان يفعل خيراً
عظيماً أمام الناس ويفعل السوء أمام الله ، إذ أمر بإعفاء الأساقفة والكنايس
من الخراج وحرر المدن التي خربت وأبطل الجبايات^(٤) فماش الأقباط في
أمن وهدوء ، ولكنه ما لبث أن أرسل كتاباً يأمر فيه الأقباط بالتخلي عن
أعمالهم في الدولة ما داموا على دينهم أما من يريد منهم الاحتفاظ بمهله
فليكن على دين محمد . ولهذا سلم الأقباط ما يهدمهم من الوظائف والأعمال إلى
المسلمين . ويقول الكندي^(٥) أنه في خلافة عمر بن عبد العزيز « نزع

(١) الكندي . ص ٥٨ — ٥٩ . والمريزي . خطط ج ١ ص ٩٨ وأبو الحسن
ج ١ ص ٢١٠

(٢) Becker: Historische Studien p. 365

(٣) سير الآباء البطارقة ص ٧١ — ٧٢ . t.v.

(٤) الجبايات معناها الضرائب المستحقة

(٥) الولاة والفضة ص ٦٩

موازيت^(١) القبط عن الكور واستعمل المسلمون عليهم .
وربما أدى قرار عمر بن عبد العزيز لهم إسلام كثيرين إذ ذاك كي لا يتركوا مناصبهم . مع أن القرار ذاته لا يمكن أن يكون قد استمر كثيراً بعد وفاته ؛ لأن الأقباط ظلوا يشغلون كثيراً من مناصب الدولة . وظل بعض الموازيت يختارون من القبط . وحسبنا أن إحدى الأوراق البريدية المعروفة في هيدلبرج وتاريخها سنة ١٧١ هـ فيها اسم مازوت قبطي^(٢) .
وقد أمر الخليفة يزيد بن عبد الملك (١٠١ - ١٠٥ هـ) في سنة ٨١٠٤ هـ بكسر الصليبان في كل مكان وبمحو الصور والتماثيل التي في الكنائس^(٣) .
ولذا يرى ساويرس^(٤) يصفه بأنه سلك طريق الشيطان وحاد عن طرق الله .
وفد شمل هذا القرار اللا إيقوني (أو حركة كسر الصور) جميع بلاد الدولة الإسلامية وكان من نتائج هذه الحركة في مصر أن كبرت التماثيل والصليبان وعميت الصور ولم تنج في هذه الحركة بعض الآثار الفرعونية من الهدم والتخريب^(٥) .

ويظهر أن تلك الحركة ساءت المصريين كثيراً لأنها لا تتفق ومذهبهم الديني وقد حدث بعد ذلك بنحو مائة عام أن احتج بطرك اليعاقبة في مصر

(١) موازيت أي رؤساء القرى هي القراءة الصحيحة لهذه الكلمة وليست

موازيت كما جاء خطأ في طبعة كتاب الكندي

(٢) Papyri Schott Reinhardt Inv. 481

(٣) الكندي ص ٦١ . ساويرس ص ٧٣ ، T.V. ، خطط القرين

ص ٢٤٩٣

(٤) سير الآباء البطارقة . ص ٧٢

(٥) الدكتور زكي محمد حسن : الفنون الإيرانية في العصر الإسلامي ص ٨٢ ،

وأحمد تيمور باشا وزكي محمد حسن : التصوير عند العرب ص ١٣٠ - ١٣١

Wiet : Hist. de la Nation, Egypt. t. IV. pp. 55, 56.

ضد الامبراطور تيوقيل بن ميخائيل (٨٢٩-٨٤٢ م = ٢١٤-٢٢٨ هـ)
في مشروعه اللايقوني وناظره فيه^(١).

ويجدر بنا أن نشير إلى أن الأمبراطور البيزنطي ليو الأيسوري أصدر
قراراً بحظر الصور والتماثيل الدينية مشابها لقرار يزيد بن عبد الملك وبعد
قراره بنحو أربع سنوات أعني في سنة ٧٢٦ م (١٠٨ هـ). ويحتمل أن
الدولة البيزنطية كانت متأثرة في ذلك بجارتها الدولة الإسلامية^(٢).

وقد أصاب أقباط مصر كثير من الأذى أثناء الفتن التي قامت من أجل
النزاع حول الخلافة. فعند ما أتى الخليفة مروان بن محمد هاربا إلى مصر،
عاث جنده في البلاد فساداً فقتلوا جماعة من رجال الدين ونهبوا أموالهم
وسبوا نساءهم كما أحرقوا ديارات عدة وهدموا كثيراً من الكنائس واعتدوا
على كثير من الراهبات^(٣) وفي أيام الفتنة بين الأمين والمأمون اعتدى على
الأقباط في الإسكندرية وأحرقت مواضع عديدة لهم كما أحرقت ديارات وادي
النطرون ونهبت فلم يبق بها من رهبانها إلا نفر قليل^(٤).

وعند ما بنى الخليفة المتوكل مقياساً للنيل في جزيرة الروضة (سنة
٢٤٧ هـ) أمر بمزل النصارى عن قياسه، فعين يزيد بن عبد الله التركي (والى
مصر من قبله) للإشراف على المقياس أبا الرِّدَاد المُسْتَلَم وكان من أهل البصرة
ثم قدم مصر وحدث بها. وكان يتقاضى سبعة دنانير كل شهر نظير قيامه

(١) خط الميرزى: ج ٢ ص ٤٩٤

(٢) Michel le Syrien, t. 2 p 491 وأحمد تيمور باشا والدكتور زكي محمد

حسن: التصوير عند العرب ص ١٣٠

(٣) ساويرس ص ١٦٣ — ١٦٤، أبو صالح الأرمي ص ٩٧، ١٠٧ —

١٠٨، ابن العميد ص ٩٩، خط الميرزى ج ٢ ص ٤٩٣

(٤) خط الميرزى ج ٢ ص ٤٩٣

بقياس النيل . ولم يزل المقياس في يده حتى توفى سنة ٢٢٦ هـ ثم صار في يد أولاده من بعده حتى عصر الماليك^(١) .

على أن هنالك أموراً كان يجب على أهل الذمة إتباعها من حيث بناء الكنائس ومن حيث لباسهم وزينهم والدواب التي يركبونها وغير ذلك مما يميز بينهم وبين المسلمين من الناحية الاجتماعية والأدبية . ولنستعرض الآن بعض آراء الفقهاء فيما يختص بذلك ثم نرى ما حدث فعلاً في مصر . فيذكر أبو يوسف^(٢) أنه ينبغي أن تحتم رقابهم في وقت جباية جزية رؤوسهم حتى يفرغ من عرضهم ثم تكسر الخواتيم كما فعل بهم عثمان بن حنيف إن سألوا كسرهما وأن يتقدم في أن لا يترك أحد منهم يتشبه بالمسلمين في لباسهم ولا في مركبه ولا في هيئته وأن يجعل في أوساطهم الزنارات^(٣) مثل الخيط الغليظ يعقده في وسطه كل واحد منهم ، وبأن تكون فلانهم مضربة^(٤) وأن يتخذوا على سروجهم في موضع القرايس^(٥) مثل الرمانة من خشب ، وبأن يجعلوا شرك^(٦) نعلهم مثنية ولا يحدوا على حدو المسلمين ، وتمنع نساؤهم من ركوب الرحائل^(٧) ويمنعوا من أن يحدوا بناء بيعة أو كنيسة في المدينة إلا

(١) الكندي ص ٢٠٣ والفلقشندى ج ٣ ص ٢٩٩ ، خطط القرظي ج ١ ص ٥٨ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٣١٠ - ٣١١

(٢) كتاب الحراج ص ٧٢ - ٧٣

(٣) الزنار والزنارة والجمع زنابير ما يشد على الوسط ، أو الحرام الحاس بأهل الذمة Dozy: Dictionnaire des noms des Vêtements p. 28

(٤) مضربة مخيطة بالقطن أي منجدة

(٥) القسّ بوس حشو السرح ، أي قسمة القوس المرتفع من قدام المقعد ومن مؤخره . وما قريوسان والجمع قرايس

(٦) الشرك سير النمل على ظهر القدم

(٧) الرحالة السرج من جلود لا خشب فيه والجمع رحائل

ما كانوا يصلحوا عليه وصاروا ذمة وهي بيعة لهم أو كنيسة فما كان كذلك تركت لهم ولم تهدم ، وكذلك بيوت النيران ، ويتركوا يسكنون في أمصار المسلمين وأسواقهم ، يبيعون ويشترون ولا يبيعون خيراً ولا أخزيراً ولا يظهرن الصلبان في الأمصار ، ولتكن فلانهم طوالاً مضربة .

ويذكر الماوردي^(١) أنه يشترط على أهل الذمة في عقد الجزية شرطان مستحق ومستحب . أما المستحق فستة شروط أحدها أن لا يذكرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بتكذيب له ولا ازدراء . والثالث أن لا يذكرنا دين الإسلام بدم له ولا قدح فيه والرابع أن لا يصيبوا مسلة بزنا ولا باسم نكاح والخامس أن لا يفتنوا مسلماً عن دينه ولا يترضوا لماله ولا دينه . والسادس أن لا يعينوا أهل الحرب ولا يودوا أغنياءهم . فهذه الستة حقوق ملتزمة فتلزمهم بغير شرط وإنما تشتط لإشماراً لهم وتأكيداً لتفليظ المهد عليهم ويكون ارتكابها بعد الشرط نقضا لمهدم .

وأما المستحب فستة أشياء أحدها تغيير هيئاتهم بلبس الغيار^(٢) وشد الزنار والثاني أن لا يعملوا على المسلمين في الأبنية ويكونون إن لم ينقصوا مساوين لهم والثالث أن لا يسمعون أصوات نواقيسهم ولا تلاوة كتبهم ولا قولهم في عزيز والسيح . والرابع أن لا يجاهروهم بشرب خمرهم ولا بإظهار صلبانهم وخنازيرهم . والخامس أن يخفوا دفن موتاهم ولا يجاهروا بنذب عليهم ولا نياحة . والسادس أن يمنعوا من ركوب الخيل عتاقاً

(١) الأحكام السلطانية ص ١٣٨ — ١٣٩

(٢) الغيار علامة أهل القمة كالزنار للمجوس ونحوه

ومجاناً^(١) ولا يمنعوا من ركوب البغال والحمير . وهذه الستة المستحبة لا تلزم بمقد الذمة حتى تشتترط فتصير بالشرط ملتزمة ولا يكون ارتكابهم بمد الشرط تقصراً للمهد لكن يؤخذون بها إجباراً ويؤدون عليها زجراً ولا يؤدون إن لم يشترط ذلك عليهم .

هذا هو رأى اثنين من فقهاء المسلمين فيما يجب أن يكون عليه أهل الذمة من حيث زيهم وملابسهم وما يفعلونه ليمتيزوا عن المسلمين وما يجب عليهم اتباعه إزاء المسلمين وإزاء بناء الكنائس وغير ذلك مما ذكرناه . وأبو يوسف عاش في زمن الخليفة هرون الرشيد أى عند ما كانت الخلافة العباسية في أوج عزها وقوتها . أما الساوردى فقد عاش في عصر انحلال الدولة العباسية . وعادة تنشأ الأشياء أولاً ثم يأخذ الفقهاء والعلماء في بحثها بحثاً نظرياً بحثاً أو بحثاً نظرياً عملياً . فأبو يوسف عند ما يتحدث عن أهل الذمة إنما يريد أن يتبع الخليفة هرون الرشيد قوله الناتج من دراسات لنظم قد اندثرت ولم تعد الخلافة تملك بها . فنراه يخاطب الخليفة بقوله : « فر عمالك أن يأخذوا أهل الذمة بهذا الزى ، هكذا كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه أمر عماله أن يأخذوا أهل الذمة بهذا الزى وقال حتى يعرف زيهم من زى المسلمين^(٢) » .

فهل اتبع مع أهل الذمة في مصر هذه الشروط التى ذكرها أبو يوسف والساوردى ؟ عرفنا مما سبق أن عمرو بن العاص فى صلح بابليون الأول أمن الأقباط ومن يريد أن يدخل فى عهدهم على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وأراضيتهم على أن يدفعوا الجزية حتى يصيروا أهل ذمة ولكنه لم يذكر شيئاً

(١) التناق الخليل الأسيلة والمجان الخليل الغير منسبة

(٢) أبو يوسف من ٧٣

فيا يختص بلباسهم وزيمهم وما يستحدث من الكنائس وغير ذلك مما ذكره أبو يوسف والماوردي . فلم يذكر الطبري أو مؤرخو مصر الإسلامية شيئاً من هذه الشروط الواجبة على أهل الذمة ضمن العهد الذي أعطاه عمرو بن العاص لأهل مصر ولكننا نجد المؤرخين^(١) يذكرّون في موضع آخر أن عمر بن الخطاب كتب إلى عمرو بن العاص « أن يختم في رقاب أهل الذمة بالرصاص وأن يظهروا مناطقهم^(٢) ويجزوا نواصيهم^(٣) ويركبوا على الأكف^(٤) عرضاً ولا يضربوا الجزية إلا على من جرت عليهم المواسي ولا يضربوا على النساء ولا على الولدان ولا يدعوهم يتشبهون بالمسلمين في لبوسهم » .

وهاك نص كتاب من نصارى أهل الشام ومصر إلى الخليفة عمر بن الخطاب يذكرون فيه ما عاهدوا المسلمين به من التزام الحدود ويعقبه زيادات من الخليفة عمر فقد ذكر النويري^(٥) أنه وقف على كتاب « الدر الثمين في مناقب المسلمين ومثالب المشركين » تصنيف محمد بن عبد الرحمن بن محمد الكاتب ونقل منه نص كتاب أرسل إلى عمر بن الخطاب عن أهل الذمة . فقال : قال عبد الرحمن بن عثمان كتبنا إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه في نصارى أهل الشام ومصر . « لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذراريها وأموالنا وأهل ملتنا وشرطنا على أنفسنا

-
- (١) ابن عبد الحكم طبع تورى ص ١٥١ ، خطط القرى ج ١ ص ٧٦ ،
السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٦٣
(٢) تنطق وتنطق وتنطق شد وسطه بمنطقة ، الرأة شدة نطقها على وسطها
(٣) يجزوا نواصيهم يحلقوا نواصيهم والناسية مقدم الشعر أو الرأس
(٤) أكاف الحمار بردعته . جمعها أكفة وأكف
(٥) نهاية الأرب ج ٩ ص ١٣٣٠ — ١٣٣١ (من المخطوط بدارالكتب)

أن لا نحدث في مدائننا ولا فيما حولها ديراً ولا كنيسة ولا صومعة راهب ،
ولا نجد ما خرب منها ولا ما كان في خطط المسلمين وأن نوسع أبوابها
للجارة ولبنى السبيل ، وأن ينزل من مر بنا من المسلمين ثلاث ليال نطعمهم ،
ولا نأوى في كنائسنا ولا في منازلنا جاسوساً ، ولا نكتم عينا للمسلمين ،
ولا نعلم أولادنا القرآن ، ولا نظهر شرعنا ولا ندعو إليه أحداً ، ولا نمنع
أحداً من ذوى قرابتنا الدخول في دين الإسلام إن أرادوا ، وأن نوفر
المسلمين ونقوم لهم في مجالسنا إذا أرادوا الجلوس ، ولا نتشبه بهم في شيء من
ملابسهم في قلنسوة ولا عمامة ، ولا نتسمى بأسمائهم ، ولا نتكلم بكلامهم ،
ولا نركب بالسروج ، ولا نتقلد السيوف ، ولا نتخذ شيئاً من السلاح ،
ولا نحملة معنا ولا نتقش على خواتيمنا بالمرية ، وأن نجز مقدم رؤوسنا ،
ونلزم زينا حيث كنا ، وأن نشد الزنابير على أوساطنا ولا نظهر صلباننا ،
ولا نفتح كنفنا في طرق المسلمين ولا أسواقهم ، ولا نضرب بنواقيسنا في
كنائسنا في شيء من حضرة المسلمين ، ولا نخرج شعابننا ولا طاغوتنا ،
ولا نرفع أصواتنا مع موتانا ، ولا نوقد النيران في طرق المسلمين ولا أسواقهم
ولا نجاورهم بموتانا ، ولا نتخذ من الرقيق ما جرت عليه سهام المسلمين ،
ولا نطلع في منازلهم ، ولا تملو منازلنا منازلهم . فلما أتيت أمير المؤمنين
عمر بالكتاب زاد فيه : ولا نضرب أحداً من المسلمين ، شرطنا ذلك على
أنفسنا وأهل ملتنا وقبلتنا عليه الأمان ، فإن نحن خالفنا في شيء مما شرطناه
لكم علينا وضمننا عن أنفسنا وأهل ملتنا ، فلا ذمة لنا عليكم ، وقد حل بنا
ما حل بغيرنا من أهل الطائفة والشقاق .

قال عبد الرحمن بن عثمان: «وأجمع العلماء بعد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه على أنه متى نقض الذي عهده بمخالفة شرط من هذه الشروط المأخوذة عليهم ، فالأمام غير فيه بين القتل والأسر ويلزمهم مع ذلك أن يتميزوا عن المسلمين في اللباس والزي ولا يتشبهون بهم في أمر من الأمور ويشدون الزنابير في أوساطهم ، ويكون في رقابهم خواتم رصاص أو نحاس أو جرس يدخل معهم الحمام ، وليس لهم أن يلبسوا المهائم والطيلسان^(١) .
وأما المرأة فتشد الزنار من تحت الأزار وقيل من فوق الأزار وهو الأولى ، ويكون في عنقها خاتم رصاص يدخل معها الحمام ، ويكون أحد خفيها أسود ليق مشتهراً ظاهراً والآخر أبيض ويركبون الحير ولا يركبون بالسروج ولا يتصدرون في المجالس ولا يبنون بالسلام ويلجئون إلى أضييق الطرق ويمنعون أن يملوا بناءهم على أبنية المسلمين وتجاوز المساواة ، وقيل لا تجوز ، بل يمنعون ، ويجعل الأمام عليها رجلاً يكتب أسماءهم ويستوفي عليهم ما يأخذون به من هذه الشرائط .

وقال أبو هريرة . « أمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه بهدم كل كنيسة استجدت بعد الهجرة ، ولم يبق إلا ما كان قبل الإسلام وسير عمرو بن محمد فهدم الكنائس بصنماء وصانع القبط على كنائسهم بحصر وهدم بعضها ولم يبق من الكنائس إلا ما كان قبل بمثة النبي صلى الله عليه وسلم » .

(١) ولكن من المتندر أن ثبت تماماً أن هذا التمييز بين المسلمين وأهل القمعة في الزي يرجع إلى عصر عمر . فإن المراجع التي تشير إلى هذا متأخرة بعض الشيء . ولعلها سجل ما كان متباً في العصر العباسي . ومن ثم فقد ذهب بعض العلماء إلى أن هذه التفرقة ظهرت في عصر هارون الرشيد . انظر مادة « غيار » في دائرة المعارف وبلغة « قبط » للأستاذ عميت في المرجع نفسه

وهكذا يظهر أنه منذ عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه اشترط على أهل الذمة شروط خاصة أهمها ما يتعلق بزيتهم ولباسهم كي يتميزوا عن المسلمين . كذلك منعوا من بناء كنائس أو أديرة أو صوامع مستحدثة ومن تجديد ما خرب منها .

لكن مؤرخى مصر الإسلامية وإن كانوا قد ذكروا ذلك إلا أنهم لم يذكروا إلى أى حد اتبعت تلك الشروط ونفذت مع أهل الذمة والأرجح أن الخلفاء فى فجر الإسلام لم يلزموا أهل الذمة بتنفيذها لأننا رأينا أن هناك كنائس وأديرة بنيت فى مصر فى العهد الإسلامى كما جدد بناء كنائس أخرى . ويذكر ابن عبد الحكم^(١) أن أول كنيسة بنيت فى فسطاط مصر كانت أيام مسلمة بن مخلد (٤٧ - ٦٣ هـ) ولكن الجند أنكروا عليه ذلك وكهوت تقع فتنة بينه وبينهم .

على أننا نجد الخلفاء أو الولاة يأمرون أحيانا بإقفال حانات الخمر وبهدم الكنائس المستحدثة بعد الإسلام . فى ولاية أيوب بن شرحبيل على مصر (٩٩ - ١٠١ هـ) عطلت حانات الخمر وكسرت بأمر أمير المؤمنين عمر ابن عبد العزيز^(٢) وفى ولاية على بن سليمان العباسى فى مصر (١٦٩ - ١٧١ هـ) من قبل الخليفة الهادى ثم الرشيد منع الملاحى والخمر وهدم الكنائس المحدثه بمصر .

وكتب الكندى أن نصرانيا بمصر سب النبي صلى الله عليه وسلم فى ولاية على بن سليمان وكان قاضى مصر إذ ذاك المفضل بن فضالة ، فكتب فيه

(١) فتوح مصر طبعه تورى ص ١٤٢

(٢) الكندى ص ٦٨ وأبو الحسن ج ١ ص ٢٣٨

فجر الإسلام - (١٤)

المفضل بن فضالة إلى مالك بن أنس رحمه الله يسأله عن قتله فكتب مالك يأمر بقتله وثم هذا القتل^(١). ولسنا ندري هل كان القضاة مكلفين باستشارة أهل الفتوى أم أن القاضى استشار الإئام فى هذه المسألة خوفاً من أن ينفرد برأيه فيها لخطورتها .

وقد تهاون معظم الخلفاء فى تنفيذ الشروط التى ينسب إلى عمر بن الخطاب أنه ألزم أهل الذمة باتباعها . كما أصدر بعض الخلفاء شروطاً مثلها بعضها يخص أهل الذمة فى جهة معينة وبعضها يخص أهل الذمة فى جميع أنحاء الدولة الإسلامية . ومن بينها مصر . فيذكر أبو يوسف^(٢) أن عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١ هـ) كتب إلى عامل له . « أما بعد فلا تدعن صليبا ظاهرا إلا كسر ومحق ، ولا يركبن يهودى ولا نصرانى على سرج ولا يركب على إكاف ، ولا تركبن امرأة من نسايتهم على رحالة ، وليكن ركوبها على إكاف ، وتقدم فى ذلك تقدما بليغا وامنع من قبلك فلا يلبس نصرانى قباء^(٣) ولا ثوب خز^(٤) . ولا عصب^(٥) » وقد ذكر لى أن كثيرا ممن قبلك من النصارى قد راجعوا لبس الماهم وتركوا المناطق على أوساطهم واتخذوا الجمام^(٦) والوفر ، وتركوا التقصيص . ولمعنى لئن كان يصنع ذلك فيما قبلك إن ذلك بك لضئف ومجيز ومصانعة ، وإنهم حين يراجعون ذلك

(١) الكندى ص ٣٨٢

(٢) كتاب الخراج ص ٧٣

(٣) القسباء — ثوب يلبس فوق الثياب . الجمع أقبية والقباء كالفرجية فى أيامنا ويلبس تحته الجبية (Dozy : Dictionnaire des Vêtements p 852)

(٤) الخز — الحرير . ما نسج من صوف وحرير . الجمع خزوز

(٥) العصب — العمامة . والعصبة والعصابة ربما كانت تسمى قديماً ثوباً

من العمام (Dozy : op. cit. p. 300-301)

(٦) الجلمة — مجتمع شعر الرأس . الجمع جم ، والجملة معظم الصبء أو الكثير منه

ليعلمون ما أنت ، فانظر كل شيء مهيت عنه فاحسم عنه من فعله والسلام »
ولا يذكر أبو يوسف العامل الذي وُجِّه إليه هذا الكتاب ؛ ولكننا نتبين
منه أن عمر بن عبد العزيز شعر في عهده أن الشروط التي كان أهل الذمة قد
أزموا باتباعها تقضت فأراد إلزامهم بها ثانية . ولا نعرف إذا كانت مصر
في ذلك الحين قد شملها هذا القرار أم لا . ولكن يظهر أن أوامر عمر بن
عبد العزيز شملت أنحاء الدولة الإسلامية وإن لم يذكر لنا مؤرخو مصر
الإسلامية ذلك ، فقد رأينا أن هذا الخليفة أمر بتعطيل حانات الخمر في مصر
كما أمر بعزل الأقباط عن تولى مناصب الدولة ولا نستبعد أن تكون شروط
تمييز أهل الذمة عن المسلمين في زبيهم وركوبهم قد روعيت تماما في عهده
ولا أدل على مبلغ كراهية نصارى مصر له من تلك الكلمات التي يصفه
بها ساويرس^(١) إذ يقول إنه كان يصنع خيرا عظيما أمام الناس ويفعل السوء
أمام الله .

وقد جاء في الطبرى أن الخليفة هرون الرشيد أمر (١٧٠ - ١٩٣ هـ)
في سنة ١٩١ هـ بهدم الكنائس بالثغور وكتب إلى السندي بن شاهك يأمره
بأخذ أهل الذمة بمدينة السلام بمخالفة هيئتهم هيئة المسلمين في لباسهم
وركوبهم^(٢) .

وكانت أوامر الرشيد كما يظهر من النص قاصرة على كنائس الثغور
وعلى أهل الذمة ببغداد أى أن مصر ومعظم الدول الإسلامية لم تدخل
ضمن هذا القرار . ولا نعرف إذا كان الرشيد في أوامره هذه أراد أن يجدد
ما ينسب إلى عمر بن الخطاب أو أن ذلك كان بمثابة رد على اعتداء الدولة

(١) سير الآباء البطارقة ص ٧١ (Patr. Orient. t. V.)

(٢) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ١٠ ص ١٠٠

البيزنطية على الثغور الإسلامية ونحن نرجح الرأى الثانى لأن الرشيد عرف بالتسامح ، كما بنيت فى عهده عدة معابد مسيحية فى بيت المقدس على نفقة الامبراطور شارلمان الذى كان محالفا للخليفة الرشيد (١) .

ويظهر أن أقباط مصر أو أهل الذمة على وجه الاجمال من أقباط ويهود وغيرهم ، لم يضيق عليهم فى الزى والركوب وبناء الكنائس وغير ذلك مما ينسب بدهءه إلى عمر بن الخطاب أو عمر بن عبد العزيز إلا فى النادر . إلى أن جاء الخليفة المتوكل على الله العباسى (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ) . ففى سنة ٢٣٥ هـ « أمر المتوكل بأخذ أهل الذمة بلبس الطيالة المليية والزنانير وركوب السروج بركب الخشب وبكون السروج كهيئة الأكف ، وعلى رؤوسهم القلائس المختلفة الألوان ، وأن تخطيط الرقاع على ظهورهم وصدورهم كل رقعة قدر أربع أصابع ولونها عسلى ، وأزر نسائهم عسلى ، وملبس مما ليكهم مثلهم ويمنعوا من لبس المناطق وهم بيمينهم المحدثه ، وأخذ العشر من منازلهم فان كان الموضع واسما صير مسجدا وأن كان لا يصلح أن يكون مسجدا صير فضاء وأمر أن تجعل على باب دورهم أساطين (٢) وقيل شياطين من خشب مسمورة تفريقا بين منازلهم ومنازل المسلمين ، ونهى أن يستعان بهم فى الدواوين وأعمال السلطان التى تخالف أحكامهم فيها أحكام المسلمين ونهى أن يتعلم أولادهم فى كتاتيب المسلمين وأن يملهم مسلم ، ونهى أن يظهروا فى أعيادهم وشمانينهم صليبا وأمر أن تسوى قبورهم بالأرض لثلا تشبه قبور المسلمين وكتب الكتب إلى عماله فى الآفاق بذلك . (٣)

G. Wiet: Hist. de la Nation Egypt. t.IV. p. 25 (١)

(٢) الأسطوانة : السود والجمع أساطين

(٣) بيبس الدوادار — زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ج ٤ ص ١٧٣ ب

— ١١٧٤ وخطط القرزى ج ٢ ص ٤٩٤

« ثم أمر أهل الذمة في سنة ٢٣٩ هـ بلبس دراعتين^(١) عسليتين على الدرايع والأقبية ، وبالاقتصار في مراكبهم على ركوب البغال والحير دون الخيل والرازين^(٢) »

ولم تكن أواخر التوكل جديدة ، وإنما كانت تجديداً لما سبق كما رأينا . فالذميون ألزموا قبله بأمور تميزهم عن المسلمين في الزي والركوب وبشروط خاصة ببناء الكنائس وغير ذلك مما ذكرنا . ولكن الخلفاء وولاتهم في مصر كانوا يتساهلون في تنفيذها في معظم الأحيان . وقد حدث في عهد هرون الرشيد أن ولي القضاء محمد بن مسروق الكندي ، وتحامل على أهل مصر فأمنوا في الطمن فيه ، ودعوا عليه في المساجد . فوقف على باب المقصورة وصاح قائلاً : « أين أصحاب الأكسية المسلية ، أين ... ؟ لم لا يتكلم متكلم بما شاء حتى يرى ويسمع ؟ فما تكلم أحد بكلمة^(٣) » . وربما قصد القاضي بقوله « أصحاب الأكسية المسلية » التحقير من شأن أهل الذمة الذين انحدر منهم المصريون المسلمون .

ولكننا نلاحظ على وجه الإجمال أن هذه الأوامر كانت تنفذ في حين صدورها بدقة ، ولكن التمسك بها كان يقل تدريجياً ، وكثيراً ما كان يتسامح مع أهل الذمة في بناء الكنائس وفي الاحتفال بأعيادهم . بل نجد الخلفاء في عصر متأخر يشاركون أهل الذمة في الاحتفال بأعيادهم الدينية . ومما يشهد بهذا التسامح أننا نقرأ في كتاب أحد بطاركة بيت المقدس بعد المراسم التي أصدرها المتوكل بنعمو عشرين سنة ، أي في سنة ٨٦٩ م .

(١) الدرعة والجمع دراريع جبة مشقوفة المقدم

(٢) البرزون — الترك من الخيل

(٣) الكندي : الولاة والقضاة ص : ٣٩

(٢٥٥ - ٢٥٦ هـ) - ما نصه « إن المسلمين يظهرون كثيراً من العطف نحونا بالسماح لنا ببناء كنائسنا » .

"Multam Benevolentiam ostendunt (Saraceni) in nos, licentiam nobis praebentes aedificandi ecclesias nostras."^(١)

والواقع أن العصبية الدينية تغلبت على العرب بعد الفتح وتطلب عليهم الشعوب بهزمتهم وتفوقهم على غيرهم من الشعوب بعد أن أنشأوا إمبراطوريتهم الإسلامية بحد السيف فرأوا أن يتميزوا عن غيرهم في اللباس والزي والركوب وغير ذلك مما يشمر في الوسط الاجتماعي بأنهم هم السادة وغيرهم دونهم . كما أنهم ، وقد أصبحت البلاد التي فتحوها ملكاً للمسلمين ، رأوا أن ليس عليهم أن يبنوا كنائس فيها ، ويكفهم أن يبقوا على ما وجدوه منها ، والألا يتدخلوا في شئون أهل الذمة الدينية .

وربما كانت هذه الامتيازات الاجتماعية والأدبية للمسلمين على أهل الذمة سبباً كما قلنا في أن كثيراً من المسيحيين أقدم على اعتناق الدين الإسلامي ، ولا يمكننا القول بأن إسلام هؤلاء الذين يريدون التخلص من تلك المضايقات كان صحيحاً ؛ ولكن ذريتهم كانت تنشأ في الوسط الإسلامي فيعتزون بدينهم الإسلامي ويندمجون في الجماعة الإسلامية تماماً .

وقد كتب المستشرق آدم متر^(٢) أن مسألة ختم رقاب أهل الذمة عادة قديمة ترجع إلى عصر الآشوريين الذين كانوا يملقون في رقاب العبيد قطعة من الفخار اسطوانية مكتوباً عليها اسم العبد واسم سيده . وكان اليهود في عهد التلمود يملقون عبيدهم بالختم على الرقبة أو الثوب . وفي سنة ٥٠٠ بعد الميلاد كان حاكم مدينة إلرها يملق إلى رقبة الفقراء الذين يأخذون

Wiet : Hist. de la Nation Egypt. t. IV. p. 25 (١)

(٢) الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٧٧

رطل خبز كل يوم قطعة من الرصاص مختومة
ويظهر ان عادة ختم الرقاب أو الذراع لم تكن مستهجنة ولم تكن
موجبة للعار في العصور الوسطى إذا ما اتبعت مع أصحاب الطبقات الوضيعة
ويذكر ابن بطوطة (١) في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي)
عند وصفه لمدينة دمياط أنه « إذا دخلها أحد لم يكن له سبيل إلى الخروج
عنها إلا بطابع الوالي ، فمن كان من الناس معتبراً طبع له في قطعة كاغد
يستظهر به لحراس بابها ، وغيرهم يطبع على ذراعه فيستظهر به » .
وهكذا يرى أن أهل النمة هم ملوا ممامة الطبقات الدنيا مهما كانت
رتبهم أو سراكرم في الدولة مما حمل الكثير على الرغبة في التخلص من
تلك المضايقات .

الأوقاب والنظام المالي

كانت سياسة الخلفاء بوجه عام ترى إلى استغلال مصر استغلالاً منظماً ،
وإن اختلف بعضهم عن البعض الآخر من حيث درجة الاستغلال ، إذ بينما يرى
بعض الخلفاء أو ولائهم يشتط في جمع الضرائب ترى البعض الآخر يرى
أن من مصلحة الراعي أن يقص صوف غنمه وليس من مصلحته أن يسلمها .
وحسبنا أن نشير في هذه المناسبة إلى ما ذكره الماوردي (٢) من أن
« الحجاج كتب إلى عبد الملك بن مروان يستأذنه في أخذ الفضل من أموال
السواد فغنه من ذلك وكتب إليه : لا تكن على درهمك المأخوذ أحرص
منك على درهمك المتروك وأبق لهم لحوماً يقدمون بها شحوماً » فإن هذا

(١) رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ٦٠

(٢) الأحكام السلطانية ص ١٤٣

مثل يربنا كيف كانت سياسة هذا الخليفة ترمي إلى عدم تحميل البلاد فوق ما تحتمل كيلا يجف معينها ويؤثر ذلك على مالية الدولة ولكن بعض الخلفاء لم يراع هذا المبدأ وراحوا يبتزون كل ما تملك البلاد ، ففري الخليفة سليمان بن عبد الملك (٥٩٦ - ٥٩٩ م) يكتب إلى أسامه بن زيد التنوخي متولى خراج مصر « أحلب الدر حتى ينقطع وأحلب الدم حتى ينصرم ^(١) » وقد ظهر اهتمام الخلفاء بثروة مصر عقب الفتح مباشرة ، فيذكر ابن عبد الحكم ^(٢) عن هشام بن أبي رقية اللخمي أن عمرو بن العاص لما فتح مصر قال للقبط : إن من كتمني كنزا عنده فقدرت عليه قتلته . وسمع عمرو بأن أحد أهالي الصعيد يُقال له بطرس عنده كنز فلما سأله أنكر ذلك ، وعندما تبين لعمرو ابن العاص صحة ما سمعه عنه أمر بقتله . فلما سمع بذلك الأقباط أخرجوا كنوزهم خوفاً من القتل . ولا نستطيع أن نتبين من هذا النص هل كان هذا نوعاً من الاغتصاب ، وهذا ما نستنبده وخاصة زمن الفتح ، أو كان الغرض من معرفة الكنوز حساباً ذلك في تقدير الجزية ، أم كان القبط ملزمين بتقديم جزء من كنوزهم للمساهمة في أمور الدولة ولتقدير ما يفرض عليهم من الضرائب الأخرى غير الجزية . كل هذا لا نستطيع استخلاصه من المصادر التي بأيدينا .

ويظهر أن العنصر المالى الرئيسى الذى كان يهتم به العرب هو الجزية . ولذا كانت الجزية سبباً في إسلام كثير من الأقباط الذين أرادوا التخلص منها وهذا طبعاً معناه نقص في دخل الدولة . وربما حدا هذا بالخلفاء إلى مضاعفة مقدار الجزية على من بقى من الأقباط على دينه حتى لقد قيل إن

(١) أبو المحاسن ج ١ ص ٣٣١

(٢) فتوح مصر — طبعة تورى — ص ٨٣

الخليفة عمر بن عبد العزيز أرسل إلى حيان بن سرجح طامله على خراج مصر أن يجعل جزية موتى القبط على أحيائهم^(١) . وإذا كان هذا النص صحيحاً وإذا كان الأقباط الأحياء يكلفون بجزية من مات منهم فلا نستبعد أن يجعلهم الخلفاء يتحملون جزية من أسلم منهم . ولا نستطيع أن نعرف بالتقريب ما هي نسبة نقص الجزية بسبب احتناق الأقباط الدين الإسلامي لأن المؤرخين كثيراً ما يجمعون بين الجزية والخراج فيقال إن عمرو بن العاص جبي من مصر ١٢ مليون دينار وجباها عبد الله بن سعد بن أبي سرح في خلافة عثمان بن عفان ٢٤ مليون دينار وقد سر عثمان بن عفان من ذلك وطاب عمرو بن العاص في هذه الكلمات :

« يا أبا عبد الله درت اللقحة بأكثر من درها الأول فقال عمرو :
« أضرتهم بولدها » ويذكر آخرون أنه قال : « ذلك أن لم يممت الفصيل^(٢) »
ويذكر القرظي^(٣) أن الذي جباه عمرو ثم عبد الله إنما هو من الجحاجم^(٤)
خاصة دون الجراج .

وعندما زاد التحول إلى الدين الإسلامي بلغ خراج الأرض مع جزية
الرهوس في أيام معاوية بن أبي سفيان خمسة ملايين دينار وبلغ في أيام هرون
الرشيد أربعة ملايين دينار وبعد ذلك أصبح ما يجبيه الخلفاء حوالي ٣ ملايين

(١) ابن عبد الحكم . طبعة تورى . ص ١٥٤ وخط المقيزي ج ١ ص ٧٧
يقول الماوردي في كلامه عن أهل الذمة والجزية « ومن مات منهم فيها أخذ من تركته
بقدر ما مضى منها ومن أسلم منهم كان ما لزم من جزيته ديناً في ذمته يؤخذ بها .
وأسقطها أبو حنيفة بإسلامه وموته » الأحكام السلطانية ص ١٣٩
(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر - طبعة تورى ص ١٦١ وخط المقيزي

ج ١ ص ٩٨

(٣) المخطوط ج ١ ص ٦٨

(٤) يقصد بالجحاجم هنا جزية الرهوس

دينار^(١) إذا استثنينا فترات ممسنة .

ونشهد المكاتبات التي دارت بين الخليفة عمر بن الخطاب وعمر بن العاص عقب الفتح مباشرة على مدى الاهتمام بحماية أموال مصر ؛ فمئذ ما بلغ عمر بن الخطاب أن المقوقس جباها قبل عمرو بستة وعشرين مليون دينار وأن عمرو جباها اثني عشر مليون دينار كتب الخليفة إلى عمرو يستبطله في الخراج . وهذا ما دار بينهما من المكاتبات :

كتب الخليفة إلى عمرو يقول : « بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص . سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو . أما بعد فإني فكرت في أمرك والذي أنت عليه فإذا أرضك أرض واسعة عريضة رقيقة قد أعطى الله أهلها عددا وجلدا وقوة في بر وبحر وأنها قد جالجتها الفراعنة وعملوا فيها عملا محكما مع شدة عتوم وكفرهم فمعجت من ذلك وأعجب مما عجبت أنها لا تؤدي نصف ما كانت تؤديه من الخراج قبل ذلك على غير قحوط ولا جذب ، ولقد أكثرت في مكاتبتك في الذي على أرضك من الخراج وظننت أن ذلك سيأتينا على غير نزر ، ورجوت أن تفيق فترفع إلى ذلك فإذا أنت تأتيني بमारيض تصبأ بها لا توافق الذي في نفسي . ولست قابلا منك دون الذي كانت تؤخذ به من الخراج قبل ذلك . ذلست أدري مع ذلك ما الذي أنفرك من كتابي وقبضك ؟ فلئن كنت مجزئا كافئا صحيحا إن البراءة لنافعة ولئن كنت مضيقا نطقا إن الأمر لعل غير ما تحدث به نفسك . وقد تركت أن أبلي ذلك منك في العام الماضي رجاء أن تفيق فترفع إلى ذلك . قد علمت أنه لم يمنك من ذلك إلا أن عمالك عمال سوء وما توالس عليه وتلفف أخذوك كهفا وعندى بأذن الله

(١) اليعقوبي : البلدان ص ٣٣٩

دواء فيه شفاء عما أسألك فيه فلا تجزع أبا عبد الله أن يؤخذ منك الحق وتمطاه فإن النهر يخرج الدر والحق أبلج ودعني وما عنه تلجلج فإنه قد برح الخلفاء والسلام^(١) .

فكتب إليه عمرو بن العاص . « بسم الله الرحمن الرحيم . لعبد الله عمر أمير المؤمنين من عمرو بن العاص . سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو . أما بعد فقد بلغتني كتاب أمير المؤمنين في الذي استبطأني فيه من الخراج والذي ذكر فيه من عمل الفراعنة قبل وإعجابهم من خراجها على أيديهم ونقص ذلك منها منذ كان الإسلام ، ولمعري للخراج يومئذ أوفر وأكثر والأرض أعمر لأنهم كانوا على كفرهم وعتوهم أرغب في عمارة أرضهم منا منذ كان الإسلام وذكرت أن النهر يخرج الدر فليتها حلباً قطع ذلك درها وأكثر في كتابك وأنت وعرضت وثربت وعلت أن ذلك عن شيء تخفيه على غير خبر فحئت لمعري بالمفطعات المقدسات ولقد كان لك فيه من الصواب من القول رصين صارم بليغ صادق وقد عملنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولن بعه فكننا بحمد الله مؤدين لأماناتنا حافظين لما عظم الله من حق أئمتنا نرى غير ذلك قبيحاً والمعمل به سيئاً فيعرف ذلك لنا ويصدق فيه قيلنا ، معاذ الله من تلك الطعم ومن شر الشيم والاجترأ على كل مأثم . فأقبض عملك فإن الله قد زهني من تلك الطعم الدنية والرغبة فيها بمد كتابك الذي لم تستبق فيه عرضاً ولم تكرم فيه أخوا . والله يا ابن الخطاب لأننا حين يراد ذلك مني أشد لنفسي غضباً ولها إزهاها وإكراماً وما عملت من عمل أرى على فيه متملقاً ولكني حفظت ما لم تحفظ

(١) ابن عبد الحكم — طبعة توري — ص ١٥٨ — ١٥٩ وخط القرظي

ج ١ ص ٧٨ والسيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ٦٤

ولو كنت من يهود يثرب ما زدت يفر الله لك ولنا وسكت عن أشياء
كنت بها عالماً وكان اللسان بها منى ذلولا ولكن الله عظم من حقاك ما لا
يجتهد والسلام^(١) .

ولم تقف المكاتبات بين عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص فيما يختص
بالخراج عند هذا الحد . فقد عاود عمر بن الخطاب الكتابة فكتب إلى عمرو
« سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو . أما بعد فقد عجبت
من كثرة كتبتي إليك في إبطائك بالخراج وكتابك إلى بينات الطرق
وقد علمت أني لست أرضى منك إلا بالحق البين ، ولم أقدمك إلى مصر
أجعلها لك طعمة ولا لقومك ولكني ونجيتك لما رجوت من توفيرك
الخراج وحسن سياستك فإذا أتاك كتابي فأحمل الخراج فإنما هو في المسلمين
وعندي من قد تعلم قوم محصورون والسلام^(١) » .

فكتب إليه عمرو بن العاص . « بسم الله الرحمن الرحيم . لعمر بن
الخطاب من عمرو بن العاص . سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله
إلا هو . أما بعد فقد أتاني كتاب أمير المؤمنين يستبطنني في الخراج ويزعم
أنني أعيد عن الحق وأنكب عن الطريق وأني والله ما أرغب عن صالح
ما تعلم ولكن أهل الأرض استنظروني إلى أن تدرك غلثهم فنظرت المسلمين
فكان الرفق بهم خيراً من أن يخرق بهم فيصيروا إلى بيع ما لا غنى بهم
عنه والسلام^(١) » .

هذه الرسائل ترينا إلى أي حد كان التولية يهتم بخراج مصر وأنه كان
يريد أن يجبي مثلها كان يجبيه الروم من قبل . ولذا نجد أن المصريين سرعان

(١) ابن عبد الحكم ، ص ١٥٩ — ١٦١ طبعة توري وخط المقرئ

ج ١ ص ٧٨ و ٧٩ و السيوطي : حسن المحاضرة ص ٦٤ — ٦٥

ما عادوا إلى ما كانوا فيه تحت حكم الروم فوقموا تحت الأعباء المالية الكثيرة التي طلبتها الخلافة وأصبح المطلوب منهم توفير المال اللازم لبيت المال وللمنتفعين من الولاية والموظفين أيضاً . ونلاحظ أن ارتفاع مصر بدخلها في العصر الأموي كان أكثر منه في العصر العباسي لأن الولاية كانوا أكثر استقراراً من ولاية العصر العباسي . أما في العصر العباسي فقد اضطرت الأحوال المالية وذلك لكثرة تغيير الولاية وبسبب إقطاع مصر لبعض قواد الترك أو أولياء العهد فكان همّ الوالي جمع ما يمكن جمعه من المال لنفسه أولاً وللخلافة أو لصاحب الإقطاع ثانياً .

ولنستعرض الآن الفترات التي أشدّت التحول فيها إلى الدين الإسلامي بسبب المشاكل المالية ولنبداً بولاية عبد العزيز بن مروان الذي كان يمثل الخليفة عبد الملك بن مروان في مصر (٦٥ - ٨٦ هـ) .

كان عهد عبد العزيز بن مروان عهد رخاء ويسر في مصر . فقد اهم بترقية شئون البلد وأدخل فيها اسلحات كثيرة . كما عرف بالجوود والكرم وكان يقول . « واهجبا من مؤمن يوقن أن الله يرزقه ويوقن أن الله يخلف عليه كيف يدخر مالا عن عظيم أجر أو حسن سماع^(١) ! » ويقال إنه كان لعبد العزيز بن مروان ألف جفنة كل يوم تنصب حول داره وكانت له مائة حفنة تحمل على العجل ويطاف بها على قبائل مصر . وفي ذلك يقول الشاعر:

كل يوم كأنه يوم أضحى عند عبد العزيز أو يوم فطر
وله ألف جفنة مترعات كل يوم تعدها ألف قدر^(٢)
ولا رب أن مثل هذا الشمر وغيره يشهد بما كان له من جود وافر على

(١) أبو الحسن ج ١ ص ١٧٥

(٢) الكندي ص ٥١ - ٥٢

ما فيه من مبالغة صريحة ليست غريبة عند المؤرخين في العصور الوسطى .
وقد بنيت كنائس عدة في عهد عبد العزيز كما عرفنا سابقاً ، كذلك
جدد عبد العزيز بناء المسجد الجامع وزاد فيه (١) ، كما أنفق مالا كثيراً
في بناء مدينة حلوان ، يقال إنه بلغ مليون دينار (٢) وقد زيدت أعطيات
الجند في عهده (٣) كما اشتركت مصر في القضاء على ثورة عبد الله بن الزبير
وقد تطلب هذا كله كثرة الإنفاق والأموال الكثيرة حتى قيل إن
عبد العزيز بن مروان كان يجي خراج مصر أسبوعياً خوفاً من فتنة تنزل
به يحتاج فيها إلى المال . ولم يزل علي ذلك حتى قتل عبد الله بن الزبير وتم
الأمر لمبد الملك بن مروان (٤)

وكانت نتيجة حاجة هذا الوالي إلى المال أن اتجه إلى شيء لم يتجه
إليه أحد من قبل ، فأمر بإحصاء (٥) جميع الرهبان في كل الكور وفي
وادي النطرون وسائر الأماكن وفرض ديناراً جزية على كل راهب وأمر
ألا يترهب أحد بعد من أحصاه ، وكانت هذه أول جزية أخذت من
الرهبان (٦) . ويقال إنه ألزم أساقفة الكور أن يؤدوا ألفي دينار سنوياً

(١) الكندي ص ٥١

(٢) سعيد بن بطريق : التاريخ ج ٢ ص ٤٠

(٣) الكندي ص ٤٩

(٤) سعيد بن بطريق ج ٢ ص ٤١ Wiet : Histoire de la Nation

Egyptienne p. 47.

(٥) ونذكر هنا أن بعض المخطوطات كان فيها تصحيف في كلمة « أحصى »
أو أن خطأ أدى إلى قراءتها « أنصى » فشاء بعض المستشرقين أن يستنبط منها توحش
المسلمين في هذه المناسبة . ولكن فطن إلى هذا الخطأ مستشرقون آخرون كالاستاذ فيت
في مقاله Kibt في دائرة المعارف الإسلامية . أنظر ساويرس Pat. Orient. t.V. p.51

(٦) ساويرس ص ٥١ (t.V.) وخطط القرظي ج ٢ ص ٤٩٢

Wiet : art. Kibt (Encyclopaedia of Islam) p. 998.

بالإضافة إلى خراج أملاكهم^(١)؛ ويُذكر أن ببيامين الشماس الراهب الذي كان مصاحباً للأصبغ بن عبد العزيز هو الذي كان يحرّضه على كل بلاء ضد الأقباط .

ونحن نعلم أن الرهبنة كانت منتشرة حينذاك ، وقد ساعد على انتشارها ما وقع للمصريين من ظلم واضطهاد زمن الرومان ، ففضل الكثيرون أن يعيشوا في عزلة عن العالم منفردين أو جماعات في أديرة . ولما كان الراهب لا يملك شيئاً ويمتس في عزلة عن العالم ، لذا لم تفرض عليه أية ضريبة . على أن الأديرة التي كانت تزداد كثرة على مر الأيام ما لبث أن وقف عليها أملاك كثيرة وزادت ثروتها ، ولكن الحكومة في عهد الرومان والبيزنطيين لم تكف باعفاها من الضرائب ، بل كانت تدفع لها قدراً معيناً من الإيرادات المالية^(٢) .

فلما فتح العرب مصر حافظوا على ما كان موجوداً قبلهم من التقليد الذي يحرم فرض أية ضريبة أو جزية على الرهبان . وبذلك وجدت تحت حكم العرب من أول الفتح طبقة ممتازة من المسيحيين لا تقع تحت طائلة الأعباء المالية . وقد لجأ كثير من الأقباط إلى هذه الأديرة كي يتخلصوا من الضرائب^(٣) . ففطنت الحكومة إلى ذلك وبادرت بإحصاء الرهبان ، وفرضت عليهم جزية الدينار التي أشرنا إليها .

ولما احتاج عبد العزيز بن مروان إلى المال لجأ إلى الأديرة التي أصبحت تملك ثروات ضخمة . ففرض على رهبانها جزية سنوية كي يسد بذلك مجز

(١) ساويرس ص ٢٠٢ (١.٧.)

(٢) Munier: L. Egypte Byzantine. p. 77

(٣) Wiet: 'Precis de L'hist. d'Egypte. t. 11. p. 132

ميزانية الدولة^(١) ، وكان من أثر هذا أن اعتنق الكثيرون الدين الإسلامي .
وبعد وفاة عبد العزيز ولى مصر عبد الله بن عبد الملك بن مروان ،
وذلك في جمادى الآخرة سنة ٨٦ هـ ولم تمض بضمة أشهر حتى توفي الخليفة
عبد الملك بن مروان ، وبويع بعده بالخلافة ابنه الوليد بن عبد الملك (٨٦ -
٩٦) فأقر الوليد أخاه عبد الله على ولاية مصر حتى سنة ٩٠ هـ . وقد تشدد
عبد الله بن عبد الملك على الأقباط في الأمور المالية . فالزم البطرك بدفع
ثلاثة آلاف دينار أو يمتقله فلقى البطرك مشقة عظيمة في جمع هذا المال
من الأساقفة والرهبان والأقباط على العموم ، كذلك زاد عبد الله الخراج
على المصريين ، فمن كان يدفع ديناراً خراجاً أزمه بدفع ديناراً وثلثين ، حتى
أن كنفائس كثيرة سرى إليها الخراب لهذا السبب^(٢) ، وقد زاد وطأة
ذلك الوالى على المصريين ما حدث في أيامه من الغلاء ، وذلك على أثر
انخفاض النيل^(٣) في سنة ٨٧ هـ .

والظاهر أن هذا الوالى عمد إلى ابتزاز الأموال ، ولا سيما من القبط
وربما أسلم نفر منهم ليتخلص من هذه الأعباء ، وقامت في عهده حركة
مقاومة مسلحية ضد هذه السياسة المالية من جانب الذين ضايقتهم الأعباء
المالية والذين لم يريدوا تغيير دينهم بسببها . فأخذ بعض الأفراد يهربون
إلى مناطق أخرى غير تلك التى كانوا مقيدين فيها بعد أن وجدوا الأفادة

(١) ذكر أبو يوسف في كتاب الخراج (ص ٧٠) أن البرهمن إذا كان لهم
يسار أخذت منهم الجزية ، وإن كانوا مساكين يصدق عليهم أهل اليسار منهم
لم تؤخذ منهم

(٢) ساويرس ص ٥٤ - ٥٥ (T.V.)

(٣) السكندى ص ٥٩ والمريزى : إفاة الأمة ص ١١ . وأبو الحسن

من الاعتماد في الأديرة . غير أن هذا الوالي ومن جاء بعده تشددوا في مراقبة هذه الحركة التي كانت تثير الفوضى في البلاد ، فضلا عن تأثيرها في مالية الدولة . فأمر عبد الله بن عبد الملك بوسم الثرباء الذين وجدوا في الأقاليم المختلفة على أيديهم وجباههم وأرسلهم إلى مواضع مختلفة (١) .

وولى مصر بعد عزل عبد الله بن عبد الملك في سنة ٩٠ هـ قرّة ابن شريك ، وظل على ولايتها إلى أن مات بها في سنة ٩٦ هـ . ويذكر ساويرس أن قرّة أنزل بلايا عظيمة بالسلمين والنصارى على السواء ، وبالسكناس والرهبان (٢) . وكتب المقرئى عن قرّة أنه « أنزل بالنصارى شدائد لم يبتلوا قبلها بمثلها » (٣) . وتكثر النصوص والروايات من التحدث عن ظلم قرّة بن شريك وعسفه ، فيذكر أبو الحسن أن قرّة كان سىء التدبير ، خبيثاً ظالماً غشوماً فاسقاً مهتكا (٤) . وقيل إن عمر ابن عبد العزيز رضى الله عنه ذكر عنده ظلم الحجاج وغيره من ولاية الأمصار أيام الوليد بن عبد الملك ، فقال : « الحجاج بالعراق ؛ والوليد بالشام ؛ وقرّة بن شريك بمصر ! وعثمان بالمدينة ! وخالد بمكة ! اللهم قد امتلأت الدنيا ظلماً وجوراً فأرح الناس » (٥) . ولكن أوراق بردى كوم اشقاوا ، التي عثر عليها في سنة ١٩٠١ تشهد بأن هذه الروايات غير صحيحة في مجملها فإن قرّة لم يكن بالرجل الظالم أو الفاسق . وقد رأينا في كلامنا عن النظام الإدارى في مصر كيف كان قرّة يهتم بعدالة حكام الأقاليم المختلفة وعدم

(١) ساويرس ص ٥٦ (T.V.)

(٢) ساويرس ص ٥٧

(٣) الخطط ج ٢ ص ٤٩٢

(٤) إنجوم الزاهرة ج ١ ص ٢١٧ . في طبعة دار الكتب « منهمكا »

(٥) المرجع نفسه ص ٢١٨

الإجحاف بأهل الذمة . فيأمر عماله في الأقاليم ألا يقدرُوا على أهل الذمة
ضرائب فوق طاقتهم أو أقل مما يستطيعون أداءه^(١) ، كما يهدد عماله
بمقابهم أشد العقاب إذا ظلموا الأهالي في تقدير الضرائب المفروضة عليهم^(٢) ،
كذلك يحذر عماله من قبول الرشوة من الأهالي^(٣) ، وفضلاً عن ذلك
فقد كان قرّة بن شريك يتدخل في كل كبيرة وصغيرة ، ويراقب الأمور
في البلاد مراقبة شديدة ، ويجتهد في المحافظة على نشر الأمن في البلاد
والعدل بين الرعية . كما كان يهتم بمراقبة التموين في البلاد ، فنراه يجتهد
، منع غلاء الطعام بالفسطاط^(٤) ، ونجده يتجاوز أحياناً عن بعض ما كان
يدفع كل عام من الجزية ، فيقبل من أهل الذمة أقل مما اعتادوا دفعه كل
عام رفقاً بهم^(٥) . ومع ذلك نراه يشدد في طلب المتأخر من الجزية التي لم
تدفع منذ عهد الوالي الذي سبقه^(٦) ، ويأمر عماله على الأقاليم بأن يقدموا
له سجلات بأسماء القرى والأقاليم المختلفة ، وإحصاء الرجال والجزية الواجبة
عليهم وما يملكه كل رجل من الأراضي والخدمات التي يؤديها^(٧) .
ولسكننا نراه أحياناً يقرض ضرائب غير عادية^(٨) .
وكان جباة الضرائب من أهل الذمة^(٩) كما كان حكام الكورات

-
- Bell : Translation of the Greek Aphrodito Papyri (Der (١)
Islam, Band 11.) p. 282.
Bell : op. cit. p. 270 (٣) Bell : op. cit. p. 282 (٢)
Becker : (Der Islam. Band 11.) p. 256, Grohmann ; Arabic (٤)
Papyri vol. 111. p. 8
Becker : op. cit. pp. 253-254, Grohmann : op. cit. p. 16-17 (٥)
Becker : op. cit. d. 267, Grohmann : op. cit. p. 48 (٦)
Bell : op. cit. p. 272 (٧)
Bell : op. cit. p. 272 (٨)
Bell : op. cit. (Der Islam, Band 1V) p. 92 (٩)

المختامة منهم . وقد رأينا أن العرب تركوا معظم وظائف الدولة في أيدي
الذميين على أن هذا النظام لم يكن من مميزات حكومة قرة أو العهد
الأموي ، وإنما كان من مميزات النظام المالي نفسه ، الذي تركه البيزنطيون
لخلفائهم العرب^(١) .

ويذكر ساويرس^(٢) أن قرة فرض على البلاد مائة ألف دينار سوى
خراجها المعروف وقد استمرت في عهد قرة حركة الحرب التي بدأت في ولاية
عيد الله بن عبد الملك بل إنها اتخذت في عهده شكلاً واسماً فكانت أسرات
بأسرها رجالاً ونساءً وأطفالاً تهرب من مكان إلى مكان ، لا تستقر في مكان
معين وذلك فراراً من دفع الضرائب . واضطر قرة إزاء هذا إلى إنشاء هيئة
خاصة لوقف تلك الحركة وإعادة كل شخص إلى موضعه^(٣) .

وتلقى أوراق بردى كوم اشقاو شعاما من النور على هذه الحركة التي
كان محورها الزراع أو الجالية^(٤) وكان الوالي يأمر باعادتهم إلى قراهم
الأصلية^(٥) . فزاه يكتب إلى صاحب أشقوه أنه علم بوجود جالية بأرضه
ويطلب منه أن يرد الجالية — أي الهاريين — إلى أرضهم الأصلية^(٦) وزاه

(١) Lammens : Un Gouverneur Omayyade. p. 116.

(٢) سير الآباء البطارقة ص ٦٤ (T.V.)

(٣) المرجع نفسه ص ٦٤

(٤) قيل لأهل الذمة الجالية لأن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أجلاهم عن جزيرة
العرب ولزمهم هذا الاسم أيما حلوا ثم لزم كل من لزمته الجزية من أهل الكتاب
بكل بلد وإن لم يجلووا عن أوطانهم . ويقال استعمل فلان على الجالية أى على جزية
أهل الذمة (لسان العرب)

(٥) لم يكن هذا جديداً في التاريخ المصرى فكثيراً ما كان الفلاحون يهجرون
قراهم في مصر البيزنطى فراراً من دفع الضرائب . أنظر Lammens: Un Gouverneur

Omayyade... p. 107

(٦) Grohmann : Arabic Papyri. vol. 111 p. 24

يرسل مندوبين للنظر في حركة الحرب ويطلب من صاحب الكورة أن ييسر مهمتهم وأن يرسل معهم رجالاً تقات يعرفون الكتابة ليقوموا في حضرتهم بكتابة أسماء المارين وألقابهم وليبينوا أيضاً من أين هرب كل شخص وإلى أى جهة ذهب . وذلك لحصر الذين عادوا إلى قراهم والذين سمح لهم بالاستقرار على أن يؤدوا الضرائب ، وليقوموا على وجه الإجمال بالاستفسار عن كل ما يجب أن يعرف . ثم يمود قرّة فيطلب من صاحب الكورة أن يأمر هؤلاء الرجال بالعمل في هذه المسألة بجد ونشاط وألا يقبل أحد منهم هدية أو رشوة من أى شخص وإلا فسيحل العقاب بصاحب الكورة كما سيحل بالرجل المذنب^(١) وفي كتاب آخر لقرّة نراه يطلب من صاحب أشقوه أن يرسل إليه المارين مع عائلاتهم وكل ما معهم من أشياء وأن يعد سجلاً يكتب فيه أسماء الأشخاص الذين أرسلوا ، وفي أى موضع من كورته هربوا ، وأملاك كل شخص ، والوقت الذى أمضاه كل شخص في كورته ، وكل شيء يرفه عن المارين دون كذب أو محاباة ، وأن يرسل كل الأشخاص وهذه المعلومات مع المندوب الذى أرسله قرّة لهذا الغرض ، ويهدده بأشد العقاب الجثمانى والمالى إن هو تولى عن النظر في هذه المسألة وتغافل عن أحد المارين كما يهدد الأشخاص الذين يوجد بينهم أحد المارين بغرامة مالية كبيرة فوق مقدورهم^(٢) .

وظل قرّة يتابع تلك الحركة بنشاط حتى يقضى عليها إلى أن مات سنة ٨٩٦ . وفى عهد خلافة سليمان بن عبد الملك كان المتولى على خراج مصر

Bell : Translations of the Greek Aphrodito Papyri (Der (١) .
Islam, Band 11.) p. 270

Bell : op. cit. pp. 274-276 (٢)

أسامة بن زيد التنوخي فكتب إليه سليمان بن عبد الملك « احلب الدر حتى ينقطع » واحلب الدم حتى ينصرم^(١) « أى أن سياسة هذا الخليفة كانت سياسة استغلال لموارد مصر إلى أقصى حد ممكن وقد وجد من أسامة خير منفذ لأوامره . وقيل إن سليمان بن عبد الملك قال يوما وقد أعجبه فعل أسامة ابن زيد : « هذا أسامة لا يرتشى ديناراً ولا درهما » . فقال له ابن عمه عمر ابن عبد العزيز بن مروان : « أنا أدلك على من هو شر من أسامة ولا يرتشى ديناراً ولا درهما » . قال سليمان : « ومن هو ؟ » قال عمر : « عدو الله إبليس » فغضب سليمان وقام من مجلسه^(٢) .

نفذ أسامة بن زيد تعليمات الخليفة بكل دقة واشتد في طلب الخراج والجزية وأمر عماله ألا يتوانوا في جمع الضرائب فأسلم الكثيرون في عهده كي يتخلصوا من الأعباء المالية ولكن حركة الحرب استمرت من جانب الذين أثقلت كاهلهم الأعباء المالية ولم يرغبوا في اعتناق الدين الإسلامى .

وقد أمر أسامة ألا يأوى أحد غريباً في الكنائس أو الفنادق أو السواحل . ولشدة الخوف منه طرد الناس من كان هندهم من الغرباء أو الهاريين^(٣) . ولكي لا يتمكن أحد من الحرب من منطقة إلى أخرى عملت سجلات للأهالى أشبه بجوازات السفر اليوم passport فإزم كل شخص يريد الانتقال من جهة إلى جهة في أنحاء القطر المصرى أو يريد ركوب سفينة أو النزول منها أن يحمل معه سجله وقد أمر الوالى بالقبض على أى شخص يرى ماشياً في موضع ما أو هابراً من موضع إلى موضع وليس

(١) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٢١

(٢) المرجع نفسه ص ٢٢٢

(٣) ساويرس : سير الآباء البطركية ص ٦٨ (T.V.)

معه سجله . وإذا وجد شخص راكبا مركبا أو نازلا منها وليس معه سجله تنهب المركب وتحرق بالنار . أما من فقد سجله أو أتلفه فقد أزمه الوالى بالحصول على سجل آخر مقابل دفع غرامة قدرها خمسة دنانير^(١) .

وقد عمل أسامة بن زيد إحصاء ثانيا للرهبان بعد الإحصاء الاول الذى تم فى عهد عبد العزيز بن مروان وأمر الرهبان ألا يقبلوا فى الرهينة من يأتى إليهم وأمر بوسم كل راهب بحلقة حديد فى يده اليسرى ليكون معروفا ، ووسم كل واحد منهم بإسم بيئته وديره والتاريخ المجرى وفرض على كل واحد منهم دينار اجزية . أما من وجد هاربا أو غير موسوم فقد كان يلحق عقابا قاسيا^(٢) ويقال إن أسامة بن زيد من جبي مصر فى خلافة سليمان ابن عبد الملك اثني عشر مليون دينار^(٣) وقد يكون فى هذا القول مبالغة ولكنه يدل على أن أسامة اشتد فى جباية خراج مصر إلى حد كبير .

ولما ولى الخلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩ — ١٠١ هـ) أظهر رغبته الشديدة فى نشر الإسلام . ويظهر أن نفرا كثيرا كان قد اعتنق الدين الإسلامى حينذاك بدليل أن حيان بن سريج متولى خراج مصر كتب إلى عمر بن عبد العزيز يقول . « أما بعد فإن الإسلام قد أضر بالجزية حتى سلفت من الحارث ابن ثابتة عشرين ألف دينار وتمت عطاء أهل الديوان فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بقضائها ففل » وكان هذا الوالى يرى أن تبقى الجزية على من يسلم . وقال عمرو بن رده : « ... فضع الجزية عمن أسلم ، قبيح الله رأيك فإن الله إنما بعث محمدا صلى الله عليه وسلم هاديا ولم يبعثه جابيا ، ولم يمرى

(١) المرجع نفسه ص ٧٠

(٢) المرجع نفسه ص ٦٨ و ٧٠ وخطط القرظى ج ٢ ص ٤٩٢ — ٤٩٣

(٣) خطط القرظى ج ١ ص ٩٩

لعمر أحقر من أن يدخل الناس كلهم الإسلام على يديه (١) « وبهذه المناسبة نذكر أن أول من أخذ الجزية ممن أسلم من أهل القنمة الحجاج بن يوسف ، ثم كتب عبد الملك بن مروان إلى عبد العزيز بن مروان وإلى مصر من قبله أن يضع الجزية على من أسلم من أهل الذمة فكلمه ابن حجيرة في ذلك وقال « أعينك بالله أيها الأمير أن تكون أول من سن ذلك بمصر . فوالله أن أهل القنمة ليتحملون جزية من ترهب منهم فكيف تضعها على من أسلم منهم ؟ » فتركهم عند ذلك (٢) .

وكتب عمر بن عبد العزيز أيضا إلى حيان بن سريح أن يجعل جزية موقى القبط على أحيائهم (٣) كما ذكرنا من قبل وربما كان هذا الأمر هو الذى بث ساويرس على أن يقول إن عمر بن عبد العزيز أمر بأن تؤخذ الجزية من سائر الناس الذين لا يسلّمون حتى فى الحالات التى لم تجر عاداتهم بالقيام بها .

ويظهر أن سياسة إعفاء الذين يمتنعون الإسلام من الجزية لم تستمر بصفة دائمة بعد عهد عمر بن عبد العزيز ، بدليل أنه بعد ذلك العهد نرى أن قرار أى خليفة برفع الجزية عمن أسلم كان يشجع الكثيرين على اعتناق الدين الإسلامى . وفضلا عن هذا فإننا لانعرف تماما متى بدأ أخذ الجزية ممن أسلم . والظاهر أن هذا بدأ قبل عهد عمر بن عبد العزيز (٥)

ويعلق السير توماس ارنولد (٦) Thomas Arnold على قرار عمر بن

(١) ابن عبد الحكم ص ١٥٦ طبعة تورى — خطط القرظى ج ١ ص ٧٨

(٢) ابن عبد الحكم ص ١٥٦ ، خطط القرظى ج ١ ص ٧٧ — ٧٨

(٣) ابن عبد الحكم ص ١٥٤ ، خطط القرظى ج ١ ص ٧٧

(٤) سير الآباء البطارقة ص ٧٢ (T.V.)

(٥) ابن عبد الحكم ص ١٥٦ و القرظى ص ٧٧

(٦) The Preaching of Islam p. 103

عبد العزيز هذا بقوله . « ولكن الولاة المتأخرين اعتبروا أن مثل هذه السياسة تضر بمالية الدولة واستمروا في فرض الجزية على الذين أسلموا . وبالجملة لم يكن هناك استمرار في مثل هذه السياسة بل كان الولاة يتبعون في ذلك سياسات مختلفة على حسب أهوائهم دون السير على وتيرة واحدة ، وعلى كل حال فإن سياسة عمر بن عبد العزيز التي تنطوي على تشجيع من يمتنق الدين الإسلامي جذبت إلى الإسلام كثيرين من الأقباط .

ثم حدث أن الخليفة يزيد بن عبد الملك (١٠١ - ١٠٥ هـ) أخذ المسيحيين بالشدّة من الوجهة المالية فأعاد الخراج الذي كان عمر بن عبد العزيز قد رفعه عن الكنائس والأساقفة . وبدلنا على مبلغ كراهية المسيحيين له تلك الكلمات التي يصفه بها مؤرخ البطارقة إذ يقول « إنه سلك في طريق الشيطان وحاد عن طرق الله ^(١) »

ولما بويع هشام بن عبد الله الملك (١٠٥ - ١٢٥ هـ) بالخلافة تفاعل المسيحيون خيرا . ويصفه مؤرخ البطارقة بأنه رجل يخاف الله مخلص للأرثوذكسيين ومحب لسائر الناس ^(٢) . وقد أصر هشام بأن يعطى كل من يدفع خراجا ايصالا باسمه كيلا يظلم أحد في مملكته ^(٣) .

على أن سياسة هشام بن عبد الملك المالية كانت كسياسة غيره من الخلفاء . وليس أدل على ذلك من أن عامله على خراج مصر وهو عبيد الله بن الحبجباب ظل في هذا المنصب منذ أن ولي هشام الخلافة إلى سنة ١١٦ هـ ^(٤)

(١) ساويرس : سير الآباء البطارقة . ص ٧٢ (T. ٧٠)

(٢) ساويرس ص ٧٣

(٣) ساويرس ص ٧٤

(٤) خطط القرظي ج ١ ص ٢٠٨

أو إلى سنة ١١٤ هـ^(١) في قول آخر ، بينما تعاقب على حكم البلاد في زمنه خمسة ولاة ، وكان يتمتع أثناء ذلك بنفوذ كبير لا يحد ؛ يولى من شاء من الموظفين ويعزل من يشاء . بل إنه نجح في عزل اثنين من الولاة ، وهما الحسرت بن يوسف ، وحفص بن الوليد . وجعل إليه الخليفة أمر اختيار من أحب من الولاة ، فاختار عبد الملك بن رفاعه^(٢) . وكان له الأمر أيضاً في تولية القضاة ، فقد قام بأمر توبة بن نمر الحضرمي حتى ولى القضاء في سنة ٢١٦ هـ^(٣) . وطبيبي أن من الأسباب التي حصل بها ابن الحبجاب على هذه السلطة الواسعة أنه كان يمثل سياسة الخليفة المالية أحسن تمثيل . أما قوام هذه السياسة فننتبينه من بعض أخبار هذا العامل على الخراج . فإننا نعرف مثلاً أنه لما ولى خراج مصر أمر بأن تحصي الناس والبهايم ، وأن تقاس الأراضي الزراعية والأراضي البوز وبني أميالا أى علامات للمسافات في حقول مصر على الحدود والطرق ، وضاعف الخراج وأمر بأن تحتم رقاب الناس بالرماس من سن العشرين إلى ما فوق ذلك كما رسم أيدى النصارى بسمة الأسد^(٤) ، وذلك لتسهيل معرفة هؤلاء الذين تجب عليهم الجزية والضرائب . ويذكر المقرئ^(٥) أن الخليفة هشام ابن عبد الملك أوصى عبيد الله بن الحبجاب بالمعارة ، فيقال إنه لم يظهر في خراج مصر بعد تناقصه كثرة إلا في وقتين ، أحدهما في خلافة هشام ابن عبد الملك عند ما ولى الخراج عبيد الله بن الحبجاب ، والوقت الثاني

(١) أبو المحاسن ج ١ ص ٢٧٣

(٢) السكندی ص ٧٤ - ٧٥

(٣) السكندی ص ٣٤١ - ٣٤٢

(٤) ساويرس : سير الآباء البطارقة ص ٧٥

(٥) الخطط ج ١ ص ٩٨ - ٩٩

في إمارة أحمد بن طولون لما تسلم أرض مصر من أحمد بن محمد بن مدبر ،
فبعد أن كان خراج مصر دون الثلاثة ملايين دينار خرج ابن الجحباب
بنفسه ومسح العامر من أرض مصر والنامر^(١) فراكها كلها وأصلحها ،
واستطاع أن يجبي من مصر أربعة ملايين دينار .

ويذكر الكندي^(٢) والمقرئ^(٣) أنه في أمرة الحر بن يوسف
(١٠٥ - ١٠٨ هـ) كتب عبيد الله بن الجحباب إلى هشام بن عبد الملك
بأن أرض مصر تحتل الزيادة ، فزاد على كل دينار قيراطاً^(٤) ،

. وإزاء هذه الأعباء السالية الثقيلة بدأ الأقباط للمرة الأولى يتكون
سبيل المقاومة السلبية ويقاومون حكومة العرب مقاومة إيجابية . فنار
الأقباط في سنة ١٠٧ هـ في الوجه البحري فبعث إليهم الحر جيشاً لمحاربتهم
فقتل منهم نفر كثير^(٥)

وعند ما ولي مصر الوليد بن رفاعة من قبل هشام بن عبد الملك
(١٠٩ - ١١٧ هـ) خرج ليحصي أهلها ، وينظر في تعديل خراجهم ،
واصطحب معه جماعة من الكتاب والأعوان ليساعدوه في مهمته هذه ،
فأقام بالصعيد ستة أشهر حتى بلغ أسوان ، وأقام بالوجه البحري ثلاثة
أشهر ، فأحصوا من القرى أكثر من عشرة آلاف قرية ، ولم يحصى في

(١) النامر الأرض الخراب أو البور

(٢) الولاة والقضاة ص ٧٣

(٣) الحطط ج ١ ص ٧٩

(٤) القيراط نوع من العملة المستعملة حينذاك فكان الدينار ينقسم إلى ٢٤
قيراطاً (ابن عبد الحكم - طبعة تورى ص ١٥٣)

(٥) الكندي ص ٧٣ - ٧٤ وساويرس ص ٧٦ (T.V.) وخطط المقرئ .

أصغر قرية منها أقل ثمن خمسمائة رجل ممن تفرض عليهم الجزية^(١) .
وقد تناهت ثورات القبط ، فنار أقباط الصعيد وحاربوا عمال
الحكومة في سنة ١٢١ هـ ، فبعث إليهم حنظلة بن صفوان والى مصر
(١١٩ — ١٢٤ هـ) جيشاً لمحاربتهم ، فانتصر عليهم وقتل منهم عدداً
كبيراً^(٢) وفي ولاية حفص بن الوليد الثالثة على مصر (١٢٧ — ١٢٧ هـ)
أعلن إعفاء كل من يسلم من الجزية ، فاعتنق نحو أربعة وعشرين ألفاً من
الأقباط الدين الإسلامي^(٣)

ومع ذلك فقد تناهت ثورات القبط فخرج ثائر منهم بسمنود ، يدعى
يحنس ، فبعث إليه عبد الملك بن مروان ابن موسى بن نصير ، والى مصر
إذ ذاك جيشاً لمحاربتهم ، وكان ذلك في سنة ١٣٢ هـ ، فقتل يحنس مع
كثير من أصحابه^(٤) .

ثم نار القبط برشيد في سنة ١٣٢ هـ ، فأرسل إليهم مروان بن محمد
جيشاً لمحاربتهم ، وذلك حينما دخل مصر فاراً من بنى العباس فهزمهم هذا
الجيش^(٥) ، كذلك نار ضده أهل البشرد ولكنه لم يستطع القضاء على

(١) ابن عبد الحكم — طبعة تورى ص ١٥٦ وخطط المقرئى ج ١ ص ٧٤
والسيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٦٣ — ٦٤ في مجموعة الارشيدوق رينر
بالمكتبة الأهلية في فينا وثيقة بردية تشير إلى احصاء سكان مصر في ولاية الوليد بن
رفاعه . وتفصل هذه الوثيقة البيانات التي كان على الموظفين جمعها عن كل شخص . راجع
Papyrus Erzherzog Rainer. Führer durch die Ausstellung (Wien 1894),
No 599 p 152.

(٢) خطط المقرئى ج ١ ص ٧٩

(٣) ساويرس : سير الآباء البطارقة ص ١١٦ — ١١٧

(٤) الكندى ص ٩٤ وخطط المقرئى ج ١ ص ٧٩

(٥) الكندى ص ٩٦ وخطط المقرئى ج ١ ص ٧٩

ثورتهم ، إذ سرعان ما هاجمه العباسيون وقضوا عليه^(١) .
ولما قامت الدولة العباسية في مصر تفاعل الأقباط خيراً وخدمت ثورة
الشموريين من أجل ذلك^(٢) ، إلا أن المشكلة المالية لم تنته وعادت إلى
ما كانت عليه زمن الأمويين ، بل فاقت العهد السابق فلم تمض ثلاث سنوات
على قيام الدولة العباسية بمصر حتى ضوعف الخراج على الأقباط ولم يتم ما
وعدوا به من التخفيف عنهم^(٣) .

ولكن حدث من ناحية أخرى أن قرّر الخليفة السفاح أن يعفى من
الجزية كل من يمتنق الدين الإسلامي ويقم شعائره ، فتخلى كثير من
المسيحيين ، أغنياء كانوا أو فقراء ، عن دينهم واعتنقوا الدين الإسلامي
بسبب فداحة الجزية والأعباء الملقاة عليهم^(٤) . وسرعان ما عاد القبط الذين
بقوا على دينهم إلى الثورة فنار الأقباط يسمندود في سنة ١٣٥ هـ في ولاية
أبي عون الأولى على مصر (١٣٣ — ١٣٦ هـ) فبعث إليهم أبو عون
جيشاً لمحاربتهم فهزموا وقتل أبو مينا زعيم تلك الثورة^(٥) .

ثم نار القبط في سخا سنة ١٥٠ هـ في ولاية يزيد بن حاتم بن قبيصة
على مصر (١٤٤ — ١٥٢ هـ) وانضم إليهم أهل البشروود وبعض جهات
الوجه البحرى ، ولكن العرب انهزموا أمام القبط في هذه المرة^(٦) . ثم
خرج القبط في سنة ١٥٦ هـ في ولاية موسى بن علسى بن رباح اللخمي

(١) ساويرس ص ١٥٦ — ١٥٧ و ١٦٢ و ١٨٨

(٢) ساويرس ص ١٨٨ (t. V.)

(٣) ساويرس ص ١٨٨ — ١٨٩

(٤) ساويرس ص ١٨٩ — ١٩٠

(٥) الكندى ص ١٠٢ وأبو المحاسن ج ١ ص ٣٢٥ — ٣٢٦

(٦) الكندى ص ١١٦ وخطط القريرى ج ١ ص ٧٩

(١٥٥ - ١٦١ هـ) فأرسل إليهم الوالي جيشاً هزمهم (١). وكثيراً ما ثار العرب ضد الحكومة بسبب الخراج بعد أن زاد عددهم وأصبحوا يملكون الأراضي في البلاد، وكثيراً ما اشتركوا مع الأقباط في ثوراتهم. وكانت آخر ثورة للأقباط تلك التي حدثت في جمادى الأولى سنة ٢١٦ هـ زمن الخليفة المأمون أثناء ولاية عيسى بن منصور على مصر من قبل المتصم (٢١٦ - ٢١٧ هـ) إذ ثار أهل الوجه البحرى كلهم سواء في ذلك العرب والقبط - فطردوا عمال الحكومة، وقدم الأفشين قائد المأمون من برقة لمحاربتهم، فسار إلى الحوف وهزمهم وأرسل القواد وعيسى بن منصور إلى مختلف جهات الوجه البحرى لمحاربة الثأرين. ثم أقبل الأفشين في جنوده إلى الإسكندرية فهزم كل من اعترضه في طريقه إلى أن دخلها في ذى الحجة سنة ٢١٦ هـ، ثم سار بعد فتحها إلى أهل البشروء، فامتنعوا عليه حتى قدم المأمون إلى مصر (٢).

وقد عرف أهل البشروء أو البشمور بغلظة طباعهم وحبهم للعصيان والثورة منذ التاريخ القديم، وقد شجعهم طبيعة المنطقة التي يعيشون فيها على ذلك فإن هذه المنطقة الرملية على ساحل الدلتاين فرعى رشيد ودمياط (٣) كانت تحيط بها المستنقعات والأوحال التي تعيق حركة الجند (٤) وقد ثاروا زمن المأمون لكثرة الخراج الواقع على كاهلهم والقسوة التي كانت تستعمل في جبايته (٥) وقبل مجيء المأمون إلى مصر كتب البطرك أنبا يوساب إليهم

(١) الكندى ص ١١٩ وخطط المقرئى ج ١ ص ٧٩

(٢) الكندى ص ١٩٠ - ١٩١

(٣) Wiet : Hist. de la Nation. Egypt. t. IV. p. 73

(٤) ساويرس : سير الآباء البطاركة ص ٤٨٧ (t. X.)

(٥) ساويرس ص ٤٨٦ - ٤٨٧

كتبوا ينصحهم بأن يرجعوا عن ثورتهم ويحذرهم من قوة السلطان فلم يرجعوا ، ولما رأى الأفشين تمادى البشموريين في ثورتهم كتب إلى الخليفة المأمون يعلمه بما حدث^(١) فرأى المأمون أن يأتي إلى مصر لإخماد تلك الثورة فجاء في جيشه وصحب معه البطرك ديونوسيوس بطرك أنطاكية^(٢) في المحرم سنة ٢١٧هـ وقد سخط الخليفة على الوالي عيسى بن منصور وقال : « لم يكن هذا الحدث العظيم إلا عن فعلك وفعل عمالك ، حملتم الناس مالا يطيقون وكنتموني الخبز حتى تفاقم الأمر واضطربت البلد^(٣) » .

وقد حاول المأمون أولاً أن يخمد ثورة البشموريين بالدين فأرسل إليهم البطرك أنبا يوساب والبطرك ديونوسيوس ووعدهم إلا يعاقبهم إن هم رجعوا عن ثورتهم ولكن البشموريين لم يجيبوا البطركين فسير المأمون إليهم الأفشين معه ولكنهم قاوموا جند الأفشين بشدة فلما علم المأمون بذلك سار إليهم بجيشه وركز جميع قواته ضدهم إلى أن سلم البشموريون فأعمل فيهم السيف وأحرقوا مساكنهم وهدموا كنائسهم^(٤) وغادر الخليفة مصر سنة ٢١٧هـ بعد أن مهد أمورها وزار بعض البلدان فيها ، وكانت مدة إقامته بمصر تسعة وأربعين يوماً^(٥) .

وبعد ثورة البشموريين التي كانت آخر ثورة للأقباط في عهد الولاة ، أصبح المسلمون أغلبية في مصر وعلى الأخص في الوجه البحري إذ يظهر

(١) ساويرس ص ٤٨٨ — ٤٩٠

(٢) ساويرس ص ٤٩٢

(٣) الكندي ص ١٩٢ — خطط المقرئ ج ١ ص ٨١

(٤) ساويرس ص ٤٩٣ — ٤٩٥ (t. X)

(٥) الكندي ص ١٩٢ — خطط المقرئ ج ١ ص ٨١ — أبو الحسن

أن عدداً كبيراً من الأقباط أسلم في ذلك الوقت (١) .

وقيل في مناسبة زيارة المأمون لمصر إنه لما نزل في قرى مصر ، كان يقيم في القرية يوما وليلة فمر بقرية يقال لها طاء النمل ولم يدخلها لصفرها فلما تجاوزها خرجت إليه مجوز اسمها مارية القبطية وهي تسيح . فظنها المأمون مستنثية متظلمة فوقف لها فطلبت منه السيدة أن يشرفها بالزيارة في ضيقتها فأجابها المأمون إلى طلبها وكان معه أخوه المتصم وابنه العباس وأولاد أخيه الواصل والمتوكل ، ويحيى بن أكرم والقاضي أحمد بن أبي دواد عدا قواده وعساكره فأكرمهم كرما كثيرا « ثم أحضرت للمأمون من فاخر الطعام ولذيذه شيئا كثيرا فلما أصبح وقد غزم على الرحيل جاءته ومعهما عشر وصيفات مع كل وصيفة طبق ، وفي كل طبق كيس من ذهب فاستحسن ذلك وأمرها بإعادته . فقالت : لا والله لا أفعل . فتأمل الذهب فإذا به ضرب عام واحد كله فقال هذا والله أعجب ، ربما يمجز بيت مالنا عن مثل ذلك فقالت يا أمير المؤمنين لا تكسر قلوبنا ولا تحتقرنا . فقال . إن في بعض ما صنعت الكفاية ولا نحب التثجيل عليك ، فردى مالك بارك الله فيك . فأخذت قطعة من الأرض وقالت : يا أمير المؤمنين . هذا ، وأشارت إلى الذهب ، من هذا ، وأشارت إلى الطينة التي تناولتها من الأرض ثم من عدلك يا أمير المؤمنين وعندى من هذا شيء كثير . فأمر به فأخذ منها وأقطعها عدة ضياع وأعطاهم من قربتها طاء النمل مائتي فدان بغير خراج وانصرف متمجبا من كبر مروءتها وسعة حالها » (٢) .

وهكذا نرى أن المصريين أو الأقباط قبلوا تبعيةهم للعرب وقبلوا

(١) خطط القرظي ج ١ ص ٧٩ - ٨٠

(٢) خطط القرظي ج ١ ص ٨١

النظام المالى الذى فرضه الخلفاء حتى سنة ١٠٧ هـ ثم بدأوا يقاومون حكومة العرب مقاومة علنية دموية ظلت أكثر من قرن لاسيا في منطقة الدلتا. على أن ثورات القبط كان يقضى عليها سريعا . وكان يتبع إخمادها في العادة تحوّل جزء كبير من الأقباط إلى الدين الإسلامى. ولم تكن هذه الثورات حركات قومية بالمعنى الصحيح وإنما كانت حركات غير منظمة لم يعرف فيها القبط كيف يوحّدون أنفسهم وكيف يتخذون لهم قيادة حكيمة . وكان هدفها خفض الضرائب أو الحرب من دفعها. فبينما نجد أن الاضطهاد الدقلديانوسى ضد المسيحية في مصر قد زاد من قوتها وولد حركة قومية بين المسيحيين نجد أن القبط ينلبون على أمرهم في ثوراتهم ضد العرب . ومنذ سنة ٢١٧ هـ تبدأ الفترة الثالثة من ذلك العهد وأصبح الأقباط أقلية في القطر المصرى .

القبائل العربية في مصر

امتاز العرب على غيرهم من فتحوا مصر في مختلف العصور بأنهم اندمجوا في الشعب المصرى وامتزجوا به امتزاجا قويا وكان لهذا الامتزاج أكبر الأثر في تغلب الثقافة الإسلامية والدين الإسلامى فى وادى النيل . وقد شجع الخلفاء وفود القبائل العربية إلى مصر فزاد المسلمون في مصر لتزايد العرب فيها باستمرار بما كان يرد من القبائل بعد الفتح وبتحول القبط إلى الدين الإسلامى .

ويمكننا أن نقدر جيش الاحتلال الذى استقر فى مصر بعد الفتح بنحو ستة عشر ألفا من الرجال ، ولا نعرف تماما عدد سكان مصر حينذاك . وقد كتب ابن عبد الحكم^(١) أنه كان هناك أكثر من ستة مليون رجل ممن

(١) ابن عبد الحكم ، طبعة المعهد العلمى الفرنسى ص ٥٦

تجب عليهم الجزية - أى باستثناء الشيوخ والنساء والأطفال - وإذا فرضنا أن هؤلاء الذين وجبت عليهم الجزية يكونون ثلث السكان ، رأينا أنه كان بمصر إذذاك نحو ١٨ مليون نسمة . ولسكننا نرى أن هذا الرقم مبالغ فيه . فإن سكان مصر في العهد البيزنطى أى قبل الفتح كانوا ٧ مليون نسمة باستثناء الإسكندرية التى كان يبلغ عدد سكانها ٣٠٠.٠٠٠ (١) .

وكان الفاتحون كما رأينا أقلية ضئيلة بالنسبة لأهل البلاد وفضلا عن ذلك فإنهم لم يختلطوا بهم وإنما اختلطوا لهم مدينة عربية إسلامية في وسط المحيط المصرى القبطى . وقد كان تخطيط المدن من أمم الظواهر التى سارت جنبا إلى جنب مع الفتوحات العربية وذلك رغبة في إنشاء مراكز إدارية وحرية ودينية في البلاد الجديدة التى فتحها العرب .

وقيل إن عمرو بن العاص لما فتح الاسكندرية ورأى بيوتها وبناءها ، ثم أن يسكنها وقال : مساكن قد كفيناها . وكتب إلى عمر بن الخطاب يستأذنه في ذلك . فسأل الخليفة رسول عمرو : هل يحول بينى وبين المسلمين ماء ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل . فكتب عمر إلى عمرو : إنى لا أحب أن تنزل المسلمين منزلا يحول الماء بينى وبينهم في شتاء ولا صيف . فتحول عمرو بن العاص من الاسكندرية إلى القسطنطينية .

وقيل كذلك إن عمر بن الخطاب كتب إلى سعد بن أبى وقاص وهو نازل بمدائن كسرى وإلى عامله بالبصرة وإلى عمرو بن العاص وهو نازل بالاسكندرية : أن لا تجعلوا بينى وبينكم ماء ، متى أردت أن أركب إليكم راحلتى حتى أقدم عليكم قدمت . فتحول سعد من مدائن كسرى إلى

Munier : L'Egypte Byzantine. p. 84 (١)

الكوفة — وتحول صاحب البصرة من المكان الذى كان فيه . فنزل
البصرة وتحول عمرو بن العاص من الاسكندرية إلى القسطنطينية^(١) .

أى أن المؤرخين العرب يرجعون عدم اختيار الاسكندرية عاصمة للعرب
إلى خوف عمر بن الخطاب من ركوب البحر؛ ولكن الواقع أن الاسكندرية
متطرفة وبعيدة عن أن تكون قاعدة متوسطة صالحة للحكم .

ولأنسى أن الاسكندرية عند فتح العرب لها كانت مدينة يونانية
بمعنى الكلمة ، يونانية في سكانها وعاداتها وميولها فلم يكن من المنتظر أن
يتخذها العرب عاصمة لهم .

أما عن كيفية اختيار موقع القسطنطينية فيذكر المؤرخون العرب أن عمرو
ابن العاص لما أراد التوجه لفتح الاسكندرية بعد استيلائه على حصن بابلون
أمر بنزع قسطنطينية فإذا فيه يمام قد فرخ فقال عمرو : لقد تحرم بنا ، وتركه
ولما عاد المسلمون من الاسكندرية وقالوا أين نزل؟ قال : القسطنطينية ،
لقسطنطينية الذى كان قد خلفه^(٢) .

وقال الجوهري : القسطنطينية بيت من شعر . قال ومنه قسطنطينية مدينة مصر
وذكر ابن قتيبة أن العرب تقول لكل مدينة قسطنطينية ولذلك قيل لمصر
قسطنطينية^(٣) . وقال الزمخشري . القسطنطينية اسم لضرب من الأبنية ، والذى

(١) ابن عبد الحكم — طبعة تورى — ص ٩١ وخط المقرئ ج ١ ص
٢٩٦ — السبوتى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٥٧

(٢) ابن عبد الحكم — طبعة تورى — ص ٩١ وابن دقاق : الانتصار
لواسطة عقد الأمصار ج ٤ ص ٢ — القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٣٠ —
خطط المقرئ ج ١ ص ٢٩٦ — السبوتى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٥٧

(٣) ابن دقاق ج ٤ ص ٢ والقلقشندي ج ٣ ص ٣٣٠ وخطط المقرئ ج ١
ص ٢٩٦

عليه الجمهور أنه يسمى بذلك لكان فسطاط عمرو بن العاص رضى الله عنه
يعنى خيمته^(١).

على أن الرواية التي يذكرها المؤرخون عن تسمية الفسطاط واختيار
موقعها أقرب إلى الخيال منها للحقيقة . فالؤرخون ينسجون كثيراً من
الخيال حول حوادث فتح العرب لمصر كأن المصادفة والحظ قادا العرب دائماً
إلى ما هو حسن .

ولكن المواقع الهامة في أنحاء العالم عرفها الانسان منذ القدم وإن
تغيرت أسماء تلك المواقع بتغير الأزمان ، وقد عرف المصريون القدماء ومن
أتى بعدهم على مر الزمن مزايا موقع منف والمنطقة المحيطة به ، وإن اتخذ
هذا الموقع أسماء مختلفة باختلاف الأزمنة مثل الفسطاط والقاهرة . ويمتاز
هذا الموقع بتوسطه بين مصر السفلى ومصر العليا وله عدة مزايا تجارية
وسياسية وحربية . ويذكر سترابو أن حصن بابليون الذي يقع قريباً من
موقع منف كانت فيه إحدى الحاميات الثلاث في مصر^(٢) وقد عرف
العرب كما عرف غيرهم أهمية ذلك الموقع فاخذوا مدينة الفسطاط في القضاء
الواقع شمالي بابليون . ويذكر المقرئى^(٣) أن موضع الفسطاط كان قضاء
ومزارع فيما بين النيل وجبل المقطم الذي يقع في شرق مصر ، ولم يكن
فيه من البناء والمهارة سوى حصن بابليون أو قصر الشمع ، فلما فتح عمرو
ابن العاص مدينة الإسكندرية فتحها الأول نزل بجوار هذا الحصن واخطط

(١) الفلتندى ج ٣ ص ٣٣٠

(٢) Quatremère: Mémoires Géog. et Hist. sur l'Égypte. t.1. p.46

(٣) المخطوط ج ١ ص ٢٨٦

جامعه واختطت قبائل العرب من حوله فصارت مدينة عرفت بالفسطاط ونزل الناس بها .

أما اسم فسطاط فالراجح أن أصله غير عربي وأنه مشتق من اللفظ اليوناني *φοδδατον* « فُسَاطُنْ » ذلك اللفظ الذي اشتق من اللفظ اللاتيني *fossatum*^(١) الذي كان يطلقه الرومانيون على معسكراتهم الحربية . وتؤيد أوراق البردي ذلك القول؛ ففي إحدى الأوراق البردية المكتوبة باللغتين العربية واليونانية بتاريخ سنة ٩٠ هـ وفي أخرى مشابهة بتاريخ سنة ٩١ هـ نجد اسم باب اليون *φοδδατον* والفسطاط ، فاسم فسطاط كان موجودا قبل تأسيس الفسطاط . وقد احتفظ العرب بتلك التسمية بعدما احتلوا المعسكر الحربي^(٢) وقد اتخذت كل قبيلة من القبائل العربية التي فتحت مصر خطة في الفسطاط أى أن كل قبيلة نزلت في جهة معينة أو قسم من تلك المدينة التي اختطوها . ويذكر المقرئ^(٣) أن الخطط التي كانت بمدينة فسطاط مصر هي بمنزلة حارات القاهرة في زمنه أى في القرن التاسع الهجري . وقد عرفت كل خطة باسم الجماعة التي نزلت فيها ففيل مثلا خطة مجيب وخطة مهرة الخ .

ولما اختط العرب مدينة الفسطاط في سنة ٣١ هـ تنافست القبائل في المواضع فانتدب عمرو بن العاص من خطط الخطط فمن تلك الخطط خطة أهل الراية وهم جماعة من قريش والأنصار وأسلم وغفار وجهينة ويسيون راية عمرو بن العاص ويقال إن الراية قريش فقد كانت معهم راية عمرو بن

(١) كلمة *fossatus, fossatum* اللاتينية معناها معسكر أو فندق ، كلمة (f)

fossa' ac معناها خندق والفعل *fosso, ari, avi, atum* أى يحفر الخندق

(٢) Leone Caetani : *Annali dell'Islam* vol. IV. pp. 544 — 545

(٣) الخطط ج ١ ص ٢٩٦

العاص والأرجح أنهم سمو أهل الراية لأن قومنا من أبناء القبائل من العرب كانوا قد شهدوا الفتح مع عمرو بن العاص ولم يكن من قومهم عدد فيقفوا مع قومهم تحت رايتهم وكرهوا أن يقفوا تحت راية غيرهم فقال لهم عمرو : أنا أجعل راية لا أنسبها إلى أحد أكثر من الراية تقفون تحتها ، فرضوا بذلك .

ومن تلك الخلط خطة مَهرة وخطة تُجيب وخطط لَحْم وِجْدَام وخطة بنى بحر وهم قوم من الأزد وخطة ثقيف وخطة غافق وخطة حضرموت وخطة يَحْسَب وخطة المافر وخطة سبأ وخطة بنى وائل وخطة اللَّبْض وخطة مَذْحِج وخطة بنى عُطَيْف وبنى وَعَلَان وخطة بَيْلَى وخطة خَوْلَان وخطة المصدف وخطة نَعْنَث وخطة سلامان وخطة السَّلَف وخطة رُعَيْن وخطة الكَّلَاع وخطة نافع وخطة مرآة وخطط الجراوات والفراسيين ذلك أنه دخل مع عمرو بن العاص قوم من غير العرب يقال لهم الجراء والفراسيون ، فأما الجراء فقوم من الروم فيهم بنو يَنْبَةَ وبنو الأزرق وبنو روبيل والفراسيون قوم من الفرس وزعموا أن فيهم قوما من الفرس الذين كانوا بصنعاء إلى غير ذلك من الخلط التي درست^(١)

وصفوة القول أن مدينة الفسطاط قسمت إلى خطط ، كل خطة تسكنها قبيلة . ومن الخلط من كان يسكنها من هو من أصل فارسي أو رومي وهؤلاء كانوا أقلية ضئيلة أما الأكثرية العظمى فكانوا من العرب ولا سيما عرب الجنوب أو اليمنية .

(١) ابن عبد الحكم — طبعة توري — ص ٩٨ — ١٢٩ — ابن دقاق ج ٤ ص ٣ — ٥ ، القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٣١ — ٣٣٣ ، خطط القرظي ج ١ ص ٢٩٧ — ٢٩٨

وقد نشأت مدينة الفسطاط صغيرة بسيطة في أول الأمر وما لبثت أن اتسعت وكثر العمران فيها . ويدلنا على بساطة البناء في ذلك العهد أن خارجة بن حذافة بنى غرفة فيها (أى دارا علوية أو بناء مرتفعا) فبلغ ذلك عمر بن الخطاب فكتب إلى عمرو بن العاص « سلام . أما بعد فإنه بلغنى أن خارجة بن حذافة بنى غرفة ولقد أراد خارجة أن يطلع على عورات جيرانه فإذا أتاك كتابي هذا فاهددها إن شاء الله والسلام^(١) » .

على أن العرب ما لبثوا أن تخطوا عهد البساطة وتوسعوا في البناء فبنى عبد الله بن سعد بن أبي سرح في خلافة عثمان بن عفان قصره الكبير الذى يعرف بقصر الجن . ولفخامة ذلك القصر إذ ذاك قال له المقداد : إن كان من مال الله فقد أسرفت وإن كان من مالك فقد أفسدت . فقال عبد الله بن سعد : لولا أن يقول قائل أفسد مرتين لهدمتها^(٢) وبني في الفسطاط الحمامات والأسواق وبني عبد العزيز بن مروان القيساريات مثل قيسارية المسل وقيسارية الحبال وقيسارية الكباش والقيسارية التى يباع فيها البز وهى التى تعرف بقيسارية عبد العزيز ، وبني هشام بن عبد الملك قيساريته التى تعرف بقيسارية هشام^(٣) .

وبعد أن كان البناء في أول أمره باللبن والدار من طبقة واحدة يحدثنا الاصطخرى^(٤) الذى عاش في القرن الرابع الهجرى بأن الفسطاط في غاية المارة وأن بها قبائل وخطط للعرب تنسب إليهم محالها ومعظم بنائهم بالطوب وهو عبارة عن طبقات وربما بلغت طبقات الدار الواحدة ثمانى

(١) ابن عبد الحكم طبعة تورى ص ١٠٤

(٢) ابن عبد الحكم ص ١١٠

(٣) ابن عبد الحكم ص ١٣٦

(٤) كتاب مسالك المالك ص ٤٩

طبقات . وقد اثبتت الحفائر الحديثة في أطلال الفسطاط أن بيوتها كانت غنية بوسائل الترف وعلى رأسها المياه الجارية^(١) .

وقد عنى العرب منذ تخطيط الفسطاط ببناء مسجد جامع لهم . وكان تأسيس المساجد الجامعة يسير جنباً إلى جنب مع تخطيط المدن في البلاد المفتوحة ، فبنى عمرو بن العاص المسجد الجامع في الفسطاط سنة ٢١ هـ ولما كان هذا المسجد أول جامع بنى في مصر الإسلامية فقد عرف باسم تاج الجوامع والجامع العتيق وجامع عمرو بن العاص وكان المسلمون يقيمون في المسجد الجامع شعائرهم الدينية فيقيمون فيه الصلوات الخمس ويجمعون الجمع ، كذلك كان المسجد الجامع بمثابة مدرسة دينية يتعلم فيه الناس الدين الإسلامي كما كان مركزاً للقضاء^(٢) وقد ظل جامع عمرو بن العاص المسجد الجامع الوحيد في مصر في عهد الولاة إلى أن بنى الفضل بن صالح بن علي العباسي في ولايته على مصر من قبل الخليفة المهدي جامع المسكر في سنة ١٦٩ هـ في مدينة المسكر التي اختطها العباسيون في سنة ١٣٣ هـ . وبعد عهد الولاة كثر بناء الجوامع في مصر وخاصة في عهد المهاليك . على أن جامع عمرو وهو أقدم جامع في مصر ظل موضع عناية حكام مصر في عصورها المختلفة . فبالرغم من أن بناءه كان بسيطاً جداً في أول عهد الفتح رى أن ولاية مصر وحكامها في العصور المختلفة يهتمون بتوسيمه وإقامة المنابر والمحارِب له وتزيينه

(١) على بهجت بك والبير جبريل : كتاب حفريات الفسطاط

(٢) انظر Johs. Pedersen : Art. Msadjid, Ecnyclopaedia of Islam

Vol. III. pp. 325-331, 346-350

وفي هذا المقال يتكلم عن المسجد باعتباره مكاناً دينياً للعبادة يصل فيه الناس ويجمعون الجمع ويتلى فيه القصص الدينية والخطب وباعتباره مركزاً للإدارة العامة فنبه كان يجلس عامل الخراج كما كان يعتبر مركزاً للقضاء ومعهداً علمياً ومكتبة أيضاً /

بشتى الزخارف المعمارية إلى غير ذلك مما يبين لنا تطور الفن الإسلامي في مصر كما يبين لنا عناية حكام مصر بأول جامع بنى فيه .

كذلك اختط العرب مدينة الجيزة . فمئذ ما اختطت القبائل الفسطاط نزلت همدان موضع الجيزة . وكتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب بذلك فكتب إليه عمر « كيف رضيت أن تفرق أصحابك ولم يكن ينبغي لك أن ترضى لأحد من أصحابك أن يكون بينك وبينهم بحر لا تدرى ما يفحاهم فلعلك لا تقدر على غيائهم حين ينزل بهم ما تكره فاجمعهم إليك فإن أبوا عليك وأعجبهم موضعهم بالجيزة وأحبوا ما هنالك فابن عليهم من في المسلمين حصناً » فلما عرض عليهم عمرو بن العاص رأى أمير المؤمنين فضلوا النقاء بالجيزة فبنى لهم عمرو بن العاص الحصن بالجيزة في سنة ٢١ هـ وفرغ من بنائه سنة ٢٢ هـ واختطوا في الجيزة خططا عرفت بهم مثل خطط الفسطاط^(١)

ونزل قوم من العرب في الإسكندرية ، على أن الإسكندرية لم يكن فيها خطط وإنما كانت « أحاذث » ، أى من أخذ منزلا نزل فيه ، ويقال إن الربير بن العوام اختط بالإسكندرية^(٢) .

وهكذا نرى أن العرب الذين استقروا في مصر ومعظمهم من النخبة كانوا يقيمون في الفسطاط أو الجيزة أو الإسكندرية . وقد حرم عليهم عمر ابن الخطاب الاشتغال بالزراعة أو امتلاك الأرض فلم يكونوا يعمون بغير السياسة والحكم والحرب ولذا لم يختلط العرب بالمصريين في البداية ولم يكن لهم تأثير يذكر على القبط سواء أكان هذا التأثير من ناحية انتشار الدين

(١) ابن عبد الحكم — طبعة تورى من ١٢٨ — ١٢٩ وخطط القرظي

ج ١ ص ٢٠٦ والسيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ٥٩

(٢) ابن عبد الحكم ص ١٣٠ والسيوطي : حسن المحاضرة ص ٥٨

الإسلامي أو اللغة العربية . وكان اختلاط القبائل العربية بأهل مصر عن طريق الزواج أو الولاء نادراً في أول الأمر وكان العرب أقلية ضئيلة في مصر في ذلك العهد .

على أن أغلب الولاة الذين حكموا مصر في فجر الإسلام كانوا يصحبون معهم جيوشاً عربية حتى نهاية العهد الأموي أو عربية ومن شعوب أخرى غير العرب كالحرسانيين والآتراك في العصر العباسي . فكانت القبائل العربية تغد باستمرار إلى مصر إما مع الولاة أو يبعث بها الخلفاء لتميز الجند واستيطان البلاد ، ولذا نرى أن عدد الجند في مصر أيام معاوية بن أبي سفيان بلغ أربعين ألفاً^(١) .

وكانت الأغلبية في مصر من عرب اليمنية أو عرب الجنوب ، وكانت قيس^(٢) أو عرب الشمال عامة أقلية بمصر . فمئذ ما ولي مروان بن الحكم ابنه عبد العزيز بن مروان على مصر في سنة ٦٥ هـ قال عبد العزيز : يا أمير المؤمنين كيف المقام ببلد ليس به أحد من بني أبي^(٣) ؟ فلما جاء عهد هشام ابن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥ هـ) حدث تطور في تاريخ القبائل العربية بمصر ، ذلك أنه في ولاية الوليد بن رفاعة الفهمي (١٠٩ - ١١٧ هـ) نقلت إلى مصر بطون كثيرة من قيس . ولم يكن للقيسية قبل ذلك عدد كبير في وادي النيل^(٤) . وقد حدث هذا النقل حين وفد عبید الله بن الجحباب

(١) ابن الحكم . طبعة تورى ص ١٠٢ والمقريري ج ١ ص ٩٤

(٢) غلب اسم قيس على سائر العدنانية أو عرب الشمال حتى جعل في المثل مقابل عرب اليمن فاطبة فيقال قيس وعين (القلقشندي : صبح الأعشى ج ١ ص ٣٣٩)

(٣) السكندی ص ٤٧

(٤) ويخالف بما كايكل Macmichael المؤرخين العرب في ذلك فيرى أنه بين

سنتي ٧٠٩ - ٧٢٧ (٩١ - ١٠٩ هـ) حكم مصر ثلاثة من الحكام القيسيين =

على الخليفة هشام بن عبد الملك في سنة ١٠٩ هـ وسأله أن ينقل إلى مصر بيوتاً من قيس إذ لم يكن في مصر حتى ذلك الوقت إلا نفر قليل منهم ، فأذن له هشام في ترحيل ثلاثة آلاف منهم وتحويل ديوانهم إلى مصر على ألا ينزلم القساط . فقدم بهم ابن الحبحاب وأنزلم الحوف الشرقي وفرقهم فيه^(١) وقد جاء في الكندي أن عبيد الله بن الحبحاب لما ولاء هشام على مصر قال : « ما أرى لقيس فيها حظاً إلا للناس من جديدة ، وهم فهم وعدوان . فكتب إلى هشام : إن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه قد شرف هذا الحى من قيس ونمشهم ورفع من ذكركم ، وإنى قدمت مصر فلم أر لهم فيها حظاً إلا آياتاً من فهم ، وفيها كور ليس فيها أحد وليس يضرب بأهلها نزلهم معهم ، ولا يكسر ذلك خراجاً ، وهى بلبيس ، فإن رأى أمير المؤمنين أن ينزلها هذا الحى من قيس فليفعل . فكتب إليه هشام . أنت وذلك . فبعت إلى البادية ، فقدم عليه مائة أهل بيت من بنى نصر ، ومائة أهل بيت من بنى عامر ، ومائة أهل بيت من أبناء هوازن ، ومائة أهل بيت من بنى سليم . فأنزلم بلبيس وأمرهم بالزرع ، ونظر إلى الصدقة

== قبل الوليد بن رفاعة الفهمى : اثنان من فهم وواحد من عيس ولا بد أن يكون صحب هؤلاء أعداد كثيرة من قبائلهم كذلك كان في القساط زمن الفتح خطة لكنانة فهم ونحن نعلم بأنه كانت هناك خطة في القساط لكنانة فهم وأنه بين سنتي ٩١ — ١٠٩ هـ ولى مصر قرة بن شريك العيسى (٩٠ — ٩٦ هـ) ثم عبد الملك بن رفاعة ابن خالد بن ثابت الفهمى (٩٦ — ٩٩ هـ) وولى عبد الملك بن رفاعة مرة ثانية سنة ١٠٩ هـ حوالى خمسة عشر يوماً . ولكن ذلك ليس معناه أن قبائل قيس بمصر كانت عديدة . وقد رأينا من تخطيط القساط أن معظم القبائل تكاد تكون كلها يمنية . ولم نسمع أى ذكر عن قبائل قيس بمصر قبل زمن هشام بن عبد الملك ولذا نرى أن بأخذ بكلام المؤرخين العرب في هذه المسألة وربما حل الخليفة هشام على ألا ينزل قيساً بالقساط وجود اليمنية بها نفى الخليفة من وقوع المنازعات بينهم .

(١) الكندي ص ٧٦ والمريزي : البيان والإعراب ص ٥٠ .

من المشور فصرفها إليهم ، فاشتروا إبلًا . فكانوا يحملون الطعام إلى القلزم ، وكان الرجل يصيب في الشهر المشرة دنانير وأكثر وأقل . ثم أمرهم باشتراء الخيول ، فجعل الرجل يشتري المهر ، فلا يمكث إلا شهراً حتى يركب ، وليس عليهم مؤونة في إعلاف إبلهم ولا خيلهم لجودة مرعاهم . فلما بلغ ذلك عامة قومهم تحمل إليهم خمسمائة أهل بيت من البادية ، فكانوا على مثل ذلك ، فأقاموا سنة فأتاهم نحو من خمسمائة من أهل بيت ، فات هشام ببليس ألف وخمسمائة أهل بيت من قيس^(١) .

أى أن العرب في زمن الخليفة هشام بن عبد الملك أخذوا يتخلون عن السياسة التي اتبموها منذ الفتح وهي سياسة الترفع عن الاختلاط بالأهالي وعن الاشتغال بالزراعة . وقد وافق قدوم هذه البطون القيسية إلى مصر في سنة ١٠٩ هـ قيام ثورات الأقباط التي بدأت في سنة ١٠٧ هـ . وقد يكون الخليفة أراد بنقل هذه البطون إلى مصر والسماح لها بالاشتغال بالزراعة أن يتقوى المسلمون بالعرب ضد الأقباط الذين بدأوا ثوراتهم ، أو أن يحل العرب محل من يموت من الأقباط في هذه الثورات ، أو من يهجر أرضه ، وذلك حتى لا يصيب الزراعة ضرر . وقد ساعد وجود العرب في القرى واشتغالهم بالزراعة على الاختلاط بالأهالي ، وكان لهذا الاختلاط أثره في انتشار الإسلام بمصر نتيجة للتزاوج أو للموالة بينهم وبين أهالي البلاد . ولذا يقول المقرئ^(٢) « ولم ينتشر الإسلام في قرى مصر إلا بعد المائة من تاريخ الهجرة عند ما أنزل عبيد الله ابن الحبحاب مولى سلول قيسا بالحوف الشرقى . فلما كان بالمائة الثانية من سنى الهجرة كثر انتشار المسلمين بقرى مصر ونواحيها » .

(١) الكندي : ص ٧٦ - ٧٧ ، والمقرئ : البيان والإعراب ص ٥٠ - ٥١

(٢) المخطوط ج ٢ ص ٢٦١

ويذكر لين بول^(١) أن الذي دعا عبيد الله بن الحبحاب إلى إحضار قيس إلى مصر هو ما رآه من عدم انتشار الإسلام بين الأقباط . ولكننا لا نعرف مرجعاً قديماً يؤيد هذا القول .

أخذت القبائل العربية بمد ذلك نفد إلى مصر وتستقر في القرى المصرية . ويذكر المؤرخون أنه في زمن مروان بن محمد عند ما ولى الحوثة ابن سهيل الباهلي مصر (١٢٨ - ١٣١ هـ) مالت إليه بطون قيس ، فأتى مروان وبها ثلاثة آلاف أسرة منهم ، ثم توادوا وقدم عليهم من البادية كثير من ذوى قربانهم^(٢)

ويظهر أن القبائل العربية أخذت تفد إلى مصر باستمرار ، وأخذت تصاهر أهل البلاد ، ومن قدم إلى مصر في ذلك العهد أولاد الكنز ، وأصلهم من ربيعة بن معد بن عدنان ، أى من عرب الشمال . وكانوا ينزلون اليمامة ، وقد قدم كثير منهم إلى مصر في خلافة المتوكل على الله العباسي (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ) بعد سنة ٢٤٠ هـ ، وانتشروا في أنحاءها ، ونزلت طائفة منهم بأعلى الصعيد ، وكانت البجة تشن الغارات على القرى الشرقية في كل وقت حتى أخبروها ، فقامت بطون ربيعة تصدمهم ، ثم تزوجوا منهم واستولوا على معدن الذهب بوادى العلاقى ، فكثرت أموالهم وأصبحوا في سعة من العيش . وبلاد البجة كما يذكر المقرئى^(٣) تمتد من صحراء قوص إلى أول بلاد الحبشة ، ولم يهتم العرب عند ما فتحوا مصر بإخضاعها .

(١) A History of Egypt in the Middle Ages p. 28

(٢) الكنبى ص ٧٧ والمقرئى : البيان والإعراب ص ١

(٣) المقرئى : البيان والإعراب ص ٣٨

(٤) خطلط المقرئى ج ١ ص ١٩٤

ويذكر المؤرخون أن عبد الله بن سعد عند ما قفل من غزو النوبة سنة ٣١ هـ تجمع له البجة على شاطئ النيل ، فسأل عنهم وهان عليه أمرهم ، فتركهم ولم يكن لهم عقد ولا صلح ، وأول من صالحهم عبید الله بن الحبحاب^(١) ، ولكنهم كثيراً ما كانوا يغيرون على مصر فخاربههم الخليفة الأمون ، وأصبحت بلاد البجة تابعة للخلافة بمقتضى عهد عقد بين الخليفة وبين رئيسهم في سنة ٣١٦ هـ ، ولكنهم ما لبثوا أن عادوا إلى الإغارة على صعيد مصر ، فخاربههم الخليفة المتوكل العباسي ، وسار رئيسهم إلى الخليفة المتوكل بسر من رأى في سنة ٣٤١ هـ ليقدم إليه فروض الولاء والطاعة . ولما تسامع الناس بوجود معدن التبر في أرض البجة وفدوا إلى أرضهم ، فقدم عليهم أبو عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحميد العمري بعد محاربه النوبة في سنة ٢٥٥ هـ ومعه بطون من ربيعة وجهينة وغيرهم من العرب^(٢) .

على أن ازدياد القبائل العربية بمصر سبب كثيراً من الاضطرابات فيها ، فمن منازعات قبلية بين القيسة واليمينية ، ومن منازعات بين العرب وأهالي البلاد الأصليين ، فضلاً عن أن العرب بمصر كثيراً ما كانوا يشتركون في المشاكل التي قامت حول الخلافة كما بينا سابقاً ، وتقدر زيادة عددهم بمصر بقدر ما كانت تزيد مشاكلهم واضطراباتهم فيها

كذلك لما أصبح للعرب في مصر حق امتلاك الأرض وزراعتها وجب عليهم دفع الخراج ، فكان ذلك سبباً لبعض الثورات . وقد بدأ العرب في مصر يشتغلون بالزراعة في أواخر العهد الأموي ، وقامت ثوراتهم

(١) ابن عبد الحكم طبعة توري ص ١٨٩ وخطط المقرئ ص ١٠٥

(٢) خطط القرئ ص ١٠٥ - ١٩٦

من أجل الخراج في العهد العباسي ، وتمددت تلك الثورات ، ففي ولاية موسى بن مصعب الخثعمي على مصر من قبل الخليفة المهدي (١٦٧ — ١٦٨ هـ) تشدد في جباية الخراج ، وزاد على كل فدان ضعف ما كان يجبي عليه وجعل خراجاً على أهل الأسواق وعلى الدواب حتى قال الشاعر :

لو يعلم المهدي ماذا الذي . يفعله موسى وأيوب

بأرض مصر حين حلا بها لم يتم في النصح يعقوب

وقد ثار أهل الحوف من أجل ذلك وطرودوا عمال الوالي ، ولم تهدأ ثورة الحوف إلا في ولاية الفضل بن صالح بن علي العباسي سنة ١٦٩ هـ^(١) .

وفي خلافة هارون الرشيد ولي مصر إسحاق بن سليمان العباسي (١٧٧ — ١٧٨ هـ) فزاد الخراج على المزارعين زيادة أجحفت بهم ، وأثارت أهل الحوف ، فبعث إليهم جيوشاً لم تنل منهم شيئاً ، فأرسل إلى هارون الرشيد يخبره بذلك ، فبعث الخليفة بجيش على رأسه هرثمة ابن أعين . وكانت النتيجة أن رضخ أهل الحوف وأدوا الخراج^(٢) .

وثار أهل الحوف أيضاً في ولاية الليث بن الفضل (١٨٢ — ١٨٧ هـ) ذلك لأن الليث بعث بمساح يمسخون الأراضي الزراعية ، فانتقصوا من القصبه أصابع ، فتظلم الناس إلى الليث فلم يسمع منهم ، فساروا إلى القسطنطينية لمحاربة الوالي ، فخرج إليهم الوالي سنة ١٨٦ هـ فانهزم أولاً ، ولكن ما لبثت الدائرة أن دارت على أهل الحوف ، غير أنهم مع هذا منعوا الخراج ، فخرج الليث إلى أمير المؤمنين في المحرم سنة ١٨٧ هـ ،

(١) الكندي ص ١٢٥ — ١٢٩

(٢) الكندي ص ١٣٦ وخط المقرئ ص ١٠ ص ٨٠ وأبو الحسن: النجوم

الزاهرة ج ٢ ص ٨٧ — ٨٨

وطلب منه أن يرسل معه جيشاً يساعده في جباية الخراج ، ولكن محضوظ ابن سليمان ضمن للخليفة جباية الخراج كله بلا سوط ولا عصا فولاه الرشيد الخراج وصرف الليث عن صلاة مصر وخراجها^(١) .

وفي ولاية الحسين بن جميل (١٩٠ - ١٩٢ هـ) على مصر امتنع أهل الحوف عن أداء الخراج ، وقاموا بأعمال كثيرة في التخريب والنهب وقطع الطريق ، وأغاروا على قرى من فلسطين ، فبعث الخليفة الرشيد يحيى بن معاذ على رأس جيش أفلح في إخضاعهم سنة ١٩١ هـ .

وقد تناهت ثورات القبائل العربية في مصر من أجل الخراج ، فقامت ثورة في ولاية عيسى بن يزيد الجلودي على مصر (٢١٢ - ٢١٤ هـ) ، وهزم الثوار جيوش هذا الوالي سنة ٢١٤ هـ .

وعزل بعدها عيسى بن يزيد عن إمارة مصر وولى عمير بن الوليد من قبل المتصم في صفر سنة ٢١٤ ، فأرسل جيشاً لمحاربة أهل الحوف ليردهم إلى الطاعة ، وفي تلك الأثناء أراد الخليفة المأمون أن ينهي ثورتهم عن طريق السلم لا عن طريق الحرب ، فأرسل أبا خالد المهلبى إلى اليمنية ومحمد ابن دواله العيسى إلى العبسية أو القيسية لمفاوضة الثائرين في أمر الصلح ، ولكنهما لم يفلحا في مهمتهما السلمية ، وأقبل أهل الحوف على القتال ، وقد قتل الوالى عمير أثناء محاربتهم لهم في ربيع الآخر سنة ٢١٤ هـ بعد أن ولى مصر ستين يوماً^(٢) ، فأرجع المتصم عيسى بن يزيد الجلودي إلى منصب الوالى (٢١٤ - ٢١٥ هـ) وسير عيسى جيوشه لمحاربة أهل الحوف ، وحدثت بينه وبينهم وقائع انتهت أمرها بأن فر الوالى منهزماً إلى القسطنطينية

(١) الكندي ص ١٤٠ وخطط المقرئى ج ١ ص ٨٠

(٢) الكندي ص ١٨٥ - ١٨٦

في رجب سنة ٢١٤ هـ . تقدم المتصم صاحب إقطاع مصر على رأس جيش من أرسنة آلاف من جنده الترك لإخماد تلك الثورة ، وانتصر على أهل الحوف انتصاراً باهراً ، وقتل زعماءهم ، ثم خرج من مصر في المحرم سنة ٢١٥ هـ .

وكانت آخر ثورات العرب بمصر من أجل الخراج تلك التي قامت في سنة ٢١٦ هـ في ولاية عيسى بن منصور والتي اشترك فيها العرب مع الأقباط وانتهت بقدم المأمون إلى مصر لإخضاعها^(١)

وكان العرب إلى عهد الخليفة المتصم (٢١٨ — ٢٢٧ هـ) يتميزون عن الأقباط الذين أسلموا ، فكانوا يأخذون المطاء ، بينما يحرم منه أهل البلاد الذين يمتنعون الإسلام .

وكثيراً ما كان أهل البلاد يشعرون بأنهم دون العرب مهما أسلموا ، فتذكر الروايات أن نفرأ من العرب كانوا يتحرشون بأهل الحرس^(٢) ، ويؤذونهم ، فذهب أهل الحرس إلى زكرياء بن يحيى كاتب العمري قاضي مصر إذ ذاك من قبل الخليفة هارون الرشيد (١٨٥ — ١٩٤ هـ) وكان هذا الكاتب منهم ، فقالوا له : حتى متى تؤذى ويظمن في أنسابنا ؟ فأشار عليهم زكرياء بجمع مال يدفعونه إلى العمري — وكان ذلك القاضي ممن عرفوا بقبول الرشوة — ليسجل لهم سجلاً بإثبات أنسابهم ، فجمعوا له ستة آلاف دينار ، وشهد جماعة لهم بأنهم عرب^(٣) .

ويقال إنه لما ولي قضاء مصر هاشم بن أبي بكر البكري من قبل

(١) الكندي ص ١٩٠ — ١٩٢

(٢) حرس بالتحريك قرية في شرق مصر (ياقوت . معجم البلدان ج ٢ ص ٢٣٩) والظاهر أن أهلها كان يشك في عربيتهم وكانوا يعدون من القبط الذين أسلموا .

(٣) الكندي ص ٣٩٧ — ٣٩٩

الأمين (١٩٤ - ١٩٦ هـ) بث بعض العرب في مصر وفدأ إلى الخليفة
وذكروا ما فعل العمري مع أهل الحرس ، وأنه الحقهم بالعرب ونسبهم إلى
حوتكة بن أسلم بن الحاف بن قضاة ، فيمث الأمين إلى البكري بكتاب
يذكر فيه أنه لا يمنع أحداً من غير العرب اللحاق بالعرب ويأمره أن يردم
إلى ما كانوا عليه من أنسابهم ، فرجع الوفد بذلك . ودعا البكري أهل
الحرس بالسجل الذي دونه العمري لهم ، فأتوه به فزقه وقال لهم : العرب
لا تحتاج إلى كتاب من قاض ، إن كنتم عرباً فليس ينازعكم أحد^(١) .

* * *

وقد تم اندماج العرب بالمصريين زمن الخليفة المعتصم العباسي إذ كانت
سياسة هذا الخليفة منذ كان ولياً للمهد تنطوي على الاعتماد على الأتراك وعدم
الثقة بالعرب أو الفرس . فلما بويع بالخلافة أرسل إلى والي مصر كيدر نصر
ابن عبد الله (٢١٦ - ٢١٩ هـ) يأمره بإسقاط من في الديوان من العرب
وقطع أعطياتهم فتم ذلك^(٢) . ويظهر أن الاختلاط في ذلك الوقت كان
قد عظم بين العرب وبين أهل البلاد ، بدليل أن قرار المعتصم بصرفهم عن
ديوان الجند لم يكن له رد فعل عنيف . فمند ما قطع كيدر العطاء ثار يحيى
ابن الوزير الجروي في جمع من ظم وجذام وقال : « هذا أمر لا تقوم
في أفضل منه لأنه ممننا حقنا وفيئناً » . ولكن لم يتبعه أكثر من خمسمائة
رجل . ومات كيدر في ربيع الآخر سنة ٢١٩ هـ فخرج مظفر بن كيدر والي
مصر من بعده إلى يحيى بن الوزير وقاتله في بحيرة تيس فأسر يحيى بن الوزير ،
وتفرق عنه أصحابه في جمادى الأولى سنة ٢١٩ هـ^(٣) .

(١) الكندي ص ٤١٢ - ٤١٥

(٢) الكندي ص ١٩٣ وخطط المقرئ ج ١ ص ٩٤

(٣) الكندي ص ١٩٤ وخطط المقرئ ج ١ ص ٩٤

ونلاحظ أن العرب في مصر احتفظوا بالانتساب لقبائلهم حوالى قرنين من الزمان ، فإننا نرى في معظم شواهد القبور التي اكتشفت حديثاً في مقابر أسوان والفسطاط أن أسم الميت يتبع باسم قبيلته في خلال القرنين الأولين للهجرة ، ولكن في خلال القرن الثالث الهجرى نجد أن اسم القبيلة قد حل محلها اسم الجهة أو الاقليم الذى ينتسب اليه المتوفى ، فيكتب فلان الكوفى أو المصرى الخ^(١)...

وهذا يدل على أنه في القرن الثالث الهجرى أصبح العرب في مصر لا يتميزون عن أهل البلاد . ولم يكن هناك بعد قرار المتصم ما يُحسد عليه العرب من نسل الفاتحين . إذ أنه بعد ما فقد العرب مركزهم السامى في الدولة الإسلامية ، اضطروا إلى الانتشار في الريف والاختلاط بالمصريين والتزوج من بناتهم والاشتغال بالزراعة والصناعة والتجارة ، وغير ذلك من الأعمال التى كانوا يترفعون من قبل عن الاشتغال بها . فكان هذا العمل الذى قام به المتصم ضد العرب مما أفاد الإسلام في مصر وساعد على انتشاره بين المصريين كما كان له أكبر الأثر في انتشار اللغة العربية بمصر وقضاءها على اللغة القبطية .

والحق أن انتشار الإسلام بمصر لم يكن كله راجعاً إلى تأثير الحكومة المركزية بدار الخلافة ، بل انتشر الإسلام منذ أول الفتح بتأثير عوامل أخرى . فلقد اعتنق بعض الأقباط الدين الإسلامى منذ البداية حباً في الانباء إلى دين الطبقة الحاكمة والتمتع بما لها من حقوق ، والمغلوب مولع أبداً بتقليد الغالب ، على حد قول ابن خلدون .

(١) Wiet : Précis de l'hist. d'Egypte. t. 11. pp. 136 — 137

ولا ريب في أن فريقاً من القبط أقبلوا على إعتناق الدين الإسلامي عن إيمان وإقتناع ، ولعل فريقاً كان قد ملأ الخلفات الدينية التي كانت تقسم العالم المسيحي في ذلك الوقت ، والأضطهاد الذي كان يتعرض له أصحاب المذهب الذي لا تؤيده الحكومة السائدة .

وقد تبع انتشار الإسلام في مصر انتشار اللغة العربية فيها أيضاً ، فأصبحت لغة الكتابة ولغة التخاطب . على أن انتشار اللغة العربية بمصر كان أبداً من انتشار الدين الإسلامي فيها . وقد عرفنا مما سبق كيف كان احتلال العرب سبباً في إنعاش اللغة القبطية في أول الأمر ، بعد أن كانت اللغة اليونانية حتى الفتح العربي هي اللغة الرسمية للحكومة وللكنيسة والتعليم والتجارة والعلاقات الخارجية . ولا نعرف بالضبط متى أصبحت اللغة العربية لغة التخاطب بين المصريين ، وإنما لا بد أن الذين اعتنقوا الدين الإسلامي كانوا يتعلمون اللغة العربية ، لغة القرآن . كذلك اضطر الأقباط الذين كانت تستخدمهم الحكومة العربية إلى تعلم تلك اللغة منذ أن أصبحت لغة الدواوين الرسمية سنة ٨٧ هـ فضلاً عن أن هجرة القبائل العربية إلى مصر واستقرارها بها قد ساعد على جعل تلك اللغة لغة التخاطب بين أهل البلاد .

ويذهب القس رنودو Renaudot إلى أنه بعد فتح العرب لمصر بنحو قرن ، تلاشت اللغة القبطية نهائياً في معظم القطر المصري ، ولم تعد تعرف إلا بين العلماء الذين كانوا يدرسون تلك اللغة دراسة خاصة^(١) .
ولكننا نستبعد ذلك الرأي . ففي عهد الخليفة المأمون الذي أصبح

Quatremere : Recherches sur la langue et la littérature de (١)

فيه الشعب المصري ، يدين معظم أفراده بالإسلام ، كانت اللغة القبطية لا تزال لغة التخاطب بين المصريين . ويدلنا على ذلك ما ذكره القيرزي^(١) في كلامه عن زيارة المأمون لمصر إذ يقول : « وكان لا يمشی أبداً إلا والتراجمة بين يديه من كل جلس »

ولكننا نرى البطرک المکاني سميد بن بطريق يكتب كتابه في التاريخ باللغة العربية ، وذلك في القرن الرابع الهجري . وكذلك نرى ساويرس أستف الأثمونيين يؤرخ للبطاركة في أواخر القرن الرابع الهجري باللغة العربية ، ويقوم بجمع الوثائق اليونانية والقبطية وترجمتها ، مما يدلنا على أن اللغة العربية أصبحت لغة الكلام ولغة التخاطب بين المصريين عامة ولم تمد اللغة القبطية تفهم بين عامة الشعب .

ويذكر متر أن القبط لم يبدأوا في ترك لغتهم القبطية إلا حوالي أواخر القرن الرابع الهجري^(٢)

ولكن ليس معنى هذا أن اللغة القبطية اندثرت أو زالت نهائياً وإنما بقيت محصورة في نطاق ضيق ، ولا زالت تدرس إلى اليوم ، كما أن كثيراً من الكلمات العامية التي نستعملها اليوم ترجع إلى اللغة القبطية^(٣) .

ولاريب في أن انتشار اللغة العربية في مصر ميزة للعرب على غيرهم من الفاتحين ، فإن الشعوب المختلفة التي توالت على مصر قبل العرب لم تستطع القضاء على لغة المصريين .

وهذه ظاهرة تستحق إيمان النظر ، لأن تنازل شعب عريق في للدنية

(١) الخطط ج ١ س ٨١

(٢) الحضارة الإسلامية ج ١ س ٨٩

(٣) Dr. Georgy Sobhy bey : The Survival of Ancient Egypt

كالشعب المصري ، عن لفته ، واتخاذ لغة شعب لا يوازيه في الحضارة أمر غير عادي .

ولم يقف الأمر عند انتشار اللغة العربية بل إننا نجد مصر في أواخر عصر الولاة تشارك في الحياة الأدبية العربية مشاركة تبدو واضحة منذ آخر القرن الثاني الهجري فيظهر فيها من له شأن في العلم باللغة العربية وآدابها إذ نسمع حين قدوم الإمام الشافعي إلى مصر ، وهو الإمام في العربية وعلوم الدين ، أنه التقى برجل من أهل مصر يعرف باسم « سرج النول » ، وكان هذا الرجل حجة في اللغة ، وكان الأمام الشافعي شديد الأتس به ، يقول لتلميذه الربيع بين حين وآخر . « يا ربيع ادع لي سرجا » فيأتي به ويذآكره الشافعي وينظره ويمجبه بقرارة علمه حتى يقول بعد انصرافه . « يا ربيع نحتاج أن نستأنف طلب العلم . »^(١)

ونبع في مصر في القرن الثاني الهجري وبداية الثالث مثل أبي عبد الله أحمد بن يحيى التجيبي ولاء ، المصري ، الحافظ النحوي ، أحد الأئمة الذي كان من أعلم أهل زمانه بالشعر والأدب والتاريخ وعلوم الدين « وفي هذا ما يشهد بشتراك مصر في الحركة الأدبية العربية اشتراكا قويا منذ ذلك العهد »^(٢)

وكانت مصر إحدى الأمم القليلة التي تخلت نهائيا عن ماضيها الوطني وعن لغتها القديمة ومرت بنفسها في أحضان الإسلام والمدنية الإسلامية فلم يقض فتح العرب لإيران والمهند على لغتهما القومية ولم يقض على العقائد

(١) السبوطي : بنية الرواة في طبقات اللغويين والنحاة ص ٢٥٢

٢ والأستاذ أمين الحولي : مصر في تاريخ البلاغة ص ٨

(مجلة كلية الآداب — المجلد الثاني ج ١ سنة ١٩٣٤ م)

(٣) الأستاذ أمين الحولي ، المرجع نفسه ص ٨

الدينية التي وجدت فيهما قبل الفتح قضاء تاما . ولم يمنع اعتناق الأتراك للدين الاسلامي من الاحتفاظ ببلقمتهم القومية . ونرى الأندلس ، التي كانت تزدهر فيها حضارة إسلامية بعد أن فتحتها العرب ، تغلب على أمرها في أواخر العصور الوسطى وتمود ثانية دولة مسيحية الدين بمبيدة عن اللغة العربية^(١) .

ونجد مصر في الفترة ما بين الفتح العربي والفتح المماني لا تصبح دولة إسلامية تحسب بل تزعم العالم الإسلامي كله ، فبعد أن كانت مصر خاضعة للخلافة في عهد الولاة نجدها تصبح مركزاً للخلافة الفاطمية (٣٦٢ - ٥٦٧ هـ) التي نافست الخلافة المباسية في وقت ما ، ثم نجد مصر تصبح مركزاً للخلافة المباسية بعد زوالها من بغداد على أيدي المتول في سنة ٦٥٦ هـ وانتقالها إلى مصر في عهد الظاهر بيبرس سنة ٦٦١ هـ ، تلك الخلافة التي ظلت قائمة بها إلى الفتح المماني سنة ٩٢٣ هـ ، أي أن مصر في هذه المرة بعد فتح العرب لها خرجت نفورة بمحضارتها الإسلامية وبزعامتها للعالم الإسلامي أجمع . وحسبنا دليلا على علو مركز مصر في العالم الإسلامي منذ العصور الوسطى أن نذكر قول ابن خلدون . « ولا أوفر اليوم في الحضارة من مصر فهي أم العالم وإيران الإسلام ، وينبوع العلم والصنائع^(٢) » .

(١) الدكتور زكي محمد حسن : مصر والحضارة الإسلامية ص ٢٤

(٢) المقدمة . ص ٤٨١ (فضل في أن حلة العلم في الإسلام أكثرهم من العجم)

الباب الرابع

حضارة مصر في فجر الاسلام

١ - الزراعة

تعتمد مصر اعتماداً رئيسياً في ثروتها على الزراعة وكانت الزراعة مصدر خيراتها الوفيرة . ولم يختلف العرب عن غيرهم من الفاتحين الذين تابعوا على البلاد المصرية منذ القدم فقد جاءوا لفتحها وهم يعلمون بثروتها وخيراتها . وكثيراً ما أظهروا إعجابهم بتلك الخيرات والنعم التي خص بها الله مصر والمصريين . ومن هذه الخيرات الوفيرة كانت مصر تقدم للفاتحين المال والطعام فلا عجب إذا قال عمرو بن العاص : « ولاية مصر جامعة^(١) ، تعدل الخليفة^(٢) » . وقال عبد الله بن عمرو بن العاص : من أراد أن يذكر الفردوس أو ينظر إلى مثلها في الدنيا فلينظر إلى أرض مصر حين يخضر زرعها وتُنور ثمارها^(٣) . ولعل أبداع وصف ، وصفه العرب لمصر ، ما جاء في الكتاب الذي ينسب إلى عمرو بن العاص أنه كتبه إلى الخليفة عمر بن الخطاب حين بعث إليه الخليفة يسأله أن يصف له مصر ، فقال : « أعلم يا أمير المؤمنين أن مصر قرية غبراء ، وشجرة خضراء ، طولها شهر وعرضها عشر ، يكتنفها

(١) يقصد إذا اجتمعت الامارة والولاية على الحراج لشخص واحد ، فضم إلى

الادارة العامة النظر في الأمور المالية

(٢) ابن عبد الحكم - طبعة تورى - ص ١٩٢ وخط المبريزي ج ١

ص ٢٧

(٣) خط المبريزي ج ١ ص ٢٥ .

جبل أعبر ، ورمل أعفر ، يحظ وسطها نيل مبارك الندوات ميمون الروحات
تجري فيه الزيادة والنقصان كجري الشمس والقمر له أوان ، يدر حلابه ،
ويكثر فيه دبابه ، تمد عيون الأرض ويتايمها حتى إذا ما اضلختم مجاجه
وتمظمت أمواجه ، فاض على جانبيه فلم يمكن التخلص من القرى بعضها إلى
بعض إلا في سفار الراكب ، وخفاف القوارب ، وزوارق كأنهن في الخايل
ورقُ الأمائل ، فإذا تكامل في زيادته ، نكص على عقبه كأول ما بدأ
في جريته ، وطأ في دبرته ، فمئذ ذلك تخرج أهل ملة محقورة ، وُدمة مخفورة
يمحرون باطن الأرض ويبيذرون بها الحب ، يرجون بذلك النماء من الرب ،
لغيرم ما نسوا من كدهم ، ففاله منهم بغير جدم ، فإذا أحدق الزرع
وأشرق ، سقاء الندى وغذاء من تحته الثرى ، فبينما مصر يا أمير المؤمنين
لؤلؤة بيضاء ، إذا هي عنبرة سوداء ، فإذا هي زمردة خضراء فإذا هي ديباجة
قشاه ، فتبارك الله الخالق لما يشاء ، الذي يصلح هذه البلاد وينميتها ويقر
قاطنيتها منها ، الأقبل قول خسيسها في رئيسها ، وألا يستأدى خراج ثمرة
إلا في أوانها وأن يصرف ثلث ارتفاعها^(١) في عمل جسورها وترعها ، فإذا
تقرر الحال مع الحال في هذه الأحوال ، تضاعف ارتفاع المال ، والله تعالى
يوفق في المبدأ والمآل .

وزعمرأ أن الخليفة حين ورد عليه هذا الكتاب قال : لله درك يا ابن
العاص ! لقد وصفت لي خبراً كأنى أشاهده^(٢) .

(١) الارتجاج . ثمنه الحراج أو ما يبيع من البلد .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٣٢ — ٣٣ يشك بعض الأدباء
المحدثين في نسبة هذا الكتاب إلى عمرو بن العاص . انظر كامل حسين :
(في الأدب المصري الأسلامي ص ٨٨ — ٩٠) .

ولا يشهد هذا الوصف بثروة مصر الزراعية فحسب ، بل يدل أيضاً على أن العرب كانوا يظنون أنه يجب عليهم حفر الترع وعمل الجسور وغير ذلك من الأمور التي تضمن كثرة الحراج ودوام تلك الثروة .

والواقع أن مصر كان لها مكانة خاصة عند المسلمين منذ البداية فقد ذكرت في القرآن في عدة مواضع كما ذكرت في الأحاديث النبوية . وقد كانت بعض الأحاديث التي تنسب إلى النبي عن « فضائل مصر » نواة لفصول في هذا الصدد كتبها المؤرخون والمؤلفون المصريون في العصور الوسطى ، بل ألفت كتب مستقلة عن فضائل مصر منها كتاب فضائل مصر لمعمر بن محمد الكندي وفضائل مصر لابن زولاق^(١) .

ولاريد في أن العرب كانوا يقدرّون مصر بسبب خيراتها الوفيرة الناتجة من الزراعة . وكانت مصر كما هي الآن تنتج الحبوب بكثرة وخاصة القمح وكذلك الخضروات والفواكه ، وكان يزرع فيها الكتان بكثرة . فكثيراً ما نرى الإشارة إلى زراعته في أوراق البردي^(٢) التي ترجع إلى عصر الولاة . وتشير أوراق البردي التي ترجع إلى القرن الثاني الهجري إلى زراعة قصب السكر فيها^(٣) . وقد نسب إلى الأمام الشافعي ، الذي عاش بمصر في أواخر القرن الثاني ، أنه قال : « لولا قصب السكر ما أمت بمصر^(٤) » .

(١) أنظر . التويرى : نهاية الأرب ج ١ ص ٣٣٤ - ٣٤٣ ، خطط الميريزي ج ١ ص ٢٣ - ٣٠ الدكتور زكي محمد حسن : مصر والحضارة الإسلامية . ص ٣٠ ونذكر بهذه المناسبة أن هناك نسخة خطية لكتاب فضائل مصر للكندي بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٢٢ كما أن هناك نسخة خطية لكتاب ابن زولاق بمكتبة الأزهر تحت رقم ٦٦٩ .

(٢) Grohmann : Arabic Papyri, vol. 2 p.p. 44, 46-48. (٢)

(٣) واظنر أيضاً آدم متز : الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٢٦١

PapyrusErzherzog Rainer. Führer durch die Ausstellung p. 183

(٤) السيوطي : حسن المحاضرة (ج ٢ فصل ذكر الفواكه)

وكان القمح أهم ما ترسله مصر إلى الخلافة بعد الفتح فبعد أن كانت ترسل القمح سنويا إلى روما ثم بزنطة ، أصبحت بعد الفتح العربي ترسل القمح إلى الحجاز . وقد استمرت عادة إرسال القمح إلى الحجاز حتى بعد أن انتقل مركز الخلافة من الحجاز إلى الشام ثم إلى العراق . بل استمرت تلك العادة إلى اليوم . لذا يذكر المؤرخون أن من فضائل مصر أنها تميز الحرمين الشريفين وتوسع على أهلها^(١) .

ولا نعرف أن العرب ، في فجر الإسلام ، أدخلوا أصنافا جديدة من المزروعات في مصر ، أو طرقا جديدة للزراعة والرى غير تلك التي كانت موجودة في مصر . والواقع أن طريقة زراعة الأراضى في مصر ظلت كما هي منذ عهد الفراعنة ، وإن كانت قد تقدمت نوعا في عهد الرومان إلا أنها ظلت على حالها من غير تغييرات أخرى حتى أوائل القرن التاسع عشر^(٢) .

وقد كانت الطريقة الشائعة للرى حتى القرن التاسع عشر ، هي طريقة رى الحياض ، اللهم إلا في بعض الجهات التي كان يمكن ريهاريا دائما مثلما كان يحدث مثلا في أراضى الحدائق بالفيوم^(٣) . ومن الزراعات الشتوية في مصر القمح والسكتان والشمير والفول والعدس . ومن الزراعات الصيفية . القطن وقصب السكر والقلقاس والسهم واللوبيا والبطيخ والكرم والتين والتفاح والتوت واللوز والخوخ^(٤) .

وعرف العرب أن واجبههم ، كواجب أى حكومة تحكم البلاد المصرية ،

(١) النويرى : نهاية الأرب : ص ٣٤١ — ٣٥٤ (في الطبعة الأولى) خطط القرينى ج ١ ص ٢٨

(٢) Munier : L'Egypte Byzantine p. 81

(٣) Johnson: Roman Egypt vol. 2. p. 7.

(٤) خطط القرينى ج ١ ص ١٠١ — ١٠٣

أن يشرفوا على أمور الري والزراعة . فإن نظام الري والزراعة هو الذى جعل مصر أسبق الأمم منذ المصور القديمة ، إلى الوحدة والنظام وإلى الخضوع للحكومة منظمة موحدة ، تنظم الإنتاج ، وتنظم الري ، وتحفر الترع ، وتقسّم الأحواض ، وتهتم بالجسور ، وتدفع خطر الفيضان وغير ذلك من الأمور التى تتطلبها هذه البلاد ، والتى لا يستطيع الأفراد القيام بها من غير هيئة عليا تشرف عليها وتقوم بالنفقات التى تلزم لها .

ويذكر المؤرخون أنه عقب الفتح مباشرة كانت حكومة العرب تباشر حفر الترع ، وإقامة الجسور ، وبناء القناطر ، وغير ذلك مما يلزم للري والزراعة . وكان يقوم بذلك الممل صيفاً وشتاء حوالى ١٢٠٠ : ١٢٠٠ عام^(١) .

ولا تعطينا كتب التاريخ شيئاً مفصلاً عن مدى عناية العرب وإشرافهم على الري والزراعة طوال عصر الولاة . ولكن لانستبعد أن يكون الخلفاء وولاة مصر قد حذوا حذو عمر بن الخطاب وعمر بن الماص فى هذا الشأن .

كذلك نرجح أن المهال الذين كانوا يكلفون بالعناية بالترع والجسور ، وإقامة القناطر كانوا يعملون بطريق السخرة ، كما كان الحال قبل الفتح العربى . وكما كان بعد الفتح حتى المصور الحديثة . بل إن السخرة ظلت تفرض على الأهالى فى مصر فى أوقات الفيضان (ويرفها الأهالى باسم الموتة) للعناية بالجسور والمحافظة عليها حتى ألغيت فى عام ١٩٣٧ م ، وأصبح الأهالى يتقاضون أجوراً عن أعمالهم بعد أن كانوا يعملون بدون أجر .

(١) ابن عبد الحكم — طبعة تورى — ص ١٥١ . خطط القرى ج ١

ص ٧٦ ، السيوطى : حسن المحاضرة . ج ١ ص ٦٣ .

وهناك بصفة عامة نوعان من الجسور ، جسور رئيسية تهم البلاد كلها وجسور محلية تهم أهل الجهة دون الأخرى . وكان يطلق على الجسور الرئيسية في زمن المقيزي الجسور السلطانية ، وكان يطلق على النوع الآخر من الجسور ، الجسور البلدية . ويذكر المقيزي^(١) أن الجسور السلطانية من القرى بمثابة سور المدينة ، الذي يتمين على السلطان الاهتمام بعمارته ، وكفاية الرعية أمره . أما الجسور البلدية فكانت لها الدور التي من داخل السور ، فيلزم صاحب كل دار أن يصلحها ويزيل ضررها .

ويذكر المقيزي^(٢) أيضاً أنه كان يفرض على كل ناحية مال معلوم ليصرف في عمل الجسور والمحافظة عليها ، وأن ذلك بطل في زمانه . ونحن لانستبعد أن يكون العرب بعد الفتح قد جبروا ضريبة الجسور ، وأن ذلك كان استمراراً لما كان قبل الفتح ، إذ كانت تجبي ضرائب من المصريين للمحافظة على الجسور .

وقد اهتم العرب عقب الفتح مباشرة ببناء مقاييس للنيل لمعرفة مقدار الزيادة والنقصان في مياهه ، ليكون ذلك مياراً صادقاً للزراعة والرى والضرائب في كل عام . على أن العرب لم يكونوا أول من بنى مقاييس للنيل في مصر ؛ وإنما عرفت مقاييس النيل منذ التاريخ القديم . ورغم وجود مقاييس للنيل قبل الفتح العربي نرى الخليفة عمر بن الخطاب يهتم ببناء مقاييس جديدة ، وكانت مقسمة على أساس الذراع ، وكل ذراع ينقسم إلى أربعة وعشرين أصبعا^(٣) ، وقد بنى عمرو بن العاص مقاييس

(١) الخطط ج ١ ص ١٠١

(٢) الخطط ج ١ ص ١١٠

(٣) القفشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٩٩ ، خطط المقيزي ج ١ ص ٥٨

— ٥٩ أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٣١٢ — ٣١٣ ،

السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٩٧

بجلوان وأسوان ودندرة ، ثم بنى فى أيام معاوية بن أبى سفيان مقياساً بأنصنا^(١) . ثم بنى عبد العزيز بن مروان فى ولايته على مصر مقياساً بجلوان التى اتخذها عاصمة للديار المصرية . وفى خلافة سليمان بن عبد الملك بنى أسامة بن زيد التنوخى عامل الخراج مقياساً بجزيرة الروضة سنة ٩٧ هـ ثم بنى الخليفة المتوكل مقياساً بجزيرة الروضة فى سنة ٢٤٧ هـ . وكان يعرف فى ذلك العهد بالجديد^(٢) . وقد عثر على مقياس المتوكل فى جزيرة الروضة ، وقد كتبت عليه السنة ، وهى سنة ٢٤٧ هـ كما كتب عليه « بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد سيد المرسلين أمر عبد الله جعفر الإمام المتوكل على الله أمير المؤمنين ببناء هذا المقياس الهاشمى لتعرف به زيادة النيل ونقصانه ، وأطال الله بقاء أمير المؤمنين ، وأدام له العز والتكفين والظفر على الأعداء وتتابع الإحسان والنماء وزاده فى الخير رغبة وبالرعية رافة ، وكتبه أحمد بن محمد الحاسب فى رجب سنة سبع وأربعين ومائتين » . وكتب فى موضع آخر أن الماء بلغ فى السنة التى بنى فيها هذا المقياس المتوكل سبعمائة ذراعاً ومائتين وعشراً سبعمائة^(٣) .

ووطبىبى أن العرب عملوا على كل ما من شأنه زيادة الإنتاج ، لأن ذلك

(١) أنصنا وهى مدينة من نواحي الصعيد على شرق النيل (ياقوت معجم البلدان ج ١ ص ٣٨١) .

(٢) الفلقشنى : ج ٣ ص ٢٩٨ وخطط القرزى ج ١ ص ٨ وأبو الحسن ج ٢ ص ٣١٠ — ٣١١

(٣) أنظر Van Bercheu : *Materiaux pour un Corpus Inscriptionum Arabicarum. Egypte. I p. 21; Répertoire Chronologique d'epigraphie Arabe. t. 2. d.p.4,4 53, 55—56*

يكفل لهم كثرة المال وكثرة القمح . وزى في عقود إيجار الأراضي في ذلك العهد أن المؤجر يشترط على المستأجر شرطاً هذا نصه : « وما بورت فمليك خراجة^(١) » أى أنه يلزمه بدفع الخراج عن الأراضي التي يتركها دون زرع حتى تصبح أراضي بور ، وطبيعى ألا يرضى المزارع أن يدفع خراجاً عن الأراضي البور التي لا يستفيد منها ، فكان هذا الشرط يحمل المزارعين على الانصراف إلى الزراعة ، وعدم إهمال الأرض . ولعل هذا الشرط الذى اعتاد المؤجرون أن ينصوا عليه ، كان بسبب حرص الحكومة على زراعة الأرض وعدم إعفاء الأرض البور من الخراج .

وقد كانت الأراضي بمصر تقاس بالفدادين^(٢) كما هو الحال الآن وكان إيجار الأراضي يدفع نقداً أو نقداً وعتياً ، ولكننا لم نمثّر للآن على أوراق بردية تدلنا على أن الإيجار كان يدفع عينا فقط . وكان إيجار فدان القمح يتراوح في ذلك العهد الذى نتحدث عنه بين دينار ودينارين وأحياناً يزيد على الدينارين أو ينقص عن الدينار فيكون الإيجار ½ دينار أو ⅓ دينار^(٣) .

ولاشك في أن الثورات التي كانت تحدث بمصر من وقت إلى آخر كانت تسبب أضراراً كثيرة بالزراعة إذ كانت تقل بسببها الأيدي العاملة كما كان المزارعون يهجرون قراهم أحياناً . ولكن حكومة العرب عملت على قمع مثل تلك الحركات بشدة لتلافى الخطر الناتج عنها . كذلك رأينا كيف كان قرة ان شريك يتتبع حركة الحرب ليقضى عليها دون هوادة . كما أن الخلافة

(١) Grohmann : Arabic Papyri. vol.. 2. pp. 45—48. (١)

(٢) Grohmann : op. cit. pp. 32. 44. 46. 48 etc.. (٢)

op. cit. pp. 32—34. (٣)

منذ عهد هشام بن عبد الملك أخذت تشجع القبائل العربية على الوفود إلى مصر والاشتغال بالزراعة .

فصر كانت إذاً معينا فياضاً للأموال والغلال ولم تكن الخلافة لتتغل أمرها إذ أن كل ضرر يحمق بها لا بد وأنه كان يؤثر من ناحية أخرى فيما تجببه الخلافة منها .

وحسبنا دليلاً على رخاء مصر وازدهار زراعتها في فجر الإسلام ما كتبه النويري في الكلام على فضائل مصر (نهاية الأرب ج ١) ، فقد جاء فيه : « وقال سعيد بن عقبة : كنت بحضرة الأمون حتى قال ، وهو في قبة الهواء : لمن الله فرعون حين يقول : « أليس لي ملك مصر » فلو رأى العراق ! . فقلت : يا أمير المؤمنين لا تقل هذا فإن الله عز وجل قال : « ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون » فاظنك يا أمير المؤمنين بشيء دمره الله ، هذا بقيته ؟ قال : ثم قلت : لقد بلغني أن أرضاً لم تكن أعظم من مصر ، وجميع أهل الأرض يحتاجون إليها . وكانت الأنهار بقناطر وجسور وتقدير حتى إن الماء يجري تحت منازلهم وأفئتهم : يجبسونه متى شاءوا ويرسلونه متى شاءوا . وكانت البساتين بحافتي النيل من أوله إلى آخره ، ما بين أسوان إلى رشيد إلى الشام متصلة لا تنقطع . ولقد كانت الأمة تضع السكتل على رأسها فيمتلي* مما يسقط من الشجر . وكانت المرأة تخرج حاسرة لا تحتاج إلى خمار لكثرة الشجر »

٢ - الصناعة

اشتهرت مصر منذ التاريخ القديم بمدة صناعات بالرغم من أن ثروتها الرئيسية تتوقف على الزراعة. فازدهرت فيها صناعات هامة مثل صناعة البناء والورق والزجاج والنسيج والديباغة وصناعة الخشب والفنون الدقيقة كالحلي وأدوات الزينة، وصناعة الزيوت والمطور والفخار. ونلاحظ أن الصناعات التي نشأت بها كانت تتمتع في معظم الأحيان على المواد الخام المنتجة في البلاد ولكن مصر كانت تضطر إلى استيراد بعض المواد الخام من الخارج مثل الحديد والخشب والجلود والحرير.

وقد كان حكامها المختلفون يشجعون هذه الصناعات، فلما فتحتها العرب وجدوا بها صناعة مصرية راقية وأساليب فنية زاهرة. على أن العرب الذين أتوا إلى مصر لم يكونوا من البدو الذين لا حضارة لهم ولا فن، وإنما كان معظمهم من المنصر اليميني الذي اشتهر منذ القدم بحضارته الراقية وبفنونه الرائعة، ولو أن هذه الحضارة كانت قد اضمحلت عند قيام الإسلام إلا أنه كان عندهم استعداد لقبول الحضارة وكان عندهم ملكة واسعة في التصور والذوق الفني نتيجة اتصالهم الدائم بالشعوب الأخرى مثل البيزنطيين والفرس والأحباش والمصريين في أثناء رحلاتهم للتجارة.

لذا نجد أنه بعد فتح مصر نشأت صناعة إسلامية مصرية وفن إسلامي مصري كان للمصريين اليد الكبرى فيه، وإن كان العرب قد أفلحوا في طبعه بطابع دينهم، وفي إظهار شخصيتهم فيه بحيث تميزت الصناعات والفنون الإسلامية عما كان موجوداً في مصر قبل الفتح، كما كان عمادها من المصريين لا العرب.

وكان معظم الصناع بمصر في فجر الإسلام من المصريين ، سواء أ كانوا ممن بقى على دينه من الأقباط أم ممن أسلم منهم . فالعرب في أول ذلك العهد كانوا لا يتدخلون في الصناعات وغيرها من المهن ، وإنما كان بيدهم السياسة والحكم والحرب . وحتى بعد أن بدأ العرب يختلطون بالأهالي ويملكون الأراضي ويشتغلون بالزراعة منذ أوائل القرن الثاني الهجرى لم يصبحوا الأغلبية بين الصناع في مصر . ولا شك في أن كثيراً منهم اشتغلوا بالصناعة وخاصة بعد أن أمر الخليفة المعتصم بإسقاطهم من الديوان ، ولكن المصريين كان لهم الغلبة والكثرة العددية على إخوانهم من العرب .

البناء

عرف المصريون منذ القدم بتقدمهم في صناعة البناء وفي فن العمارة وتشهد بذلك آثارهم في مختلف المصور . فلما جاء العرب اختلطوا مدينة القسطنطينية وبنا فيها المسجد الجامع إلا أن أبنيتهم كانت بسيطة جداً وذلك بحكم عيشة الخشونة التي كانت تغلب عليهم في أول الأمر ثم ما لبث الرخاء أن طفا عليهم وتدفقت الثروة إليهم من كل جانب فبدأوا ينزعون عنهم عيشة البساطة وينعمون في حياتهم وفي مساكنهم . وأسرعوا إلى تذوق الحضارة الراقية والترف والنعيم وبدأ ذلك واضحاً جلياً في العمارة الإسلامية في جميع أنحاء الدولة الإسلامية ولما عيىض على الفتوحات الإسلامية قرن من الزمان . ولا زالت المآثر التي بنيت في ذلك العهد المتقدم باقية إلى اليوم ، مثل قبة الصخرة التي بناها في بيت المقدس عبد الملك ابن مروان ومثل الجامع الأموي الذي بناه في دمشق الوليد بن عبد الملك وأسرف في تزيينه .

تقدمت العمارة الإسلامية في جميع أنحاء المملكة دون استثناء ومن بينها

مصر . فسرطان ما نمت مدينة الفسطاط ودب فيها العمران والحضارة وبنيت فيها الحمامات والأسواق كما بنيت الدور العالية بعد أن كان البناء بسيطاً . وقد عرفنا أنه في خلافة عثمان بن عفان بنى عبد الله بن سعد قصرأ كبيراً عرف باسم قصر الجن^(١) وفي أثناء الشهرين اللذين أقامهما في مصر مروان ابن الحكم أمر ببناء الدار البيضاء ليسكنها وقال إنه لا ينبغي لخليفة أن يكون يبيلد ليس له فيها دار^(٢) . كذلك أمر عبد العزيز بن مروان ببناء الدار المذهبة سنة ٦٧ هـ في غربى المسجد الجامع وكانت تدعى المدينة^(٣) . وحسبنا هذه التسمية لنعرف مبلغ تلك الدار من العظمة والفخامة .

وبنى عبد العزيز الدور والمساجد في حلوان التي اتخذها عاصمة له ، وعمرها أحسن عمارة وغرس فيها الأشجار والنخيل ، حتى قيل إنه أفق في بنائها مليون دينار^(٤) .

وهكذا نرى أن المهارة الإسلامية أخذت تتقدم بسرعة في مصر . ولما سقطت الدولة الأموية وجاءت دولة بنى العباس ، اختط العباسيون مدينة المسكر وبنوا فيها جامع المسكر . أما جامع عمرو بن العاص فقد ناله من التحسينات والزيادات والتزيين بقدر ما نال المهارة الإسلامية من التقدم في ذلك العهد . فتذكر الروايات أنه لم يكن لجامع عمرو في بادىء الأمر محراب مجوف ويقال إن أول من جعل المحراب قرة بن شريك^(٥) . وكان جامع عمرو في بادىء الأمر طوله خمسون ذراعاً وعرضه ثلاثون ذراعاً . وكان

(١) ابن عبد الحكم — طبعة تورى — ص ١١٠

(٢) الكندى ص ٤٥

(٣) الكندى ص ٤٩

(٤) سعيد بن بطريق : التاريخ المجموع ج ٢ ص ٤٠

(٥) خطط المفريزى ج ٢ ص ٢٤٧

هناك بابان في شرق المسجد يقابلان دار عمرو بن العاص ، وجعل له بابان في شماليه وبابان في غربيه وكان سقفه واطناً جداً ولا يحسن له وكان بينه وبين دار عمرو سبع أذرع . ويقال إن عمرو بن العاص اتخذ منبراً فيه فكتب إليه عمر بن الخطاب يأمره بكسره لأنه لا يرضى أن يكون عمرو قائماً والمسلمون جلوس تحت عقبيه ، فكسره عمرو^(١) .

ولكن المسلمين لم يتركوا ذلك الجامع بسيطاً كما كان ؛ ففي ولاية مسلمة ابن مخلد الأنصاري على مصر من قبل معاوية بن أبي سفيان (٤٧ — ٦٢ هـ) ضاق المسجد بأهله وشكوا ذلك إلى مسلمة فكتب مسلمة فيه إلى معاوية ، فأمره معاوية بالزيادة فيه ، فزاد فيه مسلمة في سنة ٥٣ هـ من شرقيه ومن شماليه وجعل له رحبة في شماليه وطلاء بالجص وزخرف جدرانها وسقوفه ولم يكن قبل ذلك فيه طلاء أو زخرف . كذلك أمر ببناء منار المسجد فجعل مسلمة للجامع أربع صوامع أو مآذن في أركانه الأربعة . وهو أول من جعلها فيه ، كذلك فرش الجامع بالحصر وكان قبل ذلك مفروشاً بالحصباء^(٢) . وفي ولاية عبد العزيز بن مروان أمر بالزيادة في هذا الجامع فهدم كله وزاد فيه من جوانبه كلها وذلك في سنة ٧٧ هـ^(٣) . وفي ولاية عبد الله بن عبد الملك أمر برفع سقف المسجد وكان واطناً وذلك في سنة ٨٩ هـ . ثم هدمه قررة بن شريك سنة ٩٢ هـ بأمر الوليد بن عبد الملك وابتدأ في بنيانه في شعبان من السنة المذكورة^(٤) وجعل على بناه يحيى بن حنظلة مولى نبي عامر بن

(١) المرجع نفسه ص ٢٤٧ و ٢٤٨ Creswell : Coptic Influences on Early Muslim Architecture p.29.

(٢) خطط المقرئ ج ٢ ص ٢٤٧ — ٢٤٨

(٣) ابن عبد الحكم — طبعة توري — ص ١٣١ والسكندی ص ٥١

(٤) عثر على نص يدل على أن إصلاح جامع عمرو تم في ولاية قررة بن شريك

في رمضان سنة ٩٢ هـ

لوى وكانوا يجمعون الجمعة في قيسارية المسل حتى فرغ من بنائه وذلك في شهر رمضان سنة ٨٩٣ . ونصب المنبر الجديد في سنة ٩٤٤ هـ ونزع المنبر الذي كان في المسجد . وقيل إن المنبر القديم هو منبر عمرو بن العاص ، وقيل هو منبر عبد العزيز بن مروان ، وذكر أنه حمل إليه من بعض كنائس مصر ، وقيل إن ملك النوبة أهدها إلى عبد العزيز بن مروان وبث معه تجاره الذي ركبه واسمه بقطر من أهل ذندرة . ولم يزل هذا المنبر في المسجد حتى زاد قرة بن شريك في الجامع فنصب منبراً سواه . ولم يكن يخطب في القرى إلا على المصلى إلى أن ولي عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير مصر من قبل مروان بن محمد فأمر في سنة ١٣٢ هـ بأخذ المنابر في القرى^(١) ويذكر الأستاذ كريزول أن شكل المنبر الإسلامي مشتق من المنبر المسيحي الشرقى^(٢)

وهكذا نرى أن ولاية مصر وحكامها أخذوا يتمهدون جامع عمرو بن العاص بالزيادة والزخرفة والتجسينات . ونكرر هنا أن العرب لم يشتغلوا في أول الأمر بالصناعة في مصر وإنما قام ببناء العمارة الإسلامية فيها معماريون وبنّاءون من أهالي البلاد وصنّفها الفاتحون بصنفة دينهم . ولا شك في أن العمارة القبطية كانت متقدمة حين فتح العرب مصر ، وقد نقل العرب من المابد والكنائس القديمة كثيراً من الأعمدة والتيجان ، استخدموها في مساجدهم وبيوتهم كما يتجلى من وجود الأعمدة القبطية في جامع عمرو^(٣) . ونجد كثيراً من أعمدة الكنائس الرخامية في معظم المساجد ، ولكن لا يجب

(١) خطط القرزى ج ٢ ص ٢٤٨ . Creswell : op. cit. p. 30.

(٢) . Creswell : op. cit. p. 30.

(٣) الدكتور زكي محمد حسن : بعض التأثيرات القبطية في الفنون

أن يتطرق إلى أذهاننا أن الكنائس خربت عمداً لتسد حاجة البناء في المساجد وخاصة في العهد الأول للإسلام ، إنما كان من السهل أن يأخذ العرب بقايا ما خربه الفرس أثناء غزوهم لمصر قبيل الفتح العربي^(١) . وقد اتخذ العرب كثيراً من كنائس النصارى ، مساجد لهم بعد أن غلبوا على القوى في عهد الخليفة المأمون^(٢) وهذا نتيجة منتظرة لانتشار الإسلام وازدياد عدد المسلمين فضلاً عن أنه لم يكن جديداً في التاريخ ، فانه لما أصبحت المسيحية في القرن الرابع الميلاد الدين الرسمي للإمبراطورية الرومانية حول النصارى في مصر الهياكل إلى كنائس بأن نقشوا الصليبان على أوابها وأعمدتها وأبادوا الأصنام وغطوا ما كان منقوشاً على جدرانها من صور الآلهة القديمة بطبقة من الجص رسموا عليها صور السيد المسيح والرسول والقديسين ، وبنوا مذابح لإقامة القداس ، ولا تزال آثار ذلك ظاهرة إلى يومنا هذا بأغلب معابد الوجه القبلي . كما نرى في بعض هذه الكنائس والأديرة أحجاراً انتزعت من المعابد الفرعونية القديمة استخدمها القبط في أبنيتهم الجديدة^(٣) كذلك نرى البطريرك كيرلس يهدم بعض بيوت اليهود ويستعمل الأخرى كنائس^(٤) .

ومهما يكن من شيء فإن الممارسة الإسلامية أخذت عن القبط بعض العناصر الممارية ؛ فكثيرون من العلماء يظنون أن المحراب مأخوذ عن « الحنية » التي توجد في صدر الكنيسة إلى جهة الشرق ، وأن مآذن

Mrs. Devonshire : L'Egypte Musulmane p. 11. (١)

(٢) خطط الفريرى ج ٢ ص ٢٦١ - ٢٦٢

(٣) الدكتور زكى محمد حسن : بعض التأثيرات القبطية في الفنون الإسلامية ص ٨ وما ذكره من مراجع

Wiet : Hist. de la Nation Egyptienne. T. IV. p. 28. (٤)

الجوامع الإسلامية مأخوذة عن أبراج الكنائس^(١).

كذلك أخذ المسلمون عن القبط في زخرفة المباني كثيراً من الموضوعات الزخرفية النباتية والهندسية كما أخذوا عنهم طلاء المباني بطبقة من الجص^(٢).

ولم يقتصر الأمر على استخدام العرب للصناع المصريين في بناء أبنيتهم في هذه البلاد بل كثيراً ما استخدموهم في الأبنية التي أنشئت في غير مصر . ففي كتاب قرة بن شريك إلى صاحب كورة أشقوه نراه يحدد أجر أحد العمال الذي سيرسلى للعمل بجامع دمشق لمدة ستة أشهر^(٣) . وفي كتاب آخر منه نراه يطلب عدة رجال من أماكن مختلفة للعمل في بناء قصر الخليفة الوليد ابن عبد الملك^(٤) . وفي كتاب ثالث يطلب أحد العمال ويحدد أجره للعمل لمدة ستة أشهر في جامع بيت المقدس^(٥) . ونجد كتاباً آخر من قرة يختص بالنفقة على أربعين من مهرة العمال الذين استخدموا في بناء جامع دمشق^(٦) . ونجد كتاباً آخر يختص بالنفقة على الفعلة والعمال المهرة الذين يملون في جامع بيت المقدس وفي قصر أمير المؤمنين^(٧) . وهناك كتب أخرى تختص

(١) الدكتور زكي محمد حسن : بعض التأثيرات القبطية في الفنون الإسلامية
ص ٩ وما ذكره من مراجع

(٢) المرجع نفسه ص ١٠

(٣) Bell : Translations of the Greek Aphrodito Papyri (Der
Islam vol. 2) p. 274.

(٤) Bell : op. cit. p. 274.

(٥) Bell : (Der Islam vol. IV) p. 93.

(٦) Bell : (Der Islam 8) p. 133.

(٧) cf. Bell : op. cit. p. 388.

بالصرف على العمال الذين يعملون في بيت المقدس أو دمشق أو قصر أمير المؤمنين^(١).

ويذكر البلاذري^(٢) أن الخليفة الوليد بن عبد الملك كتب إلى عمر بن عبد العزيز عامله على المدينة يأمره بهدم المسجد وبنائه ، وبعث إليه بمال وقسيساء ودرخام وثمانين صانعا من الروم والقيط من أهل الشام ومصر ، فبناه عمر بن عبد العزيز وزاد فيه وكان ذلك في سنة ٨٧ هـ ويقال في سنة ٨٨ هـ . وهذا يدلنا على مدى تقدير العرب لمهارة المصريين في فن البناء والمهارة وكيف كانوا يستخدمونهم في مصر وفي غيرها من البلاد الإسلامية . فصر كانت تابعة للخلافة الإسلامية سياسيا ولا بد أنها أثرت وتأثرت بالخلافة من الناحية الفنية أيضا .

المسوجات

ومن الصناعات التي ازدهرت بمصر في فجر الإسلام صناعة المنسوجات ، صوفية كانت أو تيلية أو حريرية أو قطنية^(٣) . ولم تكن هذه الصناعة أو غيرها من الصناعات التي اشتهرت بها مصر في عهد الولاة شيئا أحدثته الخلافة . وإنما كانت تما اشتهرت به مصر منذ القدم . فاستمرت صناعة النسيج زاخرة في عهد الولاة واستغلتها الخلافة كثيراً لسد حاجاتها المختلفة ،

(١) Bell, (Der Islam 3) p. 133, 137, (Der Islam IV) p. 95, (Der Islam XVIII) p. 6.

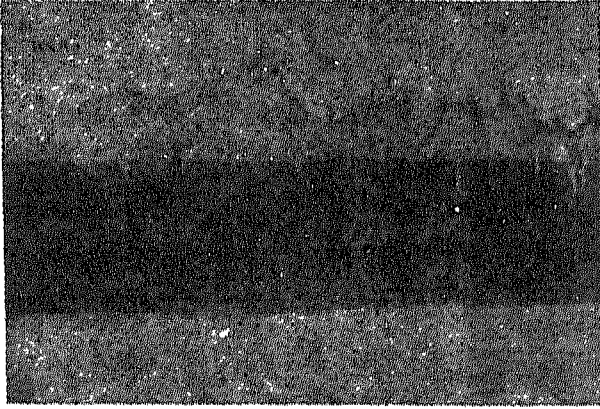
(٢) فتوح البلدان ص ٧ . 32. p. op. cit. Creswell
(٣) يشك الأستاذ Lamm في إنتاج القطن في مصر في ذلك العهد الذي نتحدث عنه ولكنه لا يجزم بذلك لأن القطن كان ينمو حينذاك في كل البلاد الإسلامية تقريباً ولا بد أنه كان ينمو في مصر أيضاً أنظر C. J. Lamm : Cotton in Mediaeval Textiles of the Near East pp. 4—6

كما أن القاعين بتلك الصناعة كانوا من المصريين ، شأنهم في ذلك شأن أصحاب الصناعات الأخرى في ذلك العهد . إلا أن الأقباط حملوا لواء هذه الصناعة لمدة طويلة لم يشاركهم فيها أحد ، ويدلنا على ذلك أن العرب كانوا يطلقون على المنسوجات المصرية اسم قباطى^(١) ، ولا بد أن هذه التسمية نسبة إلى قبط مصر الذين أظهروا مهارتهم الفنية في ميدان النسيج ، كذلك يذكر ياقوت^(٢) القى عاش حتى أوائل القرن السابع الهجرى أن نسيجى الثياب في دمياط وتنبس من القبط . وعلى كل حال فإن المراكز الرئيسية لصناعة النسيج في مصر الإسلامى كانت ، في أغلب الأحيان ، المدن التى اشتهرت بالنسيج في مصر القبطى . وكان عدد كبير من سكانها لا يزالون على دينهم المسيحى^(٣) ، وقد كانت صناعة النسيج زاهرة في عهد الفراعنة ثم تقدمت تقدماً كبيراً في مصر القبطى . فكانت مصر تصدر إلى بيزنطة وإلى بابوات رومة كثيراً من الأقمشة النفيسة التى كان يذهب جزء كبير منها إلى الكنائس المسيحية^(٤) . ويذكر Pliny أن مصر في العهد الرومانى كانت تستورد سلع بلاد العرب والهند في نظير تصديرها للمنسوجات الكتانية التى كانت مطلوبة جد الطلب للتجارة الشرقية^(٥) .

أما في مصر الإسلامى فقد تطورت صناعة المنسوجات وزخرفتها تطوراً عظيماً غير نجائى . وكان العرب منذ الفتح يميلون في الزخرفة إلى

-
- (١) الأزرقي : أخبار مكة ج ١ ص ١٣٧-١٦٨ ، المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٢٠٣ ، خطط المقرئى ج ١ ص ١٨١
(٢) معجم البلدان ج ٢ ص ٦٠٢
(٣) الدكتور زكى محمد حسن : بعض التأثيرات القبطية في الفنون الإسلامية ص ١٦
(٤) الدكتور زكى محمد حسن : الفن الإسلامى في مصر ج ١ ص ٨٣ ، ٩٧
(٥) Johnson : Roman Egypt vol. 2. p. 338

العناصر الهندسية والنباتية لكراميتهم تصوير الانسان والحيوان (شكل ١).



(شكل ١) قطعة نسيج محفوظة بدار الآثار العربية في القاهرة
ولها من صناعة مصر أو سورية في فجر الاسلام

وكان هذا الميل نفسه قد دب إلى الفنون القبطية منذ منتصف القرن الخامس
الميلادي ، فأصبحت الرسوم الأدمية والحيوانية في زخارف المنسوجات
القبطية محورة عن الطبيعة إلى حد بعيد (شكل ٢) . وهكذا لم يجد المصريون
صعوبة كبيرة في إرضاء الفاتحين وإنتاج التحف الفنية التي تنفق ومزاجهم .
وعلى كل حال فإن صناعة النسيج لم تطبع في مصر بطابع إسلامي ظاهر إلا
في العصر الفاطمي ، وحتى حين أصبحت صناعة المنسوجات في العصر
الفاطمي إسلامية بحتة لم تغل في زخارفها مما يدل على بعض العلاقة بماضيها
في وادي النيل (١) .

وكانت مصر مشهورة على الأخص بنسيج السكتان لوفرة زراعته ،

(١) الدكتور زكي محمد حسن : الفن الإسلامي في مصر ج ١ ص ٩٠ ، بعض



وكذلك كان يصنع فيها المنسوجات الصوفية والقطنية والحيرية . وإن كنا نرجح أن القطن والحريز الخام في مصر لم يكفيا الاستهلاك المحلي والتصدير وأن مصر استيرت في استيرادها كما كان الحال قبل الفتح العربي . بينما كانت مصر تنتج من الصوف ما يكفي حاجتها ، فيذكر المقرئى^(١) أن أرض الصعيد كثيرة المواشى من الضأن وغير ذلك ، لكثرة تاجه . وفضلا عن ذلك فإن العرب الذين استقروا في مصر عنوا برعى الإبل والماشية كما كان الحال في بلادهم ؛ ويذكر

(شكل ٢) قطعة قاش من الصوف محفوظة بدار الآثار العربية في القاهرة وهي من صناعة مصر في القرن الثالث الهجرى (٢٩٠) ، وكانت أهم مراكز النسيج في الوجه البحرى ،

كما كانت توجد أيضاً مراكز هامة للنسيج في مصر الوسطى والعليا . وذاعت شهرة الاسكندرية في هذه الصناعة . ويذكر المقرئى^(٢) أن الثياب المنسوجة بالاسكندرية لانظير لها ، وتحمل إلى أقطار الأرض ، وأن في ثياب الاسكندرية ما يباع الكتان منه إذا عمل ثياباً ، يقال لها الشرب ، كل زنة درهم بدرهم فضة .

واشتهرت تيس أيضاً بالثياب الفاخرة والفرش ، وكان معظم أهلها

(١) المخطوط ج ١ ص ١٩٠

(٢) مختصر كتاب البلدان ص ٦٩

(٣) المخطوط ج ١ ص ١٦٣

يشتغلون بالنسج ، وكان يحاك بها الثياب المعروفة بالشرب . ومما يدل على عظمة تنيس في النسج أنه كان يصنع بها للخليفة ثوب يقال له البدنة ، لا يدخل فيه من الغزل سداة ولحمة^(١) غير أوقيتين ، وينسج باقيه بالذهب بصناعة محكمة لا تحتاج إلى تفصيل ولا خياطة . وتبلغ قيمة هذا الثوب ألف دينار . وظل ذلك التصدير من تنيس إلى ما بعد سنة ٥٣٦٠ هـ ، حين ولي وزارة الفاطميين يعقوب بن كلس فنع الإصدار^(٢) . وإلى جانب هذه الثياب الجيدة كان يوجد ثياب رقيقة « مهلهلة النسج كأنها المنخل^(٣) » ، وهي المسماة بالقصب ، وكان هذا القصب يلون ، وكان اللون منه ينسج بتنيس ، ولم ينسج في أى مكان آخر قصب ملون مثله ، وكان يعمل منه عمام للرجال وملابس للنساء ، أما الأبيض فكان ينسج بدمياط^(٤) . إذ يذكر المقدسي^(٥) أن من تنيس الثياب الملونة لا من دمياط .

وكانت دمياط تقارب تنيس في شهرتها في النسج . وكان يعمل بها الثياب الشرب والقصب . ويذكر الأدرسي أن الثياب التي كانت تعمل بها من الكتان ، وربما بلغ الثوب من ثيابها إذا كان مذهبا ألف دينار ونحو ذلك ، ومالم يكن فيه ذهب المائة والمائتين ونحوه^(٦) .

(١) السدي من الثوب خلاف اللحة وهو مامد من خيوطه . واللحة ما نسج عرضا من الثوب وهو بخلاف سناه

(٢) ابن رسته : الأعلام النفيسة ص ٩٠ ، المقدسي : أحسن التقاسيم ص ٢٠٣

الأدرسي : صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ص ١٥٦ ، ياقوت :

معجم البلدان ج ١ ص ٢٨٢ ، خطط القرظي ج ١ ص ١٧٧

(٣) ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٨٩٠

(٤) آدم متر : الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٢٩٧ — ٢٩٨

(٥) أحسن التقاسيم ص ٢٠٣

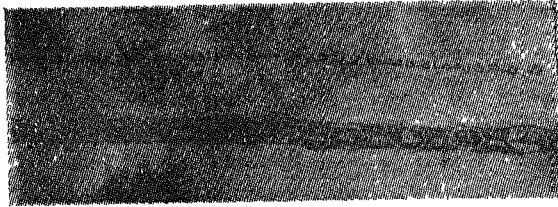
(٦) المقدسي : أحسن التقاسيم ص ٢٠٣ ، الأدرسي صفة المغرب ... ص ١٥٦

— ١٥٧ ، ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٦٠٢ — ٦٠٣ ، خطط القرظي

ج ١ ص ١٧٧ .

وقد اشتهر في النسيج أيضاً من بلدان مصر السفلى شطراً ودميرة وتونة وكلهما قريبة من تينيس ودمياط^(١). وقد اشتهر في النسيج من بلدان مصر الوسطى والعليا مدينة البهنسا ، فكان ينسج بها الصوف والقطن ، وكان إذا صنع بها شيء من الصوف أو القطن كتب عليه اسم المتخذ له ، وقد اتخذوا ذلك عادة لهم جيلاً بعد جيل^(٢). وقد كانت الكتابة ذات شأن في صناعة المنسوجات في العصر الإسلامي ؛ ففي دار الآبار العربية قطعة من الكتان الأبيض تشبه كثيراً الأقمشة القبطية وعليها شريط من زخارف فيه رسوم طيور محوّرة عن الطبيعة ومنسوج على هذه القطعة بالخط الكوفي البسيط سطر بالحرير الأحمر نصه :

« هذه العمامة لسمويل بن موسى . عملت في شهر رجب من الشهور المحمدية من سنة ثمان وثمانين^(٣) » (شكل ٣) .



(شكل ٣) قطعة قاش من الكتان الأبيض محفوظة بدار الآثار العربية في القاهرة . ومؤرخة من سنة ٨٨٨ هـ (٧٠٧ م)

واشتهرت القيس أيضاً بثياب الصوف وأكسية المرعز^(٤) التي لم يكن

-
- (١) الأدرسي : صفة العرب ص ١٥٦ ، خطط المقرئ ص ١٧٧ و ١٧٦
(٢) اليعقوبي : كتاب البلدان . ص ٣٣١ ، خطط المقرئ ص ١٦٧
(٣) الدكتور زكي محمد حسن : الفن الإسلامي في مصر ج ١ ص ٨٦
(٤) المرعز اللين من الصوف .

لها مثيل والقيس كما نعرف ، على مقربة من البهنسا ، من أعمال مديرية
المنيا (١)

وكان هناك مصانع للنسج في الأشمونين (٢) وأسيوط وإخميم وأهناس (٣)
وبوصير قريديس (٤) وغيرها من بلاد الوجه القبلي .

وكانت هذه المنسوجات تنسب في المادة إلى البلاد التي تعمل فيها ،
فيقال الثياب الشطوية والقيسية ، ويقال التنيسي والدمياطي الخ ..

أما نسج الحرير فقد ازدهرت سناعته في مصر في فجر الإسلام . ومن
المدن التي قامت فيها هذه الصناعة مدينة ديبق (٥) وقد عثر في أخميم على
لباس من الحرير كتب عليه اسم الخليفة مروان . ولسنا نعرف هل المقصود
هنا مروان بن الحكم أو مروان بن محمد (٦)

وهناك أيضا منسوجات حريرية من إخميم في المتحف البريطاني نسجها
الصناع القبط وترجع إلى هذا العهد الذي نتحدث عنه أو بعده بقليل (٧)
ويتجلى فيها الميزات القبطية والعربية . والحق أن زخارف المنسوجات
لمصرية بين الفتح العربي وقيام الدولة الفاطمية كانت لا تزال محتفظة بقسط
وأفر من روح الزخارف في المنسوجات القبطية (شكل ٤) ، وتمتبر عصر

(١) اليعقوبي : كتاب البلدان ص ٣٣١ ، خطط المقرئى ج ١ ص ٢٣٧

(٢) الأصبغى : مسالك الممالك ص ٥٣

(٣) اليعقوبي : البلدان ص ٣٣١

(٤) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٢٠٣

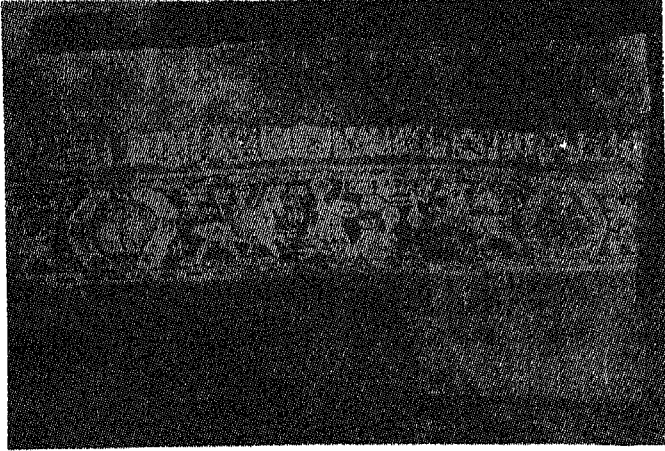
(٥) خطط المقرئى ج ١ ص ٢٢٦

(٦) Répertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe t. 1, No. (٦)

36 p. 28.

(٧) Butler : Islamic Pottery p. 31 انظر

انتقال بين الطراز القبطى والمنسوجات ذات الزخارف الإسلامية الخالصة
في العصر الفاطمى .



(شكل ٤) قطعة قماش من الصوف والكتان محفوفة بدار الآثار العربية
في القاهرة . وهي من صناعة مصر في القرن الثالث الهجرى (١٠٩٠ م)

ولم يكن الفضل في اتساع نطاق فن النسيج في مصر في العصور
الوسطى راجعاً إلى الأهالي فقط. وإنما كان يرجع إلى الحكومة أيضاً فقد
كانت تسيطر على مصانع النسيج ، والواقع أن هذه السيطرة نظام لم ينشئه
المسلمون في مصر بل أخذوه عن بيزنطة ، فالراجح المحتمل أن يكون
البيزنطيون قد أنشأوا فيها مصانع حكومية للنسيج إلى جانب المصانع
الأهلية ، فلما جاء المسلمون أبقوا على هذا النظام^(١) .

ولفظ طراز مشتق من الفارسية « ترازيدن » و « تراز » بمعنى التطريز
وعمل المدبج broderie ثم أصبح يدل على ملابس الخليفة أو الأمير أو

Wiet : Hist. de la Nation Egyptienne t. IV. p. 174. (١)

السلطان ورجال الحاشية لاسبابها إذا كان فيها شيء من التطرير وعليها أشرطة من الكتابة ، واتسع مدلول هذا اللفظ حتى انتهى في العربية والفارسية إلى الدلالة على المصنع والمكان الذي تصنع فيه مثل هذه المنسوجات^(١) على أن كلمة « طراز » استعملت في معانٍ أخرى ، مثل الدلالة على أي قماش من النقوش التي توضع على شريط مستعرض من أي نوع كان سواء أكان من الحجارة أو الفسيفساء أو الزجاج أو الفخار أو معفوراً في الخشب . كذلك أطلق لفظ طراز على الكتابة الرسمية التي كانت تكتب على درج البردي^(٢)

ولم يبق نظام الطراز وقفا على مصر بل نكاد نجده في كل الأقاليم الإسلامية كسورية والعراق وإيران وآسيا الصغرى وإسماعيلية و... صقلية^(٣) . ويظهر أنه كان هناك نوعان من هذه المصانع الخدمية . الأول طراز الخاصة وكان لا يعمل إلا للخليفة ورجال بلاطه وخاصته . والثاني طراز العامة وكان يتبع أيضاً بيت مال الحكومة ، ولذاته كان يعمل الحياطة بلاط الخليفة وأفراد الشعب^(٤) . وقد كتب على بعض المنسوجات التي صنعها عليها والتي ترجع إلى هذا المهد أنها صنعت في طراز الخاصة وعلى المصنوع الآخر أنها صنعت في طراز العامة^(٥) .

(١) الدكتور زكي محمد حسن : الفن الإسلامي في مصر - ١ - ص ٨٤

(٢) أدولف جردمان : أوراق البردي العربية - ١ - ص ٣ (٤) ص ٤٠

الدكتور حسن إبراهيم حسن

(٣) الدكتور زكي محمد حسن : الفن الإسلامي في مصر ص ٨٥

(٤) الدكتور زكي محمد حسن : كتور القاطنين ص ١١٠ وما بعدها

(٥) Répertoire Chronologique d'Épigraphie Arabe t. I. pp.75,

187, 188, 189.

والذى يهمننا بياضه هو أن الخلفاء عنوان منذ الفتح الإسلامى بتشجيع صناعة المنسوجات المصرية ، وكثيراً ما كان الخلفاء يستعملون هذه المنسوجات لملابسهم أو للتحلج التى كانوا يخلعونها على كبار رجال دولتهم ، فكان الخلفاء أو الأمراء يكافئون أفراد رعيتهم ويظهرون رضام عنهم بما كانوا يخلعونه عليهم من الخلع والملابس

وقد رأينا مما سبق أنه كان يصنع للخلفاء بتنيس ثياب فاخرة تعرف باسم البدنة . ويذكر المؤرخون أن معاوية بن أبى سفيان لما كبرت سنه كان لا يدفأ ، فاتفقوا أنه لا يدفئه إلا الأكسية التى تعمل بمصر من صوفها المرعز فعمل له منها عدد فاحتاج منها إلا إلى واحد^(١) .

وقد عنى الخلفاء والأمراء بكتابة أسمائهم على هذه الأقمشة الثمينة ، وكانت الكتابة على النسيج بلحمة من الذهب أو الفضة أو الخطوط المتعددة الألوان ، وكانت الكتابة تشمل اسم الخليفة وألقابه وبعض عبارات الأدمية وكثيراً ما كان يذكر فيها اسم المدينة التى فيها الطراز واسم الوزير وصاحب الخراج وناظر الطراز . وكان النرض من هذه الكتابات الملكية على الأقمشة بيان الأمير الذى عملت باسمه أو الشخص الذى خلعت عليه^(٢)

وقد عثر على قطع منسوجات صنعت فى مصر وكتب عليها أسماء الخلفاء العباسيين ، فهناك قطعة نسيج صنعت للخليفة المهدي فى طراز تنيس سنة ١٦٢ هـ وكتب عليها « بسم الله بركة من الله لعبد الله المهدي محمد أمير المؤمنين أطال الله بقاءه مما أمر به إسماعيل بن إبراهيم أن يصنع فى طراز

(١) خطط الفريزى ج ١ ص ٢٠٤

(٢) الدكتور زكى محمد حسن : الفن الإسلامى فى مصر ج ١ ص ٨٥

تتيسر على يدي الحكم بن عبيدة سنة اثنتين وستين ومائة^(١) . وهناك قطعة صنعت في طراز تونة سنة ١٩٠ هـ للخليفة هرون الرشيد^(٢) كما صنعت له قطعة أخرى في سنة ١٩٣ هـ^(٣)

وقد عثر أيضاً على قطعة نسيج صنعت بطراز العامة بمصر للخليفة الأمين^(٤) . ولا نعرف متى صنعت . وهناك قطعة صنعت للخليفة المأمون في سنة ٢٠٦ هـ^(٥) كما عثر على قطعة أخرى صنعت لنفس الخليفة في طراز الخاصة ٢١٦ هـ^(٦) (شكل ٥) ، وهناك قطعة صنعت للخليفة المستعين بالله في سنة ٢٥٢ هـ^(٧) وأخرى صنعت في طراز الخاصة بمصر في سنة ٢٥٤ هـ لأمير المؤمنين^(٨) وهو إذ ذاك المتز بالله .



(شكل ٥) قطعة نسيج محفوظة بدار الآثار العربية وعليها كتابه نصها
« بركة من الله لعبد الله الامام المأمون أمير المؤمنين أعزه الله مما عمل
في طراز الخاصة سنة ست وعشر ومائتين »

وقد عني الخلفاء أيضاً منذ الفتح العربي لمصر باتخاذ كسوة الكعبة

(١) Répertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe t. 1. p. 35.

op. cit. p. 62. (٢)

op. cit. p. 68. (٣)

op. cit. p. 75. (٤)

op. cit. p. 115. (٥)

op. cit. p. 165. (٦)

op. cit. t. 2. p. 122. (٧)

op. cit. t. 2. p. 138. (٨)

من المنسوجات النفيسة التي كانت تصنع بها ، فيذكر الأزرق^(١) أن عمر ابن الخطاب كسا الكعبة القباطي من بيت المسال ، وكان يكتب إلى مصر لتصنع له فيها ، وكذلك فعل عثمان من بعده . فلما كان معاوية ابن أبي سفيان كساها كسوتين ، كسوة عمر القباطي ، وكسوة ديباج . فكانت تكسى الديباج يوم عاشوراء ، وتكسى القباطي في آخر شهر رمضان .

ويقول القرظي : إن الفاكهي ذكر في كتابه أخبار مكة أنه رأى كسوة من قباطي مصر ، مكتوباً عليها « بسم الله بركة من الله مما أمر به عبد الله المهدي محمد أمير المؤمنين أصلحه الله محمد بن سليمان ، أن يصنع في طراز تنيس كسوة الكعبة على يد الخطاب بن مسleme عامه سنة تسع وخمسين ومائة^(٢) .

ويذكر الفاكهي أيضاً أنه رأى كسوة من كساء المهدي ، مكتوباً عليها « بسم الله بركة من الله لعبد الله المهدي محمد أمير المؤمنين ، أطال الله بقاءه مما أمر به إسماعيل بن إبراهيم أن يصنع في طراز تنيس على يد الحكم ابن عبيدة سنة اثنتين وستين ومائة^(٣) » . كذلك يقول الفاكهي أنه رأى كسوة لهرون الرشيد من قباطي مصر ، مكتوباً عليها « بسم الله بركة من الله للخليفة الرشيد عبد الله هرون أمير المؤمنين أكرمه الله ، مما أمر الفضل بن الربيع أن يعمل في طراز تونة سنة تسعين ومائة^(٤) » .

ومن بين ما رآه الفاكهي كسوة لهرون الرشيد أيضاً من قباطي

(١) أخبار مكة ج ١ ص ١٦٨ — ١٦٩

(٢) المخطوط ج ١ ص ١٨١ ، Répertoire. t. 1. p. 34.

(٣) خطط القرظي ج ١ ص ١٨١ ، Répertoire t. 1. p. 35.

(٤) خطط القرظي ج ١ ص ١٨١ ، Répertoire t. 1. p. 62.

مصر، مكتوباً عليها . « بسم الله بركة من الله لمبد الله هرون أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ، مما أمر به الفضل بن الربيع ، مولى أمير المؤمنين بصنعه في طراز شطا كسوة الكعبة سنة إحدى وتسعين ومائة (١) » . ورأى الفاكهي أيضاً كسوة في الكعبة ، مكتوباً عليها « مما أمر به السرى ابن الحكم وعبد العزيز بن الوزير الجروى ، بأمر الفضل بن سهل ، ذى الرياستين ، وطاهر بن الحسين سنة سبع وتسعين ومائة (٢) . ويذكر أيضاً أنه رأى قطعة من قباطى مصر في الكعبة ، مكتوباً عليها بخط رقيق أسود « مما أمر به أمير المؤمنين المأمون سنة ست ومائتين » (٣) .

ويجدر بنا أن نذكر أن مصر ، كما استمرت ترسل القمح سنوياً إلى الحجاز حتى بعد أن انتقل مقر الخلافة واستقلت عنها مصر ، كذلك استمرت ترسل كسوة الكعبة سنوياً ، بل إن إرسال كسوة الكعبة من مصر إلى مكة كان يشير إلى زعامة مصر على الحجاز وعلى العالم الإسلامى كله ، وكان النزاع الذى نشأ بين السلطان الملك الأشرف برسبای سلطان مصر (٨٢٥ - ٨٤١ هـ) وشاه رخ ابن تيمورلنك بسبب إرسال كسوة الكعبة معناه نزاع حول الزعامة فى العالم الإسلامى (٤) .

الورق

واشتهرت مصر فى فجر الاسلام بصناعة الورق من البردى الذى كان ينمو بكثرة فيها ، وخاصة فى مستنقعات الدلتا والفيوم . وشهرة مصر فى

(١) خطط المقرئى : ج ١ ص ٢٢٦ أنظر Repertoire t. 1. p. 63.

(٢) خطط المقرئى : ج ١ ص ١٨١ . Repertoire t. 1. p. 115.

(٣) المقرئى : ج ١ ص ١٨١ ، Repertoire t. 1. p. 74.

(٤) Wiet : Hist. de la Nation Egyptienne p. t. IV. pp. 563—564.

صناعة الورق من البردى شهرة قديمة ، وخاصة منذ العهد الروماني^(١) .
ويذكر ابن الفقيه^(٢) في أواخر القرن الثالث الهجري أن لأهل مصر
القراطيس التي لا يشركهم فيها أحد ، ويذكر اليعقوبي^(٣) أن القراطيس
كانت تصنع في بورة ، وهي حصن على ساحل البحر من عمل دمياط وفي
مدينة إخنو وهي على ساحل البحر غربي فرع رشيد ، ويقال لها وسيمة .

وطالبا كان الناس يستعملون البردى للكتابة ، كانوا يمتدون على
مصر . أما في القرن الرابع الهجري فيحدثنا الثعالبي أن كواغيد سمرقند
عطلت قرطيس مصر والجلود التي كان الأوائل يكتبون عليها ؛ لأنها
أحسن وأنعم وأرفق وأوفق ، ولا تكون إلا بسمرقند والصين
ويذكر كراباتشيك Karabacek أن صناعة إعداد ورق البردى للكتابة
انتهت في مصر بالإجمال حوالي القرن الرابع الهجري . والواقع أن ورق
البردى المؤرخ الذي وصل إلينا ينتهي في عام ٣٢٣ هـ على حين أن الوثائق
المكتوبة على الكاغذ يبدأ تاريخها منذ عام ٣٠٠ هـ^(٤) . وهكذا نرى أن
مصر كانت طوال عهد الولاة تقريباً تسكاد تحتكر صناعة الورق . وكان
صناع الورق ، كثيرهم من الصناع في مصر من المصريين ، وكانت أغليبيتهم
أو كلهم في أول عهد الفتح من الأقباط ، وإلى أواخر القرن الأول الهجري
وأوائل الثامن الميلادي كان الطابع الذي يطبع على الورق يشمل هذه
الكلمات . « الأب والابن وروح القدس » ، ومع أن ذلك الطابع

(١) Johnson : Roman Egypt vol. 2. p. 387.

(٢) مختصر كتاب البلدان : ص ٦٦

(٣) البلدان ص ٣٣٨ .

(٤) آدم متر : الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٣٠٨ .

استبندل بعد ذلك بما يتفق ، والدين الاسلامي ، إلا أن الكتبة ظلوا
يرسمون علامة الصليب على ظهر أوراق الحكومة (١) .

الخشب

وقد مهر المصريون منذ عهد الفرعنة في صناعة الخشب بالرغم من قلة
الأخشاب في مصر ، وأن ما يوجد بها من الشجر لا يصلح خشبه إلا
لأعمال النجارة البسيطة ، مثل شجر الجميز والسنت والزيتون والسرو
والبنديق . وكان المصريون منذ العصور القديمة يستوردون من البلاد
المجاورة ما يلزمهم من خشب الأرز والصنوبر والأبنوس والساج ، وغيرها
من أنواع الخشب الثمين . وكان جفاف الجو يساعد على بقاء الخشب في حالة
جيدة (٢) . وقد ظلت لمصر السيادة في الحفر على الخشب وصناعته ، حتى
القرن العاشر الهجري والسادس عشر الميلادي .

وكما خلف لنا الفرعنة التمايل الخشبية النادرة ، مثل تمثال شيخ البلد
بغيره من التمايل ، نرى أن الفن القبطي ورث مهارة قدماء المصريين في
صناعة الخشب ونقش الزخارف عليه ، وقد تطورت هذه الصناعة على يد
النجارين القبط الذين تأثروا بالفن البيزنطي ، فازدادت صناعتهم جمالا ،
وزاد إنتاجهم كثيراً .

وقد اشتغل الرهبان بالنجارة أيضاً وأتقنها الكثير (٣) منهم ، فلما جاء
المسلمون تركوا الصناعة في يد الأقباط كما كانت سياستهم . وقد وصلت

Wiet : Précis de l'hist. d'Egypte t. 2. p. 147. (١)

(١) الدكتور زكي محمد حسن : بعض التمايلات القبطية ص ١٣ - ١٤

(٢) الدكتور زكي محمد حسن : بعض التمايلات القبطية ص ١٣ - ١٤

إلينا قطع كثيرة من الخشب ذى الزخارف ، مستعملة فى الأبنية ، أو فى قطع الأثاث . وأقدم هذه القطع يرجع إلى القرنين الثانى والثالث الهجرى (الثامن والتاسع الميلادى) ، وقد وجد فى القرافة القديمة بالفسطاط حيث كان يستعمل بمد كسره من الأبنية والأثاث لمنع انهيار الأتربة فى المدافن وقد ظهرت فى هذه القطع الأساليب القبطية فى الصناعة ، مع تطورها التدرىجى لتتخذ لنفسها مسحة إسلامية^(١) . وقد وصلت إلينا قطع خشبية ترجع إلى عصر الانتقال بين الصناعة القبطية البحتة ، فى القرن الأول الهجرى (السابع الميلادى) والصناعة الإسلامية فى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) وهذه القطع مزخرفة بالنقوش التى امتاز بها الشرق الأدنى فى النصر المسيحى . وبعض القطع المذكورة لا تكاد يميزه عن القطع القبطية إلا بما عليه من كتابات عربية^(٢) (شكل ٦) .



(شكل ٦) لوح من الخشب محفوظ فى دار الآثار العربية فى القاهرة وهو من صناعة مصر فى القرن الأول أو الثانى بعد الهجرة (٧ — ٤٨)

ولا يبعد أن يكون العرب فى مصر قد أخذوا لأنفسهم شكل الكثير من قطع الأثاث القبطية ، كالدواليب والموائد ، ولعلمهم أخذوا عنهم أيضاً الكرسى الذى يحمل عليه المصحف ، والذى يرفه القبط باسم منجلية ، (أى محل الإنجيل^(٣)) .

-
- (١) الدكتور زكى محمد حسن : الفن الإسلامى فى مصر ج ١ ص ٩٢ — ٩٣ وما ذكروه من مراجع
(٢) الدكتور زكى محمد حسن : بعض التأثيرات القبطية . ص ١٤
(٣) المرجع نفسه ص ١٥

الخزف والزجاج والمعادن

وتم صناعة أخرى اشتهرت بها مصر حينذاك وهي صناعة الخزف .
ويذكر الأستاذ بتلر أن صناع الخزف في مصر ظلوا محتفظين بمهارتهم
وبسر هذه الصناعة منذ عهد الفراعنة ، كما تأثروا بالفن البيزنطي من حيث
النماذج والزخرفة . وتدل التحف الخزفية التي ترجع إلى فجر الاسلام .
على أن طلاء الخزف باللهمان كان متقناً حينذاك ، كما أن الخزف ذا البريق
المعدني كان معروفاً ؛ ولكننا لا نعرف تماماً هل نشأت صناعة هذا الخزف
في مصر أم نقلت إليها من إيران أو العراق^(١) .

وكانت صناعة الزجاج مزدهرة في مصر منذ العصور القديمة وكان
مركزها قبل الاسلام مدينة الاسكندرية . ولا ريب في أنها لم تهمل في



(شكل ٧) ختم زجاجي باسم عبيد الله
ابن الجعاب مؤرخ من سنة ١١٠ هـ
(٨٢٩ م)

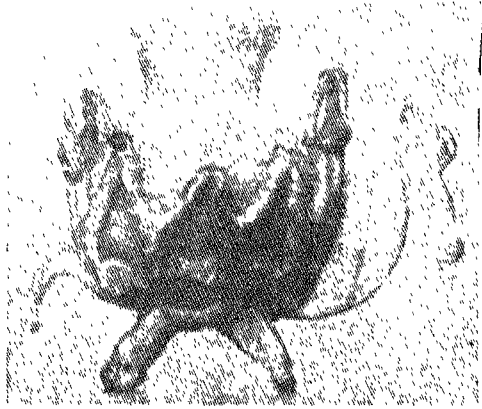
فجر الاسلام ، فإنه فضلاً عن عمل
الأوزان الزجاجية والخواتم والأختام
التي كان يطبع بها على الأواني لبيان
أحجامها المختلفة^(٢) (شكل ٧) ،
كان المصريون لا يزالون محتفظين
بمعظم ما عرفه أجدادهم من أسرار
صناعة الزجاج (شكلي ٩ و ٨) .

وكانت صناعة المصادن مزدهرة
في العصر الفرعوني واحتفظ القبط

(١) الدكتور زكي محمد حسن : الفن الاسلامي في مصر ج ١ ص ١٠٠ - ١٠٤

(٢) الدكتور زكي محمد حسن : الفن الإسلامي في مصر ج ١ ص ١١٧ - ١١٨

Flinders Petrie : Glass Stamps and Weights (London 1926).



(شكل ٨) قنينة من الزجاج على هيئة حيوان ، كانت محفوظة في القسم الاسلامى من متاحف الدولة في برلين ، وهى من صناعة مصر في فجر الاسلام



بالتفوق فيها والراجح أنهم نقلوها إلى تلاميذهم من الصناع العرب في فجر الاسلام ، ولكننا لا نعرف تماماً أى آثار معدنية مصرية من هذا العصر. أما أربق البرونز الذى كشف في أبى صير الملق (شكل ١٠) فيرجع إلى القرن الأول أو الثانى بعد الهجرة ولكنه يتبع الطراز الساسانى فى الصناعة والزخرفة .

(شكل ٩) وعاء من الزجاج كان محفوظاً فى القسم الاسلامى من متاحف الدولة ببرلين ولعله من صناعة مصر فى فجر الاسلام

أما النقود فقد كان الولاة فى مصر يتخذون منها ما تتخذها عاصمة الخلافة ولكن بعض قطع السكّة كانت تضرب فى مصر (شكل ١١) .

ومن الصناعات الشعبية التي ازدهرت في مصر منذ فجر الاسلام صناعة شواهد القبور . وكانت هذه الشواهد في البداية بسيطة من الحجر والرخام ، ثم اكتسبت طابع الاتقان تدريجياً حين دخلت الزخرفة على الخلط الكوفي الذي ظلت تكتب به إلى نهاية العصر الفاطمي (شكل ١٢) .

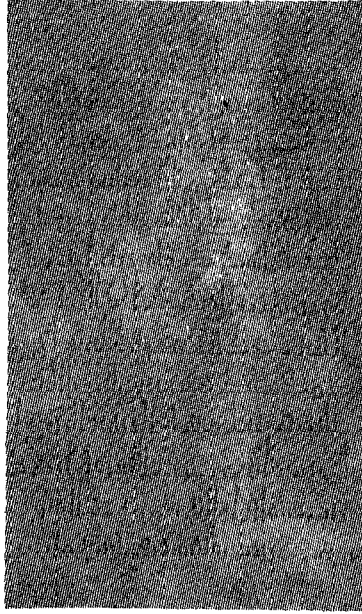


والآن وقد استعرضنا أهم الصناعات والفنون التي اشتهرت بها مصر في ذلك العهد ، نرى من الواجب علينا أن نقول إن الولاة من قبل الخلفاء شجعوا هذه الصناعات المختلفة ، وعضدوا الصناع المصريين الذين توارثوا هذه الصناعات المختلفة منذ أقدم العصور ، والذين كانوا يفوقونهم من غير شك في كافة مظاهر الحضارة المادية ، وقد ظل العرب لا يتدخلون في هذه الصناعات ولا يشاركون المصريون فيها حتى عهد المتصم على الأقل حين غير العرب ما بأنفسهم ، وتركوا الجندية ، وأصبحوا يعيشون في مصر كالمصريين .

(شكل ١٠) إبريق من البرونز محفوظ بدار الآثار العربية في القاهرة وينسب إلى الحليفة الأموي مهوان ابن محمد . ولعله من صناعة القرن الاول أو الثاني الهجري (٧ - ٨ م)



(شكل ١١) دينار من عصر الحليفة المأمون ضرب في سنة ١٩٩ هـ (٨١٤ م)



(شكل ١٢) شاهد قبر من سنة ٢٣٦ هـ . محفوظ بدار الآثار العربية
في القاهرة . ونص كتابته : بسم الله الرحمن الرحيم — إن في الله عزاء
من كل مصيبة و — خلف من كل هالك ودرك لما فات — ت وأن أعظم
المصائب المصيبة — بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم — هذا ما تشهد به جنة
ابنت ا — لفرح ابن يونس تشهد لإله إلا — الله وحده
لا شريك له وأن — محمد عبده ورسوله صلى الله — عليه
وسلم وأن الجنة والنار وا — لموت حق والساعة
آتية لا — ريب فيها وأن الله يبعث من
في القبور — توفيت في رجب
سنة ست وثلاثين
ومايتين

٣ - التجارة

يتطلب النشاط الزراعي والصناعي نشاطاً في التجارة أيضاً. وإن كانت مصر قد نشطت في التجارة فلم يكن ذلك راجعاً إلى تقدم الزراعة والصناعة فقط وإنما يرجع إلى موقع مصر الممتاز بين قارات أفريقية وأوروبا وآسيا. وقد ظهرت قيمة هذا الموقع الجغرافي العالمي منذ عهد الإسكندر المقدوني أي في أواخر القرن الرابع قبل الميلاد حين اتصلت مناطق الحضارة المختلفة بعضها ببعض وامتدت بينها أسباب التجارة وصلات السياسة والثقافة.

وظلت مصر منذ عهد الإسكندر الأكبر تتمتع بهذا المركز الممتاز العالمي فلم تكتف بتصدير ما يزيد عن حاجة البلاد من الزراعات أو الصناعات واستيراد ما يحتاج إليه البلاد، بل كانت تلعب دور الوسيط بين الشرق والغرب، فكانت مخزناً للبضائع الشرقية والغربية تصدر منتجات الأسواق الشرقية إلى الأسواق الغربية وبالعكس. وهكذا كانت التجارة تلعب دوراً هاماً في حياة مصر الاقتصادية.

ولم يغير الفتح العربي في الدور التجاري الذي لعبته مصر منذ القدم، فكما اهتم العرب باستغلال موارد البيئة المحلية بمصر، اهتموا أيضاً باستغلال الموقع الجغرافي العالمي لمصر. وكان أهم طرق التجارة بين الشرق والغرب وقبل اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح (في القرنين ٩ هـ و ١٥ م) هو طريق البحر الأحمر، إذ كان هذا الطريق يقلل، إلى أدنى حد ممكن، المصاعب والتفقات الطائلة التي يسببها النقل البري. فإذا استثنينا الشريط البري الضيق بين البحر الأحمر والنيل، كانت البضائع التي ترسل من بلاد الهند والصين تسلك دائماً طريق البحر وتتبع الطريق المباشر، أي أقصر

الطرق للوصول إلى موانئ إيطاليا وفرنسا وإسبانيا . وقد استفادت مصر بموقعها المتوسط من ذلك الطريق ، ونستطيع أن نقول عن مصر كلها ما قاله وليم الصوري عن الاسكندرية بأنها كانت سوق المالمين *forum publicum utrique orbi* (١) . ورغم الصعاب التي كانت تكثف الملاحه في هذا البحر فإنه كان ولا زال قبلة الأنظار للتجارة وللمواصلات بين الشرق والغرب ، وزاد في أهميته حديثاً حفر قناة السويس التي تصل بينه وبين البحر الأبيض المتوسط .

وقد كانت تجارة البحر الأحمر تنتهي أحياناً إلى ميناء *Leuce Come* (الحوارة الحالية) على الشاطئ الشرقي للبحر الأحمر ومنها تتخذ طريق القوافل إلى سوريا ، وكانت أحياناً تصل إلى أيلة عند العقبة الحالية ومنها أيضاً تخرج التجارة إلى فلسطين وسوريا . وكثيراً ما كانت تنتهي التجارة الشرقية عند ميناء *Berenice* (رأس بناس الحالية) أو *Leucos Limen* (القصير الحالية) أو *Myostormos* (أبو شعر الحالية) ، ومن هذه الموانئ تتجه التجارة عن طريق الصحراء الشرقية إلى فقط على النيل وتتخذ طريق النيل حتى الاسكندرية ، ومن الإسكندرية تتصل التجارة الشرقية بأسواق الغرب عن طريق حوض البحر الأبيض المتوسط . وكانت السفن التجارية تواصل السير أحياناً في البحر الأحمر إلى القلزم وهي السويس الحالية ثم تسير في القناة النيلية التي تصل بين البحر الأحمر والنيل عن طريق البحيرات المرة ووادي طميلات . وهذه القناة اهتم بحفرها الفراعنة وأعاد حفرها البطالسة والرومان ، وكانت تسهل كثيراً على التجار

ويستخدمونها للوصول إلى الإسكندرية عن طريق النيل بمد أن ينتهي طريق البحر عند ميناء القازم .

وقد اهتم المصريون ، أو الذين حكموا الشعب المصري في العصور المختلفة منذ الأزمنة القديمة بالسيطرة على الطرق الطرق التجارية ليضمنوا سلامة استقلالهم السياسي والاقتصادي ، وليجملوا مصر الطريق الرئيسى لمرور التجارة ، وكثيراً ما دفعهم هذا إلى الاستيلاء على فلسطين وسوريا ، للسيطرة على طرفيها التجارية ولتأمين الحدود المصرية . واهتم العاملون من حكام مصر في العصور المختلفة بإصلاح الطريق الصحراوى الذى تمر فيه قوافل التجارة بين البحر الأحمر والنيل ، وبإقامة الحاميات فيه ، وبحفر الآبار على طول ذلك الطريق ، وبالتقضاء على القرصنة فى البحر الأحمر والمحيط الهندي ، وبإنشاء الموانى على الشاطئ الغربى لذلك البحر فى أكثر المواقع صلاحية لسوّ المراكب وللاتصال بالنيل ، وبشق طرق تجارية جديدة بين البحر الأحمر والنيل ، وبالاهتمام بالقناة التى تصل أحدهما بالآخر إلى غير ذلك من ضروب الاهتمام بالتجارة .

وكانت هناك طرق تجارية بين مصر والشام وسائر البلاد الشرقية ، وبين مصر والواحات الغربية والمغرب ، وبين مصر وأثيوبيا وأواسط إفريقيا .

وقد زاد نشاط مصر التجارى فى فجر الإسلام نتيجة لاهتمام العرب بالتجارة على الخصوص ، ولأن مصر وبلاد المغرب وسوريا وفلسطين ، وبلاد العرب أصبحت كلها جزءاً من إمبراطورية واحدة . وقد فطن المؤرخون المسلمون إلى ذلك الموقع الممتاز الذى تتمتع به مصر ، فكتبوا أن من فضائل مصر « أنها فرضة الدنيا يحمل من خيرها إلى سواحلها ،

وذلك أن من ساحلها بالقازم ينقل إلى الحرمين وإلى جدة وإلى عمان وإلى الهند وإلى الصين وصنعاء وعدن والشجر والسند وجزائر البحر ، ومن جهة تيس ودمياط والفرما فرضة بلد الروم وأقصى الأفرنجة وقبرص ، وسائر سواحل الشام والثنور إلى حدود العراق ، ومن جهة الاسكندرية فرضة اقريطش وصقلية وبلد الروم والمغرب كله إلى طنجة ومغرب الشمس ومن جهة الصعيد فرضة بلد النوبة والبعجة والحبشة والحجاز واليمن^(١) .

وإن كانت مصر أفادت كثيراً من التجارة التي تمر بها ومن مركزها العالمي لتصدير منتجاتها الزائدة عن حاجتها ولاستيراد ما يلزمها من البضائع فإن الفائدة لم تكن قاصرة على المصريين فحسب ، بل استفادت الشعوب التجارية الأخرى من هذه التجارة العالمية ، ولا سيما البيزنطيون وسكان الجمهوريات الايطالية واليهود الذين كان لهم شأن عظيم في التجارة والذين كانوا يملكون سفناً تجارية تمخر في البحر الأبيض طولاً وعرضاً^(٢) .

وقد اهتم عمر بن الخطاب بإعادة حفر القناة النيلية التي كانت تصل البحر الأحمر بالنيل شمالى مدينة منف القديمة أى عند المكان الذى كان يتفرع منه النيل إلى فروعه في الدلتا . وقد كانت هذه القناة ، منذ حفرها في عهد الفراعنة أو البطالسة ، تهمل حيناً وتجدد حيناً آخر ويعاد حفرها . وكان الإهتمام بها راجعاً إلى الرغبة في تسهيل سير السفن بين البحر الأحمر والنيل .

ولكى نفهم ظروف حفر هذه القناة القديمة يجب أن نتذكر التغييرات التي طرأت على جغرافية نهر النيل خلال الألفى سنة الماضية . فنهري النيل

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ١ ص ٣٤١ ، خطط المرزبى ج ١ ص ٢٨ .

(٢) Heyd : Hist. du Commerce du Levant. vol. 1. pp. 125—126.

كان يتفرع شمالى بابلون بمسافة قليلة حيث موضع القاهرة الحالى تقريباً ، إلى ثلاثة فروع كبيرة منها فرعا دمياط ورشيد الحاليان ، أما الفرع الثالث فهو الفرع البلوزى الذى كان فى شرق فرع دمياط وينتهى بالقرب من مدينة بلوزيم القديمة (أو الفرما أو طينة الحالية) . وفى وسط ذلك الفرع تقريباً كان هناك بحيرة واسعة تتصل بمدينة بوباستيس القديمة أو تل بسطة الحالية القريبة من الرزازيق . ومن هذه البحيرة كانت قناة نخاو تسير نحو ميناء أرسنوى Arsinoë أو السويس ، ولكنها كانت تنتهى عند البحيرات المرة التى كانت تقع فى الشمال الغربى لرأس البحر الأحمر . أما قناة بطليموس فقد امتدت من البحيرات المرة إلى البحر الأحمر نفسه عند السويس ماره بمدينة Heroöpolis التى يظن أنها كانت فى شمال غربى السويس وتبعد عنها بنحو ١٥ ميلاً وفى جنوب شرق البحيرات المرة وتبعد عنها بنحو ٥ أو ٦ أميال . ويظن كثير من الكتاب أن البحر الأحمر نفسه أو خليج السويس كان يمتد شمالاً عما هو الآن ، ليس إلى البحيرات المرة ولكن إلى مدينة هروأوبوليس على الأقل . وعندما جفت مياه القناة الطبيعية التى كانت بين البحيرات المرة وخليج السويس الحالى ، حفر الملك دارا الفارسى والملك اجزر كسيس (القرن الخامس ق م) قناة توصل بين البحيرات المرة والخليج . وقد أعيد حفرها فى حكم بطليموس الثانى (القرن الثالث ق م) . وفى اثناء الحكم الرومانى لمصر كان الفرع البلوزى قد بدأ يجف كما أن القناة التى بين بوباستس والبحر الأحمر لم تمسح صالحة للملاحة السفن الكثيرة فى العهد الرومانى . ولذا اهتم الامبراطور تراجان فى القرن الثانى الميلادى (٩٨ - ١١٧ م) باصلاح تلك القناة وتمميمها كما أنه حفر قناة تخرج من النيل بالقرب من المنطقة التى تقوم فيها القاهرة الآن وتتقابل مع قناة نخاو

عند بلبيس الحالية في نقطة متوسطة بين بوابستيس والبحيرات المرة^(١) .
ولكن قناة تراجان هذه أهملت على مر الأيام حتى أصبحت غير صالحة
للملاحة في بداية القرن السابع الميلادي^(٢) . فلما فتح العرب مصر في أوائل
ذلك القرن اهتموا بإعادة حفر هذه القناة . ويذكر ابن عبد الحكم^(٣) ومن
نقل عنه من المؤرخين مثل المقرئ^(٤) والسيوطي^(٥) أن أهل المدينة المنورة
أصابهم جهد شديد في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وذلك في عام
الرمادة^(٦) ، فبعث عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص يستنجده ، فبعث
إليه عيرا عظيمة ، كان أولها بالمدينة وآخرها بمصر يتبع بعضها بعضا ، فلما
قدمت على الخليفة وسع بها على الناس فأعطى أهل كل بيت بالمدينة وماحولها
بعيراً بما عليه من الطعام . ونحن وإن كنا نلصق في هذه الرواية شيئاً كثيراً
من المبالغة إلا أنها تدل على أن بلاد العرب أصبحت تعتمد بعد فتح مصر
اعتماداً رئيسياً عليها لإطعام أهل الحجاز . ثم يذكر المؤرخون أن عمر بن
الخطاب أمر بحفر قناة توصل بين النيل والبحر الأحمر وذلك ليسهل حمل
الطعام من مصر إلى المدينة ومكة . فأعاد عمرو بن العاص حفر القناة التي

(١) Wilson : The Suez Canal ... pp. 3-5.

(٢) Munier : L'Egypte Byzantine .. p. 82.

(٣) فتوح مصر — طبعة توري — ص ١٦٢ — ١٦٤ .

(٤) الخطط ج ٢ ص ١٤١ — ١٤٢

(٥) حسن المحاضرة ج ١ ص ٦٨ .

(٦) يذكر ابن الأثير في كتابه الكامل ج ٢ ص ٤٣٣ — ٤٣٤ ، أنه
في سنة ١٨ هـ أصاب الناس مجاعة شديدة وجذب وقحط ، وهو عام الرمادة ، وكانت
الريح تسفي تراباً كالرمادة ، فسمى عام الرمادة . وفي هذه السنة أيضاً كان طاعون
عمواس . فسكتب عمر بن الخطاب إلى أمراء الأمصار ، يستغيثهم لأهل المدينة ومن
حولها ويستقدم ، ومن بين الذين استغاث بهم عمرو بن العاص أمير مصر .

كانت توصل النيل بالبحر الأحمر ولم يمض على ذلك عام حتى جرت السفن في القناة وحمل الطعام إلى أهل الحرمين . وسميت هذه القناة باسم خليج أمير المؤمنين نسبة إلى عمر بن الخطاب .

ويتبين من هذه الرواية أن الغرض الأساسي من حفر خليج أمير المؤمنين كان حمل الطعام والقمح إلى الحجاز ، وليس تسهيل التجارة . وذكر المقرئى نقلاً عن الكندي في « كتاب الجند العربي » أن عمرأ حفره في سنة ثلاث وعشرين و فرغ منه في ستة أشهر وجرت فيه السفن ووصلت إلى الحجاز في الشهر السابع^(١) . ويظهر أن العرب استعملوا السخرة في حفر هذا الخليج أو القناة كما أنهم استخدموا عدداً عظيماً من أهل البلاد وذلك لأن عمرأ أعاد حفرها في وقت قصير ذكر المؤرخون أنه لم يتجاوز السنة . ويذكر حنا النقيوسى^(٢) أن المسلمين فرضوا على المصريين إعادة حفر قناة تراجان من بابلون إلى البحر الأحمر وأن نيرهم على المصريين كان أشد وطأة من نير فرعون على بني إسرائيل .

وبالرغم من أن عمر بن الخطاب إنما اهتم بحفر قناة تراجان لتسهيل حمل الغلال والطعام من مصر إلى الحجاز ، فقد أفاد ذلك العمل التجارة والتجار ، فيذكر المقرئى^(٣) نقلاً عن ابن الطوير أن هذا الخليج كان مسلكاً للتجار وغيرهم ، ويذكر أيضاً أن السفن كانت تسير فيه إلى البحر الأحمر وتم في البحر إلى الحجاز واليمن والهند . ولم يزل على ذلك إلى أن قدم محمد النفس الزكية نائراً في الحجاز زمن الخليفة المنصور العباسي فكتب

(١) خطط المقرئى ج ٢ ص ١٤٣ .

(٢) تاريخ ص ٧٧ • (ed. Zotenberg)

(٣) الخطط ج ٢ ص ١٤٣ .

النصور إلى عامله على مصر يأمره بطم الخليج حتى لا تحمل البرة من مصر إلى المدينة فطمه وانقطع من حينئذ اتصاله ببحر القلزم^(١). ويقال إن ولاية مصر أمهلوا أمر هذا الخليج بمد عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز فغلب عليه الرمل وصار منتهاه إلى ذنب بحيرة التماسح^(٢).

كذلك يقال إن عمرو بن العاص فكر في حفر قناة توصل ما بين البحر الأبيض والبحر الأحمر رأساً ولكن عمر بن الخطاب لم يوافق على ذلك^(٣). ولو تمت هذه الفكرة حينذاك لسهلت الطريق التجارى كثيراً بين الشرق والغرب. ويذكر ابن خلدون^(٤) أنه ما زال الملوك في الإسلام وقبلة يرومون شق ما بين البحرين إلا أن ذلك لم يتم.

ويذكر السعدي^(٥) والسيوطي أن الخليفة هرون الرشيد أراد أن يوصل ما بين بحر الروم وبحر القلزم مما يلي الفرما. فقال له يحيى بن خالد البرمكي: كان يختطف الروم الناس من المسجد الحرام وتدخل سراكبهم الحجاز. فعدل الرشيد عن هذه الفكرة.

وبالرغم من أن إهمال خليج أمير المؤمنين جعله غير صالح للملاحة السفن في أوائل العصر العباسي، وأن هذا الإهمال لا يدل على بعد نظر في شيء — فيما عدا أنه كان علاجاً مؤقتاً لظرف من الظروف، إن صح أن أبا جعفر

(١) المخطوط ج ٢ ص ١٣٩

(٢) ابن عبد الحكم — طبعة توري — ص ١٦٤، مخطوط التبريري ج ٢ ص ١٤٢، السيوطي: حسن المحاضرة ج ١ ص ٦٨.

(٣) السعدي: مروج الذهب — طبعة أوروبا — ج ٤ ص ٩٩.

(٤) المقدمة ص ٣٩ (المقدمة الثانية في قسط العمران من الأرض).

(٥) السعدي — مروج الذهب — طبعة أوروبا — ج ٤ ص ٩٨-٩٩.

السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ١٨٩

المنصور أمر بسده كي يقطع الميرة عن أهل الحجاز عندما ناروا عليه - بالرغم من هذا يظهر أن طريق التجارة عن طريق القلزم وبرزخ السويس ظل يطره ألتجار طوال عصر الولاية الذي نتحدث عنه . وبؤيد كلامنا هذا ما كتبه الجغرافي المشهور ابن خرداذبه^(١) عن التجارة ، في أواخر القرن الثالث الهجرى . فقد تحدث عن التجار اليهود الراذانية الذين يتكلمون بالعربية والفارسية والرومية والأفريقية والأندلسية والصقلبية ، وذكر أنهم يسافرون من المشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق براً وبحراً ، يجلبون من المغرب الخدم والجوازي والغلمان والديباج وجلود الخنز والفراء والسمور^(٢) والسيوف ، ويركبون من افرنجة^(٣) في البحر الغربي فيخرجون بالفرما ويحملون تجارتهم على الظهر إلى القلزم وبينهما خمسة وعشرون فرسخاً ثم يركبون البحر المشرق من القلزم إلى الجار وجدة^(٤) ثم يمضون إلى السند والهند والصين فيحملون من الصين المسك والعود والكافور والدارصيني وغير ذلك مما يحمل من تلك النواحي حتى يرجعوا إلى القلزم ، ثم يحملونه إلى الفرما ، ثم يركبون في البحر الغربي ، فرجما عدلوا بتجاراتهم إلى القسطنطينية فباعوها من الروم ، ورجما صاروا بها إلى ملك فرنجة فيبيعونها هناك ، وإن شاءوا حملوا تجارتهم من فرنجة في البحر الغربي فيخرجون بأنطاكية ويسعون على الأرض ثلاث مراحل إلى الجابية ثم يركبون في

(١) كتاب المسالك والممالك من ١٥٣ - ١٥٤ والدكتور زكي محمد حسن :

الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ص ٧ - ٩

(٢) السمور حيوان برى يقبه ابن عرس وأكبر منه ، لونه أحمر ، مائل إلى السواد ، يتخذ من جلده فراء ثمينة ، ورجما أطلق السمور على جلده ، والجمع سلمير :

(٣) يقصد بفرنجة هنا فرنسا .

(٤) الجار كانت ميناء المدينة المنورة ، أما جدة فهي ميناء مكة .

الفرات إلى بغداد ثم يركبون في دجلة إلى الأبله ومن الأبله إلى عمان والسند
والهند والصين ، كل ذلك متصل بعضه ببعض » .

وبين هذا النص أهمية مراكز مصر التجارى ، كما بين أن طريق
القلم والفرما كان من أهم حلقات الاتصال بين الشرق والغرب .

ولدينا نص متأخر عن ذلك ، كتبه المسعودى^(١) في القرن الرابع
المجرى وهو بين أهمية ذلك الطريق التجارى أيضاً . فيقول إن مصر
« هى البرزخ بين البحرين المذكورين فى القرآن^(٢) ، لأن من الفرما التى
على ساحل بحر الروم إلى القلم التى هى ساحل بحر الصين مسيرة ليلة ،
يحمل إليها من جميع الممالك المحيطة بهذين البحرين من أنواع الأمتعة
والطرائف والتحف من الطيب والأفاويه والمقاير والجوهر والرقيق وغير
ذلك من صنوف المآكل والشارب والملابس ، لجميع البلدان تحمل إليها
وتفرغ فيها » .

وبالرغم من الأهمية التى كانت لخليج أمير المؤمنين فى التجارة ، أو
لطريق القلم — الفرما ، بعد سد ذلك الخليج ، فلا نستبعد أن يكون
بعض التجار قد اتخذوا الطريق الصحراوى الذى يوصل بين البحر الأحمر
والنيل طريقاً لمسيرهم خصوصاً بعد سد خليج أمير المؤمنين ، ونظراً لصعوبة
الملاحه فى البحر الأحمر . وكان بعض التجار يتخذون هذا الطريق قبل الفتح ،
فكانوا يسبرون من القصير أو برنيس إلى قفط على النيل ثم يسبرون فى
النيل إلى البحر الأبيض المتوسط . ولكن يظهر أن هذا الطريق لم يكن

(١) التنبية والاشراف ص ٢٠

(٢) يشير بذلك إلى قوله تعالى (مرج البحرين يلتقيان ، بينهما برزخ لا يبغيان)

سورة الرحمن ، آية ١٩ — ٢٠

مفضلاً على غيره في فجر الإسلام؛ لأن الجغرافيين والمؤرخين العرب في ذلك العصر لم يطنبوا في الحديث عن أهميته كما فعل المؤرخون في عصر المماليك فبينما نرى اليعقوبي^(١)، أحد الجغرافيين الذين زاروا مصر في القرن الثالث الهجري لا يزيد على القول بأن عيذاب كانت ميناء تجارية، يذكر القرزى^(٢) أن صحراء عيذاب كانت مزدهرة في القرن الخامس الهجري باعتبارها طريقاً للحج وللتجارة بين مصر والحجاز وغيرها من البلاد، ويذكر أن حجاج مصر والمغرب كانوا لا يتوجهون إلى مكة إلا من صحراء عيذاب فيركبون النبل حتى قوص ويمبرون الصحراء إلى ميناء عيذاب ومنها يركبون البحر إلى جدة، وكذلك كان تجار الهند واليمن والحبشة يركبون البحر إلى عيذاب ثم يسلكون الصحراء إلى قوص ومنها يسرون في النبل إلى مصر أو الإسكندرية. فالحق أن صحراء عيذاب ظلت أهلة بالتجارة والحجاج أكثر من مائتي سنة، وذلك بين سنتي ٤٥٠ هـ و ٦٦٠ هـ. أي أنها كانت مسلكاً للتجار والحجاج وبلغت درجة عظيمة من الازدهار في عهد متأخر عن العهد الذي نبحث فيه.

ولم يكن فتح العرب مصر سبباً في قصر تجارتها على دول الشرق وضعف علاقاتها التجارية مع بلاد الغرب، فقد رأينا من نصوص جغرافي العرب كيف كانت مصر طريقاً للتجارة بين الشرق والغرب معاً. وكذلك لم تفقد الإسكندرية مكانتها التجارية العالمية التي كانت لها قبل الفتح. فقد زار الأسكندرية بعد فتح العرب لمصر بنحو ثلاثين سنة (حوالي سنة ٦٧٠ م و ٥٠ - ٥١ هـ) أركولف Arculf أحد حجاج بيت المقدس فتكلم عن

(١) كتاب البلدان ص ٣٣٥

(٢) الخطط ج ١ ص ٢٠٢

الأسكندرية باعتبارها ملتقى التجارة العالمية حيث يتبادل البضائع فيها شعوب لا حصر^(١) لها . وإن كانت شهرة الأسكندرية قد تضاءلت قليلا بعد ذلك أمام شهرة بغداد التجارية ، فقد احتفظت رغم ذلك بمركزها التجارى الهام . ويذكر آدم متز^(٢) أنه حينما أخذت تجارة المسلمين للمسكان الأول في التجارة العالمية في القرن الرابع الهجرى كانت الأسكندرية وبغداد هما اللتان تقرران الأسعار للعالم في ذلك العصر ولا سيما في البضائع السكالية . وكما ظلت الأسكندرية محتفظة بأهميتها التجارية فقد ظلت أيضا العلاقات التجارية مستمرة بين مصر وأم الغرب ، ففي أوائل القرن التاسع الميلادى (نهاية القرن الثانى وبداية الثالث الهجرى) نرى الحكومة البيزنطية تفكر في أن تحرم على بحارتها الرسو في الشواطئ السورية والمصرية . ولا بد أن البيزنطيين في ذلك الوقت كانوا يتبادلون التجارة مع المسلمين^(٣) . وإذا كان الامبراطور شارلمان قد استطلع أن يرسل المساعدة إلى الفقراء المسيحيين في الإسكندرية فلا بد أنه كان يستورد من مصر ما يلزمه من الحاجات وعلى الأخص التوابل التى كثيراً ما نجد ذكرها في الوثائق المعاصرة^(٤) :

وطبىبي أن طرق الحج وطرق البريد كانت أيضاً مسلكا للتجارت في ذلك العصر، لأن الخلافة كانت تهتم بمهارة هذه الطرق وبالناية بها وتوفير الراحة فيها . فعند ما كان خليج أمير المؤمنين مستعملا لملاحه السفن كان بعض الحجاج يتخذون هذا الطريق أيضاً للحج ، ويذكر السيوطى^(٥) أن حجاج

(١) Kammerer : La Mer Rouge. t. 1, p. 12—18.

Heyd : Hist. du commerce. t. 1, p. 41

(٢) الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٣١٢

(٣) Wiet : Hist. de la Nation Egypt. t. 1V, p. 174.

(٤) Wiet : op. cit. p. 174.

(٥) حسن المحاضرة ج ١ ص ٦٩ .

البحر كانوا يسيرون فيه إلى القلزم ومن القلزم ينتقلون إلى المراكب السكبار ،
ورأينا كذلك أن الطريق الصحراوي بين البحر الأحمر والنيل كان مسلكا
للتجار والحجاج . على أن هناك طريقا بريا كان يرتاده الحجاج بكثرة وهو
طريق أيلة التي كانت عند موضع العقبة الحالية . فيسير الحجاج من مصر
عن طريق البر إلى القلزم فإما أن يركبوا البحر إلى الجار ميناء المدينة -
وإما أن يسيروا إلى أيلة وبمدها إلى بلاد الحجاز .

وكان هناك ست مراحل^(١) بين القلزم وأيلة^(٢) . ويذكر المقرئ^(٣)
أن أيلة أول حد الحجاز ، وقد كانت مدينة جليلة على ساحل البحر بها التجارة
الكثيرة وأهلها أخلاط من الناس ، وكانت في الإسلام منزلا لبني أمية
وأكثرهم موالى عثمان بن عفان وكانوا سقاة الحاج ، وكان بها علم كبير وآداب
ومتاجر وأسواق عامرة .

وكانت بلاد الحجاز نفسها ملتقى للحجاج وللتجار فكانت البضائع
الشرقية تباع إلى الحجاج المديدين ، فضلا عن أنها كانت تصل إلى أسواق
الغرب بواسطة التجار المصريين الذين يرافقون الحجاج في عودتهم إلى مصر
بالطريق البري حول خليجي البحر الأحمر أو بواسطة التجار السوريين
الذين يحملون هذه البضاعة في اتجاه دمشق^(٤) .

أما طرق البريد فأولها الطريق المعروف الذي أتت منه الجيوش المغيرة
على مصر في العصور المختلفة . مثل جيوش قبيز والاسكندر الأكبر ،

(١) الرحلة المسافة التي يقطعها المسافر في يومه ، اجتمع مراحل .

(٢) خطط المقرئ ج ١ ص ٢١٣

(٣) الخطط ج ١ ص ١٨٤ .

(٤) Heyd : Hist. du commerce. vol. I. p. 41.

وعمر بن الماص ، وهو يمر بالرملة بفلسطين وبمدينة غزة ورفح والعريش والفرما وبلبيس ثم الفسطاط . وهناك طريق آخر يخرج من الفسطاط إلى برقة وأفريقية وبلاد المغرب ، وآخر يخرج من الفسطاط إلى المغرب دون أن يمر بالإسكندرية ولكنه يلتقي بالطريق الذي يخرج من الإسكندرية في ذات الحمام (١) .

كذلك لا نشك في أن مصر كانت تتبادل التجارة في هذا العهد مع النوبة والسودان وأواسط أفريقية ، فنسذ الفتح العربي كانت هناك شبه اتفافية تجارية بين مصر والنوبة تفضي بأن تستورد مصر الرقيق من النوبة وتصدر إليها القمح والعدس والحبوب (٢) ، ولا بد أن مصر كانت في علاقات تجارية مع الحبشة وأواسط افريقية وكانت تصل إليها منتجات هذا الإقليم ، إما عن طريق البحر الأحمر أو عن طريق النيل عند أسوان . ولا ننسى في هذه المناسبة ما كان هناك من علاقات دينية بين مصر وبين هذه الأقطار المختلفة ، إذ أن البطرق الأرتودكسي في مصر كانت ولا تزال له الرئاسة الدينية على نصارى الحبشة والنوبة وسائر المسيحيين في السودان ، وهو الذي يرسم أساقفتهم (٣) ولا بد أن هذه العلاقة الدينية قد تبعها علاقة تجارية أيضا . ويذكر اليعقوبي (٤) أن التجارة كانت تأتي إلى نجر عيذاب فيحملون التبر والماج وغير ذلك في المراكب . ولا شك أن مصر كان يصيبها شيء من تجارة أواسط افريقية عن طريق هذا الميناء .

(١) قديمية بن جعفر : كتاب الخراج ص ٢١٩ — ٢٢٥

(٢) ابن عبد الحكم — طبعة توري — ص ١٨٨ — ١٨٩ ، الكندي :

الولاية والقضاة ص ١٢ — ١٣

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٠٨

(٤) البلدان ص ٣٣٥

ولا نعرف تماما ما الذى كانت تصدره مصر فى ذلك العهد وما الذى كانت تستورده ، لكننا نرجح فى الغالب أنه فضلا عن دور الوسيط الذى كانت تقوم به مصر بين الشرق والغرب ، كانت تصدر جانبا من القمح بالإضافة إلى ما كانت ترسله سنويا إلى الحجاز . ولا نستبعد أن مصر كانت تصدر الكتان فى ذلك العهد لوفرة زراعته بها ، كما أننا نرجح أن أهم ما كانت تستورده مصر هو الأخشاب ، لندرة الأنواع الطيبة من الخشب فى مصر مما كان يلزم للبناء والسفن ، وكذلك المادن . ويظهر أيضا أن تجارة الرقيق كانت رائجة فى ذلك العهد أيضا ، فقد كان هناك سوق للرقيق بمصر فى الفسطاط منذ أول عهد الفتح^(١) .

(١) ابن عبد الحكم - طبعة تورى - ص ٩٢ ، السيوطى : حسن

٤ - الحركة العلمية

تركزت الحركات العلمية، في كافة الأمصار الإسلامية في صدر الإسلام في الناحية الدينية ، وكان أكثر العلماء الذين ظهروا إذ ذاك علماء دين . أما العلوم الدنيوية والفلسفية فقد كان شأنها ضعيفاً في ذلك العصر بل كان ما ينمو منها إنما يحتاج في نموه إلى الدين يعتمد عليه ويصطبغ به ^(١) .

وقد تفرق الصحابة في كافة البلدان التي نمتحتها الجيوش الإسلامية بل انضم كثير منهم إلى الجيوش التي فتحت تلك البلدان . وربما تعدد الخلفاء تفرقتهم ليملموا أهلها الدين الإسلامي . وكان ممن حضر فتح مصر من أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام ، غير عمرو بن العاص قائد الجيش الفاتح ، عبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري والزيير بن العوام والمقداد بن الأسود وعبادة بن الصامت وعبد الله بن عمر ابن الخطاب وخارجة بن حذافة العدوي ومسلمة بن مخلد وأبو رافع مولى رسول الله وشريك بن سمى النطفي المرادي وعبد الله بن الحارث بن حزم ابن عبد الله بن معدى كرب الزبيدي المذحجي وكان آخر صحابي مات بمصر ، توفي في سنة ست أو سبع أو ثمان وثمانين من الهجرة ، وغيرهم كثير ^(٢) ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل أخذ الصحابة يفدون إلى مصر بمسد

(١) أحمد أمين بك : فجر الإسلام ج ١ ص ٢٣٣

(٢) ابن عبد الحكم — طبعة توري ص ٩٢ — ٩٣ ، السيوطي : حسن

المحاضرة ج ١ ص ٧٣ — ١٠٠

الفتح . إذ شجعهم على ذلك مارأوه من وفير الخيرات وسهولة العيش . فكان
العالمون منهم بأمور الدين يقومون بمهمة تعليم الشعب المصرى أصول الدين
الإسلامى . وهؤلاء الصحابة العلماء كانوا أساس مدرسة مصر الدينية كما كان
غيرهم من الصحابة أساس المدارس الدينية فى مختلف الأمصار .

على أن أشهر من علم بمصر من الصحابة بعد الفتح هو عبد الله بن عمرو
ابن العاص ؛ فيذكر القريرى^(١) أن أهل المدينة كانوا يتبعون فى الأكثر
فتاوى عبد الله بن عمرو . رضى الله عنهما ، وأن أهل الكوفة كانوا يتبعون
فى الأكثر فتاوى عبد الله بن مسعود رضى الله عنهما ، وأن أهل مكة كانوا
يتبعون فى الأكثر فتاوى عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ، وأن أهل
مصر كانوا يتبعون فى الأكثر فتاوى عبد الله بن عمرو بن العاص
رضى الله عنهما .

ولأهل مصر عن عبد الله بن عمرو بن العاص قرابة مائة حديث^(٢) .
وقد أسلم عبد الله بن عمرو قبل أبيه^(٣) وكان فاضلا عالما قرأ القرآن والكتب
المتقدمة واستأذن النبي صلى الله عليه وسلم فى أن يكتب عنه فأذن له فقال :
يا رسول الله أكتب ما أسمع فى الرضا والغضب . قال : نعم فإني لا أقول إلا
حقا^(٤) . ويذكر ابن سعد^(٥) عن اسحاق بن يحيى عن مجاهد أنه قال : رأيت

(١) الخطط ج ٢ ص ٣٣٢

(٢) ابن عبد الحكم - ص ٢٥٤

(٣) ابن سعد : كتاب الطبقات الكبير ج ٧ ص ١٨٩ ، ابن الأثير : أسد
الغابة فى معرفة الصحابة ج ٣ ص ٢٣٣ ، ابن حجر : الإصابة فى تمييز الصحابة ج ٤

ص ١١٢

(٤) ابن الأثير : أسد الغابة ج ٣ ص ٢٣٣

(٥) الطبقات الكبير . ج ٧ ص ١٨٩

عند عبد الله بن عمرو صحيفة فسألته عنها فقال : هذه الصادقة ، فيها ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بيني وبينه فيها أحد . وقال أبو هريرة : ما كان أحد أحفظ لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم مني إلا عبد الله بن عمرو بن العاص فإنه كان يكتب ولا أكتب . وقال عبد الله : حفظت عن النبي صلى الله عليه وسلم ألف مثل (١) .

وقد اختلف في سنة وفاة عبد الله بن عمرو وفي أى جهة توفى ، ويذكر بعض المؤرخين أنه توفى عند ما قدم مروان بن الحكم إلى مصر لاستخلاصها من عامل ابن الزبير . وفي اليوم الذى قتل فيه الاكدر بن حمام بن عامر سيد لحم في النصف من جمادى الآخرة سنة ٦٥ هـ ولم يستطع أحد أن يخرج في جنازة عبد الله بن عمرو إلى المقبرة لشغب الجند على مروان (٢) ويعتبر عبد الله بن عمرو بن العاص بحق مؤسس مدرسة مصر الدينية إذ أخذ عنه كثير من أهلها وكانوا يكتبون عنه ما يحدث .

وإن كان عبد الله بن عمرو هو الملم الأول في مصر فقد أخذت مصر دروسا دينية أيضا عن غيره من الصحابة وسمعت أحاديث نبوية من مختلف الصحابة الذين وفدوا إليها عقب الفتح . وسرعان ما أصبحت مصر بعد الفتح مركزا علميا دينيا في الدولة الإسلامية . وكان الخلفاء يوفدون علماء الدين إليها ليفقهوا أهلها وليكونوا مرجعا لهم في أحكامه وكافة أمورهم ، فمثلا نرى عمر بن الخطاب يبعث إلى أهل مصر حبان بن أبي جيلة ليفقههم (٣) . وبعث الخليفة

(١) ابن الأثير : أسد النساب ج ٣ ص ٢٣٣ وابن حجر : الإصابة ج ٤

ص ١١٢

(٢) الكندى ص ٤٦ وخطط القرينى ج ٢ ص ٣٣٨

(٣) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٨١ - ٨٢

عمر بن عبد العزيز نافعا مولى ابن عمر فقيه أهل المدينة إلى مصر ليملمهم السنن^(١) .

وقد تتلمذ على أيدي الصحابة بمصر التابعون الآخذون عنهم وكانوا لا يعتمدون فتاويهم إلا اليسير مما بلغهم عن غير من كان في بلادهم من الصحابة^(٢) . على أننا نلاحظ أن أكثر حملة العلم في عصر الصحابة كانوا من العرب لأن أكثر الصحابة عرب ، فلما قام علماء الصحابة بالتعليم في الأمصار المفتوحة اشترك العرب وغيرهم في تلقى العلم عنهم حتى إذا كان عصر التابعين وتابعيهم انعكست الآية فأصبح بعض حملة العلم عربا وأكثرهم من الموالي وأبنائهم^(٣) ويدلنا على ذلك أن الخليفة عمر بن عبد العزيز جعل الفتيا بمصر إلى ثلاثة رجال : رجلا من الموالي ورجل من العرب ؛ فأما العربي فجعفر بن ربيعة ، وأما الموليان فيزيد بن أبي حبيب وعبد الله بن أبي جعفر . وأظهر بعض العرب إنكارهم ذلك فقال عمر بن عبد العزيز : ما ذنبي إن كانت الموالي تسمو بأنفسها صعدا وأنتم لا تسمون !

واشتهر من مصر كثير من العلماء والفقهاء والأئمة المجتهدين . نذكر منهم الخليفة عمر بن عبد العزيز الذي ولد بمصر سنة إحدى وستين وقيل ثلاث وستين ، وأبوه عبد العزيز بن مروان أمير عليها ، « وقد تفقه حتى بلغ رتبة الاجتهاد وله مناقب كثيرة »^(٤) . وعمن اشتهر بمصر أيضا يزيد بن حبيب واسمه سويد الأزدى أبو رجاء المصري ، كان فقيه مصر وشيخها ومفتيا ، ولد سنة ٥٢ هـ بمصر وهو أحد ثلاثة فوض إليهم عمر بن عبد العزيز أمر الفتيا

(١) المرجع نفسه ص ١١٩

(٢) خطط القرظي ج ٢ ص ٣٣٢

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٤٨٠ - ٤٨١ (فصل في أن حملة السلم في

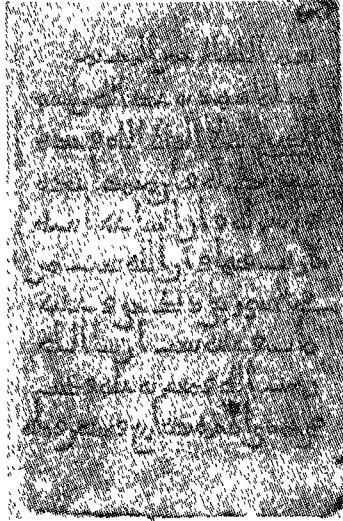
الاسلام أكثرهم السجم) وأحمد أمين بك : فجر الاسلام ج ١ ص ١٨٣

(٤) السيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ١١٩

بمصر . وقد أخذ عنه عبد الله بن لهيعة والليث بن سعد وآخرون ، وكان الليث ابن سعد يثنى عليه ويقول « ابن أبي حبيب سيدنا » وتوفي يزيد بن أبي حبيب بمصر في سنة ١٢٨ هـ .^(١)

ومن علماء مصر ومحدثيها وفقائها أبو عبد الرحمن عبد الله بن لهيعة الحضرمي النافق المصري الفقيه الذي ولد في سنة ٩٧ هـ وقيل سنة ٩٦ هـ وولى قضاء مصر عشر سنين (١٥٥ — ١٦٤ هـ) ومات بها في منتصف شهر ربيع الأول سنة ١٧٤ هـ (شكل ١٣) وقيل سنة ١٧٠ هـ^(٢) . ومن أشهر فقهاءها وأئمتها في ذلك العهد أيضا الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمي مولاهم الأصهباني الأصل المصري ، ولد في مصر في بلدة قرقشندة^(٣) سنة ٩٤ هـ وكان ثقة كثير الحديث صحيحه اشغل بالفتوى في زمانه . ويقال إن دخله كان في كل سنة خمسة آلاف دينار ، كان يفرقها في الصلوات وغيرها . ولا تعرف ما هو مصدر ثروته هذه ، وقيل إن الأمام مالك كتب إليه من المدينة « بلغني أنك تأكل الرقاق وتلبس الرقاق وتمشي في الأسواق » فكتب إليه الليث بن سعد : (قُلْ من حَرَّمَ زينة الله) . وكان الليث كبير الديار المصرية ورئيسها وأمير من بها في عصره بحيث أن القاضي والنائب كانا من تحت أمره ومشورته وكان الشافعي يتأسف على فوات لقيائه . وتذكر الروايات أن الشافعي قال « كان الليث أفتقه من مالك إلا أنه ضيعه أصحابه » .

(١) خطط المقرئى ج ٢ ص ٣٣٢ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٤٣ و ٣٠٨ ، السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ١١٩ — ١٢٠
(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١ ص ٣١٣ وأبو المحاسن ج ٢ ص ٧٧ السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ١٢٠
(٣) قرقشندة : قرية بأسفل مصر . ولد بها الليث بن سعد (ياقوت . معجم البلدان ج ٤ ص ٦٤) وهى قرقشندة بمديرية القليوبية .



(شكل ١٣) شاهد قبر عبد الله بن لهيعة ، محفوظ بدار الآثار العربية في القاهرة . ونص كتابته : بسم الله الرحمن الرحيم — هذا ما يشهد به عبد الله بن لهيعة — الحضري أنه لا إله إلا الله وحده — لا شريك له وأن محمداً عبده — ورسوله وأن الساعة آتية — لا ريب فيها وأن الله يبعث من — في القبور على ذلك حيي وعليه — مات وعليه يبعث إن شاء الله — رحمت الله ومفقرته عليه وكتب في جمدى الآخرة سنة أربع وسبعين ومائة

وقال يحيى بن بكير : « ما رأيت أحداً أكل من الليث ، كان فقيه النفس ، عرني اللسان ، يحسن القرآن والنحو ويحفظ الحديث والشعر ، حسن المذاكرة » . وقد توفي الليث بن سعد سنة ١٧٥ هـ ، وقال قائل حين مات ذهب الليث فلا ليث لكم ومضى العلم غريباً وقبر^(١)

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٥٥٤ — ٥٥٥ وخطط المقرئ ج ٢ ص ٣٣٢ ، أبو الحسن ج ١ ص ٨٢ والسيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ١٢٠ — ١٢١ وأحد أمين بك : فجر الإسلام ج ١ ص ٢٣٠

وقد شعر كثير من التابعين في الأمصار المختلفة بضرورة الانتقال من جهة إلى جهة للدرس وتحصيل العلم . فالصحابة العلماء الذين أخذ عنهم أهل الأمصار المختلفة كان بعضهم يزيد على الآخرين في أشياء وينقص في أشياء أخرى ؛ إذ كان بعض الصحابة يفتنون عن مجلس النبي عليه الصلاة والسلام في بعض الأوقات التي يحضر فيها الآخرون وبالعكس فيفوت كل واحد منهم ما غاب عنه . فلما فتحت البلدان وتفرقت الصحابة في الأقاليم أصبح كل إقليم متأثراً بالصحابة الذين علموا فيه . فلما جاء عهد التابعين وتابعتهم شعركثير منهم بالحاجة إلى التفقه على علماء الأقاليم الإسلامية الأخرى فكثرت الرحلة إلى الأمصار المختلفة^(١) ، وتقابل العلماء في مختلف الجهات ، وازدهرت في ديار الإسلام مراكز عديدة للعلم يفد إليها الطلاب من مختلف الأقاليم الإسلامية . ويقال إن أول من رحل من أهل مصر إلى العراق في طلب الحديث هو أبو سعيد عثمان بن عتيق مولى غافق الذي توفي سنة ١٨٤هـ^(٢) . وتأثرت مصر بالمذاهب الإسلامية التي ظهرت في مصر العباسي . ففي ذلك العصر امتزجت العقلية العربية بالعقلية الفارسية واليونانية وارتفع مستوى الثقافة بين العلماء بفضل تشجيع بعض الخلفاء للعلماء والفقهاء والأدباء والشعراء وإقبال نخبة من العلماء على ترميب الكتب الأجنبية ودراستها .

ونشأ في العصر العباسي مذاهب انقرض بعضها في العصر العباسي نفسه ولا يزال بعضها الآخر قائماً حتى اليوم . وقد كان فريق من الفقهاء يغالون في اتباع

(١) الدكتور زكي محمد حسن : الرحالة المسلمون في العصور الوسطى

ص ٦ - ٧

(٢) خطط القرظي ج ٢ ص ٣٣٢ - ٣٣٣ وأحمد أمين بك : جغرافية الإسلام

ج ١ ص ٢٣٠ - ٢٣١

الرأى وفريق آخر يفتالى فى اتباع الحديث وفريق ثالث يتبع طريقا وسطا بين
الاثنتين . وأم المذاهب التى ذاعت فى المصر العباسى هى المذاهب الأربعة
التى قدر لها البقاء إلى اليوم . واقدم هذه المذاهب الأربعة هو مذهب الإمام
أبى حنيفة وقد ولد الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت بالكوفة سنة ٨٠ هـ
وقيل سنة ٦٦ هـ وتوفى ببغداد سنة ١٥٠ هـ ويعد أبو حنيفة إمام أهل الرأى
والقياس ، وكان أشهر من دون مذهبى تلميذه أبو يوسف يعقوب بن محمد
القاضى (١١٣ - ١٨٣ هـ)^(١) . وثانى أئمة المذاهب الأربعة هو الإمام مالك
ابن أنس الأصمى الذى ولد بالمدينة المنورة فى سنة ٩٣ هـ أو سنة ٩٥ هـ
وتوفى بها سنة ١٧٩ هـ ويمتاز مذهبى بعباده على الحديث أكثر من أبى
حنيفة ، ويقال لأصحابه أهل الحديث^(٢)

وثالث هؤلاء الأئمة فى القدم الإمام محمد بن ادريس الشافعى القرشى
وقد ولد بغزة سنة ١٥٠ هـ ، وتلقى العلم فى مكة والمدينة وبغداد ثم أتى إلى
مصر فى سنة ١٩٨ هـ وصنف بها كتبه وكون بها مذهبى الجديد وتوفى
بها فى سنة ٢٠٤ هـ^(٣) ويذكر ابن خلدون^(٤) أن الإمام الشافعى مزج
طريقة أهل الحجاز بطريقة أهل العراق واختص بمذهب أى أنه جمع بين

(١) انظر ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢١٨ وأحمد تيمور باشا :

انظرة تاريخية فى حدود المذاهب الأربعة ص ٨ - ٩

(٢) انظر ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٥٥٥ - ٥٥٦ ، وأحمد

تيمور باشا : المرجع السابق ص ١٩

(٣) انظر ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٥٦٥ - ٥٦٦ وأبو الحسن

النجوم الزاهرة ج ٢ ص ١٧٦ - ١٧٧ السيوطى حسن الحضارة ج ١ ص ١٢١ -

١٢٢ وأحمد تيمور باشا : المرجع نفسه . ص ٢٨

(٤) المقدمة ص ٣٧٥

مذهبي الرأي والحديث . ويحدر أن نشير هنا إلى أن قدومه بمصر كان مع عبد الله بن والي مصر العباس بن موسى بن عيسى العباسي الذي أرسله أبو خليفة له على ولاية مصر^(١) .

ورابع هؤلاء الأئمة هو الإمام أحمد بن حنبل الشيباني الذي ولد ببغداد سنة ١٦٤ هـ وقيل بعرو وحمل إلى بغداد وهو رضيع وتوفى بها سنة ٣٤١ هـ وكان ابن حنبل يفتي في اتباع الحديث إذ كان يقول ضعيف الحديث أقوى من الرأي^(٢)

بالرغم من أن مذهب أبي حنيفة هو أقدم المذاهب إلا أن مذهب مالك هو الذي دخل مصر أولاً وانتشر بها . ويذكر المقرئ^(٣) أن « أول من قدم بعلم مالك إلى مصر عبد الرحيم بن خالد بن يزيد بن يحيى مولى جمع وكان فقيهاً روى عنه الليث وابن وهب ورشيد بن سعد وتوفى بالإسكندرية سنة ١٦٣ هـ ثم نشره بمصر عبد الرحمن بن القاسم فاشتهر مذهب مالك بمصر أكثر من مذهب أبي حنيفة لتوفر أصحاب مالك بمصر . ولم يكن مذهب أبي حنيفة رحمه الله يعرف بمصر » .

ويذكر ابن فرحون^(٤) والسيوطي^(٥) أن عثمان بن الحكم الجداي هو أول من أدخل علم مالك بمصر وتوفى سنة ١٦٣ هـ .

(١) الكندي ص ١٥٤ وأبو الحسن . النجوم الزاهرة ج ٢ ص ١٦١

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٢٠ و ٥٦٥ وأحمد تيمور باشا . ص ٣٨

(٣) المخطوط ج ٢ ص ٣٣٤

(٤) الديباج ص ١٨٧

(٥) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٢١

وكلا القولين صحيح ففي ترجمة عثمان الجذامي من «تهذيب التهذيب» لابن حجر المسقلائي ما نصه: «وقال ابن وهب أول من قدم مصر بمسائل مالك عثمان بن الحكم وعبد الرحيم بن خالد بن يزيد» .

فيظهر أنهما بعد أن تفقها عن الإمام مالك عادا معا إلى مصر ونشرا بها مذهبه^(١) وقد اشتهر من مدرسة مصر كثير من الفقهاء المالكية نذكر منهم طليب بن كامل اللخمي الذي كان من كبار أصحاب مالك ، عاش بالإسكندرية وروى عنه ابن القاسم وابن وهب ، وتفقه عنه ابن القاسم قبل رحلته إلى مالكا . وقد مات طليب في حياة مالك بالإسكندرية سنة ١٧٣هـ^(٢) .
ومن فقهاء المالكية في مصر سعيد بن عبد الله بن أسعد المعافري المصري ، كان من كبار أصحاب مالك تفقه بابن وهب وابن القاسم ومات بالإسكندرية سنة ١٧٣هـ^(٣) .

ومن أشهر فقهاء المالكية في هذا العصر أبو عبد الله عبد الرحمن بن القاسم بن خالد بن جُنادة المُتقّ بالولاء إذ تفقه على الإمام مالك رضى الله عنه ونظرائه وحجب مالكا عشرين سنة وانتفع به أصحاب مالك بعد موت مالك وعنه أخذ سحنون (من أشهر فقهاء أفريقية) وقد ولد ابن القاسم في سنة ١٣٢ وقيل سنة ١٣٣ وقيل سنة ١٣٨ هـ وتوفي بمصر سنة ١٩١هـ^(٤)

(١) تيمور باشا : نظرة في حدوث المذاهب الأربعة ص ٢٠

(٢) السيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ١٢١

(٣) المرجع نفسه ص ١٩٠

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٤٦ — ٣٤٧

ومن فقهاء المالكية بمصر في ذلك العهد عبد الله بن وهب بن مسلم
المصرى القهري مولاهم ، ولد سنة ١٢٥ هـ وقيل سنة ١٢٤ هـ وقد صحب
الإمام مالك بن أنس رضى الله عنه عشرين سنة : رحل ابن وهب إلى الإمام
مالك في سنة ١٤٨ هـ ولم يزل في صحبته إلى أن توفى ، وسمع من مالك ، وسمع
من مالك قبل عبد الرحمن القاسم بوضع عشرة سنة . وكان مالك يكتب إليه
إذا كتب في المسائل : إلى عبد الله بن وهب المقتى ، ولم يكن يفعل هذا مع
غيره . وذكر ابن وهب وابن القاسم عند مالك فقال : ابن وهب عالم وابن
القاسم فقيه . وقد توفى ابن وهب في مصر سنة ١٩٧ هـ (١) .

ومن الفقهاء المالكية في ذلك العهد أيضا أشهب بن عبد العزيز بن
داود بن إبراهيم القيسى العامري المصرى فقيه مصر وقيل اسمه مسكين ولقبه
أشهب . ولد سنة ١٤٠ هـ ومات في سنة ٢٠٤ هـ بعد موت الإمام الشافى
بثمانية عشر يوما . وكان الشافى يقول : « ما أخرجت مصر أفاقه من أشهب
لولا طيش فيه » (٢) .

ومن مشاهير فقهاء المالكية في مصر في ذلك العهد عبد الله بن
عبد المحكم بن أعين بن ليث بن رافع المصرى . كان أعلم أصحاب مالك بمختلف
قوله وأفضت إليه رئاسة الطائفة المالكية بعد أشهب . وكان من ذوى الأموال
والجاه ، يقال إنه دفع للإمام الشافى عند قدومه إلى مصر ألف دينار من

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٣١٢ والسيوطى : حسن المحاضرة

ج ١ ص ١٢١

(٢) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ١٧٥ - ١٧٦ ، والسيوطى :

حسن المحاضرة ج ١ ص ١٩٠

ماله ، وأخذ له من ابن عسامة التاجر ألف دينار ومن رجلين آخرين ألف دينار . ولد في سنة ١٥٠ هـ وقيل سنة ١٥٥ وتوفي سنة ٢١٤ هـ ودفن بجوار قبر الإمام الشافعي . وقد أخذ عنه الفقه كثير من أهل مصر ومن أخذ عنه بنوه ، نذكر منهم عبد الرحمن بن عبد الحكم صاحب كتاب فتوح مصر الذي توفي سنة ٢٥٧ هـ ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم ، وقد صحب محمد هذا الإمام الشافعي عندما قدم مصر وتفق عليه ، فلما مات الشافعي رجع محمد إلى مذهب مالك وانتهت إليه الرياسة بمصر . قال ابن يونس : كان المفتي بمصر في أيامه . وقال غيره : كان من العلماء الفقهاء مبرزاً ، من أهل النظر والمناظرة والحجة وإليه كانت الرحلة من الغرب والأندلس في العلم والفقه وقد كان محمد هذا فقيه مصر في عصره على مذهب مالك كما رسخ في مذهب الشافعي وله مصنفات كثيرة وتوفي سنة ٢٦٨ هـ^(١).

هؤلاء الفقهاء المالكية بمصر ، نذكرهم على سبيل المثال لا على سبيل الحصر . أما المذهب الحنفي فيظهر أن أحداً من أهل مصر لم يذهب إليه إذ ذلك إلا من كان من قضائها الذين ولّتهم الخلافة وخاصة منذ عهد الخليفة هارون الرشيد الذي ولي قضاء بغداد بعد سنة ١٧٠ هـ أباً يوسف يعقوب بن إبراهيم أحد أصحاب أبي حنيفة ، ولم يقلد الخليفة القضاء ببلاد العراق وخراسان والشام ومصر إلا من أشار به القاضي أبو يوسف واعتنى به^(٢) وطبيبي الأبولي أبو يوسف أحداً إلا من كان من أصحابه أي ممن يذهب مذهب أبي حنيفة .

(١) ابن خلكان وفیات الأعيان ج ١ ص ٣١١-٣١٢ والبيوطي : حسن

المحاضرة ج ١ ص ١٢٢-١٢٤

(٢) خطط القرظي ج ٢ ص ٣٣٣

وقد ظل الخلفاء العباسيون يؤثرون للمذهب الحنفي على غيره من المذاهب ،
طوال ذلك العهد الذي نتحدث عنه في مصر (١) .

على أنه إذا كان ولي القضاء بمصر في العصر العباسي قضاء على مذهب
أبي حنيفة إلا أن عامة أهلها لم يتبعوا ذلك المذهب وإنما كان مذهب مالك
هو المنتشر بها . وكان أول من ولى قضاءها من أتباع مذهب أبي حنيفة
القاضي اسماعيل بن اليسع الكندي (١٦٤ - ١٦٧ هـ) ويذكر الكندي (٢)
عن أحد الرواة أنه قال : « قدم علينا اسماعيل بن اليسع الكندي قاضياً بمصر
ابن لميعة ، وكان من خير قضاتنا غير أنه كان يذهب إلى مذهب أبي حنيفة ،
ولم يكن أهل مصر يعرفونه وشناؤوه » .

ويقال إن الليث بن سعد كتب فيه إلى الخليفة المهدي : إنك وليتنا
رجلاً يكيد سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا مع أنا ما علمناه في
الدينار والدرهم إلا خيراً » . فكتب المهدي بمزله (٣) .

ورغم إثارة الخلفاء العباسيين للمذهب الحنفي إلا أن قضاء مصر في
العصر العباسي لم يكونوا كلهم ممن يتبعون المذهب الحنفي (٤) .

ومن هذا نرى أن حظ المذهب الحنفي كان قليلاً في مصر في ذلك العهد
وكان محصوراً في مكان ضيق حينذاك ، وظل المصريون يتبعون المذهب المالكي
حتى قدم الإمام الشافعي إلى مصر وكون مذهبه الجديد بها . فنحن نؤخذ
كثير من المصريين يتبعونه ، ولم يمض قرن من الزمان حتى أصبح المذهب

(١) خطط القرظي ج ٢ ص ٣٣٣

(٢) الولاة والقضاة ص ٣٧٧

(٣) الولاة والقضاة ص ٣٧٧

(٤) الولاة والقضاة ص ٣٨٣ ، ٣٩٣

الشافعي منافساً للمذهب المالكي في مصر . وقد شعر بعض المصريين حين
قدوم الإمام الشافعي إلى بلادهم بالانقسام الذي أحدثه بينهم في مذهبهم
الديني . ولا أدل على ذلك مما ذكره الكندي^(١) عن أحد الرواة إذ يقول :
« سمعت ابن المنكدر يصيح بالشافعي والشافعي يسمع : يا كذا دخلت هذه
البلدة وأمرنا واحد ورأينا واحد ففرقت بيننا وألقيت بيننا الشر فرق الله
بين روحك وجسمك » .

وكان من أبرز فقهاء الشافعية في ذلك العهد أبو يعقوب يوسف بن يحيى
البويطي الذي كان الشافعي يقول عنه . ما رأيت أحداً أرفع بحجة من كتاب
الله مثل البويطي . « ولما مات الشافعي تنازع محمد بن عبد الحكم والبويطي
في الجلوس موضع الشافعي حتى شهد الحميدي على الشافعي أنه قال البويطي
أحق بمجلسي من غير . » فأجلسوه مكانه . وقد سعى به القاضي بن أبي الليث
الحنفى قاضى مصر إذ ذاك لدى الخليفة الواثق زمن المنعة بخلق القرآن فحمل
البويطي إلى بغداد ولكنه امتنع عن القول بخلق القرآن فسجن ببغداد
ومات في السجن سنة ٢٣١ هـ^(٢) .

ومن فقهاء الشافعية في ذلك العهد عبد العزيز بن عمران بن أيوب
الخزاعي المصري ، كان من أكبر العلماء المالكية فلما قدم الشافعي مصر
لزمه وتفقه على مذهبه . وتوفى في سنة ٣٣٤ هـ^(٣)
ومن أبرز الشافعية حينذاك الربيع بن سليمان بن داود الأردى الجيزى
مات بالجيزة في سنة ٢٥٦ هـ^(٤)

(١) الولاة والقضاة ص ٤٣٨

(٢) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٦٠ - ٢٦١ والسيوطى : حسن

المحاضرة ج ١ ص ١٢٣

(٣) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ١٦٧ (٤) المرجع نفسه

وهكذا نرى أنه أصبح بمصر في ذلك العهد مذهباً يتبادلان : هما المالكي والشافعي ، ومذهب أقل شأنًا تؤيده الخلافة وهو المذهب الحنفي . أما المذهب الحنبلي أو المذاهب الأخرى السنية فلم يكن لها ذكر بمصر إذ ذلك . أما عن المذاهب التي لا تمد من مذهب أهل السنة مثل الشيعة والخوارج فلم يكن لها أثر إلا في ظروف سياسية معينة ، تحدثنا عنها في الباب الثاني ، ولكنها لم تتمر طويلاً إذ لم يقبل المصريون على مثل تلك المذاهب . وبالرغم من أنه في وقت ما حكمت مصر دولة شيعية هي الدولة الفاطمية ، إلا أن التشيع لم يبق بمصر بعد زوال تلك الدولة .

وكان مركز الحركة العلمية الدينية في مصر وقلبها النابض في ذلك العهد جامع عمرو بن العاص مثله في هذا مثل الأزهر الشريف الآن . فكان جامع عمرو ملتقى العلماء والفقهاء والأئمة وإليه يلجأ الناس للإستفتاء وإليه يفد الطلاب لتلقى العلوم التي كانت تدرس في ذلك الحين ومنه يتخرج خيرة العلماء والفقهاء .

وأصبحت مصر مركزاً علمياً هاماً خصوصاً في أواخر عصر الولاة . فكان يفد إليها الطلبة لتلقى العلم وخاصة من إفريقية والمغرب والأندلس وبذلك أثرت مصر على المغرب والأندلس في المذاهب وفي العلوم الدينية التي كانت تدرس حينذاك . ومن علماء مصر المشهورين حينذاك ورش القرني وأحمد عثمان بن سميد المصري الذي تحدر من أصل قبلي وكان مولى لآل الزبير بن العوام . وأخذ القراءة عن نافع وهو الذي لقبه بورش لشدة بياضه . والورش شيء يصنع من اللبن . وقيل بل ولقبه ورشان وهو طائر معروف . وقد انتهت إليه رياضة القراء بالليار المصرية وكان ماهراً في اللغة العربية

وتوفى سنة ١٩٧ هـ (١).

ومن أئمة القراءات في مصر أيضاً أبو يعقوب الأزرق يوسف بن عمرو ابن يسار المدني ثم المصري . لزم ورشاً مدة طويلة واتفق عنه الأداء وخلفه في الأقرء بالديار المصرية وانفرد عنه بتفليظ اللامات وترقيق الراءات . وقال أبو الفضل الخزاعي : « أدركت أهل مصر والمغرب على أبي يعقوب وورش لا يعرفون غيرها » وتوفى أبو يعقوب حوالي سنة ٢٤٠ هـ (٢).

ومن علماء إفريقية الذين أخذوا عن المصريين البهلول بن راشد إذ كان ممن أخذ عنهم الليث بن سعد . وقد توفى البهلول في سنة ١٨٣ هـ وقيل سنة ١٨٢ هـ (٣).

ومن علماء الأندلس الذين تلقوا العلم على الفقهاء المصريين في فجر الإسلام عيسى بن دينار ، إذ سمع من ابن القاسم وصحبه وعول عليه . وقد أدرك عيسى أيضاً ابن وهب وأشهب إلا أنه سمع من ابن القاسم واقتصر عليه ثم انصرف إلى الأندلس فكان لا يتقدمه أحد من قرطبة في الفتيا وكانت له فيها رئاسة وبه ويحجي ابن يحيى انتشر مذهب مالك في الأندلس . وتوفى عيسى سنة ٢١٢ هـ في طليطلة (٤).

ومن أساتذة ذلك المهدي أيضاً زكريا أبو يحيى الوقار المصري . كان من موالى قريش وقيل من موالى عبد الدار وروى عن ابن القاسم وابن وهب

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ١٥٥ والسيوطي : حسن المحاضرة

١٨ ص ٢٠٧

(٢) السيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٠٧

(٣) Ben Cheneb: Classes des Savants de l'Ifrqiya, pp. 112-126

وابن فرحون : الديباج ص ١٠٠ - ١٠١

(٤) ابن فرحون : الديباج ص ١٧٨ - ١٧٩

وأشهب وغيرهم وكان مختصاً بابن وهب . وقد ذهب إلى أفريقيا سنة ٢٠٥ هـ علم فيها ثم عاد إلى مصر وتوفي بها سنة ٢٥٤ هـ وقيل سنة ٢٦٣ هـ (١)

ومن يستحق التنويه من مدرسة مصر في ذلك العهد أيضاً أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم وقيل الفيض ابن إبراهيم المصرى المعروف بذي النون . كان أوحده وقتة علما وورعا وأدبا وزهداً ، روى عن الإمام مالك والليث ابن سعد وعبد الله بن لهيعة والفُضَيْل بن عياض وسفيان بن عيينة وغيرهم وكان مولد ذى النون بأخميم . ويعد ذو النون من أقطاب الصوفية . وله فضل كبير في وضع كثير من التعاليم الصوفية كما نعرفها الآن . وقد انكر عليه أهل مصر وقالوا أحدث علما لم تتكلم فيه الصحابة وسعى به بمض أعدائه لئى الخليفة التوكل فاستحضره الخليفة من مصر فلما دخل عليه وعظه فبكى التوكل وردة مكرما . وتوفى ذو النون بمصر في سنة ٢٤٥ هـ (٢) .

وكانت الإسكندرية عند الفتح العربى أهم مركز في الشرق تشع منه الثقافة اليونانية الرومانية . ولكنها فقدت بعد الفتح مكانتها السياسية وكان طبيعياً أن تفقد مكانتها العلمية تبعاً لذلك . ولسنا نستطيع أن نفعل الحديث عن أمر طالما كثر فيه الجدل . ذلك هو حريق مكتبة الإسكندرية التى

(١) Ben Cheneb: *Classes des Savants*. P. 174 . وابن فرجون :

الدياج ص ١١٨

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ١٢٦ . وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٣٢٠ — ٣٢١ السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ١٢٨ والدكتور زكى محمد حسن : مصر والمحاضرة الإسلامية ص ٢٦ وآدم متر : المحاضرة الإسلامية ج ٢ ص ١٥ .

(٣) بئر : فتح العرب لمصر ص ٣٤٨ — ٣٧٠

نسبه بمض المؤرخين إلى عمرو بن العاص ونفي مؤرخون آخرون هذه التهمة عن القائد العربي وعن الخليفة عمر بن الخطاب الذي ينسب إليه أنه أمر عامه عمراً بأن يحرق المكتبة .

وأول من تحدث عن حريق هذه المكتبة هو عبد اللطيف البغدادي المتوفى سنة ٦٢٩ هـ (١٢٣١ ميلادية) وقد ذكر أنها حُرقت بأمر عمرو بن العاص ولكنه لم يذكر عن الحادث أى تفاصيل تجلّ غوامضه . أما الذى أتى على قصة طويلة في مناسبة الكلام عن حريق المكتبة فهو أبو الفرج ابن العبري . وهو مؤرخ ولد في ملطية بآرمينية سنة ١٢٢٦ ميلادية ودرس اليونانية والعربية والسريانية ثم اشتغل بالفلسفة واللاهوت ونصب بعد ذلك اسقفا وتوفى سنة ٦٦٦ هـ (١٢٦٨ م) .

وملخص القصة التي رواها أبو الفرج اللطفي هذا أنه في زمن فتح العرب مصر اشتهر في البلاد رجل اسمه يحيى النحوى (يوحنا غراماطيقوس) والظاهر أنه كان من القسس اليماقبة في الاسكندرية وأنه رجع عما يمتقده اليماقبة في طبيعة المسيح وطلب إليه الأساقفة بمصر أن يعود إلى المذهب الأرثوذكسى فلم يرجع فمزله مجمع منهم . وعاش يوحنا هذا إلى أن فتح عمرو بن العاص مدينة الاسكندرية فانصل بعمرو وأعجب هذا بغزارة علمه فقرّبه إليه . ثم قال يوحنا له في يوم من الأيام : « إنك قد أحطت بمواصل الإسكندرية وختمت على ما فيها ولست أطلب إليك شيئا مما تنتفع به بل شيئا لا نفع له عندك وهو عندما نافع » فقال عمرو : « وما الذى تقصد ؟ » فأجاب يوحنا : « كتب الحكمة الموجودة في خزائن الروم » فأجاب عمرو بأن ذلك أمر ليس له فيه رأى قبل استئذان الخليفة . وكتب إلى عمر بن الخطاب يستفتيه في المسألة فأجابه عمر : « وأما ما ذكرت من أمر الكتب فإذا كان ما جاء بها يوافق

ما جاء في كتاب الله في كتاب الله غنى عنه . وإذا كان ما فيها يخالف كتاب الله فلا أرب لنا فيه وتقدم باعدامها ه فأمر عمرو بتوزيع الكتب على حمامات الإسكندرية فما زالوا يحرقونها في مواقدها ستة أشهر .

هذه هي القصة التي رواها أبو الفرج في النصف الثاني من القرن السابع الهجري (١٣م) كما أشار إليها من قبل عبد اللطيف البغدادي وابن القفطي صاحب كتاب أخبار العلماء باختيار الحكماء من كتاب النصف الأول من القرن السابع (١٣ م) . وزعم كان ابن القفطي وأبو الفرج بن العبري أخذها عن البغدادي .

وعلى كل حال فإن الشك في صحتها قديم بين المؤرخين المحدثين فإن إدوارد جيون المؤرخ الإنجليزي المشهور الذي كتب بين سنتي ١٧٧٠ و١٧٨٧ مؤلفه المشهور عن تدهور الدولة الرومانية وسقوطها ناقش هذه القصة ونفاها (جزء ٩ ص ٤٣٧ وما بعدها) .

وربما كان الأفضل بنا الآن أن نلخص في بضع نقط الجدل الذي دار حول هذه المسألة .

أولا - إن اتهام المسلمين بإحراق المكتبة لم يذكره المؤرخون إلا بعد أكثر من خمسمائة سنة مرت على فتح الإسكندرية . وإذا جاز لنا أن نهم المؤرخين المسلمين المتقدمين أمثال ابن عبد الحكم والبلاذري واليعقوبي والطبري بأنهم اهتموا عن الإشارة إلى ذلك تعصبا منهم للمسلمين - مع أن هذا غير معقول لأن عقلية العرب لم تكن لتتغير بهذه السرعة - نقول إذا جاز ذلك فلسنا نجد شيئا يفسر به عدم الإشارة إليها في كتب المؤرخين المسيحيين مثل حنا النقيوسي الذي كان قريب العهد بفتح الإسكندرية ومثل سميد بن بطريق (أوتينا) المتوفى سنة ٣٢٨ هـ (٩٦٠ م) .

ثانياً - أثبت الدكتور الفرد بتلر مؤلف كتاب فتح العرب لمصر أن يحيى النحوى أحد أبطال هذه القصة مات قبل غزو العرب مصر بزمن طويل ثالثاً - إن كتاب القرين الخامس والسادس وأوائل القرن السابع بعد ذلك لم يذكروا شيئاً عن مكتبة الإسكندرية والواقع أن المكتبتين اللتين قد تشير القصة إلى واحدة منهما أو إليهما معا كانتا قد ضاعتا قبل الفتح العربى بزمن طويل - فالأولى وهى مكتبة المتحف أو الجامعة اتلفتها النار سنة ٤٨ ق. م فى الحريق الذى أحدثه يوليوس قيصر ليرد أعداءه عن أسطوله ويؤيد هذا القول المؤرخ اليونانى بلوتارك المتوفى سنة ١٢٥ م وغيره من انورخين . أما المكتبة الثانية وهى مكتبة السرايوم فليس العلماء متفقين فى أمرها ولا يمكن القول يقينا هل نقلت من السرايوم قبل سنة ٣٩١ م وهى السنة التى أشتد فيها النزاع بين الوثنيين والمسيحيين وحكم الطرفان الأمبراطور نيودورسيوس ففضى للمسيحيين واستطاع هؤلاء أن يخرجوا السرايوم وكان حصن الوثنية المنيع بل الواقع أن حجة الكتب غير معقولة بسبب تعصب المسيحيين الثا، بن واعتبارهم هذه الكتب كتب الوثنية الضالة . يمكننا إذن أن نجزم بان هذه الكتب كان مصيرها الضياع ولا سيما أن اوراسيوس الذى كتب فى سنة ٤١٦ ميلادية ذكر أنه رأى الرغوب أو الصناديق فى السرايوم فارغة ليس فيها شىء من الكتب ولم يشر إلى وجود أى مكتبة تستحق الذكر فى الإسكندرية .

رابعاً - إذا سلطنا جدلاً بأن الإسكندرية كانت تحتوى وقت الفتح الإسلامى على مكتبة كبيرة فان الهدمة التى عقدت بين المسلمين وأهل الإسكندرية كانت طويلة وكان فى استطاعة القوم أن ينقلوا كنوز هذه المكتبة إن لم يكن لقيمتها العلمية فلقيمتها المادية . ونحن نعلم أن العرب

أباحوا للروم نقل ما يريدون من متاع وأموال .
خامساً - إن عناصر القصة تدل على أنها خرافية ولا أثر للتباسك بين
أجزائها المختلفة . من ذلك تفريق الكتب على الحمامات المختلفة وأخذها وقوداً
مدة ستة شهور . فإن القائد الذى يأبى إعطائها لصديقه ويريد حرق الكتب
تفيداً لأمر الخليفة بحرقها حيث هى أو يشرف على هذه العملية على أقل
تقدير - ولا يدفع الكتب إلى الحمامات حيث يمكن أصحابها أن يبيعوها
للناس بثمان بخص . ثم إن أكثر هذه الكتب كانت مكتوبة على الرق .
والرق لا يصلح للوقود وليس من المقول أن يكفى الباقى مدة ستة أشهر
وقوداً للأربعة آلاف حمام التى زعم العرب وجودها فى الإسكندرية

سادساً - إن الذين يؤيدون دعوى إتهام المسلمين بحرق المكتبة بأنهم
حرقوا مكاتب الفرس عند الفتح لا يستطيعون أن يأتوا على هذا الزعم الثانى
بأى دليل من المؤرخين الأقدمين ويكتفون بحاجى خليفة وهو كما نعلم من
مؤرخى القرن الحادى عشر الهجرى (١٧م) فلا يجوز الاعتماد عليه كل الاعتماد
سابعاً - إن الاحتجاج بأن رواية حريق المسلمين للمكتبة لم يروها
ابن العبرى فقط ، وقد يظن فى قوله بالتمصب ؛ بل رواها مؤرخان مسلمان
هما عبد اللطيف البغدادى وابن القفطى ، هذا الاحتجاج ليس قوياً لأن هؤلاء
المؤرخين عاشوا كلهم فى القرن السابع الهجرى (١٣م) ، ولعلمهم ،
ثلاثتهم ، أخذوا عن مصدر مشترك كان متمصباً ضد الإسلام ولم يصل
إلينا . أو لعلمهم صدقوا الروايات التى كانت تتناولها الألسن والتى لم يكن
الغرض منها إلا الظن على المسلمين فضلاً عن أن عبد اللطيف لم يشر إلى
المسألة إلا عرضاً عند كلامه على عمود السوارى .

ثامناً - إن التعاليم الإسلامية تحترم الديانات السابوية وإن المسلمين لم

يكونوا ليقدموا على هذا العمل ، ولا سيما أن من شروط الصلح أن تترك
للمسيحيين الحرية الدينية وأن لا يتدخل المسلمون في شئونهم - وحرقت
المكتبة يعتبر خرقا لهذه الشروط لأنه لا شك في أنها كانت تحتوي على
كتب دينية كثيرة .

وهكذا ننهي إلى أن مكتبة الإسكندرية حُرقت منذ عهد يوليوس قيصر
سنة ٤٧ ق . م بعد ذلك بأربعمائة سنة حين اشتد النزاع بين الوثنية والمسيحية
وقضى الإمبراطور ثيودوسيوس بالقضاء على المعابد الوثنية .

ومع ذلك كله فإن في التاريخ أمثلة عديدة تثبت أن إحراق الكتب لم
يكن في يوم من الأيام وقفاً على شعب من الشعوب أو أتباع ديانة من الديانات
فالصليبيون أحرقوا الكتب في طرابلس الشام في القرن الثالث عشر
والأسبان أحرقوا الكتب العربية بعد أن طردوا العرب من الأندلس .
وكذلك أحرق الفرنسيون الكتب التي وقعت في أيديهم عند ما فتحوا
مدينة قسطنطينية في تونس كما يشهد بذلك المؤرخ الفرنسي سديلو نفسه
وليس ببعيد أيضاً ما فعله الألمان قبيل الحرب الأخيرة بالكتب التي ألفها
اليهود أو الاشتراكيون أو الشيوعيون .

ومهما يكن من الأمر ، فإن الفتح العربي لم يقض على الحياة العلمية في
الإسكندرية ، ولا سيما في العلوم العقلية ، وذلك بالرغم من أن معظم علماء
الروم غادروها بعد الفتح

وحسبنا دليلاً على النشاط العلمي في الإسكندرية في فجر الإسلام ما ذكره
ابن النديم^(١) من أن خالد بن يزيد بن معاوية حينما أراد تعلم الكيمياء أمر

(١) القهرست (طبعة ليزر سنة ١٨٧١ م) ص ٢٤٢

باحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين الذين كانوا يقيمون بمصر ولهم إلمام بالمرية، وطلب منهم نقل كتب الصنعة (الكيمياء) من اليونانية والقبطية إلى العربية، فكان هذا أول نقل إلى العربية في الإسلام. وذكر ابن أبي أصيبعة أنه كان في الاسكندرية زمن الفتح طبيب اسمه ابن ابجر وكان يدرس بها، وكان عمر بن عبد العزيز يعتمد عليه في صناعة الطب حين كان أميراً وبعد أن صار خليفة. كذلك أرسل الخليفة هرون الرشيد في طلب بليطيان أحد علماء الاسكندرية المشهورين لتطبيب جارية له^(٢).

وقد احتذى حنين بن اسحق، طبيب بغداد الذي عاش القرن الثالث الهجري، حذو الاسكندرانيين في التأليف^(٣). لكن يظهر أن مدرسة الاسكندرية أخذ شأنها يقل بعد ذلك، فإن الأقباط لم يهتموا اهتماماً كبيراً بدراسة الثقافة اليونانية الرومانية. أما العرب والأقباط الذين أسلموا فقد أقبلوا على دراسة العلوم الإسلامية الدينية. ولعل بعض المصريين المسلمين أقبلوا على دراسة الثقافة اليونانية الرومانية، فيذكر ابن النديم^(٤) أن ذا النون المصري كان من الفلاسفة الذين تكلموا في علم الصنعة (الكيمياء).

والواقع أنه إن كان لمصر في عصر الولاة نصيب في حفظ تراث اليونان والمسيحية الشرقية أو نقله إلى الغرب، فانما هو في تركها علماء الروم ينادرون مصر بمؤلفاتهم وكتبهم زمن الفتح، وفي عدم ترمضها لمدرسة الاسكندرية أو للأديرة التي كانت مراكز الثقافة المسيحية في مصر.

(١) طبقات الأطباء — (القاهرة سنة ١٢٩٩ هـ) — ج ١ ص ١٦٦

(٢) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ج ٢ ص ٨٢ — ٨٣.

(٣) الففلى ص ١٧١ — ١٧٢

(٤) الفهرست ص ٣٥٣

الخاتمة

تبوأ مصر مركزاً ممتازاً في الدولة الإسلامية عقب الفتح العربي وذلك لثروتها وخيراتها الوفيرة ولوقوعها العالمي الممتاز . وقد بلغ من اهتمام الخلفاء بأمرها أنهم كانوا يولونها أحياناً أبناءهم أو اخوتهم أو أفراداً من البيت الخلفي القائم بالحكم . وقد كانت مصر كالمرآة تنعكس عليها الحركات السياسية والدينية التي تحدث في دار الخلافة ، كما كانت قبلة أنظار الشخصيات الطامحة إلى منصب الخليفة . وبالرغم من أنه نشأت في مصر فتن وخلافات دينية عديدة منذ أيام دقلديانوس حتى الفتح ، وبالرغم من أنه نشأت في الإسلام بدع ونحل وفتن دينية كثيرة ، إلا أن مصر بعد الفتح العربي أقبلت على اعتناق الإسلام ولم يكن لها يد في إثارة الخلافات الدينية التي قامت في العالم الإسلامي . وإن كان قد أثر فيها بعض الفتن فقد كان هذا نتيجة لتأثرها بحوادث الخلافة وسرعان ما كانت تمود الحياة ثانية إلى مجاريها .

ويشبه التقسيم الإداري في العصر الإسلامي التقسيم الذي كان معروفاً في العصر اليوناني الروماني ولكنه لم يكن مماثلاً له كل المائتة . كذلك نلاحظ أن النظام البيروقراطي ، وبعبارة أخرى النظام الديواني الذي كان سائداً في الإدارة المصرية قبل الفتح أثر في العرب فكانت الإدارة مركزية في دواوين الحكومة بالماصمة وأهمها ديوان الخراج والأموال ، وديوان الرسائل أو الانشاء ، وديوان الجند وديوان القضاء . ولهذا يقول لامانس

(١) Lammens : Un gouverneur Omayyade d'Egypte. p. 106.

فجر الإسلام - (٧٧)

Lammens أن الوثائق البردية العديدة التي اكتشفت حديثا تقدم دليلا ماديا على وجود نظام بيروقراطي استمدته العرب من البيزنطيين .
ويظهر أن مصر العليا ومصر السفلى كانا اقليمين منفصلين من الوجهة الإدارية ومع ذلك فإن أصحاب السكورات كانوا خاضعين مباشرة لوالى البلاد .
والظاهر بوجه عام أننا نعرف عن كبار الموظفين في العصر الإسلامي من الوجهة النظرية عامة أكثر مما نعرف عن حقيقة الأداة الحكومية الفعالة .
ونلاحظ أن الفرض الأساسي للإدارة كان ينطوي على جمع الضرائب واستثمار الأرض واستغلال الفلاح كما كان الحال في العهد البيزنطي .
وكان العامل على الصلاة والعامل على الخراج متساويين في الحقيقة على الرغم من أن الأول كان رئيس الهيئة التنفيذية في القطر ، بل حدث كثير من الأحيان أن كان صاحب الخراج أعظم نفوذا من الوالى . وأحيانا كان الوالى يجمع بين المنصبين . وفي الواقع لم تكن سلطة الوالى مطلقة في ولايته على مصر ، بل كان يجد منها نفوذ العامل على الخراج ونفوذ الجند ونفوذ الموظفين .
ونظرا لأهمية منصب العامل على الخراج فقد كان الوالى يسعى دائما إلى أن يضاف إليه اختصاص هذا المنصب ليصبح واليا على الصلاة والخراج معا .
ولم يكن في الجمع بين هذين المنصبين بأس ما دامت الحكومة المركزية في مقر الخلافة قوية مرهوبة الجانب . ولكن عندما تطرق الضعف إلى الخلافة العباسية أصبح الجمع بين هذين المنصبين أكبر عون على استقلال الوالى وتشكك الامبراطورية ، ففري ابن طولون يتنازع مع ابن المدبر صاحب خراج مصر ، ولم يبدأ استقلاله إلا بعد تخلصه من ابن المدبر .
والظاهر أن العرب وجدوا في مصر عند الفتح نظاما زراعيا وماليا لم يستطيعوا تركه تماما . وكان هذا النظام يبعدهم إلى حد كبير عن الاتصال

بالفلاحين ودافى الضرائب مباشرة ، وكان قوام هذا النظام طائفة من الأعيان وكبار الملاك الذين كانوا يدفعون أو يضمنون دفع الضرائب عن مساحات زراعية كبيرة ، بينما كان الفلاحون أنفسهم مرتبطين بالأرض إلى حد كبير جدا ، وكانوا لا يغيرون مقرهم إلا بترخيص . ولسنا نعرف تماما هل أخذ الموظفون يحملون محل هؤلاء الملاك في جمع الضرائب ، وإلى أى حد وبأى سرعة تم هذا التغيير . ومن الراجح أن هؤلاء ظلوا يضمنون دفع الضرائب ، ولكن أخذ العرب يحملون محلهم تدريجيا في امتلاك الأرض وضمان الخراج . وقد كان فلاحو القرية متضامنين في الضرائب التي تفرض عليهم وكان لا يجوز لهم الهجرة من مقرهم إلا باذن من الحكومة وقد اتخذت الحكومة في بداية العصر الإسلامي اجراءات شديدة لمنع الهجرة من كورة إلى أخرى ولتكشف المهاجرين وإعادةتهم أو الاذن لهم بالاستقرار في مقرهم الجديد ضمنا لحسن سير فلاحة الأرض وجمع الضرائب . كما كان لا يجوز نقل المحاصيل أو المنقولات من مكان إلى آخر إلا بتصريح ، وبدل على ذلك أمثلة عديدة في أوراق البردي (١) .

وقد كان في مصر ديوان للخراج والأموال (٢) ويظهر أن بيت المال في مصر لم يكن وقتنا على حفظ أموال الضرائب لحسب (٣) ، فانا نعلم أن الخليفة أبا جعفر المنصور أرسل إلى أبي عون وإلى مصر (١٣٣ - ١٣٦ هـ) يأمره بإدخال أموال اليتامى في بيت المال (٤) ، وربما كان يرد إلى بيت المال أيضا

(١) Voir: J. Karabacek: Papyrus Erzherzog Rainer. Führer durch die Ausstellung. Wien 1894. pp. 153, 148

(٢) خطط المغريزي ج ١ ص ٩٨ .

(٣) يذكر ابن رسته أن مقر بيت المال كان في المسجد الجامع (الأعلام

النقبة ص ١١٦)

(٤) السكندى ص ٣٥٥

الموارث التي يموت أصحابها دون أن يكون لهم ورثة . ولعل خمس الغنيمة التي كان يفتنمها المصريون في فتوحاتهم في الغرب والجنوب كانت ترد إلى بيت المال أيضا .

ويبدو من المصادر الإسلامية والمسيحية في تاريخ عصر الولاية أن الهدف الرئيسي الذي كان يعنى به العرب هو الجزية التي كانوا يجمعونها من القبط . ويظهر أن الإدارة المالية كانت معقدة وأن الذين كانوا يفهمونها أكثر من غيرهم هم الموظفون القبط . ويمكننا القول بأن دخل البلاد قبل الدولة الطولونية كان يذهب إلى بيت مال الخلافة أو جيوب الولاية وعمال الخراج بدون أن تقيّد مصر نفسها شيئا كثيرا . ولما كانت البلاد في عصر الولاية لا تحكمها أسرة تحرص على ازدهارها ، لم تكن من الوجهة المالية إلا شبه مزرعة تستغل بدون كبير رعاية لازدهارها أو بقاء قدرتها على الإنتاج ، إذ كان غرض الخلافة الأساسي هو جباية أكبر دخل ممكن .

ومن النظم التي وجدت قبل الفتح العربي وأخذ بها العرب نظام الالتزامات المعروف في العالم الكلاسيكي باسم *Leiturgia* ومعناه التزام الشخص أو الجماعة ببعض الخدمات للدولة . ففي أثينا كان كل مواطن يمتلك نصيباً معيناً من الأملاك يقدم إلى الدولة بعض الخدمات الشخصية^(١) .

ولكن هذا النظام لم يكن في العصر الإسلامي عاماً كما كان عند الإغريق بمعنى أنه كان ظاهراً في الضرائب وما يتصل بها ، فكانت السكورة تلزم بأداء نوع من الخدمة للدولة أو بدفع مبلغ في مقابل إعفائها من ذلك . وفي بعض

(١) كانت هذه الخدمات كثيرة النفقات وكانت في البداية نتيجة طبيعية للاحتيازات السياسية التي يتمتع بها الأثرياء . فكانوا يؤدونها للجمهورية ليكون نصيبهم من الضرائب أثقل من نصيب الفقراء . ولكن لما ازدهرت الديمقراطية في أثينا وأصبح المواطنون متساوين في الحقوق السياسية تغيرت طبيعة تلك الالتزامات وصارت نوعاً من ضرائب الدخل .

الأحيان كان الوالى يوصى عماله على الكورات بجمع الأشخاص أو المواد اللازمة لهذه الخدمات وبدم قبول المال مقابل الإعفاء، من أداها .
ومن أهم أنواع الالتزام أو الليتورجيا .

١ - تقديم المال والأدوات اللازمة لتشديد الطرق وحفر الترغ أو كرمها

٢ - تقديم مواد غذائية مختلفة مما تشهر بانتاجه الكورات .

٣ - إيواء الجند وضيافتهم .

٤ - تقديم الموظفين ذوى الخبرة لبعض الأعمال الحكومية .

٥ - تقديم المواد والأيدى العاملة اللازمة لتشديد المباني العامة في

مصر بل ولعمارة المساجد في الشام وبلاد الحجاز .

٦ - تقديم البحارة ومواد بناء السفن (١) .

ورأينا أيضاً أنه كان هناك مصانع حكومية للنسيج (طراز الخاصة) ومصانع حكومية أو أهلية تراقبها الحكومة (طراز العامة) . وكانت الحكومة في عصر الولاة بل والى العصر الفاطمى تحصل على معظم حاجتها من مصانمها الخاصة بينما أصبحت في عصر المالك تعتمد على المصانع الأهلية العامة .

ولا نعرف إذا كانت التجارة الخارجية في عصر الولاة مع أقاليم البحر الأبيض المتوسط ظلت على ما كانت عليه في العصر اليونانى الرومانى ، أم أخذت في النمو والزيادة تمهيداً للازدهار الذى وصلت إليه في عصر الأيوبيين والمالك . والظاهر أن تجارة الهند لم تصبح مصدراً كبيراً لثروة ذوى الأحر في مصر إلا منذ الدولة الأيوبية . ويبدو أن المصريين أنفسهم لم يساهموا في النشاط التجارى الخارجى إلا بقدر ضئيل ولعل هذا يرجع إلى عدم إقبال المصيريين بوجه عام على التجارة في العصور القديمة . ويرجح أن معظم التجار

في عصر الولاة كانوا من الخارج مثل أسرة السادرانيين العراقية ، التي اشتهرت قبيل العصر الطولوني وظلت واسعة النفوذ ورفيمة المسكنة إلى العصر الأخشيدي ، وكان لليهود شأن عظيم في التجارة في ذلك العصر .

ولا نعرف إذا كانت مصر في عصر الولاة قد عرفت نظام احتكار بعض البضائع أو الحاجيات ، اللهم إلا إذا استثنينا ما فعله ابن المدبر في نهاية هذا العصر من الحجز على النظرون بعد أن كان مباحا لكل الناس^(١) كذلك أدخل ابن المدبر المراعي ، أى الكلاً الذي ترعاه الدواب ، في الديوان وحرم على الناس أن يبيعوا المراعي أو يشتروها إلا من الديوان^(٢) .

وقد احتفظت مصر في هذا العصر من الناحية الفنية (العمارة والفنون الزخرفية) بكيانها الخاص ، وكان التحول إلى الروح الإسلامية في هذه الفنون تحولاً بسيطاً . ويعتبر عصر الولاة عصر الانتقال من الأساليب الفنية القبطية إلى الأساليب الفنية العباسية التي سادت مصر في العصر الطولوني . ولم يكن للمصريين في عصر الولاة حق الاشتراك في الجيش فكان رجال الجيش النظامي والأسطول من العرب . ولكن كانت هناك فرق غير نظامية مثل الطوعة وربما كان أغلبهم من المصريين ، كذلك كان يجتمع من أنحاء القطر مساعدون وأعوان وفقاً لنظام الالتزامات أو الليتورجيا . ولا ينفي هذا ما ذكرناه من أن المصريين لم يشتركوا في صلب الجيش إذا كانوا يقومون بأدوار ثانوية كما أنهم لم يثبتوا في ديوان الجند ولم يصرف لهم المعطاء الذي كان يصرف للفرق النظامية . ونجد أن المنصر العربي في الجيش

(١) خطط القريزي ج ١ ص ١٠٣ ، ١٠٩

Zaky M. Hassan: Les Tulunides. p. 244.

(٢) خطط القريزي ج ١ ص ١٠٧ . ١٠٧ . Zaky M. Hassan: op. cit. p. 244.

والأسطول يقل ابتداءً من العصر العباسي لإقباله على وظائف الإدارة أو على الزراعة والتجارة ويصبح قوام الجيش من الفرس أولاً ثم الترك ثانياً حتى أتى المعتصم في بداية القرن الثالث الهجري فأمر بإسقاط العرب نهائياً من الديوان .

وقد ترك العرب للمصريين أراضيهم وأمنوم عليها وفرضوا عليها الخراج ولم تسكن أرض مصر ، في بداية هذا العصر ، أرض خراج غسب بل نشأت فيها أرض العشر ، إما قسيمة منجحة لبعض المسلمين . أو أرض حصولا عليها من الحكومة أو القبط بطريق الشراء ، أو أرض موات احتلوها . كذلك كان القبطي الذي يعتنق الإسلام تصيح أرضه عشرة . ولكن نجد أنه مضى الوقت أصبحت أرض مصر كلها يفرض عليها الخراج دون النظر إلى مالكها سواء أكان قبطياً أم مسلماً ، ولا نعرف متى كان هذا التحول بالضبط والراجع أنه كان في العصر العباسي

وكانت أول ثورة للعرب بسبب زيادة الخراج زيادة مجحفة زمن الخليفة العباسي المهدي (١٥٨ - ١٦٩ هـ) حين كان موسى بن نصيب الخنثمي والياً على مصر (١٦٧ - ١٦٨ هـ) . ولا بد أن بعض ولاية مصر وعمال خراجها وبعض الموظفين فيها تمكنوا من الأثراء وجمع الأموال الطائلة ، وخاصة في العصر العباسي ، حين كثر تولية المال وعزلهم . ولا نعرف هل كان الولاية في هذا العصر يلزمون بعض الموظفين والأثرياء بدفع ثرواتهم أو جزء كبير منها إلى خزانة الدولة ثانية ، كما كانت يحدث في عصر الطولونيين والأخشيديين ، رغم أن هذه السياسة كانت معروفة جداً في مقر الخلافة في القرن الثالث الهجري ولا سيما في حالة الوزراء حين عزلهم^(١) . وربما كانت

(١) انظر كتاب تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء تأليف أبي الحسن الملال الصائبي

مثل هذه المصادرات مألوفة في عصر الولاة المستقلين من الطولونيين والأخشيديين رغبة منهم في تنمية ثرواتهم الخاصة^(١).

ومن المدن التي اشتهرت في عصر الولاة مدينة القسطاط عاصمة مصر ومقر حكومتها، ومدينة الإسكندرية عاصمة مصر الثانية وميناؤها الهام ومقر البطركية. « وقد ظلت الإسكندرية محافظه على مكائنها الخاصة التي كانت لها في عهد البطالسة حتى أول القرن الرابع الهجري، حيث نجد في إحصاء أموال الدولة لإفراد باب خاص عنوانه. مصر والإسكندرية، فقد حافظت الإسكندرية على مكائنها باعتبارها قسما مستقلا بجبايته كما كان الحال على عهد البطالسة^(٢) ». ومن المدن الهامة أيضا في هذا العصر تينس ودمياط وبورة وتونة ودميرة وديبق وشطا واهناسيا والهنسا وأسيوط وإخميم والفيوم. وكلها تدين في شهرتها للصناعات وخاصة صناعة النسيج. كذلك اشتهرت منطقة البشمور بثورتها المتعددة كما رأينا في الفصول السابقة.

وقد حدثت في عصر الولاة مجاعات كالتى حدثت في العصور التي تلتها مثل العصر الأخشيدى والفاطمى والأيوبي، وعصر المماليك. ويذكر الكندى^(٣) والمقرزى^(٤) أن أول غلاء وقع بمصر بعد فتح العرب كان في سنة ٨٧ هـ، وكان هذا أول غلاء وأول شدة رآها المسلمون بمصر. ولا يذكر الكندى أو المقرزى جماعة أخرى حدثت في مصر قبل ذلك أو بعده طوال عصر الولاة. على أن المؤرخ ساويرس، الذى استمد معلوماته من

(١) قارن آدم متر: الحضارة الإسلامية ج ١ ص ١٤٠، ١٩٤

(٢) متر: الحضارة الإسلامية ج ١ ص ٢٠٨

(٣) الولاة والقضاة ص ٥٩

(٤) إغاثة الأمة ص ١١

وثائق ترجع إلى هذا العصر ، يتحدثنا عن مجاعات أخرى حدثت فيه .
فيذكر أنه في ولاية عبد الله بن أبي سرح على مصر (٢٥ - ٤٥ هـ)
حدث غلاء عظيم كان يموت بسببه كل يوم عدد لا يحصى^(١) ولكن
لا يذكر لنا في أي سنة كان هذا الغلاء أو المدة التي دام فيها .

وفي عهد أسامة بن زيد عامل خراج الخليفة سليمان بن عبد الملك حدث
غلاء عظيم مات بسببه خلق كثير^(٢) كذلك حدث غلاء عظيم لنقص مياه
النيل في أول سنة من ولاية القاسم بن عبيد الله بن الحبحاب خراج مصر^(٣)
كذلك حدثت مجاعة في خلافة المأمون قبيل ثورة البشموريين التي أخضعها
الخليفة^(٤) .

ونلاحظ أن المجاعات التي حدثت في مصر منذ العصور القديمة يرجع
معظمها إلى نقص مياه النيل نقصاً يضر بالزراعة أو زيادته زيادة تضر بها ،
ولما كانت ثروة مصر الرئيسية تتوقف على الزراعة كان يترتب على الإضرار
بالزراعة غلاء ومجاعات .

ويذكر المقرئ^(٥) أن الغلاء إنما يحدث من آفات سماوية في غالب
الأمر كقصور جرى النيل بمصر وعدم نزول المطر بالشام والعراق والحجاز
وغيره ، أو آفة تصيب الغلال من سمام تحرقها أو رياح تهبها أو جراد
يأكلها ، وما شابه ذلك . ولا بد أن المجاعات والأوبئة التي حدثت في
مصر ، والثورات القبطية ، والغزوات الأجنبية ، والحروب الأهلية ، والغنم

(١) سير الآباء البطارقة (Patr. Orient t. 1. p. 237)

(٢) Part Orient. t. 5. p. 67.

(٣) Patr. Orient. t. 5. p. 97.

(٤) Patr. Orient. t. X p. 486.

(٥) إغاثة الأمة ص ١٤

الداخلية والمحن الدينية ، لا بد أن كل هذا أثّر رخاؤها وثروتها ، إلا أنه لم يؤثر فيها تأثيراً بليغاً كما كنا ننتظر في قطر آخر ، وذلك لأن هذه الظروف كانت متقطعة ومتفرقة ، فضلاً عن خصوبة أرض مصر المدهشة^(١) وقد كانت هجرة القبائل العربية إلى مصر ، ثم اختلاط العرب بأهل وادى النيل ، ثم تحول الحكم في العالم الإسلامي إلى ملك استبدادي يعتمد على الفرس ثم الأتراك ، كان كل ذلك مؤدياً إلى ضياع هيبة العرب الحاكمين وإلى اندماجهم في سلك الحكوميين وتغير المركز الذي كان يريد لهم الخليفة عمر بن الخطاب . فالفكرة الأساسية الأولى في حكومة الأمبراطورية العربية كانت تنطوي على أن تكون الدولة العربية حربية تديرها الارستقراطية العربية وتقوم بأودها الشعوب المحكومة من أهل الذمة الذين يحميهم العرب والذين يقومون في مقابل ذلك بالعمل وتوفير أسباب العيش والراحة للارستقراطية العربية . فهو شبيه من بعض الوجوه بنظام الحماية في العصر الحديث . ولكن هذه الفكرة لم تتحقق طويلاً للأسباب السابقة ، ونظراً لأن الدين الإسلامي نفسه ذو طابع دولي فكان من السهل بمرور الزمن أن يمتزج المسلمون الجدد بالمسلمين من السلالة العربية . وعندما قضى نهائياً على مقاومة القبط في بداية القرن الثالث الهجري — ذلك القرن الذي شهد أيضاً انحدار المنصر العربي وقده امتيازاته اللهم إلا من الناحية اللغوية والدينية — كان من السهل أن تتم فيه حركة الاندماج بين العرب والصريين .

وظاهرة تصير العرب وتعريب مصر ونشر الإسلام فيها هي أهم الظواهر التاريخية في مصر الإسلامية . واستمرت تلك الظاهرة بعض الشيء إلى عصر المهاليك . ونلاحظ أن تعريب مصر وانتشار الإسلام فيها ليسا مترادفين

(١) الياس الايوبي : تاريخ مصر الإسلامية ج ١ ص ١٤٧ - ١٤٨

وقد كان هناك عوامل لها بعض الأثر الضعيف في تعريب مصر . ومن ذلك تعريب
الدواوين الذى حدث نظرياً في سنة ٨٧ هـ (٧٠٥ - ٧٠٦ م) ، ولكن
وثائق البردى في مجموعة افروديتو تدل على أن الحكومة في عصر هذه
الوثائق كانت تستخدم العربية واليونانية ، بينما كانت السلطات المحلية في
الريف تكتب كثيراً بالقبطية . وكذلك نجد وثائق ذات لغتين (عربية
ويونانية) إلى القرن الثاني الهجرى بل أنه وجد ايصال بدفع الضرائب
تاريخه سنة ٢٤٦ هـ عليه كتابة قبطية^(١) . ومن العوامل ذات الأثر الضعيف
في التعريب أيضاً اتصال العرب في العاصمة الجديدة (الفسطاط) بالأهلين واتصال
كبار الموظفين العرب وأعوانهم في الريف بأهله .

على أن أهم عوامل تعريب مصر هو نزول القبائل العربية في الريف
المصرى واستقرارها على جانبي الشريط الخصب بوادي النيل وفي الدلتا ،
مما أدى إلى اختلاطهم بالقبط اختلاطاً كبيراً ومن ثم إلى انتشار اللغة
العربية في مصر وإلى تعريب البلاد . فقد كانت اللغة اليونانية قبل الفتح
العربي واللغة التركية في العهد العثماني لغة البلاد الرسمية ، ولكن هذا لم
يجعلها لغة الشعب المصرى ، فكان اليونان ينزلون المدن ويصبنونها بمخاضاتهم
ولكن نفوذهم الثقافي لم يذهب للريف إلا قليلاً ، فلم تنتشر اللغة اليونانية
إلا في بيئات خاصة ، وعاش اليونانيون في مصر كأنهم جزر يونانية في
وسط المحيط المصرى الواسع . وكذلك عاش الأتراك في بيئات خاصة في
مصر ولم يستطيعوا جعل لغتهم لغة البلاد الأصلية بالرغم من أن الحكم التركي
دام عدة قرون . ولكن حدث في عهد العرب تفاعل واختلاط بينهم وبين
المصريين ، وبدون هذا التفاعل والاختلاط لا يمكننا أن نفسر كيف ترك

(١) جرومان : المحاضرة الرابعة عن الأوراق البردية العربية ص ٨

الفلاح المصرى القديم لفته رغم تمسكه بالقديم وحرصه عليه. أما عن انتشار الإسلام في مصر فنلاحظ أن بيكر Becker من الكتاب الذين يشيرون إلى أن العامل الأساسى في انتشار الاسلام بين القبط هو العامل المالى والاجتماعى ، وإن كانت هناك اضطهادات وإرغام على اعتناق الاسلام فقد كانت نادرة^(١) .

ولسنا نستطيع أن نخرج بغير هذه النتيجة إذا قرأنا ساويرس أسقف الأشمونين ، وهو الذى لا يشك في كتاباته في هذا الصدد ، والذى لم يكن ليفقل تفصيل الكلام على أى اضطهاد يصيب المسيحيين .

على أن القبط الذين ظلوا على دينهم لم يبقوا مكتوفى الأيدي طوال هذا العصر أمام مطالب الحكومة المالية ، بل فارموها ، فعند ما زاد عدد القبط الذين دخلوا في الاسلام وقل تبعاً لذلك دخل البلاد ، زاد العبء على من بقى على دينه من القبط ، وكذلك اشتدت الحكومة في استعمال الأرض الموات وفي مراقبة الزراعة والهجرة ، فلم يزل القبط يقومون بالثورة بعد الأخرى طوال القرن الثانى الهجرى ، وشملت ثوراتهم الوجهين البحرى والقبلى ، على أن معظم تلك الثورات كانت في الوجه البحرى . وكانت حكومة العرب من جانبها تقابل القوة بالقوة فلم تتوان عن محاربة الثائرين عليها وإرغامهم على النزول على إرادتها ، وكان آخر هذه الثورات وأعظمها تلك الثورة التى انتهت في بداية القرن الثالث الهجرى (٢١٧ هـ ، ٨٣٢ م) بحجى الخليفة للمأمون وإخضاعه للثائرين . ومنذ ذلك التاريخ أصبح المسلمون أغلبية في القطر المصرى .

Becker: Islamstudien, 1. p. 254

(١)

وانظر أيضاً L. Massignon : Annuaire du Monde Musulman p. 114.

كذلك نلاحظ أن الرهبان كانوا يبغضون الولاة لأنهم كانوا يهتدون في البداية من دفع الجزية إلى أن بدأ عبد العزيز بن مروان سنة فرض الجزية عليهم . ولعل الولاة كانوا يجارون الرهبنة لأنها تحرم البلاد من الأيدي العاملة . وهذه العداوة بين الرهبان والولاة تفسر تعصب المؤرخين والكتاب المسيحيين في ذلك العصر - وجلهم من الرهبان - ضد الاسلام والحكومة الاسلامية .

وقد ظل الاسلام ينتشر في مصر إلى عصر المماليك . وحدث في عصر الناصر محمد بن قلاوون منذ سنة ٧٢٠ هـ (١٣٢٠ م) أن دخل المسيحيون أفواجا في الدين الاسلامي على أثر سلسلة من المشاغبات والفتن بين المسلمين والأقباط^(١) . والظاهر أن حياد الحكومة نفسها وهدوء موقفها إزاء القبط كل ذلك لم يمنع الشعب نفسه من أن يسيء معاملة القبط في بعض الأحيان . ورى أن التضييق على أهل الذمة بالتزام أنواع خاصة من الملابس ، وبتحريم ركوب الخيل أو إنشاء كنائس جديدة ، لم يكن يراعى إلا فترات قصيرة جداً ثم يهمل شأنه ، وربما كان غضب المسلمين بين حين وآخر لاهمال هذه الالتزامات هو الذي كان يدفع الحكومة إلى العمل على تنفيذها في فترات معينة . والظاهر أن الدواوين كانت خاصة بالموظفين القبط إلى عصر المماليك مما كان سبباً في قيام عدة ثورات في هذا العصر (القرن ٨ هـ ، ١٤ م) أشار إليها القرظي^(٢) ، وكان المسلمون يهدفون بها إلى إخراجهم من الدواوين .

وكانت الحكومة نفسها تعمل على حماية أهل الذمة تمسكا بروح الدين

(١) خطط القرظي ج ٢ ص ٤٩٧ - ٥٠٠ .

(٢) الخطط ج ٢ ص ٥١٢ - ٥١٧ .

وما يقضى به من التسامح وضمانا لحسن سير الأعمال العامة ، ولكنها كانت تضطر أحيانا إلى التقرب إلى بعض طبقات الشعب بالسكوت على بعض الحركات الاضطهادية ضد المسيحيين أو الاشتراك فيها .

ونلاحظ أن مصر في فجر الإسلام كانت مركزاً هاماً للحركة العلمية الدينية في الدولة الاسلامية . وكان جامع عمرو بن العاص هو قلب هذه الحركة النابض كما هو الحال بالنسبة للأزهر الشريف الآن . وقد أنجبت مصر منذ أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث الهجري علماء أدب ودين ولغة وتاريخ لهم مكانتهم الرفيعة في التراث العربي . وكان علماء مصر أساتذة لعلماء أفريقية والأندلس بوجه خاص .

وقد رأينا أن الشعور الوطني بين المصريين كان ضعيفا في فجر الإسلام فلم يكن في ثورات القبط ضد حكومة العرب عنصر وطني ، بل كانت كلها بسبب الضرائب . ولعل ضعف هذا الشعور الوطني كان أكبر عون للعرب على القضاء على حركات القبط وعلى دفعهم إلى اعتناق الدين الإسلامي وإلى استعمال اللغة العربية .

وقد كانت الحالة في مصر بعكس إيران مثلا . فلا نعرف في مصر حركة شعبية كما كان في شرق العالم الإسلامي . ففي عهد الدولة العباسية التي قامت على أكتاف الفرس بدأ هؤلاء يتكلمون ويكتبون وبنقاشون العرب ويمددون مزايا الفرس . وقد عرفت هذه المناقشات الأدبية بين الشعراء والأدباء من العرب والعجم باسم حركة الشعبية فكان المعجم يقولون بالتسوية بين المسلمين جميعا ولذا عرفوا بالشعوبية أو أهل التسوية ، ولما اشتد الجدل بين العرب والعجم أصبح الشعوبى هو الذى يصغر من شأن العرب ولا يرى

لهم فضلاً على المعجم^(١) وهذه الحركة وإن كانت مناقشات كلامية ومساجلات أدبية بين العرب والمعجم ، إلا أنها تعبر عن تمسك الإيرانيين بترأسهم الوطني وثورتهم على سيادة العرب التي قضت على ملك كسرى وقضت على استقلال الفرس وهم شعب ذو حضارة عتيقة ، كما أنها تشهد بأن الروح الوطنية بين الفرس لم تمت بفتح العرب لبلادهم . وعندما شعر الفرس بقوتهم منذ قيام الدولة العباسية وبضعف العرب قاموا بحركات مختلفة تدعو الناس إلى اتباع نحل غربية على الدين الإسلامي ، ولم تكن هذه الحركات في الحقيقة سوى حركات سياسية دينية إيرانية ترمي إلى إقامة دولة فارسية تعود إلى التقاليد القديمة وتتخلص من العرب ولغتهم ودينهم . كذلك نجد أن بعض الأسرات التي قامت في فارس كانت أسرات فارسية كما كانت الحال في الدولة الطاهرية بخراسان (٢٠٥ - ٩٥٢ هـ) والدولة الصفارية بفارس (وهو الإقليم الإيراني الذي يقع شرق الخليج الفارس) (٢٥٤ - ٢٩٠ هـ) ودولة بني ساج في آذربيجان (٢٦٦ - ٣١٨ هـ) والدولة السامانية في إقليم ما وراء النهر (٢٦١ - ٣٨٩ هـ) .

أما في مصر فإن الأسرات التي قامت فيها كانت أجنبية عنها مثل الطولونيين والأخشيديين والفاطميين والأيوبيين والمماليك . وقد ظل الروح الوطني قائماً في إيران حتى أمكن قيام شاعر وطني ، مثل الفردوسي الذي نظم الشاهنامة بالفارسية في القرن الرابع الهجري ، بينما في مصر اضطر رجال الدين الأقباط منذ القرن الرابع الهجري إلى الكتابة باللغة العربية وإلى مخاطبة أبناء دينهم بها بعد أن أصبحت لغة التخاطب بينهم . وكانت

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد - ط . القاهرة سنة ١٣٠٢ هـ - ٢ >

مصر خاضعة خضوعا تاما للخلافة طالما كانت الخلافة قوية الجانب . ولكن بدأ الضعف يدب في جسم الخلافة العباسية في أثناء النزاع بين إيلخية الأمين وأخيه المأمون . وما لبث أن وضح ذلك الضعف بعد أن استعان الخليفة المعتصم في حكم الدولة بالأتراك الذين تحكّموا في شئون الدولة المدنية والحربية ، حتى أصبح يدهم منذ خلافة المتوكل على الله (٢٣٢ — ٢٤٧هـ) انتخاب الخلفاء وعزلهم ، ولذا نجد أن النزعة إلى الاستقلال تظهر في مصر واضحة جلية في أثناء النزاع بين الأمين والمأمون ، وكان يمثل هذه النزعة السرى بن الحكم وعبد العزيز الجروى وأولادهما ، بل إن السرى وأولاده استطاعوا الاستقلال عن الخلافة وحكّوا الفسطاط عاصمة مصر أكثر من عشر سنين ، إلى أن نجح المأمون في إعادة مصر إلى حوزة الخلافة ثانية في سنة ٢١٢ هـ .

على أن أحمد بن طولون الذى قدم إلى مصر في سنة ٢٥٤ هـ واليا على الصلاة من قبل أبكباك صاحب إقطاعها ، وجد مصر ولاية إسلامية تامة التكوين ، ووجد الخلافة ضعيفة ، ولا سببا بسبب ثورة الزنج ، فسرعان ما تحدى سلطة الخلافة واستقل بمصر استقلالاً فعلياً في الواقع واسمياً في الظاهر ، بل إنه نجح في ضم سورية إلى مصر وفي تأسيس دولة طولونية دامت نحو ٣٨ عاماً ، وكانت هذه أول مرة تستقل فيها مصر الإسلامية .

المراجع

١ - المصادر المتعددة

- ١ - ابن الأثير (الفتاوى ٦٣٠ و ١٢٣٧ م) : «الكامل في التاريخ»
١٧ جزءاً . لبنان ١٨٦٦ - ١٨٧٤ م .
- ٢ - : «أسد الغابة في معرفة الصحابة» ٥ أجزاء . القاهرة ١٢٨٥
- ١٢٨٦ هـ .
- ٣ - الأزرق (ت ٢٠٤ هـ / ٨١٩ م أو ٢١٩ هـ / ٨٣٤ م أو ٢٣٣ هـ /
٨٢٨ م) :
«أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار» جزءان . الطبعة المجدية بمكة
المكرمة . ١٣٥٢ : ١٣٥٧ م .
- ٤ - ابن أبي أمية (ت ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩ - ١٢٧٠ م) :
«طبقات الأطباء» جزءان . القاهرة ١٢٩٩ هـ .
- ٥ - البلاذري (ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ - ٨٩٣ م) : «كتاب فتوح البلدان»
ليدن ١٨٦٦ م .
- ٦ - ميرس الدوادار (ت ٧٢٥ هـ / ١٣٢٥ م) : «زبدة الفكرة في
تاريخ الهجرة» الجزء الرابع مخطوط . رقم ٢٤٠٢٧ بمكتبة جامعة
فؤاد الأول .
- ٧ - حاجي خليفة (ت ١٠٦٧ هـ / ١٦٥٧ م) : «كشف الظنون عن
أسماء الكتب والفنون» ٧ أجزاء . لينزج - ليدين ١٨٣٥ - ١٨٥٨ م
- ٨ - ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ / ١٤٤٨ - ١٤٤٩ م) : «الاصابة
في تمييز الصحابة» ٨ أجزاء . القاهرة ١٣٢٣ - ١٣٢٥ هـ .
فجر الإسلام - (٢٣)

٩ — حنا النقيوسى (ت أواخر القرن الأول الهجرى/ السابع الميلادى) :
« تاريخ »

Chronique de Jean, évêque de Nikiou. Texte Ethiopien
publié et traduit par M.H. Zotenberg (Notices et extraits
des Manuscrits de la Bibliothèque Nationale et autres
bibliothèques. t. 24. Paris 1883).

١٠ — ابن خرداذبه (ت حوالى ٣٠٠هـ / ٩١٢ م) : « كتاب المسالك
والممالك » (المجلد السادس من مجموعة المكتبة الجغرافية) .
ليدن ١٨٨٩ م .

١١ — ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥ - ١٤٠٦ م) : « العبر وديوان
المتبدا والخبر » ٧ أجزاء . القاهرة ١٢٨٤ هـ . . .

١٢ — : « المقدمة » . القاهرة ١٢٤٨ هـ - ١٩٣٠ م .

٢٣ — ابن خلكان (ت ٦٨١هـ / ١٢٨١ م) : « وفيات الأعيان » جزءان .
القاهرة ١٢٩٩ هـ .

١٤ — ابن الداية (ت ٣٣٠هـ / ٩٤١ م أو ٣٣٤هـ / ٩٤٥ م أو ٣٤٠هـ /
٩٥١) : « سيرة أحمد بن طولون » . برلين ١٨٩٤ م .

١٥ — الشريف الأدريسى (ت ٥٦٠هـ / ١١٦٤ - ١١٦٥ م) : « صفة
المغرب وأراضى السودان ومصر والأندلس مأخوذة من كتاب
نزهة المشتاق فى اختراق الافاق » . ليدين ١٨٦٤ - ١٨٦٦ م .

١٦ — ابن دقاق (ت ٨٠٩هـ / ١٤٠٦ - ١٤٠٧ م) : « كتاب
الانتصار لواسطة عقد الامصار » الجزء الرابع والخامس . بولاق
١٣٠٩ هـ .

١٧ — الدينورى (ت ٢٨١هـ / ٨٩٤ م أو ٢٩٠هـ / ٩٠٣) : « الإخبار

- الطوال « . القاهرة ١٣٣٠ هـ .
- ١٨ — ابن رسته : « الاعلاق النفيسة » (الجزء السابع من مجموعة المكتبة الجغرافية) . ليدن ١٨٩١ — ١٨٩٢ م .
- ١٩ — ساويرس بن المقفع (ت أواخر القرن ٤ هـ / أواخر القرن ١٠ م) : سير الآباء البطارقة (الجزء الأول والخامس والعاشر من مجموعة *Patrologia orientalis* . باريس ١٩٠٧ و ١٩١٠ و ١٩١٥ .
- ٢٠ — ابن سعد كاتب الواقدي (ت ٢٣٠ هـ / ٨٤٥ م) : « الطبقات الكبير » ٨ أجزاء . ليدن ١٩٠٥ — ١٩٢١ م .
- ٢١ — سعيد بن بطريق : المعروف باسم أوتيسخا (ت ٣٢٨ هـ / ٩٤٠ م) « كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق » جزءان . بيروت ١٩٠٥ و ١٩٠٩ م .
- ٢٢ — السيوطي (ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) « تاريخ الخلفاء » : القاهرة ١٣٥١ هـ .
- ٢٣ — —: حسن المحاضرة : جزءان . القاهرة ١٣٢٧ هـ .
- ٢٤ — ابن شاكر السكتي (ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٢ م) : « فوات الوفيات » جزءان . القاهرة ١٢٩٩ هـ .
- ٢٥ — أبو صالح الأرمي : « تاريخ » المعروف بكناثس وأديرة مصر . طبعة *Evetts* . أكسفورد ١٨٩٥ م .
- ٢٦ — الاصطخري « كتاب مسالك الممالك » : (الجزء الأول من المكتبة الجغرافية) ليدن ١٩٢٧ م .
- ٣٧ — ابن طباطبا المعروف بابن الطقطقي : « الفخرى في الآداب السلطانية والدول الإسلامية » الطبعة الثانية — مطبعة المعارف بمصر .

- ٢٨ - الطابرى (ت ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م) : « تاريخ الأمم والملوك »
١١ جزءاً -- الطبعة الأولى بالطبعة الحسينية المصرية .
- ٢٩ - ابن عبد الحكم (ت ٢٥٧ هـ / ٨٧٠ - ٨٧١ م) : « فتوح مصر
وأخبارها » طبعة توري Torrey . نيويورك ١٩٢٧ م وطبعة هنرى
ماسيه Henri Massé المعهد العلمى الفرنسى . القاهرة ١٩١٤ م
- ٣٥ - ابن العميد المروى بالسكن (ت ٦٧٢ هـ / ١٢٧٣ - ٢٢٨٤ م) :
« تاريخ المسلمين » ليدن ١٦٢٥ م .
- ٣١ - أبو الفدا (ت ٧٤٢ هـ / ١٣٣١ - ١٣٣٢ م) : « المختصر فى
أخبار البشر » ٤ أجزاء . الطبعة الأولى بالطبعة الحسينية ١٣٢٥ هـ
- ٣٣ - ابن فرحون (ت ٧٩٩ هـ / ١٣٩٦ - ١٣٩٧ م) : « كتاب الـدياج
المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب » القاهرة ١٣٢٩ هـ .
- ٣٣ - ابن الفقيه (ت أواخر القرن ٣ هـ / أوائل ١٠ م) : « مختصر
كتاب البلدان » (الجزء الخامس من المكتبة الجغرافية) ليدن
١٨٨٥ م .
- ٣٤ - ابن فتيبة (ت ٨٢٧ هـ / ٨٨٣ م أو ٢٧٦ هـ / ٨٨٩ م) : « كتاب
الإمامة والسياسة . خزان . القاهرة ١٣٢٥ هـ .
- ٣٥ - قدامة بن جعفر (ت ٣١٠ هـ / ٩٢٣ م أو ٣٢٠ هـ / ٩٣٢ م أو
٣٣٧ هـ / ٩٤٨ - ٩٤٩ م) : « بيد من كتاب الخراج وصنعة
الكتابة » (الجزء السادس من المكتبة الجغرافية) ليدن ١٨٨٩ م
- ٣٦ - القلقشندى (ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) : « صبح الأعشى فى صناعة
الإنشاء » - ١٤ جزءاً . الطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩١٣ - ١٩١٩ م
- ٣٧ - الكندى (ت ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م) : « كتاب الولاية وكتاب النفاة »
بيروت ١٩٠٨ م (Gibb Memorial Series.)

- ٣٨ — للوردى (ت ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م) : « الأحكام السلطانية »
القاهرة ١٢٩٨ هـ .
- ٣٩ — أبو المحاسن ابن تغرى بردى (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ — ١٤٧٠) :
« النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » الجزء الأول والثانى .
طبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٩ م ، ١٩٣٠ م .
- ٤٠ — المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم . لندن ١٨٧٧ م .
- ٤١ — السمودى (ت ٣٤٦ هـ / ٩٥٧ م) : « صروج الذهب ومعادن الجوهر
فى التاريخ » جزءان — طبعة القاهرة ١٣٤٦ هـ ، ٨ أجزاء طبعة
Barbier de Meynard — باريس ١٨٦١ — ١٨٧٤ م .
- ٤٢ — — : « التنبية والإشراف » (الجزء الثامن من المكتبة الجغرافية)
لندن ١٨٩٣ — ١٨٩٤ م .
- ٤٣ — القرزى (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ — ١٤٤٢ م) : « المواعظ والاعتبار
فى ذكر الخطط والآثار » . جزءان . بولاق ١٢٧٠ هـ .
- ٤٤ — — : « البيان والإعراب عما بارض مصر من الأعراب » القاهرة
١٣٥٦ .
- ٤٥ — — : « شذور المقود فى ذكر النقود القديمة والإسلامية »
المعروف بامم النقود الإسلامية . القسطنطينية ١٢٩٨ هـ .
- ٤٦ — — : « إغاثة الأمة بكشف الغمة » طبعة الدكتور محمد مصطفى
زيادة والأستاذ الشيبان . القاهرة ١٩٤٠ م .
- ٤٧ — ابن النديم (ت ٣٨٣ هـ / ٩٩٣ م) : « الفهرست » . ليزج ١٨٧١ م .
- ٤٨ — النويرى (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ — ١٣٣٢ م) : « نهاية الأرب
فى فنون الأدب » ١٣ جزءا — طبعة دار الكتب المصرية والباقي

- مخطوط بدار الكتب المصرية . الجزء الأول طبعة دار الكتب
الثانية ١٩٢٩ م — والجزء ٢٩ مخطوط بدار الكتب المصرية تحت
رقم ٥٥٤ « معارف عامة » .
- ٤٩ — ياقوت-الجوى (ت ٦٢٦ هـ ١٢٢٩ م) : « معجم البلدان »
٦ أجزاء . ليزج ١٨٦٦ — ١٨٧٣ م .
- ٥٠ — يحيى بن آدم القرشى : « كتاب الخراج » ليدن ١٨٩٥ — ١٨٩٦ .
- ٥١ — اليعقوبى (ت ٢٨٤ هـ / ٨٩٧ م) : « كتاب البلدان » (الجزء
السابع من مجموعة المكتبة الجغرافية) ليدن سنة ١٧٩٢ .
- ٥٢ — — : « تاريخ » . جزءان . طبعة هوتسما Houtsma . ليدن ١٨٨٣ .
- ٥٣ — أبو يوسف صاحب أبي حنيفة (ت ١٨٢ هـ / ٧٩٨ م) : « كتاب
الخراج » . بولاق ١٣٠٢ هـ .
- ٥٤ — Becker (C. H. : Neue Arabische Papyri des
Aphroditofundes (Der Islam. II. Strassburg 1911).
- ٥٥ — Bell : H. I. Translations of the Greek Aphrodito
Papyri in the British Museum (Der Islam. Band
II, III, IV, XVII. 1911, 1912, 1913, 1928).
- ٥٦ — van Berchem Max : Matériaux pour un Corpus
inscriptionum Arabicarum,
a) L'Egypte (Mémoires publiés par les membres
de l'Institut Français du Caire — 1894).
b) Jérusalem Ville (Mémoires.... 1920 — 1922).
- ٥٧ — Combe, Et. J. Sauvaget, G. Wiet : Répertoire
Chronologique d'epigraphie Arabe. t. I, II. Le
Caire 1931.

- ٥٨ —
Crum : W. E, Coptic Ostraca. London 1902.
— ٥٩ —
Grohmann Adolf : Arabic Papyri in the Egyptian
Library vols. I, II, III, Cairo 1934, 1936, 1938.
الجزء الأول نقله المؤلف إلى العربية بالاشتراك مع الأستاذ الدكتور
حسن إبراهيم حسن بعنوان : « أوراق البردى العربية بدار الكتب
المصرية » القاهرة ١٩٣٤ م .

٢ — المصادر الحديثة

١ — المصادر العربية

- ٦٠ — الأستاذ أحمد أمين بك : فجر الإسلام ج ١ — القاهرة ١٩٢٨ م
٦١ — — : فحى الاسلام ج ٣ — القاهرة ١٩٣٦ م
٦٢ — أحمد تيمور باشا : نظرة تاريخية في حدوث المذاهب الأربعة .
القاهرة ١٣٥١ هـ
٦٣ — أحمد تيمور باشا : التصوير عند العرب ، أخرجه وزاد عليه الدراسات
الفنية والتعليقات الدكتور زكى محمد حسن — القاهرة ١٩٤٣ .
٦٤ — أحمد لطفى السيد : قبائل العرب في مصر — ج ١ — القاهرة
١٩٣٥ م .
٦٥ — ادولف جرومان : أربع محاضرات عن الأوراق البردية العربية
تربى الأستاذ توفيق أسكاروس — دار الكتب المصرية —
القاهرة ١٩٣٠ م .
٦٦ — الياس بك الأيوبي : تاريخ مصر الاسلامية — ج ١ — القاهرة ١٩٣٤

- ٦٧ — الأستاذ أمين النطولى : مصر فى تاريخ البلاغة (مجلة كلية الآداب
بجامعة فؤاد الأول ، المجلد الثانى ، الجزء الأول القاهرة — مايو ١٩٣٤ م .
- ٦٨ — الأب انتحاس الكرملى : النقود العربية وعلم النميات . القاهرة ١٩٣٩ م
- ٦٩ — الدكتور حسن إبراهيم حسن : تاريخ عمرو بن الناص . القاهرة ١٩٢٦ م
- ٧٠ — — : تاريخ الإسلام السياسى . ج ١ — القاهرة ١٩٣٥ م .
- ٧١ — الدكتور زكى محمد حسن : الفن الإسلامى فى مصر . ج ١ —
القاهرة ١٩٣٥ م .
- ٧٢ — — : كنوز الفاطميين — القاهرة ١٩٣٧ م
- ١ — — : فى مصر الإسلامية مع البكباشى عبد الرحمن زكى وآخريـن
القاهرة ١٩٣٣ م
- ٧٤ — — : الفنون الإيرانية فى العصر الإسلامى . القاهرة ١٩٣٩ م .
- ٧٥ — — : بعض التأثيرات القبطية فى الفنون الإسلامية (فى مجلة
جمعية الآثار القبطية) القاهرة سنة ١٩٣٧ .
- ٧٦ — — : مصر والحضارة الإسلامية — القاهرة ١٩٤٢ م
- ٧٧ — — : الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى . القاهرة ١٩٤٥ .
- ٧٨ — الدكتور سليم حسن بك : أقسام مصر الجغرافية فى العهد المروعوفى
(المجمع المصرى للثقافة الملمية . الكتاب السنوى الثالث عشر) .
القاهرة ١٩٤٢ م .
- ٧٩ — الدكتور عبد الحكيم الرفاعى : الاقتصاد السياسى . الجزء الأول —
القاهرة ١٩٣٦ م .
- ٨٠ — على بك بهجت : حفريات القسوطاط . القاهرة ١٩٢٨ م .

- ٨١ — الأستاذ محمد كامل حسين : في الأدب المصري الاسلامي من الفتح
الاسلامي إلى دخول الفاطميين . القاهرة ١٩٣٩ م .
٨٢ — الدكتور محمد كامل صراسي بك : المسكينة العقارية في مصر وتطورها
التاريخي من عهد الفراعنة حتى الآن — القاهرة ١٩٣٦ م .
٨٣ — للدكتور محمد سامي جنينه : القانون الدولي العام . القاهرة ١٩٣٣ م
٨٤ — يوسف اليان سركيس : معجم المطبوعات العربية والمترجمة . القاهرة
١٩٢٨ — ١٩٣٠ م .

ب — المصادر الأخرى

- ٨٥ — Ali Bey Bahgat : Les Manufactures d'Etoffe en
Egypte au Moyen Age, (Bulletin de l'Institut
Egyptien. Quatrième Série — 6 Avril 1903 —
Le Caire 1903).
٨٦ — Amélineau E. : Etude sur le Christianisme en
Egypte au Septième siècle. Paris 1887.
٨٧ — Arnold Th.: The Preaching of Islam. London 1935. —
٨٨ — Becker C. H. : The Expansion of the Saracens (The
Cambridge Medieval History, vol. 11 Cambridge
1913:
٨٩ — : Art. Egypt (The Encyclopaedia of Islam, —
vol. 11. Leyden — London 1927).
٩٠ — : Art. Cairo (The Encyclopaedia of Islam —
vol. ١, Leyden — London 1913)

- : Historische Studien über das Londoner — ٩١
Aphroditowerk. (Der Islam Band 11. 1911).
- : Islamstudien. Leipzig 1924. — ٩٢
- Van Berchem, Max, La Propriété territoriale et — ٩٣
l'impôt foncier sous les Premiers Califes. Gen-
ève 1886.
- : Une Page Nouvelle de l'histoire d'Egypte — ٩٤
(Journal Asiatique. Dixième série — Tome IX
Paris. Janvier Février 1907).
- Brockelmann, Carl : Geschichte der Arabischer Lit- — ٩٥
teratur, 2 vols. Weimar, Berlin 1898 — 1902, 2
Supplementband — Leiden 1937 — 1038.
- Butcher Mrs. E. L. : The Story of the Church of — ٩٦
Egypt. 2 vols. London 1897.
- تعريب أسكندر تادرس بعنوان « تاريخ الأمة القبطية وكنيستها »
في ثلاثة أجزاء . القاهرة ١٩٠٠، ١٩٠١، ١٩٠٦ م
- Butler Alfred J. : The Arab Conquest of Egypt. — ٩٧
Oxford 1902.
- تعريب الأستاذ محمد مهريد أبو حديد بك بعنوان « فتح العرب لمصر »
القاهرة ١٩٣٣ م
- : The Ancient Coptic Churches of Egypt. 2 vols. — ٩٨
Oxford 1884.
- : The Treaty of Misr in Tabari. Oxford 1913. — ٩٩

- : Islamic Pottery. London 1929. — ١٠٠
- Caetani, Leone . *Annali dell' Islam*. vols. IV, V. — ١٠١
Milano 1911, 1912.
- Creswell (K. A. C.) . *Coptic Influences on-Early* — ١٠٢
Muslim Architecture (Extrait - Bulletin de la
Société d'Archéologie Copte. Tome V 1039.
Le Caire).
- De Castries Henri : *L'Islam, Impression et Etudes*. — ١٠٣
Paris 1896.
- تعريب احمد فتحي زغلول باشا بعنوان «الإسلام . حواطر وسوانح»
مطبعة السعادة بالقاهرة
- De Sacy Silvestre . *Recherches sur la nature et* — ١٠٤
les Révolutions du droit de propriété territoriale
en Egypte (Bibliothèque des Arabisants Français,
t. II (Institut Français d'Archéologie Orientale, le
Caire 1923.)
- : *Traité des monnaies Musulmanes*. Le Caire — ١٠٥
1905.
- Devonshire Mme R. L. : *L'Egypte Musulmane et* — ١٠٦
les Fondateurs de ses Monuments. Paris 1926.
- Dozy . *Histoire des Musulmans d'Espagne*. 3 to- — ١٠٧
mes. Leyde 1932.
- : *Supplément aux Dictionnaires Arabes*, 2 vols — ١٠٨
(Leyden 1881).
- . *Dictionnaire détaillé des noms des vêtements* — ١٠٩
chez les Arabes. Amsterdam 1845.

- Georgy Sobhy Bey : The Survival of Ancient Egypt. — ۱۱۰
(Extrait du Bulletin de la Société d'Archéologie
Copte. T. IV. Le Caire 1938)
- Heyd : Histoire du commerce du Levant au Moyen — ۱۱۱
Age. 2 vols. Leiptig 1885-1886.
- Johnson Allan Chester : An Economic Survey of — ۱۱۲
Ancient Rome vol. II Roman Egypt Baltimore.
1936.
- Jouguet Pierre : L'Égypte Gréco Romaine (Précis — ۱۱۳
de l'histoire d'Égypte. t. 1).
- Kammerer Albert : La Mer Rouge. Tome Premier. — ۱۱۴
Le Caire 1929.
- Lamm Carl Johan : Cotton in Mediaeval Textiles — ۱۱۵
of the Near East. Paris 1937
- Lammens : Un gouverneur Omayyade d'Égypte ; — ۱۱۶
Qorra ibn Sarik d'après les papyrus Arabes
(Bulletin de l'Institut Egyptien. 5e. Série. Tome
11. Le Caire Décembre 1908).
- Lane-Poole Stanley . A History of Egypt in the — ۱۱۷
Middle Ages. London 1925.
- Macmichael : A History of the Arabs in the Sudan. — ۱۱۸
2 vols. Cambridge 1922.
- Marcel : Égypte, depuis la conquête des Arabes — ۱۱۹
jusqu'à la domination Française. Paris 1848.
- Massignon : Annuaire du Monde Musulman. — ۱۲۰
Paris 1925.

Mez Adam : Die Renaissance des Islams. Heide- — ١٧١
berg 1922.

نقله إلى العربية في حزين الأستاذ محمد عبد الهادي أبو ريدة

بمنوان « الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري »

القاهرة ١٩٤٠ م

Milne J Grafton · A History of Egypt Under — ١٧٢
Roman Rule. London 1924.

Mohammed Ben Cheneb · Classes Des Savants de — ١٧٣
l'Ifriqiya, Alger 1920.

Munier Henri : L'Egypte Byzantine (Précis de l'hist. — ١٧٤
d'Egypte t. 11. 1932).

Le Prince Omar Tousson : La Géographie de l'Egypte -- ١٧٥
à l'Epoque Arabe. Tome Premier - Le Caire 1926.

Pedersen : Art. Masdjid (The Encyclopaedia of — ١٧٦
Islam vol. 111. Leiden. London 1936).

Quatremère Et. : Mémoires Géographiques et Hist- — ١٧٧
oriques 2 tomes. Paris 1811.

—— . Recherches Critiques et Historiques sur — ١٧٨
la Langue et la Littérature de l'Egypte. Paris
1808.

Sauvaire M.H. : Materiaux pour servir a l'histoire — ١٧٩
de la Numismatique et de la Metrologie Musul-
manes (Extrait du Journal Asiatique, 7eme Série t. ,
XIV. XV, XVIII, XIX. Paris 1879).

Wiet Gaston : L'Egypte Musulmane (Précis de — ١٣٠
l'histoire d'Egypte t. 11).

— : L'Egypte Arabe (Histoire de la Nation — ١٣١
Egyptienne. t. IV).

— : Les Communications en Egypte au Moyen — ١٣٢
Age.

نقلها إلى العربية محمد وهبي بمنوان « المواصلات في مصر
في المصور الوسطى » ونشرت في كتاب « في مصر
الإسلامية ، أخرجه الدكتور زكي محمد حسن والبكباشي
عبد الرحمن زكي

Zaky Mohamed Hassan : Les Tulunides. Paris 1933. — ١٣٣

جدول

بأسماء الولاية وعمال الخراج وأصحاب الشرطة
والقضاة والبطاركة في عهد الولاية

جدول بأسماء الولاة وعمال الخراج وأصحاب

عمال الخراج	الولاية	الخلاصاء	السنوات
	عمرو بن العاص	عمرو بن الخطاب	٦٤١/٥٢٠ ٦٤٤/٢٣
	عبد الله بن سعد انقضاء محمد بن أبي حديصة (١)	عنان بن عفان علي بن أبي طالب	٦٤٥/٢٤ ٥٦ — ٦٥٥/٣٥
	ديسر بن سعد الاشتر مالكه محمد بن أبي بكر عمرو بن العاص (٢)		٦٥٧/٣٧ ٦٥٨/٣٨
وردان	عنية بن أبي سفيان	مناوية	٦٦٠/٤٠ ٦٦١/٤١ ٦٦٣/٤٣ ٦٦٤/٤٤ ٦٦٧/٤٧ ٦٦٩/٤٩ ٦٣٧/٥٣ ٦٧٧/٥٧ ٦٧٩/٥٩
	عقبة بن عامر مسلمة بن مخلد		٦٨٠/٦٠ ٦٨٢/٦٢ ٦٨٤/٦٤
	سعيد بن يزيد عبد الرحمن بن عقبة	يزيد الأول (عبد الله بن الزبير) سروان الأول	٦٨٥/٦٥
	عبد العزيز بن مروان	عبد الملك بن مروان	

(*) اعتمدنا على جدول الأستاذ سميت في هذا الصدد وذكرنا في خاتمة

الشرطة والقضاة والبطاركة في عهد الولاة (**)

ملاحظات	البطاركة	القضاة	أصحاب الشرطة
	بنيامين	فيس بن أبي العاص كعب بن يسار ، عثمان بن فيس	خارجة بن حذافة هشام بن كنانة
(١) لم يذكر الأستاذ قيت اقتراء محمد بن أبي حديفة			سائب بن هشام عبد الله بن أبي حرملة خارجة بن حذافة (٢) زكريا بن جهم
(هـ) ذكر الأستاذ قيت في جداوله أن أغاتون ولي الطركية في سنة ٦٥٨/٤٩ ولكني أعتدت فيها أوردته على ما جاء في كتاب سير الآباء البطاركة لساورس	أغاتون (هـ)	سليم بن عتر	سائب بن هشام (٢) عابس بن سعيد سائب بن هشام (٣) عابس بن سعيد (٢)
(ح) ذكر الأستاذ قيت أن يوحنا الثالث ولي الطركية سنة ٦٨٠/٦٠ ولكني اعتدت على ساورس	يوحنا الثالث (ح)	عابس بن سعيد	

الملاحظات أوجه الخلاف بين ما وصل إليه وما استنبطناه من الراجع القديمة

عمال الحجاج	الولاية	الخلفاء	السنوات
			٦٨٦/ ٦٧
			٦٨٧/ ٦٨ — ٨٨
			٦٨٨/ ٦٩
			٦٨٩/ ٧٠
			٦٩٥/ ٧٦
			٧٠٢/ ٨٣
			٧٠٣/ ٨٤
			٧٠٥/ ٨٦
	عبد الله بن عبد الملك	الوليد بن عبد الملك	
	قرة بن شريك		٧٠٨/ ٨٩
			٧٠٩/ ٩٠
			٧١٠/ ٩١
			٧١٢/ ٩٣
أسامة بن زيد	عبد الملك بن رفاعه	سليمان بن عبد الملك	٧١٥/ ٩٦
			٧١٦/ ٩٧
			٧١٧/ ٩٨
حيان بن سريج	أيوب بن شرحبيل	عمر بن عبد العزيز	٧١٨/ ٩٩
			١٩ — ٧١٨/ ١٠٠
		يزيد بن عبد الملك	٢٠ — ٧١٩/ ١٠١
	بشر بن صفوان		
	حنظلة بن صفوان		٢١ — ٧٢٠/ ١٠٢
		هشام بن عبد الملك	٧٢٣/ ١٠٥
عبيد الله بن المحجّاب	محمد بن عبد الملك		
	الحمر بن يوسف		
	حفص بن الوليد		٧٢٦/ ١٠٨
	عبد الملك بن رفاعه ٢		٧٢٧/ ١٠٩
	الوليد بن رفاعه		

ملاحظات	البطارقة	القضاة	أصحاب الشرطة
(أ) ذكر الأستاذ فيت أن اسحق ولي البطركية سنة ٦٩٠/٧٠ (ب) ذكر فيت أن سيمون ولي سنة ٧٣ ٦٩٣/	اسحاق (أ) سيمون (ب) الاول (ظل) حتى سنة ٨٠١/٨٢ الاكسندروس الثاني	بشير بن النضر عبد الرحمن بن حجيرة مالك بن شراجيل يونس بن عطية أوس بن عبد الله عبد الرحمن بن معاوية عمران بن عبد الرحمن عبد الواحد بن عبد الرحمن عبد الله بن عبد الرحمن عياض بن عبد الله عبد الله بن عبد الرحمن ٢ عياض بن عبد الله ٢ عبد الله بن يزيد يحيى بن ميمون	زياد بن حناطة عبد الرحمن بن حسان يوس بن عطية عبد الرحمن بن معاوية عمران بن عبد الرحمن عبد الأعلى بن خالد عبد الملك بن رفاعة عبد الرحمن بن معاوية الوليد بن رفاعة الشيخ بن جرو الحضري الحسن بن يزيد الرعيني الحارث بن داخر شعيب بن حميد حنظلة بن صفوان محمد بن مطير البلوي حفص بن الوليد عبد الله بن أبي مسعود

عمال الخراج	الولاية	الخلقاء	السنوات
			۷۲۹/۱۱۱
			۷۳۰/۱۱۲
			۷۳۱/۱۱۳
			۷۳۲/۱۱۴
			۷۳۳/۱۱۵
قاسم بن عبيد الله	عبد الرحمن بن خالد		۷۳۴/۱۱۶
	حظلة بن صفوان ۲		۷۳۵/۱۱۷
			۷۳۷/۱۱۹
			۷۳۸/۱۲۰
			۷۴۰/۱۲۲
	حفص بن الوليد ۲		۷۴۲/۱۲۴
عيسى بن أوى عطا			۷۴۳/۱۲۵
		يريد بن الوليد	۷۴۴/۱۲۶
		ابراهيم بن الوليد	
		سروان بن محمد	۷۴۵/۱۲۷
	حسان بن عاصيه		
	حفص بن الوليد ۳		
	الحوثة بن سهيل		۷۴۶/۱۲۸
عبد الملك بن مروان	المغيرة بن عبيد الله		۷۴۹/۱۳۱
	عبد الملك بن مروان		۷۵۰/۱۳۲
	صالح بن علي	السفاح	۷۵۱/۱۳۳
	أبو عون عبد الملك		
عطا بن شرحبيل			۷۵۲/۱۳۵
	صالح بن علي (۲)		۷۵۳/۱۳۶
	أبو عون (۲)	المصور	۷۵۴/۱۳۷

ملاحظات	البطاقة	الفضاة	أصحاب الشرطة
	<p>قسما الأول تاودوروس (ولى البطركية حتى سنة ١٧٢٦/٧٤٣)</p> <p>ميخائيل الأول</p>	<p>يريد بن عبد الله (الحيار بن خالد) توبة بن عمر الحضري</p> <p>خير بن نعم</p> <p>عبد الرحمن بن سالم</p> <p>خير بن نعم (٢) فوث بن سليمان</p>	<p>عبد الرحمن بن خالد</p> <p>عبد الله بن يسار عياص بن بخرية</p> <p>قيس بن أشعث عقبة بن نعم</p> <p>حسان بن عتاهية عبد الله بن مغيرة معاوية بن سهوان محسن بن هانيء عبدالله بن عبد الرحمن عكرمة بن عبد الله</p>

عمال الحراج	الولاية	الخلفاء	السنوت
			٧٥٧/١٤٠
نوفل بن فوات	موسى بن كعب		٧٥٨/١٤١
	محمد بن الأشعث		٧٦٠/١٤٣
	حميد بن قحطبة		٧٦١/١٤٤
معاوية بن مروان	يزيد بن حاتم		٧٦٧/١٥٠
محمد بن سعيد	عبد الله بن عبد الرحمن		٧٦٩/١٥٢
			٧٧٢/١٥٥
محمد بن سليمان	محمد بن عبد الرحمن		
	موسى بن علي	المهدى	٧٧٥/١٥٨
			٧٧٦/١٥٩
سلامة بن رجاء			٧٧٨/١٦١
	عيسى بن لقمان		
	واضح مولى أبي جعفر		٧٧٩/١٦٢
	منصور بن يزيد		
	يحيى بن داود		
اسماعيل بن ابراهيم	سالم بن سواده		٧٨١/١٦٤

ملاحظات	البطاركة	القضاة	أصحاب الشرطة
		أبو خزيمعة إبراهيم يزيد بن عبد الله غوث بن سليمان (٢)	محمد بن معاوية
		أبو خزيمعة إبراهيم	عبد الله بن عبد الرحمن (٢)
	مينا (ولى حتى سنة ٧٧٤/١٥٨ .	عبد الله بن لمبة	عباس بن عبد الرحمن محمد بن حسان
	يوجنا الرابع		الحارث بن الحارث موسى بن زريق هاشم بن عبد الله عبد الأعلى بن سعيد عسامة بن عمرو
		إسماعيل بن اليسع	الأخضر بن مسوان

عمال الخراج	الولاية	الخلفاء	السون
	ابراهيم بن صالح		٧٨٢/١٦٥
	موسى بن مصعب		٧٨٤-٧٨٣/١٦٧
	عسامة بن عمرو		٨٥-٧٨٤/١٦٨
	الفضل بن صالح	المادى	٨٦-٧٨٥/١٦٩
	على بن سليمان		٧٨٦/١٧٠
	موسى بن عيسى	هرون الرشيد	٧٨٧/١٧١
	مسلمة بن يحيى		٧٨٨/١٧٢
عمر بن غيلان	محمد بن زهير		٧٨٩/١٧٣
	داوود بن يزيد		٧٩٠/١٧٤
	موسى بن عيسى (٢)		٧٩١/١٧٥
	عمر بن مهران (١)		٧٩٢/١٧٦
نصر بن كلثوم	ابراهيم بن صالح (٢)		
روح بن روح	عبد الله بن السيب		٧٩٣/١٧٧
	اسحاق بن سليمان		
	هرثة بن أعين		٧٩٤/١٧٨
	عبد الملك ابن صالح		
	عبيد الله بن المهدي		٧٩٥/١٧٩
	موسى بن عيسى (٣)		
	عبيد الله بن المهدي (٢)		٧٩٦/١٨٠
	اسماعيل بن صالح		٧٩٧/١٨١

ملاحظات	البطاركة	القضاة	أصحاب الشرطة
<p>(١) لم يرد ذكر لصر بن مهران في جداول الأستاذ فيت ولا في الكندي ، ولكن أوراق البردي دلت على توليه مصر في سنة ١٧٦ هـ (انظر . جرومان : المحاضرة الثالثة في أوراق البردي المصرية ص ٩ — ١٠)</p>		<p>غوث بن سليمان (٣) المفضل بن فضالة</p>	<p>عسامة بن عمرو (٢)</p>
			<p>عسامة بن عمرو (٣) عبد الرحمن بن موسى</p>
		<p>عبد الملك بن محمد</p>	<p>إسماعيل بن عيسى عسامة بن عمرو (٤) عبد الرحمن بن مسامة جنيك ابن الغلاء عمار بن مسلم حبيب بن الهيثم عمار بن مسلم (٢) عبد الرحمن بن موسى ٢</p>
		<p>المفضل بن فضالة (٢) محمد بن مسروق الكندي</p>	<p>خالد بن يزيد الأمكيس مسلم بن بكار حاتم بن هرثمة عمار بن منعم (٣) معاوية بن سرد عمار بن مسلم (٤) سليمان بن الضمة يزيد بن عبد العزيز</p>

عمال الخراج	الولاية	الحقلاء	السنوات
	إسماعيل بن عيسى		٧٩٨/١٨٢
	الليث بن الفضل		٧٩٩/١٨٣
			٨٠٠/١٨٤
			٨٠١/١٨٥
محفوظ بن سليمان	أحمد بن إسماعيل		٨٠٣/١٨٧
	عبد الله بن محمد		٨٠٥/١٨٩
	الحسين بن جميل		٨٠٦/١٩٠
	» » »		٨٠٧/١٩١
	مالك بن دهم		٨٠٨/١٩٢
	الحسن بن التتخاخ		٨٠٩/١٩٣
	حاتم بن هرثمة	الأميين	٨١٠/١٩٤
	جابر بن الأشعث		٨١١/١٩٥
	عباد بن محمد	المأمون	٨١٢/١٩٦
	المطلب بن عبد الله		٨١٥/١٩٨

ملاحظات	البطاركة	القضاة	أصحاب الشرطة
	مرقس الثالث	إسحاق بن الفرات عبد الرحمن العمري	المصك بن مسكين عبد الوهاب بن موسى علي بن الفضل معاوية بن صرد (٢) أحمد بن حوى محمد بن عسامة كامل الهنأى معاوية بن صرد (٣) محمد بن يزيد محمد بن خالد صالح بن عبد الكرم سليمان بن غالب (٢)
		هاشم بن أنى بكر	ابن حاتم بن هرثمة علي بن المثنى عميد الله الطرسوسى عبد الله بن إبراهيم سليمان بن غالب (٢)
		إبراهيم بن البكاء لميعة بن عيسى الفضل بن غانم	هيرة بن هاشم محمد بن عسامة (٢) عبد العزيز بن وزير

عمال الخراج	الولاية	الختفاء	السنون
	العباس بن موسى		
	المطلب بن عبد الله (٢)		٨١٥/١٩٩
	السري بن الحكم		٨١٦/٢٠٠
	سليمان بن غالب		٨١٢/٨١٦/٢٠١
	السري بن الحكم (٢)		
			٨١٩/٢٠٤
			٨٢٠/٢٠٥
	أبو نصر بن السري		
	عبيد الله بن السري		٨٢١/٢٠٦
	عبد الله بن طاهر		٨٢٦/٢١١

ملاحظات	البطاركة	القضاة	أصحاب الشرطة
		لهيعة بن عيسى ٢	إبراهيم بن عبد السلام هيرة بن هاشم (٢) محمد بن عسامة (٣) عبد العزيز بن وريز أحمد بن حوى (٢) هيرة بن هاشم (٣) محمد بن عسامة (٤) أبو بكر بن جنادة عاس بن لهيعة محمد بن عسامة (٥) المارث بن زرعة ميمون بن السرى أبو بكر بن جنادة ٢ هاد بن المخارق اسماعيل بن الحكم صالح بن الحكم داود بن الحكم
	أنا يعقوب	إبراهيم بن إسحاق إبراهيم بن الجراح	محمد بن قشاشى عبيد الله بن السرى محمد بن عتبة معاذ بن عزيز عبدويه بن جبلة

عمال الحراج	الولاية	الحلفاء	السنوت
			٨٢٧/٢١٢
صالح بن شيرزاد	عبد الله بن طاهر عيسى بن يزيد المتصم		٨٢٨/٢١٣
	عيسى بن يزيد عمير بن الوليد عيسى بن يزيد (٢)		٨٢٩/٢١٤
	عبدويه بن جبلة عيسى بن منصور كيدر نصر	المأمون	٨٣٠/٢١٥ ٨٣١/٢١٦ ٨٣٢/٢١
		المتصم	٨٣٣/٢١٨ ٨٣٤/٢١٩
سعید بن عبد الرحمن	المظفر بن كيدر أشناس موسى بن أبي العباس		٨٣٨/٢٢٣
	مالك بن كيدر علي بن يحيى		٨٣٩/٢٢٤ ٨٤١/٢٢٦
عيسى بن يونس	عيسى بن منصور ٢ إيتاخ	الوائق	٨٤٢/٢٢٧ ٨٤٣/٢٢٨ ٨٤٥/٢٣٠
أبو الوزير	هرمة بن النصر حاتم بن هرمة علي بن يحيى (٢) المتنصر إسحاق بن يحيى	التوكل	٨٤٨/٢٣٣ ٤٩ — ٨٤٨/٢٣٤ ٨٥٠ — ٨٤٩/٢٣٥

ملاحظات	البطارية	القضاة	أصحاب الشرطة
		عيسى ابن المنكدر (ولي حتى سنة ٢١٤/٨٢٩)	محمد بن عيسى محمد بن عمير مطهر ابن عديويه موسى بن إبراهيم اسبنديار ابن بسطام ذاوه الظفر بن كيدر
	أنا سيمون أنا يوساب	هرون بن عبد الله	ذاوه (٢) حسن بن أبي العباس
		محمد بن أبي الليث	ذاوه (٣) معاوية بن معاوية ابن مصور
	ميخائيل الثاني		أبو قتيبة محمد بن سويد معاوية بن نعيم المهاجي

عمال الخراج	الولاية	الحلقاء	السنون
بدر	خوط عبد الواحد		٥١—٨٥٠/٢٣٦
			٨٥١/٢٣٧
	عنبسة بن إسحق		٨٥٢/٢٣٨
			٨٥٥/٢٤١
	يزيد بن عبد الله		٨٥٦/٢٤٧
			٨٥٨/٢٤٤
سليمان بن وهب أحمد بن مدبر		المتصر المستعين المقتدر	٨٥٩/٢٤٥
			٨٦٠/٢٤٦
			٨٦١/٢٤٧
			٨٦٧/٢٤٨
			٨٦٦/٢٥٧
	مراحم بن خلفان		٨٦٧/٢٥٣
	أحمد بن مزاحم أزجور		٨٦٨/٢٥٤

ملاحظات	البطاقة	القصة	أصحاب الفرطه
	قما الثاني شودة (حتى سنة ٨٨٠/٢٦٦)	الحارث بن مسكين بكار بن قتيبة (حتى ٨٨٣/٢٧٠)	محمد بن سليمان محمد بن عبد الله خالد بن يزيد بجعي بن أحمد أزجور محمد بن اسبنديل أزجور (٢) بولفيا

كشاف

إختم : ١٩٠ ، ٢٨٥ ، ٣٤٤	(١)
إخنا : ٤٠ ، ٢٩٢	ابن جحدم : (انظر عبد الرحمن)
ادريس بن عبد الله (أخو النفس الزكية) :	ابن سبأ : (انظر عبد الله)
١٥٤ ، ١٥٣	ابن سندر : ٥٣
أديرة : ١ ، ٥ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥ ، ٣٣٦	ابراهيم بن صالح : ١٤٩
أرتودوكس (ياقبة) : ٥ ، ١٨٤ ، ١٨٨	ابراهيم بن محمد بن عبد الله (ابن النفس الزكية) : ١٥١ ، ١٥٢
١٨٩ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٠١	ابراهيم بن المهدي : ١٧١ ، ١٧٢
ازجور التركي : ٢٥ ، ١٥٨	ابن طولون : (انظر أحمد)
أسامة بن زيد التوخي : ٢١٦ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٦٩	ابن عبد الفار الجعي : ١٦٥
استراكا : ٤١ ، ٦٧ ، ٦٨	ابن المدير : (انظر أحمد)
إسحق بن سليمان العباسي : ٢٥٤	أبو حنيفة (الإمام) : ١٠٥ ، ٢١٧ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦
إسحق بن القرات : ١٠٥	أبو شعر (ميناء) : ٣٠٠
أسطول : ١٣ ، ١٦ ، ٢٣ ، ٣٠ ، ٨١ ، ٨٨ - ٩٨ ، ١٢٣ ، ١٤٥ -	أبو سير : (انظر بوسير)
١٤٧ ، ١٩٧ ، ٣١٣ ، ٣٤٢	أبو عون : ٣٢ ، ١٠٣ ، ١٤٤ ، ٢٣٦
٣٤٣	أبو مسلم الخراساني : ١٣٦ ، ١٣٧
الاسكندرية : ٢ ، ٤ ، ١٢ ، ١٤ ، ١٦ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٤٤ ، ٥٧ ، ٨٠ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ٩١ ، ١٢٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٤٤ ، ١٥٧ ، ١٦٠ ، ١٦٦ -	أبو نصر بن السري بن الحكم : ١٧٤
١٦٩ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ - ١٨٥ ، ١٨٩ ، ١٩١ ، ١٩٧ ، ٢٠٢ ، ٢٤١ - ٢٤٣ ، ٢٤٣ ، ٢٤٨ ، ٢٨٢ ، ٢٩٥ ، ٣٠٠ - ٣٠٩ ، ٣١٠	أحباس : (انظر وقف)
	أحمد بن حنبل (الإمام) : ١٧٨ ، ٣٢٢
	أحمد بن السري : ١٧٥
	أحمد بن طولون : ٣٤ ، ٣٦ ، ٥٨ ، ٦٢ - ٦٤ ، ٦٩ ، ١٠٨ ، ٢٣٤ ، ٢٣٨ ، ٣٥٢
	أحمد بن المدير : ٥٨ ، ٢٣٤ ، ٣٣٨ ، ٣٤٢

الأميين : ٨٦ ، ١٠٥ ، ١٠٩ - ١٦٣ ،
١٧٦ ، ٢٠٢ ، ٢٨٩ ، ٣٥٢
الأندلس : ٣٢٥ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩
الأندلسيون (في مصر) : ١٦٠ ، ١٦٧ -
١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٥ ،
١٧٦
انصنا : ٢٦٩
اهناسيا : ١٩١ ، ٢٨٥ ، ٣٤٤
لوتانخ : ١٨١
الإيرانيون : (انظر الفرس)
أيلة (المقبة) : ١٣٣ ، ٣٠٠
إلياء : (انظر بيت المقدس)
أيوب بن شرجيل : ٢٠٩ ، ٢٦٦

(ب)

بابليوت (البونة) : ١١ ، ١٢ ، ١٤ ،
١٧ ، ١٩ ، ٣٧ ، ٤٠ ، ٤٣ -
٤٥ ، ٤٥ ، ٧٠ ، ١٨٥ ، ٢٤٣ ، ٣٠٣
٣٠٥
باخرا : ١٥٢
البيجة : ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٣٠٢
البحر الأبيض المتوسط : ٩ ، ٨٨ ، ٩٥
٣٤١ ، ٣٠٠
البحر الأحمر : ٩ ، ٢٩٩ - ٣٠٩ ، ٣١١
٣١٢
البربر : ٨٢ - ٨٤ ، ٩١
بردى (وثائق) : ١٠ ، ٢٠ ، ٣٠ ،
٣٥ ، ٣٦ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤١ ،
٤٨ - ٥٠ ، ٥٦ ، ٥٩ - ٦٣ ،
٦٤ ، ٦٨ ، ٧٥ ، ٨١ ، ٩١

٣١٢ ، ٣٣٠ - ٣٣٦ ، ٣٤٤
اسماعيل بن عبد الله القسرى : ١٤٢
اسماعيل بن اليسع الكندي : ١٥٠ ،
٣٢٦
أسنا : ١٥٨
أسوان : ٥٧ ، ١٤٤ ، ٢٣٤ ، ٢٥٨ ،
٢٦٩ ، ٣١٢
أسيوط : ٢٨٥ ، ٣٤٤
الأشتر مالك بن الحارث النخعي : ١٢٥ ،
١٢٦
الأشمويين : ١٤٧ ، ١٩١ ، ٢٦٠ ،
٢٨٥
أشناس : ٣٥
الأصبغ بن عبد العزيز بن سروان : ٥٣ ،
١٥٣ ، ١٩٩ ، ٢٢٣
إفريقية : ١ ، ٢١ - ٢٣ ، ٣١ ، ٣٤ ،
٨١ - ٨٤ ، ٩١ ، ٩٣ ، ١٤٠ ،
١٤٢ ، ٣١٢ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ،
٣٥٠
الأفنين : ٢٣٧ ، ٢٣٨
إقطاع : ٣٤ ، ٣٦ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ١٥٥ ،
١٧٨ ، ٢٢١ ، ٢٥٦ ، ١٨١
الأكدر بن حمام النخعي : ١٣٢ ، ١٣٣
أم دتون (تندونياس) : ١١ ، ٥٦
الأمويون والدولة الأموية : ٢٦ ، ٣٠ ،
٣٢ ، ٦٧ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٧٧ ،
٨٢ ، ١٣٥ - ١٣٨ ، ١٤٦ -
١٤٩ ، ١٥١ ، ١٥٣ ، ١٨١ ،
١٩٠ ، ٢٢١ ، ٢٣٦ ، ٢٤٩ ،
٢٧٤ ، ٢٥٣

بويط : ١٥٠	٤٢٢٧٠ ، ٢٢٥٠ ، ٢٠١٤ ، ٩٤
بيت المقدس (القدس أو إيلياء) : ٢٦٠	٢٩٢ ، ٢٩١٤ ، ٢٦٥
٢٧٩ ، ٢٢٨ ، ٢١٣ ، ٢١٢	برقة (انطابلس) : ٢٣ ، ١٥ ، ١٤ : ٢٣ ، ١٥ ، ١٤
بيزنطة والدولة البيزنطية : ٤٠ ، ٤٤ ، ٤١	٢٨٤ ، ٨٣ ، ٨١ ، ٨٠ ، ٤٣٢ ، ٣١
٤٢٦ ، ٤٠١ ، ١٣ ، ١١ ، ٤١٠	٣١٢ ، ١٥٨ ، ١٢٣
٢٨٦ ، ٢٨٠	البرلس : ٩٠ ، ٨٥
البيزنطيون : (انظر الروم)	البريد وصاحب البريد : ٣٠ ، ٢٧ ، ٢٦
(ت)	٣١١ ، ١٥٤ ، ١٠٣ ، ٣٤
تجارة وتجار : ٥٧ - ٥٥ ، ١٨ ، ١٠ ، ٩	برينيسى : (انظر رأس بناس)
٣٨٠ ، ٢٥٩ ، ٢٥٨ ، ٧٥	بصر بن أوس (أبو الجراح الجرشي) :
٣٤٢ ، ٣٤١ ، ٣١٣ - ٢٩٩	١٤٠
الترك : ١٥٧ ، ١٥٦ ، ٧٤ ، ٣٦ ، ٣٣	بصر بن صفوان : ٧٦ ، ٧٤ ، ٧٣
٢٦٢ ، ٢٥٧ ، ٢٤٩ ، ١٥٩	البشمور أو البشروود : (انظر بوكوليا)
٣٤٣	البطالسة : ٣٠٠ ، ١٩٠ ، ٤٨ ، ٢ ، ١
تنيس : ١٦٩ ، ١٦٤ ، ٨٥ ، ٥٧	٣٠٢
٢٨٠ ، ٢٥٧ ، ١٨٦ ، ١٧٥	بنا الأصغر : ١٥٨
٢٩٠ - ٢٨٨ ، ٢٨٤ - ٢٨٢	بنا الأكبر : ١٥٨
٣٤٤ ، ٣٠٢	بغداد : ١٥٧ ، ٣٥ ، ٣٤ ، ٢٦
توبة بن عمر الحضرمي : ١٠٢ ، ١٠٠	١٧٨ ، ١٧١ ، ١٦٠ ، ١٥٩
٢٣٣ ، ١٠٨	٣٢٧ ، ٢١١
تونة : ٢٤٤ ، ٢٩٠ ، ٢٨٩ ، ٢٨٤	القط : ١٦ ، ١٥
٩١ ، ٨٨ : تونس	بليس : ٢٥١ ، ٢٥٠ ، ١٦٤ ، ١٦١
(ث)	٣١٢
ثابت بن يعقوب الجذامي : ١٣٩	بنيامين (أبو ميامين) : ١٨٥ - ١٨٥ ، ٧
ثورة وثورات : ٢٢ ، ١٠ ، ٣ ، ٢	الهنسا : ٣٤٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٤
٢٤٠ ، ٢٣٨ - ٢٣٤ ، ٧٦ ، ٥٢	بورة : ٣٤٤ ، ٢٩٢ ، ١٩٠
٣٤٣ ، ٢٥٦ - ٢٥٣ ، ٤٥١	بوصير (أبو بصير) : ١٤٧
٣٤٥	بوكوليا (البشمور أو البشروود) : ٣
	٢٣٨ - ٢٣٥ ، ١٤٦ - ١٤٤
	٣٤٥ ، ٣٤٤

١٥٦ ، ١٥٠ ، ١٤٧ ، ١٤٥
١٦٣ ، ١٦١ ، ١٦٠ ، ١٥٧
٢٣٨ - ٢٣٥ ، ١٦٨ ، ١٦٦
٢٣٨ ، ٢٣٧ ، ٢٤٩ ، ٢٤٠
٢٤٢
الجزيرة : ١٤٠ ، ١٤٥ - ١٤٧ ، ٢٤٨

(ح)

حاتم بن هرثمة بن أعين : ١٦٠ ، ١٦١ ،
١٩٣
الحجاز : ٣٦ ، ٥٢ ، ١١١ ، ١٣٠ ،
١٣١ ، ١٤١ ، ١٥٢ ، ٢٩١ ،
٣٠٢ ، ٣٠٥ ، ٣٠٩ ، ٣١١ ،
٣٢١
الحريز بن يوسف : ٢٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤
حران : ١٤١ ، ١٤٢
الحرس (أهل الحرس) : ٢٥٦ ، ٢٥٧
الحريز : ٢٧٩
حسان بن عتاهية : ١٣٨ ، ١٣٩
حسان بن النعمان الغساني : ٣١ ، ٨٣ ،
٨٤
الحسن بن التختاخ : ٧٧ ، ١٦٠
الحسين بن جميل : ٢٥٥
الحسين بن علي بن أبي طالب : ١٣٠
حفص بن الوليد : ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٨ ، ٧٦ ،
١٣٨ ، ١٤١ ، ١٩٦ ، ٢٣٣ ،
٢٣٥
حلوان : ٣٣ ، ١٩٠ ، ١٩٢ ، ٢٢٢ ،
٢٧٤ ، ٢٦٩
حصص : ١٣٩ ، ١٤٠
حميد بن قسطينة : ١٥١ ، ١٥٢

(ج)

جابر بن الأشعث التاطاني : ١٦١ ، ١٦٢
جابر بن الوليد المدلجي : ١٥٧ ، ١٥٨
الجالية : ٨
جامع ابن طولون : ٦٢
جامع العسكر : ٢٤٧ ، ٢٧٤
جامع عمرو بن العاص : ٢٠ ، ٦١ ، ٦٢
٧٧ ، ١٠٤ ، ١٢٢ ، ١٥٢ ،
٢٢٢ ، ٢٤٧ ، ٢٧٣ - ٢٧٦ ،
٣٢٨ ، ٣٥٠
جباية : ١٨ ، ٥٩ - ٦٤
الجروري (عبد العزيز بن الوزير) : ص
١٦٢ ، ١٦٤ - ١٧٠ ، ١٧٢ -
١٧٤ ، ٣٥٢
الجزيرة : ١٤٠ ، ١٤١
جزيرة الروضة : ٩٠ ، ٩١ ، ١٤٥ ،
١٤٦ ، ٢٠٢ ، ٢٦٩
الجزيرة : ١١ ، ١٢ ، ١٧ - ١٩ ، ٣٧ -
٤١ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٤
٥٥ ، ٥٩ ، ٦٨ ، ١٨٢ ، ٢٠٣ ،
٢٠٤ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ،
٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٦ ، ٢٢٩ -
٢٣٣ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٤١ ،
جسطال : ٢٩ ، ٦٤
الجل (موقفة) : ١٢٩
جند وجيش : ١٠ ، ١١ ، ١٣ ، ١٤ ،
١٦ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٧ ، ٣٢ ،
٤٧ ، ٥٠ ، ٥٣ ، ٥٧ ، ٧٠ -
٨٧ ، ١١٧ ، ١٢١ ، ١٢٢ ،
١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٣

(د)

داود بن يزيد بن حاتم : ٢٧ ، ١٠١ ،
ديق : ٢٨٥ ، ٣٤٤
دحية بن مصعب : ١٤٩ ، ١٥١ ،
دقلديانوس : ٣ ، ١٩٨ ، ٣٣٧
الدماحس بن عبد العزيز السكاني : ١٤٣ ،
دمشق : ٢٦ ، ٨٩ ، ١٢٤ ، ١٢٨ ،
٢٧٣ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٣١١ ،
دمياط : ٢٣ ، ٥٧ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٩٢ ،
١٨٦ ، ٢١٥ ، ٢٨٠ ، ٢٨٣ ،
٢٨٤ ، ٢٩٢ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ،
٣٤٤
دميرة : ٢٨٤ ، ٣٤٤
دقلة : ١٥
ديسقورس : ٤ - ٦

(ذ)

الذمة (أهل) : (أظن أيضا «قط»
و «يهود» و «مسيحيون») :
٣٨ ، ٤٩ ، ٥٦ ، ٩٩ ، ١٩٧ ،
٢٠٣ ، ٢١٥ ، ٢٢٦ ، ٢٣١ ،
ذو النون بن إبراهيم الاخيبي : ١٨٠ ،
٣٣٠
ذى الصواري : ٢٣ ، ٨٥ ، ٩٠ ، ٩٤ ،
١١٦

(ر)

رأس بناس (برينيسى) : ٣٠٠ ، ٣٠٨ ،
رباط : ٢٣ ، ٨٠ ، ٨٧

حنظلة بن صفوان السكبي : ١٤٠ ، ٢٣٥ ،
حوثرة بن سهيل الباهلي : ١٢٠ ، ١٤١ ،
٢٥٢

الحورة (ميناء) : ٣٠٠
الحوف : ١٤٠ ، ١٤٤ ، ١٤٩ ، ١٦١ ،
١٦٤ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ٢٥٠ ،
٢٥٥ - ٢٥٦
حيان بن سريج : ٢٣٠ ، ٢٣١

(خ)

خارجة بن حذافة : ٢٤ ، ١١٧ ، ١٢٩ ،
٣١٤

خالد بن يزيد الشيباني : ١٧٤
الخراج : ١٨ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٣٧ ،
٤٢ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٩ ، ٥٠ ،
٥٤ ، ٥٥ ، ٦١ ، ٦٤ ، ٧٦ ،
١٤٥ ، ١٤٨ ، ١٥٧ ، ١٦٠ ،
١٦١ ، ١٧٥ ، ٢١٧ ، ٢٢٠ ،
٢٢٢ ، ٢٢٤ ، ٢٢٧ ، ٢٣٠ ،
٢٣٢ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ،
٢٣٩ ، ٢٥٣ ، ٢٥٦ ، ٢٨٨ ،
٣٣٨ - ٣٤٠

خراسان : ١٣٦ ، ١٥٩ ، ١٦٥ ،
خرجا : ١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٢٧ ،
خزف : ٢٩٥
خشب : ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٣١٣ ،
خلفدونية : ٤ - ٦
الخوارج : ١٢٢ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٤ ،
١٣٥ ، ١٣٨ ، ١٤١ ، ١٥٠ ،
خير بن نعيم : ٩٩ ، ١٠٣

(س)

السائب بن كنانة بن هشام العاصمي : ١٣٢ ،
١٣٣
ساحرا : ١٥٧
سيبلة : ٨١
سحبا : ١٧٣ ، ٢٣٦
سرج القول : ٢٦١
السري بن الحكم : ١٦١ ، ١٦٣ -
١٦٦ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ،
٣٥٢

سعيد بن يزيد : ١٣١ ، ١٣٢
السفاح (أبو العباس) : ١٣٧
سفن ومهاكب : (انظر أسطول)
السكة : (انظر قهود)
سلمت : ١٢٣
سليم بن عتر التيجي : ١٠٠ ، ١٠١ ،
١٠٦

سليمان بن عبد الملك : ١٠١ ، ٢١٦ ،
٢٢٩ ، ٢٦٩
سنود : ٢٣٥ ، ٢٣٦
سوسة Hadrumetum : ٨٢

(ش)

الشافعي (الإمام) : ١٥٥ ، ١٨٠ ، ٢٦١ ،
٢٦٥ ، ٣١٨ ، ٣٢١ ، ٣٢٤ ،
٣٢٧
الشام - (سورية وفلسطين) : ٨ - ١٠ ،
٣١ ، ٣٢ ، ٣٥ ، ٤٤ ، ٤٧ ، ٨٧ ،
٨٨ ، ٩٣ ، ١١١ ، ١٢٠ - ١٢٢

الربيع بن سليمان : ٣٢٧

الرزق ودار الرزق : ٤٤ ، ٥٠ ، ٧٥ -
٧٨ ، ٨٧ ، ٩٣ ، ١٠٦

رشيد : ٥٧ ، ٢٣٥

الربيق : ١٦ ، ٣١٢ ، ٣١٣

الروم (البيزنطيون) : ٩ ، ١١ - ١٤ ،
١٦ ، ١٨ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٢٨ ،
٤٤ ، ٥٠ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٧ ،
٥٩ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٨١ - ٩٠ ،
٩٣ ، ٩٧ ، ١١٦ ، ١٢٨ ، ١٤٢ ،
١٧٨ ، ١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٨٩ ،
٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٤٥ ،
٢٨٦ ، ٣٠٧ ، ٣٣٤ - ٣٣٦ ،
روما : ١ ، ١٩ ، ٢٦ ، ٥١ ، ٢٨٠ ،
الرومان : ١ ، ٢٠ ، ٣٨ ، ٤٨ ، ٥٠ ،
٥٧ ، ٥٩ ، ٩٧ ، ٣٠٠

(ز)

الزاب : ١٣٧ ، ١٤٩ ، ١٤٢

زامل بن عمرو : ١٣٩

الزبير بن العوام : ١١ ، ١٨ ، ٤٤ ،
٣١٤

زجاج : ٢٩٥

زراعة وزراع : ٣ ، ١٠ ، ٤٧ ، ٥٠ ،
٥١ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٧١ -

٧٢ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٥٠ ، ٢٥١ ،

٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٨ ، ٢٦٣ -

٢٧١ ، ٢٧٣ ، ٣٤٨

الزكاة : ٣٧ ، ٤١ ، ٥٤

زهير بن قيس البلوي : ٨٣ ، ١٣٣

(ط)

طاهر بن الحسين : ١٦١ ، ١٧٠
طرابلس : ١٥ ، ٢٣ ، ٨١
طراز : ٢٨٦ - ٢٨٨
طليب بن كامل اللخمي : ٣٢٣
طنجة : ٨٣

(ع)

عابس من عميد المرادي : ٢٤
عباد بن محمد : ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٦
العباس بن موسى : ١٦٣ ، ١٦٤
العباسيون والدولة العباسية : ٢٣ ، ٢٦ ،
٣٢ ، ٣٤ ، ٩٢ ، ٦٧ ، ٧٤ ،
٧٦ ، ٩٢ ، ١٣٥ - ١٣٩ ، ١٤١ ،
١٤٢ ، ١٤٤ ، ١٤٥ - ١٤٨ ،
١٤٩ - ١٥٤ ، ١٥٧ ، ١٧١ ،
١٧٧ ، ١٩٠ ، ٢٢١ ، ٢٣٦ ،
٢٤٩ ، ٢٥٤ ، ٢٦٢ ، ٢٧٤ ،
٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٦ ، ٣٤٣

عبد الرحمن بن يحيى : ١٣٤
عبد الرحمن بن حنيفة الأكبر : ١٠٠ ،
١٠١ ، ١٠٦
عبد الرحمن بن سالم الجيشاني : ١٠٦
عبد الرحمن بن عبد الله العمري : ١٠٤ ،
١٠٧ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧
عبد الرحمن بن عتبة بن حدم النهدي :
١٣٢ ، ١٣٣

١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٣٠ ، ١٣٩ ،
١٤٧ ، ١٥٠ ، ١٦٠ ، ١٧٥ ،
٢٠٦ ، ٢٥٥ ، ٢٧٩ ، ٢٨١ ،
٣٠١ ، ٣٠٢
شاهد قبر : ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٣١٩
الشرط (تياب) : ٢٨٢ ، ٢٨٣
الشرطة وصاحب الشرطة : ٢٣ - ٢٦ ،
١٤١ ، ١٦٣
شطا : ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٩١ ، ٣٤٤
شطونف : ١٦٥
الشيمة والعلويون : ١٠٩ ، ١٣١ ، ١٣٤ ،
١٥٦ ، ١٧١ ، ٣٢٨

(ص)

صالح بن عبد الله العباسي : ٣٢ ، ١٤٤ ،
١٤٧ ، ١٤٨
الصناعة والصناع : ٣٠ ، ٥٥ ، ٧٥ ،
٢٥٨ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٨ -
٢٩٧
الصوف : ٢٨٢ ، ٢٨٤ ، ٢٨٨
الصوفية : ١٦٨

(ض)

ضرائب : ١٠ ، ١٨ ، ١٩ ، ٣٠ ، ٣٧ ،
٣٩ ، ٤١ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٨ -
٥٠ ، ٥٢ ، ٥٤ - ٦٤ ، ٦٨ ، ٧٥ ،
٢١٦ ، ٢٢٣ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨ ،
٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٤٠ ، ٣٣٨ -
٣٤٠

- عبد الله بن لهيعة : ١٠٠ ، ٨٠ ، ٧٦ ، ١٠١ ، ١٠٦ ، ١٠٨ ، ١٩٣ ، ٣٣٠ ، ٣٢٦ ، ٣١٨
- عبد الله بن وهب بن مسلم : ٣٢٤ ، ٣٢٢ ، ١٤١ ، ١٠٥ ، ٢٣٣ ، ٢٢ ، ٢٥٠ ، عبد الملك بن رقاعة : ٢٢٢ ، عبد الملك بن محمد الجزبي (أبو الطاهر) : ١٠٦ ، ١٠٣ ، ٢٧
- عبد الملك بن مروان : ٥٢ ، ٢٦ ، ٢٤ ، ٦٥ - ٦٧ ، ٨١ ، ٨٣ ، ٩١ ، ١٣١ ، ٢٢١ ، ٢١٥ ، ٢٠٠ ، ١٣١ ، ٢٢٤ ، ٢٢٢
- عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير : ٢٣٥ ، ١٤٥ ، ١٤١
- عبيد الله بن الحجاب : ١٩٧ ، ٢٢ ، ٢١ ، ٢٣٢ ، ٢٤٩ ، ٢٥٣ ، ٢٩٥
- عبيد الله بن السري : ١٧٦ - ١٧٤ ، عتبة بن أبي سفيان : ٨٠ ، ٢٣ ، ٢١ ، ١٠١
- عثمان بن الحكم : ٣٢٣ ، عثمان بن عفان : ٢١ ، ١٦ ، ١٥ ، ٩ ، ٥٢ ، ٨٢ ، ٨١ ، ٧٦ ، ٦٥ ، ٨٩ ، ١٢٠ - ١١٠ ، ٩٤ ، ٩٠ ، ٨٩ ، ١٢٨ - ١٢٦ ، ١٢٤ ، ١٥٠ ، ٢٧٤ ، ٢٤٦ ، ٢١٧ ، ٣١١ ، ٢٩٠
- المعراق : ١٥٥ ، ١٣٧ ، ١٣١ ، ١٣٠ ، ٣٢١ ، ١٥٧
- المريش : ٣١٢ ، ١٧٥ ، ١٤٠
- عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم : ٣٢٥
- عبد الرحمن بن القاسم : ٣٢٩ ، ٣٢٣
- عبد الرحيم بن خالد بن يزيد : ٣٢٢ ، ٣٢٣
- عبد العزيز بن عمران : ٣٢٧
- عبد العزيز بن مروان : ٣١ ، ٢٤ ، ٢٠ ، ٣٣ ، ٧٣ ، ٨٣ ، ٩١ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٣٢ - ١٣٤ ، ١٩٠ - ١٩٢ ، ٢٢١ ، ١٩٩ ، ٢٢٤ ، ٢٣١ ، ٢٤٩ ، ٢٤٦ ، ٢٣١ ، ٢٧٤ - ٢٧٦ ، ٣١٧ ، ٣٤٩
- عبد الله بن أحمد بن محمد بن اسماعيل (ابن الأرقط) : ١٥٨
- عبد الله بن الزبير : ١٢٩ ، ٨٣ ، ٦٦ ، ١٣٥ ، ٢٢٢ ، ٣١٦
- عبد الله بن سبأ (ابن السوداء) : ١١١ ، ١١٦ - ١١٣
- عبد الله بن سعد بن أبي سرح : ١٥ ، ١٦ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٢٨ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٧ - ٨٩ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ١١٣ ، ١١٦ ، ١١٩ ، ١١٧ ، ٢٥٣ ، ٢٤٦ ، ٢١٧ ، ٣٤٥ ، ٣١٤ ، ٢٧٤
- عبد الله بن طاهر بن الحسين : ١٧٥ ، ١٧٦
- عبد الله بن عبد الحكم : ٣٢٥ ، ٣٢٤
- عبد الله بن عبد الملك : ٢٠٠ ، ٨٥ ، ٢٧٤ ، ٢٢٧ ، ٢٢٥ ، ٢٧٥ -
- عبد الله بن عمرو بن العاص : ٤٤ ، ٣٨ ، ٤٩ ، ٧٣ ، ٨٢ ، ١٢٩ ، ٢٦٣ ، ٣١٦ - ٣١٤

٢٣٠ - ٢٣٢ ، ٢٧٩ ، ٣٠٦ ،
 ٣٠٧ ، ٣١٧ ، ٣٣٦ ،
 عمرو بن العاص : ٨ - ١٢ ، ١٤ - ١٨ ،
 ٢٠ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٨ ،
 ٣١ ، ٣٢ ، ٤٠ ، ٤٤ ، ٤٦ ،
 ٥٠ ، ٥١ ، ٥٥ ، ٧٠ ، ٨٠ ،
 ٨١ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٧ ،
 ٩٧ ، ١٠١ ، ١١٧ ، ١٢١ ،
 ١٢٢ ، ١٢٧ - ١٢٩ ،
 ١٨٥ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٢ ،
 ١٩٤ ، ١٩٥ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ،
 - ٢١٦ ، ٢٢٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٧ ،
 ٢٤٨ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٧ ،
 ٢٦٨ ، ٢٧٥ ، ٣٠٤ ، ٣٠٦ ،
 ٣١٢ ، ٣١٤ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ،
 عمرو بن سهيل بن عبد العزيز بن مروان :
 ١٤٣
 عمير بن الوليد : ٢٥٥
 عنبسة بن اسحاق : ٣٣ ، ٨٦ ، ٩٣
 عياض بن عبيد الله الأزدي : ١٠٤
 عيد وأعياد : ١٩٣ - ١٩٦
 عيدآب : ٥٧ ، ٣٠٩ ، ٣١٢
 عيسى بن أبي عطاء : ١٣٨ ، ١٣٩
 عيسى بن منصور : ٢٣٧ ، ٢٣٨
 عيسى بن المنكدر : ١٠٣ ، ١٠٧ ، ٣٢٧
 عيسى بن يزيد : ٢٥٥
 عين شمس : ١٢٣ ، ١٣٣
 (غ)

غزة : ١٤٥

عاصمة بن عمرو : ١٤٩ ، ١٥٢
 السكر (مدينة) : ٢٣ ، ٢٤٧
 العطاء : ٢٣ ، ٣٢ ، ٤٧ ، ٥٠ ، ٧٤
 ٧٥ - ٧٨ ، ٧٩ ، ١٢٤ ، ١٢٩ ،
 ٣٤٢ ، ٣٥٧ ، ٣٥٦ ، ٣٧٢
 عقبة بن عاصم الجهني : ١٠١
 عقبة بن نافع الفهري : ٨١ - ٨٣
 الملوون : (انظر الشيعة)
 على الرضا : ١٧١ ، ١٧٢
 على بن أبي طالب : ٨٢ ، ١١١ ، ١١٥ ،
 ١٢٠ - ١٢٩
 على بن سبجان بن علي بن عبد الله العباسي :
 ١٥٤ ، ٢٠٩
 على بن عبد العزيز الجروي : ١٧٤ ،
 ١٧٥
 على بن محمد بن عبد الله (ابن النفس الزكية) :
 ١٥١ ، ١٥٢
 العارة : ٢٧٣ - ٢٧٩ ، ٣١٣
 عمر بن الخطاب : ٨ ، ١١ - ١٣ ، ١٥ ،
 ٢٨ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٥ - ٤٧ ، ٥١ ،
 ٥٣ ، ٦٥ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٨٠ ،
 ٨٧ ، ٨٩ ، ٩٤ ، ٩٩ ، ١١٠ ،
 ١١٢ ، ١٨٥ ، ١٩٥ ، ٢٠٥ -
 ٢١٢ ، ٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٤١ ،
 ٢٤٢ ، ٢٤٦ ، ٢٤٨ ، ٢٦٣ ،
 ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٧٥ ، ٢٩٠ ،
 ٣٠٢ ، ٣٠٤ - ٣٠٦ ، ٣١٦ ،
 ٣٣١ ، ٣٤٦
 عمر بن عبد العزيز : ٥٦ ، ٧٦ ، ١٠١ ،
 ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٨١ ، ٢٠٠ ،
 ٢٠١ ، ٢٠٩ - ٢١٢ ، ٢١٧ ،

١٤٦ ، ١٤٣ ، ١١٠ ، ٩١ ، ٨٨
 ، ١٨٩ - ١٨٢ ، ١٧٣ ، ١٤٨
 ، ٢٠٨ ، ٢٠٥ ، ٢٠٢ - ١٩٦
 ، ٢١٧ - ٢١٥ ، ٢١٢ ، ٢٠٨
 - ٢٣٤ ، ٢٣٢ ، ٢٢٤ ، ٢٢٢
 ، ٢٧٣ ، ٢٦٠ - ٢٥٨ ، ٢٤٠
 ، ٢٩٥ - ٢٩٢ ، ٢٨٠ - ٢٧٧
 ، ٣٤٦ ، ٣٤٣ ، ٣٤٠ ، ٣٣٦
 ٣٥١ ، ٣٤٧

قرة بن شريك : ٢٩ ، ٢٣ ، ٣٠ ، ٣٨ ،
 ٧٣ ، ٦٠ ، ٥٩ ، ٥٧ ، ٤٩ ، ٣٩
 ١٩٦ ، ١٣٥ ، ١٣٤ ، ٩٢ ، ٨٥
 - ٢٧٤ ، ٢٧٠ ، ٢٢٨ - ٢٢٥
 ٢٧٨ ، ٢٧٦

قريش : ١٣٥

القسطينية : ٤ - ٦ ، ١٠ ، ٨٩ ، ١٣٠ ،
 ٣٠٧

قصب السكر : ٢٦٥ ، ٢٦٦

القصور : ٣٠٠ ، ٣٠٨

القضاء : ٣١ ، ٩٩ ، ١٠٦ ، ٣٣٧

قطن : ٢٦٦ ، ٢٧٩ ، ٢٨٤

قنط : Coptos : ٩

القنزم : ٩ ، ٩١ ، ١٢٥ ، ١٧٤

٣٠٠ - ٣٠٢ ، ٣٠٦ - ٣٠٨

٣١٩

القمح : ١ ، ١٦ ، ٤٤ ، ٤٩ - ٥٢

٧٦ ، ٧٧ ، ١٧٣ ، ٢٦٥

٢٦٦ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٩١

٣٠٥ ، ٣١٢ ، ٣١٣

قنسرين : ١٤٠

قنسطازر الثاني (قنطنطين بن هرقل) :

١٦ ، ٤٤ ، ٨٥ ، ٩٥

(ف)

الفرس (الابرايون) : ٦ ، ٧ ، ٣٣ ،

٧٤ ، ١٥٧ ، ١٦١ ، ١٧١

٢٤٥ ، ٢٥٧ ، ٣٤٣

الفرما (بلوزيم) : ١١ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ،

١٦٥ ، ١٧٥ ، ٣٠٦ - ٣٠٨

٣١٢

القساط : ٢٣ ، ٣٣ ، ٥٦ ، ٦١ ، ٧٣ ،

١٠٤ ، ١١٧ ، ١٢٢ ، ١٣٢ ،

١٣٣ ، ١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٤١ ،

١٤٣ ، ١٤٥ - ١٤٧ ، ١٥٠ ،

١٥١ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٨ ،

١٦٢ - ١٦٤ ، ١٧٠ ، ١٧٢ ،

١٧٤ ، ١٧٦ ، ١٨٩ ، ٢٠٩ ،

٢٢٦ ، ٢٤١ - ٢٤٨ ، ٢٥٤ ،

٢٥٥ ، ٢٥٨ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ،

٢٩٤ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣٤٤ ،

٣٤٧ ، ٣٥٢

الفضل بن صالح بن علي العباسي : ١٥٠ ، ٢٥٤ ،

الفضل بن عامر : ١٠٦

فنون : ٢٧٢ - ٢٩٨ ، ٣٤٢

القيوم : ١٤٧ ، ١٨٩ ، ٢٦٦ ، ٢٩١ ،

٣٤٤

(ق)

قباطي : ٧٨٠ ، ٢٩٠ ، ٢٩١

قبالة وقيال : ٦١ - ٦٣ ، ١٥٦

القبط : ٣ ، ٥ ، ٧ ، ١٠ ، ١٢ ، ٣٧ ، ٣٨ ،

٤٠ ، ٤١ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٦١ ،

(ل)

ليتورجيا (التزامات) : ٣٤١ ، ٣٤٠
الليث بن سعد : ١٩٣ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ،
٣٣٠ ، ٣٢٩ ، ٣٢٦
الليث بن الفضل : ٦٤ ، ١٦١ ، ٢٥٤
لمبعة بن عيسى : ١٠٧

(م)

مارتينه (الأمباطورة) : ١٣ ، ١٤
مازوت وموازيت : ٢٩ ، ٢٠١
مالك (الإمام) : ١٠٥ ، ١٨٠ ، ٢١٠ ،
٣١٨ ، ٣٢٦ ، ٣٢٩ ،
٣٣٠
المأمون : ٢٤ ، ٣٥ ، ٨٦ ، ١٥٩ ،
١٦٦ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ،
١٧٦ ، ١٧٨ ، ١٩٠ ، ١٩٣ ،
٢٠٤ ، ٢٣٧ ، ٢٣٩ ، ٢٥٣ ،
٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ،
٢٧٩ ، ٢٧٧ ، ٢٨٩ ، ٢٩١ ،
٢٩٧ ، ٣٤٥ ، ٣٥٢
التوكل : ٢٧ ، ٣٦ ، ٦٣ ، ١٥٥ ،
١٥٦ ، ١٥٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ،
٢٠٢ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢٣٩ ،
٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٦٩ ، ٣٣٠
مجاجات : ٣٤٤ ، ٣٤٥
محموظ بن سليمان : ٦٤
محمد بن أبي بكر : ١١٩ ، ١٢٢ ، ١٢٦ ،
١٢٨
محمد بن أبي خديفة : ١١٧ ، ١١٨ ، ١٢٢ ،
١٢٤

قيس (المقوقس) : ٧٠ ، ١٤ ، ١٢ ، ٤٧ ،
١٨٤ ، ١٨٥ ، ٢١٩
القيروان : ٨١ - ٨٣
القيس : ٢٨٤ ، ٢٨٥
قيس بن أبي العاص : ٩٩
قيس بن سعد : ١٢٤ - ١٢٦
القيس (القيسيون) : ١٣٧ - ١٣٩ ،
١٤٣ ، ١٤٩ ، ١٦٢ ، ٢٤٩ -
٢٥٥ ، ٢٥٢

(ك)

كتان : ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٧٩ - ٢٨٤ ،
٣١٣
كسيلة : ٨٣
كنائس . ٣ - ٦ ، ١٤ ، ٤١ ،
٤٦ ، ١٨ ، ١٩ - ١٩٣ ،
١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٠٠ - ٢٠٩ ،
٢١١ - ٢٣ ، ٢٣٢ ،
٢٥٩ ، ٢٧٦ - ٢٧٨
كورة وصاحب الكورة : ٢٣ ، ٢٨ -
٣٠ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٩ ، ٦٠ ،
٦١ ، ٧٥ ، ١٤٥ ، ١٤٧ ، ٢٢٢
الكوفة : ١٣٧
كرم اشقاو (كوم اشقوه) : ٢٣ ، ٢٩ ،
٣٠ ، ٣٨ ، ٤٩ ، ٥٧ ، ٥٩ ،
٦٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ ،
٢٧٨
كيدر نصر بن عبد الله : ٣٥ ، ٧٤ ،
١٧٨ ، ١٧٩ ، ٢٥٧

- مصر السفلى (أسفل الأرض أو الوجه
البحري): ١٦٦، ٣٧، ٢٨، ٣٨،
١٤٥، ١٥٧، ١٧٤، ١٧٥،
١٩٠، ٢٣٤، ٣٣٥، ٢٤٠،
٣٣٨، ٢٤٣
- مصر العليا (الصعيد): ٩، ١٠، ١٩، ٢٨،
٣٧، ٣٨، ١٢٢، ١٤٤، ١٤٩،
١٥٨، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٧،
١٩٠، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٤٣،
٣٣٨، ٢٨٤
- المصرية: (انظر القيسية)
المطلب بن عبد الحزاعي: ١٦٣-١٦٦
مظفر بن كيدر: ٢٥٧
معادن: ٢٩٥، ٢٩٦، ٣١٣،
معاوية بن سفيان: ٢١، ٢٦، ٣٢،
٥٢، ٦٦، ٧٤، ٨١، ٨٢،
٨٧-٨٩، ٩١، ٩٤، ١٠٠،
١١٩-١٣٠، ١٩٨، ٢١٧،
٢٤٩، ٢٦٩، ٢٧٥، ٢٨٨،
٢٩٠
- معاوية الثاني (ابن يزيد): ١٣٠
معاوية بن حديج: ٨٢، ١١٧، ١٢٢،
١٢٣، ١٢٥-١٢٨
- المتنصم: ٢٣-٣٥، ٧٤، ١٥٧،
١٧٨، ١٧٩، ٢٣٧، ٢٣٩،
٢٥٥-٢٥٨، ٢٩٧، ٣٥٢
- المغرب: ١٥، ٣١، ٣٢، ٣٥، ٨١،
٨٣، ١١٦، ١١٧، ١٥٣،
١٥٤، ٣٠١، ٣٠٢، ٣١٢،
٣٢٨، ٣٢٩
- المغيرة بن شعبة: ٩
- محمد بن أبي الليث: ١٧٩، ١٨٠،
٣٢٧
محمد بن الأشعث: ٦٢، ٦٣
محمد بن عبد الله بن الحسن (النفس الزكية):
١٥١، ١٥٢، ٣٠٥
محمد بن عبد الله بن عبد الحكم: ٣٢٥،
٣٢٧
محمد بن مسروق الكندي: ٩٩، ١٠٧،
الحنطة (بخلق القرآن): ١٧٧-١٨١،
٣٢٧
المدينة المنورة: ٩، ٣٦، ٥٢، ١٠٦،
١١٣، ١١٩، ١٢٠، ١٢٢،
١٢٣، ١٥١، ١٥٨، ٣٠٤،
٣٢١
مذاهب: ١٠٥، ١٠٦، ٣٢٠-٣٢٨،
سرو: ١٥٩
سروان بن الحكم: ١١٩، ١٣٠-
١٣٣، ٢٤٩، ٢٧٤، ٢٨٥،
٣١٦
سروان بن محمد: ٧٧، ٧٩، ١٣٦-
١٤٨، ٢٠٢، ٢٣٥، ٢٥٢،
٢٧٦، ٢٨٥، ٢٩٧
مزاجم بن خافان: ٢٥، ١٥٧
مسألة: ١٥٠
مسلمة بن مخلد: ٣٧، ٣٣، ٨٢، ٨٥،
١٠١، ١١٨، ١٢٥، ١٩٢،
٢٠٩، ٢٧٥، ٣١٤
السناء: ١٢٨
السيحية والسيحيون: ٣-٦، ١٤،
١٨٣، ١٨٤، ١٩٠، ١٩٧-
٢٠٠، ٢٢٣، ٢٣٢، ٢٣٦،
٣١٧، ٣٤٠، ٣٤٩، ٣٥٠

نفيسة (السيدة) : ١٥٤ ، ١٥٥
النقود (السكة) : ٦٥ ، ٦٩ ، ٣٥
٢٩٧ ، ٢٩٦
النوبة : ١٥ - ١٨ ، ٢٣ ، ٨٠ ، ١١٦
النيل (جسور) : ٢٦٧ ، ٢٦٨
النيل (مقاييس) : ٢٦٨ ، ٢٦٩

(هـ)

المادى : ١٥١ ، ١٥٣ ، ٢٠٩
هاشم بن أبي بكر البكري : ٢٥٦ ، ٢٥٧
هرثمة بن أعين : ١٦١ ، ١٦٢ ، ٢٥٤
هرثمة بن الضمر الجبلي : ١٨٠
هرقل : ٦ ، ١٢ ، ١٨٤ ، ١٨٨ ، ١٩٩
هرون الرشيد : ٣٤ ، ٣٥ ، ٦٤ ، ١٠١ ،
١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ،
١٩٧ ، ٢٠٥ ، ٢٠٩ ، ٢١١ -
٢١٣ ، ٢١٧ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ،
٢٨٩ - ٢٩١ ، ٣٠٦ ، ٣٣٦
هرون بن عبد الزهري : ١٧٨ ، ١٧٩
هشام بن عبد الملك : ٢١ ، ٢٢ ، ٢٤ ،
٧٤ ، ٨٦ ، ١٠٠ ، ١٠٣ ، ١٠٥ -
١٣٧ ، ١٩٣ ، ١٩٧ ، ٢٣٢ -
٢٣٤ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٧١

(و)

الواثق : ٣٦ ، ١٧٨ - ١٨٠ ، ٢٣٩ ،
٣٢٧
واضح بن عبد الله المنصورى : ١٥٤

المغيرة بن عبد الملك الفزاري : ١٤١
الفضل بن فضالة : ١٠١ ، ١٠٧ ، ٢٠٩ ،
٢١٠

المفوقس : (انظر قيرس)
مكة : ٣٦ ، ٦٦ ، ١٥١ ، ١٦٤ ، ١٧٤ ،
٣٠٤ ، ٣٠٩

مكتبة الاسكندرية (حريق) : ٣٣٠ -
٣٣٥

المكس والمكوس : ٥٥ - ٥٧
ملكانيين : ١٨٤ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ،
المنصور (ابن الخليفة التوكل) : ١٥٥ ،
١٥٦

المنصور (الخليفة العباسى) : ٢٧ ، ٣٢ ،
٥٢ ، ٦٢ ، ١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٥١ ،
١٥٢ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦

منية الأصمغ : ٥٣
المهاجر بن أبي المنى التجيبى : ١٣٥
المهدى (الخليفة العباسى) : ١٠٢ ، ١٤٩ ،
١٥٢ ، ١٥٤ ، ٢٥٤ ، ٢٨٨ ،
٢٩٠ ، ٣٢٦ ، ٣٤٣

موسى بن علي بن رباح : ٢٣٦
موسى بن عيسى : ١٩٣
موسى بن مصعب الخنصى : ٥٨ ، ١٤٩ ،
٢٥٤ ، ٣٤٣

موسى بن نصير : ٣٢ ، ٨٤

(ن)

نسخ : ٢٧٩ ، ٢٩١ ، ٣٤١ ، ٣٤٤

- | | |
|----------------------------------------------------------------------------------------------|----------------------------------------------------------------------------------------------|
| يزيد بن عبد الله التركي : ٣٣ ، ١٥٥ -
١٥٧ ، ٢٠٢ | وردان : ١٨ ، ٢١ ، ٨٥
ورق : ٢٩١ - ٢٩٣ |
| يزيد بن عبد الملك : ٧٤ ، ٧٦ ، ٢٠١ ،
٢٣٢ ، ٢٠٢ | وقف : ٤٨ ، ٧٩ ، ١٠٨
الوليد بن رفاعه : ٢٢ ، ١٠٠ ، ٢٣٤ ،
٢٥٠ ، ٢٤٩ |
| يزيد بن مسروق الحضرمي : ١٤٠
يزيد بن معاوية : ٥٢ ، ٨٣ ، ١٣٠ ،
١٣١ ، ١٩٧ | الوليد بن عبد الملك : ٢٩ ، ٨١ ، ٨٤ ،
٨٥ ، ٩١ ، ١٣٤ ، ٢٠٠ ، ٢٢٤ ،
٢٧٥ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ |
| يعاقبة : (انظر ارتودكس)
العين : ١٣٠ ، ١٥٣ ، ٣٠٢ | الوليد بن يزيد بن عبد الملك : ١٣٧ |
| اليمينية (اليمانية ، اليمينوت) : ١٣٧ -
١٣٩ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٩ ،
٢٤٩ ، ٢٥٣ ، ٢٥٥ ، ٢٧٢ | (ي) |
| اليهود : ١٤ ، ٢٤ ، ١٦٩ ، ١٨٤ ،
٢١٠ ، ٢٧٧ ، ٣٠٢ ، ٣٤٢ | يزيد بن حاتم : ٣٢ ، ١٥٢ ، ٢٣٦
يزيد بن حبيب : ٣١٧ ، ٣١٨
يزيد بن خطاب السكلي : ١٦٤ ، ١٦٥ |
| يوسف يحيى البوطلي : ١٨٠ ، ٣٢٧ | |

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

صدر في هذه السلسلة

- ١ - مصطفى كامل في محكمة التاريخ
د . عبد العظيم رمضان
- ٢ - على ماهر
إعداد : رشوان محمود جاب الله
- ٣ - ثورة يوليو والطبقة العاملة
إعداد : عبد السلام عبد الحليم عامر
- ٤ - التيارات الفكرية في مصر المعاصرة
د . محمد نعمان جلال
- ٥ - غارات أوروبا على الشواطئ المصرية في العصور الوسطى
عليه عبد السميع
- ٦ - هؤلاء الرجال من مصر ج١
لمعى المطيعى
- ٧ - صلاح الدين الأيوبي
د . عبد المنعم ماجد
- ٨ - رؤية الجبرتي لأزمة الحياة الفكرية
د . على بركات
- ٩ - صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل
د . محمد أنيس

- ١٠ - توفيق دياب ملحمة الصحافة الحزبية
محمود فوزى
- ١١ - مائة شخصية مصرية وشخصية
شكرى القاضى
- ١٢ - هدى شعراوى وعصر التنوير
د . نبيل راغب
- ١٤ - مصر فى عصر الولاة
د . سيدة إسماعيل كاشف
- ١٥ - المستشرقون والتاريخ الإسلامى
د . على حسنى الخربوطلى
- ١٦ - فصول من تاريخ حركة الإصلاح الاجتماعى فى مصر
د . حلمى أحمد شابى
- ١٧ - القضاء الشرعى فى مصر فى العصر العثمانى
د . محمد نور فرحات
- ١٨ - الجوارى فى مجتمع القاهرة المملوكية
د . على السيد محمود
- ١٩ - مصر القديمة وقصة توحيد القطرين
د . أحمد محمود صابون
- ٢٠ - المراسلات السرية بين سعد زغلول وعبدالرحمن فهمى
د . محمد أنيس
- ٢١ - التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى ج١
توفيق الطويل
- ٢٢ - نظرات فى تاريخ مصر
جمال بدوى

- ٢٣ - التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى ج٢
توفيق الطويل
- ٢٤ - الصحافة الوفدية
د . نجوى كامل
- ٢٥ - المجتمع الإسلامى والغرب
تأليف: هاملتون جب وهارولد بووين
ترجمة : د . أحمد عبد الرحيم مصطفى
- ٢٦ - تاريخ الفكر التربوى فى مصر الحديثة
د . سعيد إسماعيل على
- ٢٧ - فتح العرب لمصر ج١
تأليف : ألفرد بتلر
ترجمة : محمد فريد أبو حديد
- ٢٨ - فتح العرب لمصر ج٢
تأليف : ألفرد بتلر
ترجمة : محمد فريد أبو حديد
- ٢٩ - مصر فى عهد الاخشيديين
د . سيدة إسماعيل كاشف
- ٣٠ - الموظفون فى مصر فى عهد محمد على
د . حلمى أحمد شلبى
- ٣١ - خمسون شخصية وشخصية
شكرى القاضى
- ٣٢ - هؤلاء الرجال من مصر ج٢
لمعى المطيعى

- ٣٣- مصر وقضايا الجنوب الأفريقي
د . خالد الكومى
- ٣٤- تاريخ العلاقات المصرية المغربية
د . يونان لبيب رزق
- ٣٥- اعلام الموسيقى المصرية عبر ١٥٠ سنة
عبدالحميد توفيق زكى
- ٣٦- المجتمع الإسلامى والغرب جـ ٢
تأليف : هاملتون جب وهارولد بووين
ترجمة : د. أحمد عبدالرحيم مصطفى
- ٣٧- الشيخ على يوسف
تأليف : د . سليمان صالح
- ٣٨- فصول من تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى فى العصر العثمانى
د . عبدالرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم
- ٣٩- قصة احتلال محمد على لليونان
د . جميل عبيد
- ٤٠- الأسلحة الفاسدة ودورها فى حرب ١٩٤٨
د . عبدالمنعم الدسوقى الجمعى
- ٤١- محمد فريد الموقف والمأساة
د . رفعت السعيد
- ٤٢- تكوين مصر عبر العصور
محمد شفيق غريال
- رحلة فى عقول مصرية
إبراهيم عبد العزيز

- ٤٤ - الأوقاف والحياة الاقتصادية في مصر في العصر العثماني
د . محمد عفيفي
- ٤٥ - الحروب الصليبية ج ١
تأليف : وليم الصوري
ترجمة : د . حسن حبشي
- ٤٦ - تاريخ العلاقات المصرية الأمريكية ١٩٣٦ : ١٩٥٧
د . عبدالرؤوف أحمد عمرو
- ٤٧ - تاريخ القضاء المصري الحديث
د . لطيفة محمد سالم
- ٤٨ - الفلاح المصري
د . زبيدة عطا
- ٤٩ - العلاقات المصرية الإسرائيلية
د . عبد العظيم رمضان
- ٥٠ - الصحافة المصرية والقضايا الوطنية
د . سهير. أسكندر
- ٥١ - تاريخ المدارس في مصر الإسلامية
اعداد : د . عبد العظيم رمضان
- ٥٢ - مصر في كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين في القرن الثامن عشر
تأليف : د . إلهام محمد على ذهني
- ٥٣ - أربعة مؤرخين وأربعة مؤلفات من دولة المماليك
د . محمد كمال الدين عز الدين على
- ٥٤ - الأقباط في مصر في العصر العثماني
د . محمد عفيفي

- ٥٥ - الحروب الصليبية ج٢
تأليف : وليم الصورى
ترجمة وتحقيق : د . حسن حبشى
- ٥٦ - المجتمع الريفى فى عصر محمد على
د . حلمى أحمد شلبى
- ٥٧ - مصر الإسلامية وأهل الذمة
د . سيدة إسماعيل كاشف
- ٥٨ - أحمد حلمى سجين الحرية والصحافة
د . إبراهيم عبدالله المسلمى
- ٥٩ - الرأسمالية الصناعية فى مصر
د . عبد السلام عبداللطيم عامر
- ٦٠ - المعاصرون من رواد الموسيقى العربية
عبد الحميد توفيق زكى
- ٦١ - تاريخ الاسكندرية
د . عبد العظيم رمضان
- ٦٢ - هؤلاء الرجال من مصر ج٣
لمعى المطيعى
- ٦٣ - موسوعة تاريخ مصر عبر العصور
إعداد : د . عبد العظيم رمضان
- ٦٤ - مصر وحقوق الإنسان
د . محمد نعمان جلال
- ٦٥ - موقف الصحافة المصرية من الصهيونية
د . سهام نصار

- ٦٦ - المرأة في مصر في العصر الفاطمي
د . نريمان عبد الكريم أحمد
- ٦٧ - الأصول التاريخية لمساعي السلام العربية الإسرائيلية
د . عبد العظيم رمضان
- ٦٨ - الحروب الصليبية ج٣
تأليف : وليم الصوري
ترجمة وتحقيق : د . حسن حبشى
- ٦٩ - نبوية موسى ودورها في الحياة المصرية
د . محمد أبو الأسعاد
- ٧٠ - أهل الذمة في الإسلام
تأليف : أ.س. تريتون
ترجمة : د. حسن حبشى
- ٧١ - مذكرات اللورد كليرن
ترجمة : د. عبد الرؤوف أحمد عمرو
- ٧٢ - رؤية الرحالة المسلمين لأحوال المالية والاقتصادية لمصر في العصر الفاطمي
د . أمينة أحمد إمام الشورجى
- ٧٣ - تاريخ جامعة القاهرة
د. رؤوف عباس حامد
- ٧٤ - تاريخ الطب والصيدلة
د . يحيى سمير الجمال
- ٧٥ - أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الأول
د . سلام شافعى محمود
- ٧٦ - دور التعليم في مصر
د . سعيد إسماعيل على

- ٧٧- الحروب الصليبية جزء
تأليف : وليم الصورى
ترجمة : د . حسن حبشى
- ٧٨- تاريخ الصحافة السكندرية
نعيمات أحمد عثمان
- ٧٩- تاريخ الطرق الصوفية فى مصر فى القرن التاسع عشر
تأليف : فريد يونج
ترجمة : عبد الحميد فهمى الحمال
- ٨٠- قناة السويس والتنافس الاستعماري
د . السيد حسين جلال
- ٨١- تاريخ السياسة والصحافة من هزيمة يونيو إلى نصر أكتوبر
د . رمزى ميخائيل
- ٨٢- مصر فى فجر الإسلام
د . سيدة إسماعيل كاشف
- ٨٣- مذكراتى فى نصف قرن ج١
أحمد شفيق باشا
- ٨٤- مذكراتى فى نصف قرن ج٢ - القسم الأول
أحمد شفيق باشا

يتناول هذا الكتاب الهام تاريخ مصر فى فجر الإسلام، فيتعرض لنظام الحكم والملكية المقاربية، ونظام جباية الضرائب، والنظام الحرى. ويتناول موقف مصر من الحركات السياسية والدينية التى ظهرت فى الخلافة، وموقف مصر من محنة خلق القرآن، كما يتناول إنتشار الإسلام والتعريب، وحضارة مصر الزراعية والصناعية والتجارية، والحركة العلمية والدينية.

وقد رجعت فيه الأستاذة الدكتورة سيدة كاشف إلى أوثق المصادر والمراجع، مما يجعل هذا الكتاب مرجعاً لا غنى عنه للباحث المتخصص والمثقف.